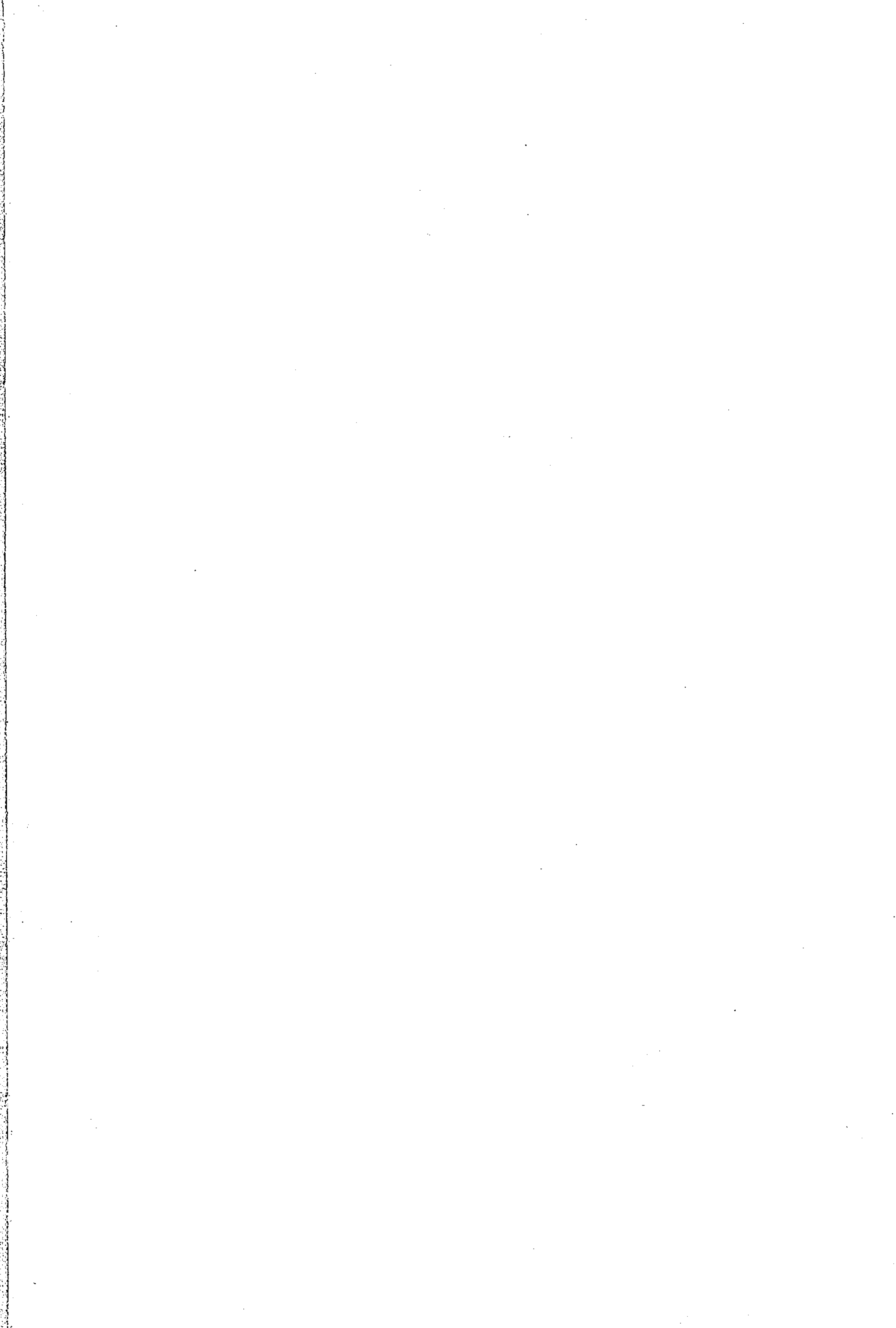
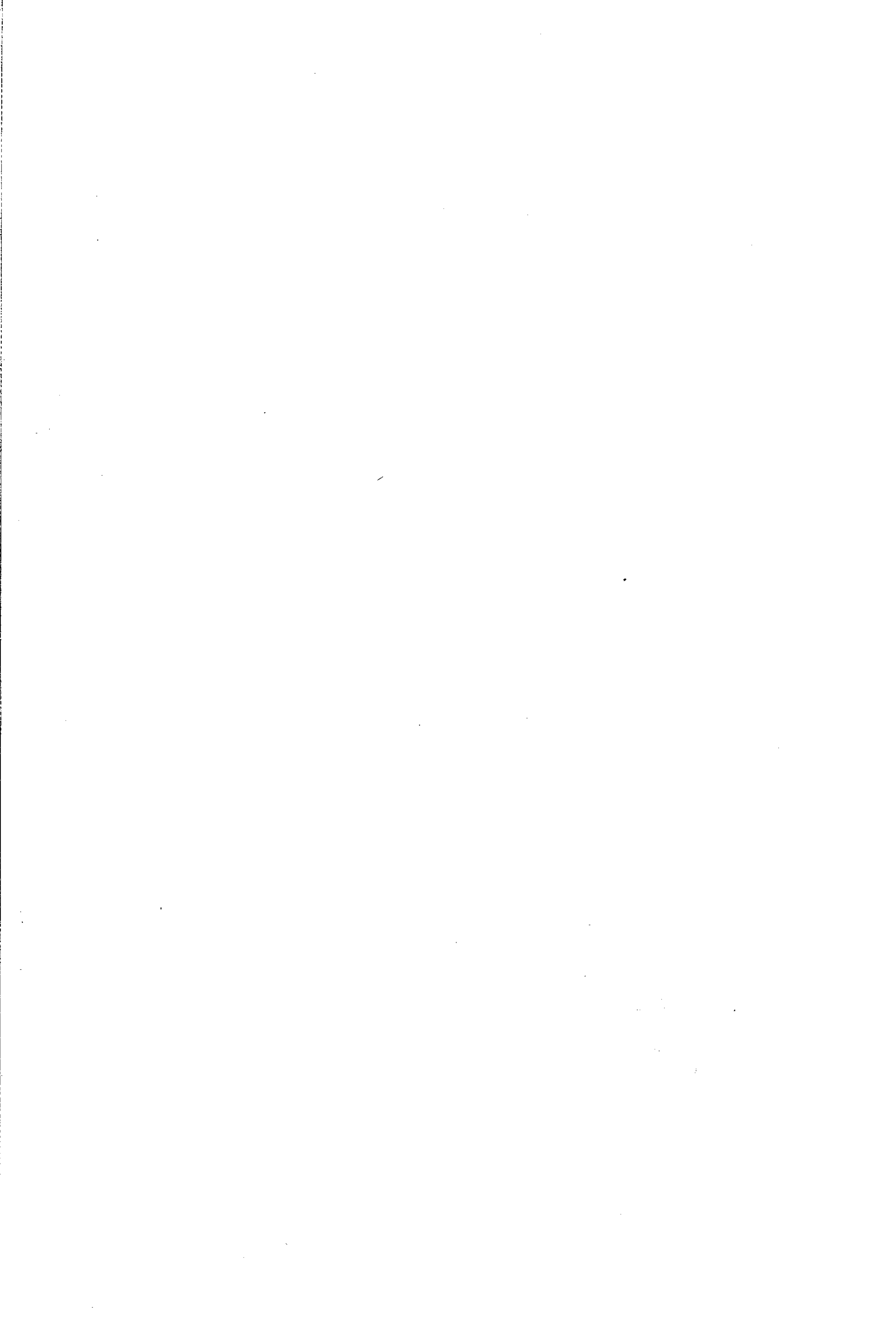
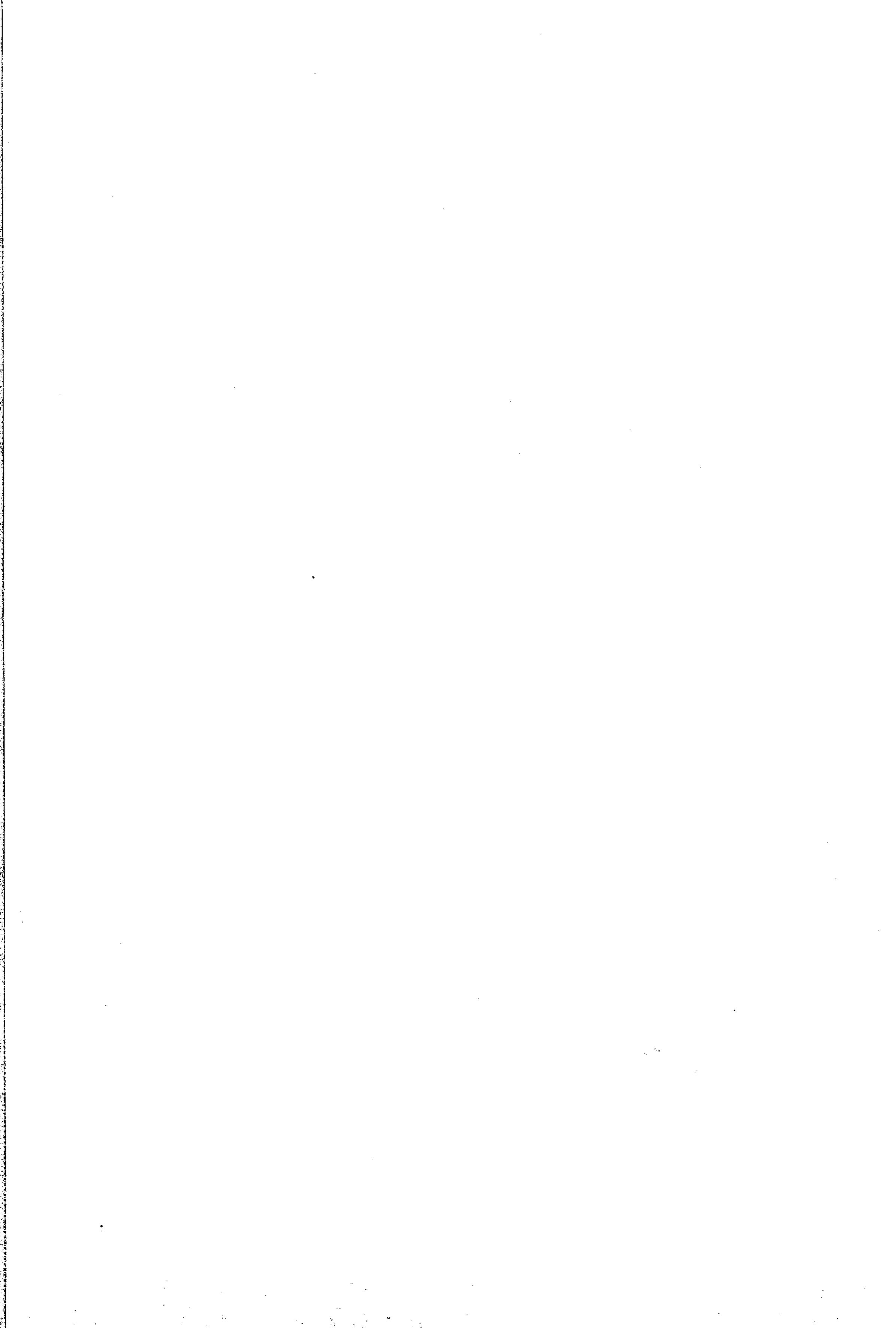








بَيْنَ المَسِيحِيَّةِ وَالإِسْلَام



سلسلة الحقيقة الصعبة (١٨)

بَيْنَ المَسِيحِيَّةِ وَالإسْلام

أ. جوزف قزّي

دار من أجل المعرفة
ديارعقل–لبنان
٢٠٠٦



سلسلة "الحقيقة الصعبة"

دار لأجل المعرفة، ديارعقل-لبنان

(قياس ١٧×٢٤ سم)

١. **قسّ ونبيّ**، بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٣١٤ ص.
٢. **نبيّ الرحمة**، بحث في مجتمع مكّة، أبو موسى الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.
٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أبو موسى الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠
٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أبو موسى الحريري، ١٩٩٠، ٢٥٤ ص
٥. **العلويّون النّصَيريّون**، بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص
٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.
٧. **رسائل الحكمة**، (كتاب الدروز المقدّس)، حمزة بن عليّ، إسمعيل التميمي، بهاء الدّين السّموقي، طبعة ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ صفحة.
٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ صفحة.
٩. **السلوك الدرزي** أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ صفحة.
١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٣١٠ صفحات.
١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين**، (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أبو موسى الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.
١٢. **نزّعنا القناع**، (ردّ على كتاب "أنـزعوا قناع بولس عن وجه المسيح"، لـ أحمد زكي)، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص
١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام)، أبو موسى الحريري، ٢٠٠٠، ٢٨٨ ص.
١٤. **موازين «الحقيقة الصعبة»** (ردّ على ردود)، أ.م. الحريري، ٢٠٠٠، ٢٣٦ص
١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ صفحة.
١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين** أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.
١٧. **مسيح القرآن ومسيح المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٢٤ صفحة.
١٨. **بين المسيحيّة والإسلام**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٤١٤ صفحة
١٩. **هذا هو الإسلام**، أ. جوزف قزّي، (قيد الإعداد).
٢٠. **الشيعة الإثناعشريّة**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٤٠ صفحة



مقدمة

ماذا بين المسيحيّة والإسلام؟ حوار أم جدال؟ قبول أم رفض؟ تسامح أم تصادم؟.. لا أحد يسعه أن يجزم، لأنّ تعاليم الإثنين تدعو، من جهة، إلى المحبّة والقبول والحوار؛ ومن جهة ثانية، نرى الممارسات المسلكيّة والتطبيقات العقائديّة مشحونةً بالتصادم والقتل.

هناك في الحقيقة مواجهة عنيفة كانت منذ بداية الإسلام: فكان غزو، وتهجير، وجهاد، وفتح، وقتال، وتصنيفٌ للناس بين كافرين ومشركين وأهل ذمّة وغير ذلك. واللّهُ نفسه يدعو إلى الجهاد حتّى يعلنَ الناسُ إسلامَهم، إذ «إنّ الدِّينَ عندَ اللّهِ الإسلام»، «وَمَن يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فلنْ يُقبَلَ منه»، و«مَن يُرِدِ اللّهُ أنْ يَهديَه يشْرَحْ صدرَه للإسلام»[1]؛ ولا يجب أن يبقى في الجزيرة العربيّة دينان، بحسب وصيّة النبيّ الأخيرة.

لقد تحاشينا، ونحن نعرض، في كتابَين سابقين[2]، رأيَ القرآن والمسلمين في النّصرانيّة والمسيحيّة، أن نبدي رأيَنا؛ بل عرضنا فقط،

---

(١) سورة آل عمران ٣/ ١٩؛ ٣/ ٨٥؛ سورة الأنعام ٦/ ١٢٥.

(٢) **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، و**المسيحيّة في ردود المسلمين**، رقم ١٥ و ١٦.

وبإسهاب، رأيَ القرآن، وقدّمنا تفاسير المسلمين دون سواهم، وبيّنّا حقيقةَ نظرةِ الإسلام إلى المسيحيّة وتعاليمها. أمّا هنا فنتناول أهمّ المعتقدات والتعاليم الأساسيّة للمسيحيّة والإسلام.

وللتوّ نبادر إلى القول: إنّ ما نقوم به من مقاربات ومقارنات ليس «وفاقاً» ولا «حواراً» بين المسيحيّة والإسلام، بالرّغم من أنّ «الوفاق» و«الحوار» قيمتان إنسانيّتان حضاريّتان بامتياز، وتتطلّبان من كلّ إنسانٍ، مهما كانت معتقداته، أن ينفتح على الآخرين، ويقبلهم، كما هم وحيث هم. ولا يحقّ لأيٍّ إنسانٍ أن يرفض أيَّ إنسانٍ آخر. فاللّه خالق الجميع، وإله الجميع، ويدعو الجميعَ إلى الخلاص.

أللّه «يريد أنّ جميعَ الناس يَخلصون ويبلغون إلى معرفة الحقّ» (١ طيم ٢/ ٤). هذا هو إيمانُنا ومعتقدُنا ورغبتنا وتعليمنا ومجال عملنا ورجاؤنا. وهذا يعني، بالنسبة إلى المسلمين، دعوةَ الناس إلى اعتناق الإسلام؛ وبالنسبة إلى المسيحيّين، «أن يُبَشَّرَ بالمسيح جميعُ الشعوب وجميعُ البشر، حتّى أقاصي العالم»[٣].

ولكن، هذا لا يكون بلسانٍ، لا يفهمه الناس: في الإسلام، «وَمَا أرْسَلْنا مِنْ رسولٍ إلاَّ بِلِسانِ قومِهِ» (١٤/ ٤)؛ وفي المسيحيّة،«على المدعوّين إلى خدمة الكرازة، عند نقلهم تعليمَ الأسرار والعقيدة ونُظمِ الأخلاق، أن يجعلوا أقوالَهم على مستوى ذهنيّةِ مُستمعيهم وعقلهم»[٤].

---

(٣) **التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة**: توزيع المكتبة البولسيّة، ومنشورات الرسل، جونيه، ١٩٩٩؛ (١٧×٢٤)؛ ١٠٤٨ ص؛ عدد ٧٤.

(٤) المرجع السابق نفسه، عدد ٢٤.

هذا هو الأساس الذي أبني عليه بحثي. وسأذهب بعيداً في الكشف فيه عن إيماني. ولن يستهويني فيه «حوار»، أو «وفاق»، أو «تعايش» بين مواطنين مختلفين، لا بسبب قلّة إيماني بالحوار، أو الوفاق أو التعايش، بل بسبب سياسيّين أغبياء قادوا شعوبَهم إلى الهلاك، وأوهموهم بمعرفتهم أسرار الملكوت.

لن يستحثّني مثلُ هذا الحوار إلى إدراك حقيقة المسيحيّة والإسلام؛ ولن أبلغ به معرفة مدى التقارب أو التباعد بينهما. لهذا، لن أسعى إلى «حوار»، ولا إلى «وفاق»، ولا إلى «تعايش» بين من شتّتَتْهم غباوة السياسيّين.

أمّا الإيمان الذي عنه أبحث، وفيه أكتب، وبه أُبشِّر، فهو القيمة الكبرى التي أُقدِّمها للآخرين، وأجاهد من أجلها، ولا أساوم عليها. ولهذا، أتناول الموضوعات الأساسيّة المختلَف فيها والشائكة التالية :

١. ألوحي	٢. ألإيمان	٣. ألنبوّة
٤. ألله	٥. ألثالوث	٦. روح القدس
٧. ألخطيئة الأصليّة	٨. ألتجسّد	٩. ألصليب
١٠. الفداء	١١. ألإفخارستيّا	١٢. مريم العذراء
١٣. ألكنيسة	١٤. ألدِّين	١٥. ألإنسان
١٦. ألحرّيّة	١٧. ألحقيقة	١٨. ألخطيئة
١٩. ألقداسة	٢٠. ألموت	٢١. ألمَعاد

هذه الموضوعات، هي الأساس في إيمان المسيحيّين والمسلمين. بل هي المنطلقات الأساسيّة في كلّ بحثٍ دينيّ، أكان في الإسلام أم في المسيحيّة. وإنّنا، في معالجتها، نبيّن ما يقوم عليه الإسلام والمسيحيّة.

وبعد معالجتها، من دون غشٍّ أو مواربة، وبعد الاطّلاع على حقيقة مضمونها، يسعنا القول، عندئذٍ، عمّا إذا كان «حوارُ الأديان»، وبالتحديد «الحوار بين المسيحيّة والإسلام»، ذا منفعة. إنّنا، حتّى الآن، لا نزال نقع، في كلامنا على هذا «الحوار»، في خطايا رئيسيّة ثلاث :

١ . كلّنا يقول بوجوب «الحوار بين المسيحيّين والمسلمين»؛ ولكن، لا أحد يقول لنا علامَ يقوم الحوار؟ وما هي موضوعاته؟ وعمّا نختلف فيها، أو نتّفق؟ وما تفاصيل ذلك؟

٢ . كلّنا يقصد من «الحوار بين المسيحيّين والمسلمين»، حواراً في سبيل التعايش بين مواطنين، لا حواراً في موضوعات تتناول أموراً دينيّة لاهوتيّة مباشرة.

٣ . وأخيراً إنّ أكثرَ المطالبِين بـ «الحوار» هم السياسيّون الذين فشلوا في إيجاد نظامٍ سياسيٍّ يتّفق عليه المواطنون في مختلف معتقداتهم ومذاهبهم الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

يبقى أنّ الأسلوب الذي نتّبعه في معالجة بحثنا هذا، هوأن نعالج ونقارن في الموضوع الواحد بين نقطة ونقطة؛ وأحياناً نعرض وجهة نظر كلّ فريقٍ عرضاً مستقلاً في كلّ موضوع، يحدونا إلى ذلك عدم إيجاد قواسم مشتركة بين الفريقين.

وهدفنا، من خلال بحثنا، تقديم الحقيقة مهما كانت صعبة، وإظهار حقيقة إيمان كلٍّ من المسيحيّين والمسلمين؛ وبالتالي إظهار الهويّة الحقيقيّة لكلٍّ مؤمن؛ لأنّ ما يقتلنا جهلنا لحقيقة بعضنا بعضاً.

١

ألـوحـي

ألوحيُ لفظٌ من ألفاظ التـراثِ اليهودي-المسـيحي البيـبلي. انتقلَ إلى الإسـلام، حـتّى أصـبح من تراثه. ولكن بمفـهـومٍ مـخـتلفٍ كلَّ الاختلاف عمّا هو عليه في المسيحيّة. وهو يظهر في النقاط التالية:

أوّلاً - يتميّز الوحيُ في المسيحيّة بكونه **وَحْيًا تاريخيًا**، أي يقوم على أسس تاريخـيّة، ويـنطلق من التاريخ، ويـرتبط بأحداث التـاريخ، ويتفاعـل معها، ويتحـدّد في مكان وزمان، ويتتبّـع ظروف الأشخاص وتغيّـراتهم، ويُنقَل بواسطة شـهود، شفـاهةً وكتـابةً، ويتكيّف بتكيّف الثـقافـات والحضـارات والتقـاليد، ويتـزّين بمختلف الفنون الأدبـيّة، ويتميّز بأساليب ناقليه.

هذه الميزة عبّـر عنها المجمع الفاتيكاني الثـاني بقوله: إنّ «ارتباطًا وثيقًـا بين كلمة اللّه وعـمله في التاريخ»[1]. وليس هو، بالتالي، مـجرّد أفكارٍ ونظريّات، بل تاريخ وأحداث... فـيبدو اللّه، في الأسفـار الإلهيّة،

---

(١) دستور عقائدي في الوحي الإلهي (يُختزل بـ: و ل)عدد ٢.

قريباً من الإنسان، يفاجئُه بتدخّلاته، يكالمه كصديق. والإنسان يشاهد خالقَه في بيته وعلى دروب حياته، ويراه يكلّمه بلغته، ويدخل في أحداث تاريخه وقصص حياته.

« بالوحي «الصادر عن فرط المحبّة، يُخاطب اللّهُ غيرُ المنظور، جماعةَ البشر، وكأنّهم أحبّاؤه، ويتحدّث إليهم ليدعوَهم إلى الدّخول في شركته، ويَقبلهم في هذه الشركة»[٢]. والجواب الملائم لهذه الدعوة هو الإيمان»[٣]

«هي هذه الوجهة التاريخيّة التي ولجها المجمع، فأحيا بها التفكيرَ اللاّهوتي، وجعل الأسفارَ المقدّسة، لا مجموعة حقائق تُدرس فتُحفظ، بل حضورًا إلهيًا وتعايشًا بين اللّه والإنسان، تتراءى من خلاله أعمالُ اللّه في تاريخ شعب. ومِن هذه الأعمال تتوضّح الحقائق التي لا بدّ للعقل من أن يستخلصها فتكوّن لغةً تعبّر عن حياة اللّه في صميم حياة الإنسان ومشاكلها، حتى الخطيئة»[٤].

***

أمّا الوحي في الإسلام فلا علاقة له بأحداث التاريخ، ولا يخضع حتى لأحوال الشخص الملقى عليه (وهو هنا النّبي محمّد وحده)؛ ولا يتحدَّد في زمن، ولا يتعامل مع الحياة البشريّة الغنيّة... بل هو وحي «مُنْزَلٌ» من فوق، من «اللّوح المحفوظ»[٥]، وقد «نزل جملةً واحدة» من

---

(٢) ألمرجع السابق نفسه، عدد ٢.

(٣) ألتعليم المسيحي، عدد ١٤٢.

(٤) مقدّمة الدستور المذكور آنفاً، ص ١٥٥ من الوثائق المجمعيّة.

(٥) سورة البروج ٨٥/٢٢.

الأفق الأعلى. ولكنّ محمّداً لم يتلقّاه إلاّ منجّماً، أيّ آيةً آية، أو كلّ خمس آيات معاً، أو عشر آيات، أو أكثر أو أقل[٦].

هذا الوحي، كلّه من عند اللّه، بمبناه ومعناه، وليس لمحمّد فيه يد، لا يُعطيه من تلقاء نفسه، ولا يبدِّل فيه، ولا يَنطق به على هواه، وليس عليه أن يختار اتّباعَه بحسبما يشاء. قال: «قلْ مَا يَكونُ لي أنْ أُبَدِّلَه مِن تَلقَاءِ نَفسِي، إنْ أَتّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَى إليَّ. إنِّي أَخَافُ إنْ عَصِيتُ رَبِّي (بتبديله) عَذابَ يومٍ عظِيمٍ»[٧]. وقال أيضاً: «... ومَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إنْ هُوَ إلاَّ وَحيٌ يُوحَى»[٨].

لقد «نَزَلَ» الوحيُ على محمّد «تنزيلاً من ربِّ العالمين»[٩]، أو «نَزَل به الروح الأمين»[١٠]. فالنبيُّ إذًا «لا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه»، و «لا يملك حتّى حقّ استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل اللّه يتكفّل بتحفيظه إيّاه»[١١]. وبوضوح أكثر: «إنّه الوحي ينزل على محمّد، حين يشاء ربُّ محمّد، ويفتر إذا شاء له ربّ محمّد الإنقطاع، فما تنفع التعاويذ والأسجاع، ولا تُقدِّم عواطفُ محمّد ولا تؤخِّر في أمرِ السماء»[١٢].

---

(٦) أنظر جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٧٣.

(٧) سورة يونس ١٠/١٥؛ ر: ٦/٥٠؛ ٧/٢٠٣؛ ٤٦/٩.

(٨) سورة النّجم ٥٣/٣-٤.

(٩) ر: ٢٦/١٩٢؛ ٣٢/٢؛ ٣٦/٥؛ ٣٩/١؛ ٤٠/٢؛ ٤١/٢ و٤٢؛ ٤٥/٢؛ ٤٦/٢؛ ٥٦/ ٨٠؛ ٦٩/٤٣؛ ٧٦/٢٣...

(١٠) سورة الشعراء ٢٦/١٩٢؛ سورة النحل ١٦/١٠٢.

(١١) الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠؛ ٣٣.

(١٢) المرجع نفسه، ص ٣٨.

غير أنّ في القرآن دليلاً على أنّه يخضع لأحداث تاريخيّة كثيرة مختلفة ومتنوّعة، ولأساليب اللّغة والبشر، إذ هو، في النهاية، كان على يد رسولٍ من البشر: «لقَد مَنَّ اللَّهُ علَى المؤمِنينَ إذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِن أنْفُسِهِم»[١٣]. وأنزل قرآناً بلغتهم ليعقلوه: «إنّا أنزْلناهُ قرآناً عَرَبيًا لعلّكم تَعقلون»[١٤].

فاللّه، إذاً، وفي حقيقة الأمر، يراعي أحوالَ البشر، فيرسل إليهم رسولاً منهم، ووحياً بلغتهم. وبسبب ذلك، قال بعضُ المسلمين بأنّ القرآن، ولو كان من عند اللّه، فهو «مُحدَثٌ»، أي خاضعٌ لأحداث التاريخ وتقلّباته.

***

ثانياً – ألوحي في المسيحيّة «**لا يستند إلى تعليم مؤسّسٍ واحدٍ بعينه** بل ينمو نموًا مطّرداً خلال خمسة عشر أو عشرين قرناً، قبل أن يصل إلى ملئِه في ظهور المسيح الذي هو صاحب الوحي الأساسي»[١٥]

في هذا النموّ المطّرد حمل الوحيُ معه حضارات الأمم القديمة وتقاليدهم، ولبس أشكالاً وأجناساً من الفنون الأدبيّة المختلفة، وخضع لخصوصيّات الشعوب. لهذا يتعسّر فهمه إنْ لم يتزوّد الباحث بعلم التفسير الكتابي وبعلوم تاريخ الحضارات.

---

(١٣) س آل عمران ٣/ ١٦٤؛ أنظر: ٢/ ١٢٩ و١٥١؛ ١٦/ ٣٦؛ ٢٣/ ٣٢؛ ٦٢/ ٢...

(١٤) سورة يوسف ١٢/ ٢؛ ر: ١٣/ ٣٧؛ ١٦/ ١٠٣؛ ٢٠/ ١١٣؛ ٢٦/ ١٩٥؛ ٣٩/ ٢٨؛ ٤١/ ٣ و٤٤؛ ٤٢/ ٧؛ ٤٣/ ٣؛ ٤٦٦/ ١٢.

(١٥) معجم اللاّهوت الكتابي، مقال: الوحي.

لقد كلّم اللّهُ البشرَ بلغتهم وأسلوبهم: «عندما يتنازلُ اللّهُ في صلاحه، ويكاشفُ البشرَ بنفسه، يكلّمُهم بكلمات بشريّة: هكذا فإنّ كلامَ اللّه، وقد عبّرت عنه ألسنةٌ بشريّة، صار شبيهاً بكلام البشر»[١٦].

هذا الكلام لكي يُفهمَ، وتفهم فيه نيّةُ الكتّابِ الإلهيّين، لا بدّ من النّظر إلى أحوال عصرهم، وإلى ثقافتهم، وإلى «الأساليب الأدبيّة» المتّبعة آنذاك، وإلى طرائق الشعور والكلام ورواية الأخبار الشائعة لذلك العهد. «لأنّ هنالك طرقاً جدّ مختلفة تُعرَض بها الحقيقة، ويُعبَّر عنها في نصوصٍ تختلف تاريخيًا، في نصوص نبويّة، أو شعريّة، أو حتّى في أنواعٍ تعبيريّة أخرى»[١٧].

زد على ذلك أنّ الفنون الأدبيّة في الوحي المسيحيّ غنيّة ومتنوّعة جدًا، من نثرٍ وشعر، وأخبار وقصص، وأمثال وحكم وأناشيد، ومزامير، ورؤى ورسائل وأعمال.. إنّه تنّوع عجيب يحدونا إلى القول بأنّ الوحي لا يُفهم بمعزلٍ عن مراحل نموّه وأطره الحضاريّة كلّها.

هذا النموّ المطّرد يعود، طبعاً، إلى كَتَبةٍ عديدين ومتنوّعين، فكان منهم رواة، ومُخبرين، ومؤرّخين، وقضاة، ومشترعين، وحكماء، وملوك، وأنبياء، ورسل، ومبشّرين، ورائين، وما إلى ذلك... «إنّ اللّهَ اختارَ أناساً، استعانَ بهم، وهم في ملء عمل قواهم ووسائلهم، فعملَ هو نفسه فيهم وبهم»[١٨].

***

---

(١٦) و ل ١٣؛ التعليم المسيحي، عدد ١٠١.

(١٧) و ل ١٢، ٢؛ التعليم المسيحي، عدد ١١٠.

(١٨) و ل ١١؛ التعليم المسيحي، عدد ١٠٦.

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً، جملةً وتفصيلاً: لا يد لأحد في القرآن لغير يد اللّه. ليس من شخصٍ آخر أُنزِلَ الوحي عليه غير محمّد. وليس من كتابٍ إسلاميّ جاء الوحي فيه غير القرآن. وليس في وحي القرآن مراحل زمنيّة متباعدة. ولا تختلف، أخيرًا، هويّة الذين نزل الوحي من أجلهم اختلافاً يُذكر.

إنّه وحي «حصريّ» exlusif ، أي محصور في شخصٍ واحد هو محمّد، وبكتابٍ واحد هو القرآن، وبلغةٍ واحدة هي العربيّة، وبفترةٍ زمنيّةٍ محدودة ما بين ٦١٠ و ٦٣٢، وبمجتمعٍ متجانسِ الثقافة والمستوى الإجتماعي والحضاري هو مجتمع مكّة والمدينة... هذا «الحصر» يُخشَى أنْ يكونَ المقصودُ منه والمعنيُّ به محمّدًا وحدَه، وليس كلّ البشر. لكأنّ الوحي نزل على محمّد ومن أجله فقط. وقد يستفيد الناس منه بعض الشيء، ولكن بالدرجة الثانية، أو بالعرض. ولنا على ذلك برهان من القرآن نفسه :

لقد قضى محمّدٌ حياتَه، كما يبدو ذلك من القرآن، يدافع عن أنَّه إنسان موحىً إليه. فراح يجد التبريرَ بعد التبرير، ويُقنع سامعيه بأنّ ما يُنزل عليه هو «تنزيل من ربّ العالمين»، وأنّه «مصدِّق لما في التوراة والإنجيل»، وأنّه أنزله جبريلُ الروحُ الأمين... بل يروح محمد إلى تحدِّي الأنس والجنّ بأن يأتوا بمثلِ سورةٍ أو آيةٍ من سورِه أو آياته... وكم اتّهمه المتّهِمون بأنّه «مجنون»، و«ساحر»، و«شاعر»... فكان يرفض ويدافع ويتحدّى : «يقولون شاعر مجنون» (٢٧/٣٦؛ ٢١/٥)؛ فيُجيبهم: «وما هو بقول شاعر» (٦٩/٤١)؛ و«يقولون إنّه لمجنون» (٦٨/٢)، ويجيبهم: «وما صاحبكم بمجنون» (٦٨/٥١؛ ٣٤/٤٦).

ثمّ، لو كان الوحيُ الإسلامي كاملاً يناسب نموّ البشرية التاريخي، فلماذا هو لم يكن كذلك خلال نزوله على النبيّ محمّد؟ ونحن نعلم أنّه تطوّر تطوّرًا هائلاً من بدايته حتى نهايته خلال ثلاث وعشرين سنة! فإذا كان تطوُّره، كما يرى المسلمون، «رحمة» بإنسان تلك الفترة من الزمن فقط، أفليس من «رحمة» مماثلة بالذين يعيشون عبر الدهور والأجيال المتعاقبة والاكتشافات المتسارعة والهائلة!!

وأخيراً، إنّ هذا الوحي «المحصور» بشخصيّة محمّد وبيئته الضيّقة، ماذا يعني للبشريّة الممتدّة عبر الدهور، والمتلوّنة بمختلف ألوان الحضارات والثقافات والعلوم؟!

ألوحي المسيحي، إذاً، مرتبط بحياة البشر وتنّوعهم وتطوّرهم؛ والوحي الإسلامي محصور ضيّق، بلونٍ واحد، لا تنوّع فيه ولا تطوّر. ألأوّل مستمرّ، متعدّد الوسائط والوسائل؛ والثاني بدايته قريبة من نهايته، كان على يد واحدة ووسيلة واحدة ووسيط واحد. الأوّل متعدّد الأساليب والفنون؛ والثاني مغلَق، على أسلوب واحد، بفنٍّ واحد، في لغةٍ واحدة، وفي ذهنيّة واحدة. الأوّل متواصل متفاعل يتعامل مع ظروف البشر الراهنة؛ والثاني منقطع منزل من علٍ يتعامل مع محمّد ومع محمّد وحدَه، وما يريد محمّد في ظروفه الخاصّة وبحسب أميال قلبه. ألأوّل متدرّج منفتح يربط بين عهدَين، القديم والجديد، ويؤمّن صلته بكافة شعوب الأرض بواسطة «جماعة» حيّة فاعلة هي الكنيسة؛ والثاني، –صحيح أنّه «مصدِّق التوراة والإنجيل»، ولكنّه «نسخهما»، أي ألغاهما–؛ ويكفي فيه بأنّه «نزل دفعة واحدة».

***

ثالثاً – يقوم الوحيُ في المسيحيّة على «**تكامل**» بين مراحله عبر العصور والأجيال. أي هناك علاقة بين العهد القديم والعهد الجديد، تقوم على هذه الحقيقة : «بدون العهد القديم تصبح كتب العهد الجديد غيرَ مفهومة، تتكلّم لغةً لا يملك مفتاحها أحد؛ كما أنّه بدون العهد الجديد يصير محتوى كتب اليهود أساطيرَ خرافيّة، شريعةً إلهيّة تبقى حَرْفاً ميِّتاً، ووعداً يَعجز عن تحقيقِ آمال الإنسان، ومغامرةً فاشلة لا يُرجى منها شيء»[١٩].

هذا التكامل يوضحه المجمع في دستور الوحي بقوله: «لقد كان تدبير العهد القديم يهدف بنوع خاص إلى تهيئة مجيء المسيح مخلّص الكلّ، وإلى الإعداد للملك الماسوي... وأسفار العهد القديم تبيّن بوضوح الطرق التي يتّبعها اللّه، للتعامل مع البشر، وذلك حسب أوضاع الجنس البشري...»[٢٠]. وقد «رتّب اللّه، بحسب قول المجمع أيضاً، الأمورَ بحكمته، كي يحتجب الجديد في القديم، ويتّضح القديم في الجديد... وأسفار العهد القديم كلّها تكسب كمال معناها، وتظهره في العهد الجديد[٢١]؛ وبدورها هي تنيره وتشرحه»[٢٢]. هذا التكامل بين العهدَين يكوّن العنصرَ الأساسي لمفهوم الوحي المسيحي...

«... يتطلّب العهدُ الجديد أن يُقرأ على ضوء القديم... وفي قولٍ عتيقٍ مأثور أن العهد الجديد مُخبّأ في القديم، في حين يتكشّف القديمُ

---

(١٩) معجم اللاهوت الكتابي، مقال: الكتاب.

(٢٠) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٥.

(٢١) راجع متى ٥/١٧، لو ٢٤/٢٧، رو ١٦/٢٥ –٢٦، ٢ قور ٣/١٤ –١٦...

(٢٢) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٦.

في الجديد: ألجديدُ مختبئٌ في القديم، وفي الجديد يتكشّف القديم»[٢٣].
فالوحي في المسيحيّة إذاً يستمرّ متكاملاً في عهدَين: القديم والجديد؛ بل يستمرّ في تعاليم الكنيسة إلى منتهى الدهر، ولكن بطريقة أخرى.

***

هذا «التكامل»، مع أنّه مشار إليه في القرآن، لا يكوّن عنصراً هامّاً في المفهوم الإسلامي للوحي : فالقرآن يعترف بنبوّة النبيّين السابقين كلّهم، ويعترف بوحيهم على أنّه من عند اللّه، «ويُصَدِّقُ» ما في التوراة والإنجيل[٢٤]، ويقرّ بأنّ الشريعة الإسلاميّة تعتمد على الشريعة اليهوديّة–النصرانيّة، ويشير إلى تعاليمَ كثيرةٍ مشتركةٍ بين القرآن والتوراة، ويعتبر اللّهَ هو نفسه إلهَ بني إسرائيل...

ومع هذا فإنّ هذا التقارب لا يعني «تكاملاً»؛ بل يعني: أنّ المسلمَ قد يستغني عن التوراة والإنجيل، ويكتفي بالقرآن وحدَه، ويبقى مسلماً مؤمناً حقيقيًا. وقد يستغني أيضاً عن تعاليم النّبيّين ، ويكتفي بنبّوة محمّد وحدَها، ويبقى مسلماً حنيفاً طيّباً. وبكلمة إنّ القرآنَ «نسخ»، أي ألغى التوراة والإنجيل، والإسلامَ «نسخ» أيضاً اليهوديّة والمسيحيّة.

ألواقع أنّنا لا نجد اليومَ مسلماً يأخذ بالتوراة والإنجيل على أنّهما من صلب إيمانه؛ لا لأنّهما «محرَّفان»، كما يقول المسلمون؛ بل لأنّ

---

(٢٣) ألقديس أغوسطينوس، في الأسفار الخمسة ٢، ٧٣؛ رَ : ول ١٦؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٢٩؛ أنظر أيضاً عدد ١٤٠.

(٢٤) رَ: ١٠/٣٧؛ ١٢/١١١؛ ٢/٤١ و٨٩ و٩١ و٩٧ و١٠١؛ ٣/٣ و٨١؛ ٤/٤٧؛ ٦/٩٢؛ ٣٥/٣١؛ ٣٧/٣٧؛ ٤٦/٣٠...

المسلمين يستغنون بالقرآن عن التوراة والإنجيل، كما يستغنون بمحمّد عن النبيّين السابقين.

ولكن، كان على المسلمين ألاّ يفعلوا ذلك حتّى يبقوا مسلمين حقيقيّين، لأنّ المسلمين الحقيقيّين هم، كأهل الكتاب، «يُقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل عليهم»[٢٥]، ولأنّ الإسلام الحقيقي هو «الإسلام البيبلي»، أي إسلام النّبيّين جميعهم[٢٦].

***

رابعاً – ثمّة فرق آخر بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي، هو الفرق بين **الحرف والرّوح** :

في الوحي المسيحي، لم يعد العهد الجديد عهدَ حرفٍ، بل عهد روح (٢ قور ٣/٦)، ولا الختان يعود إلى الشريعة، بل إلى الروح (روم ٢/٢٩)، ولسنا نعمل في نظام الحرف القديم، بل نعمل في نظام الروح الجديد (روم ٧/٦). إنّ الشريعة الجديدة مكتوبة في قلوب الشعب الجديد: «ها إنّها تأتي أيّام، يقول الرب، أقطع فيها مع بيت إسرائيل عهدًا جديداً... هذا العهد... هو أنّي أجعل شريعتي في بواطنهم، وأكتبها على قلوبهم»[٢٧].

---

(٢٥) أنظر لفظة «مسلمين» في القرآن حيث تعني، دائماً، الذين لا يفرّقون بين النبيّين: «لا نفرّق بين أحد منهم (من النّبيّين). ونحن له (للّه) مسلمون» (سورة البقرة ٢/١٣٦ و٢٨٥؛ سورة آل عمران ٣/٨٤...).

(٢٦) أنظر: أ.ج.قزّي، نظرة مسيحيّة في الإسلام، سلسلة الأديان السرّيّة، رقم ٨؛ دار لأجل المعرفة؛ ديارعقل ٢٠٠٤؛ ط٢.

(٢٧) إرميا ٣١/٣١-٣٤.

هذا العهد، الذي يتدبّره الروحُ يقوم على «عبادة الرب عبادة باطنيّة، فلا تبقى الشريعة محضَ نظامٍ خارجي، بل تصبح إلهاماً يؤثّر في قلب الإنسان[٢٨] تحت تأثير روح الله الذي يهب للإنسان قلباً جديداً[٢٩] قادراً على معرفة الله»[٣٠].

إنّ تعهّدَ فهمِ الوحي، إنطلاقًا من الروح لا من الحرف، شدّد عليه المجمع في دستور الوحي ونبّه على المنقّبين والدّارسين والمفسّرين واللاّهوتيّين جميعهم، بأنْ يأخذوا بعين الإعتبار «نيّة الكتّاب القدّيسين»[٣١]. ويوجب المجمع أيضاً «على الشارح أن يفتّش عن المعنى الذي كان في نيّة الكاتب المقدّس أن يعبّر عنه، وعبّر عنه حقًّا في الظروف المعيّنة التي عاش فيها، وفقاً لأوضاع عصره وثقافته، بواسطة الفنون الأدبيّة المتداولة إذ ذاك»[٣٢].

***

إنّ التمييز بين الحرف والرّوح لا وجود له في الوحي الإسلامي لأسباب أهمّها:

أوّلاً – إنّ الوحي الإلهي في القرآن لم يخضع لذهنيّة البشر وطرق حياتهم. ألوحي الإسلامي، في «روحه» و«حرفه» إنتاجٌ إلهي، وليس للبشر فيه يد. ومحمّد نفسه «لم يصغْه بلفظِه».

---

(٢٨) أنظر: إرميا ٣١/٣٣؛ ٢٤/٧؛ ٣٢/٣.

(٢٩) أنظر: حزقيال ٣٦/٢٦–٢٧؛ مزمور ٥١/١٢؛ إرميا ٤/٤.

(٣٠) رَ: هوشع ٢/٢٢. راجع الحواشي على إرميا ٣١/٣١.

(٣١) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٢.

(٣٢) ألمرجع نفسه.

ثانياً – يقول المسلمون باعجاز القرآن، يعني إعجازاً في اللّغة والأسلوب والألفاظ والتعابير والصور والتشابيه والأحكام... هو إعجاز بلغته، التي هي معجزة المعجزات؛ والتي بها تحدّى الإنس والجنّ والشعراء والكهّان وكلَّ ساحرٍ مفتون. فالحرف، إذًا، كالروح، معجزة إلهيّة.

ثالثاً – ثمة دليل آخر على معجزة «الحرف» نأخذه من كتب تفاسير القرآن ومن المفسّرين المسلمين جميعهم، وهو أنّ المسلمين لم يميّزوا قط بين «نيّة الكاتب» الذي هو اللّه، وبين «الطريقة في التعبير» التي هي من اللّه أيضًا.

ينتج من ذلك أنّ «الروح» و«الحرف»، في القرآن، سيّان. لهذا شدّد المسلمون، منذ البدء، على حفظ القرآن غَيباً، حرفاً حرفاً. وكتبوا حروفَه بعنايةٍ فائقة. ولم تكن صلواتهم إلاّ تلاوة ما تيسّر من آياته.

هذا الربط بين «الحرف» و«الروح» في الوحي الإسلامي أوقف مدارس «علم الكلام» عند حدّها. فليس اليوم في الإسلام ما يسمّى بـ «علم اللاّهوت»، أي البحث العقلي في الأمور الإلهيّة، وعلم استخلاص العقيدة الإلهيّة من أساليب البشر. كما ليس في الإسلام طقوسٌ ليتورجيّة يستطيع المسلمون بواسطتها، أن يتحرّروا من «حرف» القرآن، ليضعوا، بلغتهم وأسلوبهم صلواتٍ وابتهالاتٍ يرتفعون بها نحو اللّه. فبسبب هذا الربط بين الحرف والروح ليس في الإسلام طقوسٌ، أو رتبٌ، للعبادة؛ ولا يجب أن يكون عندهم أعيادٌ واحتفالات إلاّ للذكرى.

***

ألمسلمون، إذاً، هم «أهل كـتاب»، لا المسيـحيّون، كمـا يحلو للقرآن تسميتهم. ألمسلمون يسيرون بموجب حرفـيّة الكتاب؛ فيما المسيحيّون هم مسيحيّـون يتبعون شـخصاً حيًّا ويقـتدون به، إسمه المسيح: « ليس الإيمانُ المسيـحيّ "دينَ الكتاب". إنّ المسـيحيّة هـي دينُ "كلمة اللّه"، "لا دين كلمـة مكتوبة خـرساء، بل دين الكلمـة المتجـسّد والحيّ"[٣٣]. ولكي لا يبقى الكتابُ المقـدّس حرفاً ميّتاً، لا بدّ للمـسيح، كلمة اللّه الحيّ الأزليّة، من أن يفتح، بالروح القدس، أذهانَنا على فهم الكتب »[٣٤].

***

خامساً – وهناك أيضا فرقٌ آخـر بين الوحي المسيحي والوحي الإسلامي يقوم على مدى الترابط بين «**الأعمال والأقوال**» :

في المسيحيّة نرى «ارتباطًا وثيقاً» بين الأعمال والأقوال، كما يعبّر المجـمع الفاتيـكاني الثاني عن ذلـك بقوله: «وتدبيـر الوحي هذا يقـوم بالأعـمال والأقـوال التي ترتبط فـيمـا بينهـا ارتبـاطاً وثيقـاً، بنوعٍ أنّ الأعمـال التي حقّقهـا اللّه في تاريخ الخلاص، تُبـرز العقيدة والحـقائق التي تُعبّر عنهـا الأقوالُ وتدعمها؛ بينما الأقـوال تُعلن الأعمال وتُوضـح السرّ الذي تحويه»[٣٥].

هذا «الارتباط الوثيق» هو من صميم مفـهوم التجسّد الإلهي الذي به كان تمامُ الوحي وكـمالُه... أمّا قبل التـجسّد فقد كـانت «أقوال اللّه»

---

(٣٣) القدّيس برنار، عظة في "لقد أرسِلَ" ٤، ١١.

(٣٤) لوقا ٢٤/ ٤٥؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٠٨.

(٣٥) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٢.

تعبّر عن «أعمالِه»، و«أعمالُه» تبرز حقيقة «أقوالِه»، بطرق مختلفة وأنواع شتّى. واستمرّت هذه الطرق والأنواع تتلازم وتتقارب حتى اجتمعت نهائيًا في شخص يسوع المسيح، الذي هو نفسه «كلمة» اللّه و«روحه» المرسل من لدنه. وبذلك أمسى الوحي، بمفهومه المسيحي، كاملاً منسجمًا قولاً وعملاً «في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله، وملؤه في آن واحد»، على حدّ تعبير المجمع أيضاً[٣٦].

إعتماداً على هذا، نقول في شأن العجائب إنّها، إنْ لم تخضع لقاعدة «الارتباط الوثيق بين الأقوال والأعمال»، أي إن لم تكنْ، في هذه الأعمال العجائبيّة، رسالةٌ ما، لم يُعبَّر عنها بالأقوال، فلا يتوجّبُ على أحدٍ تصديقُها.

***

أمّا في الإسلام فترابط الأقوال مع الأعمال في موضوع الوحي غير وارد البحث فيه. لقد قلنا سابقاً بأن ليس في الإسلام من وحي إلاّ على محمّد؛ ولكنّ أعمال محمّد لم تكن، حتّى في نظر المسلمين أنفسهم، موحاة؛ ولا أقواله أيضاً لها علاقةٌ بالوحي؛ وأيضاً حتّى ما في القرآن هو «كلام اللّه» لا أفعاله. وكلام اللّه، بوصفه أزليًا، لا يُعبّر عن أعمالٍ زمنيّة، خاضعةٍ لأحداثٍ تاريخيّة، ومحدّدةٍ في زمان ومكان...

فالفصل إذاً في الإسلام بين الأقوال والأعمال، في موضوع الوحي، واجب. وأوجب منه اعتبار أعمال النبي، حتى ولو أشار إليها

---

(٣٦) المرجع نفسه، بالإستناد إلى مراجع كتابيّة: متى ١١/٢٧، يو ١/١٤و١٧، ١٤/٦، ١٧/١-٣، ٢ قور ٣/١٦، ٤/٦، أفسس ١/٣-١٤.

القرآن، غير موحاة أيضًا. وما إشارة القرآن إليها إلاّ دعماً لمحمّد وتبريراً إلهيًا له :

فغزواته، وأعماله التجارية، ومعاركه، وهجراته، وعداوته لقريش ولبعض القبائل، وحبّه الجمّ للعديد من النساء، وسنّه لقوانين الزواج والطلاق والإرث، وتدخّله في شؤون المرأة وطهارتها وأوضاعها، وتنظيمه للأسرة والمجتمع، وتحديده لأعمال الزّكاة والفَيء والخراج والجزية، وأحكامه المبرمة بحقٍّ الكافرين والمشركين، إلى ما هنالك من أعمال رصدها القرآن، وتكلّم عنها... هذه كلّها لا علاقة لها بالوحي الأزلي، ولا التعبير عنها يُعتَرف به على أنّه من عند اللّه، لكونها خاضعة لمجريات الزمن الراهن.

يتحصّل من التمييز بين الأقوال والأفعال، أو الربط بينهما، صفة خاصّة مميِّزة لشخصيّةِ كلٍّ من المسلم والمسيحي: فبسبب «الترابط الوثيق» بين الأقوال والأفعال، يتحتّم على المسيحي أن يكون صادقاً، واضحاً، في حياته، منسجماً في الظاهر والباطن، في السرّ كما في العلن. إنّه يلتزم في الحياة حدودَ ما يجب أن يلتزم به... في حين أنّ شخصيّة المسلم، المبنيّة على الفصل بين الأقوال والأعمال، هي شخصية تميل نحو فصلٍ تامٍّ بين الظاهر والباطن، والسرّ والعلن، والفصل بين المادّة والرّوح... وكم من الذين اتّخذوا، في الإسلام، بمقولة «الظاهرِ والباطن»، ووجوب ممارسة «التقيّة»، حتى انقسم الإسلام إلى قسمين لا رابط بينهما، رغم وَحدة الوحي ووحدة النبيّ ووحدة الكتاب!!

***

سادساً – ألوحي والتقليد

لقد ارتكز الوحي، في المسيحيّة، منذ نشأته على التقليد، أي على الكرازة الرسوليّة الشفويّة. والتقليد كان قبل الكتاب. ثمّ دُوّن في كتاب. و«التقليد الرّسولي، كما يقول كتاب التعليم المسيحي، هو الذي أرشد الكنيسة إلى تمييز الكتابات التي يجب أن تُعَدَّ في لائحة الأسفار المقدّسة»[٣٧].

ألتقليد والكتاب هما ينبوعا الوحي المسيحي وأساسا تعليم الكنيسة. ومع هذا، فإنّ الكنيسة لا تأخذ بالقضايا التي تتأتّى فقط من التقليد، فهي تفتّش كي تجد الأساس الأخير لكلّ قضيّة في الكتاب. ولكنّ مبدأ «الكتاب وحده» (Sola Scriptura) لا يكفي؛ لأنّ الكرازةَ الرسوليّة وُجدتْ قبل الكتاب، ونَشرتِ الإيمانَ باسم سلطةٍ أساسيّة أعطاها المسيح للكارز عينه: «إذْهَبوا وبشّروا». ثمّ إنّ الكنيسة هي التي اعترفتْ بصحّة الكتاب، لأنّ تكوين الكتاب كان نتيجة سلطةٍ أعطتْه صفتَه القانونيّة[٣٨].

من دون التقليد لم تستطع الكنيسة أن تحدِّد كتبَ الوحي، ولم تفهم مضمونَه. جاء في دستور الوحي المجمعي: «بفضلِ هذا التقليد يتّضح للكنيسة قانونُ الأسفار المقدّسة بكامله؛ وبفضله أيضًا تُفهمُ الأسفارُ المقدّسة نفسُها فهمًا أعمق، وتصبح فعّالةً باستمرار. وهكذا فإنّ اللّه، الذي تكلّم قديمًا، لا يزال يكلِّم خطيّبةَ ابنه الحبيب

---

(٣٧) رَ: و ل ٨، ٣؛ ألتعليم الرسولي، عدد ١٢٠.

(٣٨) كارل راهنر، معجم اللاّهوت الكاثوليكي، مادّة: ألكتاب المقدّس.

(الكنيسة)»[٣٩]. ثمّ يخلص الدستور إلى القول: «إنّ الكنيسة لا تنهل اليقين عن محتويات الوحي كلِّها من الكتاب المقدّس وحدَه. ولهذا علينا أن نقبل كليهما (أي التقليد والكتاب) ونجلّهما بعاطفةٍ واحدة»[٤٠].

هذا الكلام يفرض علينا الإنتباه إلى أمور مهمّة جدّاً:

أوّلاً – إنّ التقليدَ يوضِحُ الكتاب، وبالتقليد يُفهم الكتاب فهمًا عميقاً، وبه يُصبح فعّالاً.

ثانيًا – إنّ الكنيسة، كما تحيا بجسد المسيح ودمه، تحيا أيضاً بالكلمة في مصدرَيها: التقليد والكتاب. «ولهذا، فالكنيسة قد أحاطتْ دوماً الكتبَ الإلهيّةَ بالإجلال الذي تُحيط به أيضاً جسَدَ الرب...»[٤١].

ثالثاً – ثمّ إنّ التقليد مستمرٌّ فعلهُ في الكنيسة، لكأنّ اللّه لا يزال يوحي إلى الكنيسة بكلٍّ جديد. وقد عبّر المجمع عن ذلك بقوله: «إنّ الرسل تركوا خلفاءَ لهم الأساقفة، وسلّموهم مكانتهم التعليميّة، لتظلّ البشارة دائماً تامّة وحيّة في الكنيسة»[٤٢]. هذا يعني، بحسب قول المجمع أيضًا: «أنّ الكنيسة ، بتعليمها، وحياتها، وطقوسها، تخلّد، وتنقل للأجيال بأسرها كلَّ ما هي عليه وكل ما تؤمن به»[٤٣]. هذا يعني أيضاً أن الأسقفيّة في الكنيسة، أي الكهنوت، والتعاليم، والبراءات الرّسولية الصادرة عن المجامع الكنسيّة وعن المسؤولين فيها... كلّها

---

(٣٩) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٨.

(٤٠) ألمرجع نفسه، عدد ٩.

(٤١) ر: و ل ٢١؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٠٣.

(٤٢) ألمرجع نفسه، عدد ٧.

(٤٣) المرجع نفسه، عدد ٨

تكمّل الوحي. أي تـكمّل التـجـسّد الإلـهي في البـشـريّة الذي هو تمام الوحي. يعني أنّ يسوع المسيح، بحسب نظريّة التـقليد، لا يزال يتجسّد في الكنيسة وفي العالم إلى الأبد.

***

هذا المنطق غـريب جـدًا عن الإسـلام: نظريّة التـقليـد كلّهـا، بكلّ معانيهـا وأبعادها ونتائجها، غير واردة فيـه. وإذا أردنا تبسيط الأمور نقـول: القرآن وحـده يكفي. أي: كلُّ مَن يـأخذ القـرآن ويتلوه، ويعـمل بموجـبــه، يحـصل على الوحــي كلّه، أي على ٩٩٪ من أسـمــاء اللّه الحسنى، أي على اللّه بتـمامه. وليست «السنّة»، وهي تعني التـقليد في اللّغة الإسلاميّة، سوى أقوال النبيّ التي تشرح و تفسّر الوحيَ؛ ولكنّها ليست من الوحي في شيء، ولا في أساسه، كما هو في المسيحيّة.

لهذا، لا يوجـد في الإسلام «تقليد»، وبـالتالي، لا «كنيســة» تُحيي الوحيَ والتقليدَ ليستمرًا في خدمة العالم وخلاصه.

إلاّ أنّ الشيعـة، الذين قالوا بـ «الإمامة» ركنـاً من أركان الإسلام، أعطوها دوراً كبيـراً وخطيراً في الدِّين. فالإمام يحـفظ الدِّين، ويحافظ على الوحي، ويحقّ له التفسير والتأويل والاجتهاد والدعوة إلى الجهاد ونشـر الإسلام. وهو مـعـصوم من كـلِّ خطأ وخطيئـة. بل هو المثـال الكامل. ولهذا، وبسبب عقيدتهم هذه، وتنبّههم إلى أهمّيّةِ التقليد، أضفوا على الإمام صفاتٍ إلهيّة، ليستمرّ الإسلام «حيًا».

وثمّـة شـيء آخر ينتـج عن نفي التقلـيد، وهو أنّه لا «كـرازة» في الإسلام، ولا «جماعة». وحده «الكتاب» يدعو إلى الإسلام. وليس غيرَه

واستعاض المسلمون عن الكرازة، لنقل الحقيقة إلى الآخرين، بما يسمّى بـ «الجهاد». وإذا كانت «الكرازة» في المسيحيّة ركناً من أركانها[٤٤]. فـ «الجهاد»، في الإسلام، هو الركن الأساسي للانتشار والفتوح وتثبيت الإسلام.

يتحصّل ممّا تقدّم أنّ «التقليد» في المسيحيّة هو مصدرٌ من مصادر الوحي؛ بل هو استمراريّة الإيمان و«الحياة» فيها. أمّا في الإسلام فـ «الكتاب» وحدَه يكفي. إلى درجة أنّه يسعنا أن نقول بأنّ اللّهَ في الإسلام يبقى صَمَداً إلى مدى الدهر، وكأن لا حياة فيه، ولا حركة؛ فيما هو في المسيحيّة «تجسّدٌ» وحياة وحركة. وهذا لا يعني انتقاصاً لنظرة الإسلام إلى اللّه، بمقدار ما يعني اختلافاً جوهريّاً في نظرة كلٍّ من المسيحيّة والإسلام إليه.

***

سابعاً – موضوع الوحي روحي

ليست البحوث العلميّة، ولا النظريّات الفلسفيّة أو الاجتماعيّة، ولا العلوم الفلكيّة أو الطبيّة أو الجغرافيّة أو الاقتصاديّة... من موضوعات الوحي في المسيحيّة. موضوع الوحي هو هذا : أن يوحي اللّه عن ذاته ويكشف عن مقاصده في خلاص الإنسان: «لقد حَسُن لدى اللّه، لفرط حكمته ومحبّته، أن يُوحي بذاته، ويُعلِنَ سرَّ مشيئتِه من أنّ البشرَ

(٤٤) إذهبوا وتلمذوا جميعَ الأمم» (متى ٢٨/ ١٩–٢٠). وانطلق الرسل «وكرزوا في كلّ مكان، والربُّ يؤازرهم، ويؤيّد الكلمة بالآيات التي تصحبها» (مر ١٦/ ٢٠). وقال بولس: «ألويل لي إنْ لم أبشّر».

يبلغون الآب، في الروح القدس، بالمسيح، الكلمة المتجسّد، فيُصبِحُونَ شُرَكَاءَهُ فِي الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ»[٤٥].

فالقول إذاً بأنّ الوحي في المسيحيّة يكشف عن الحقائق العلميّة، أو هو يأخذ موقفاً منها، أو هو يتناقض معها، أو لا يتناقض، هو قولٌ يتناقض تماماً مع مفهوم الوحي الحقيقي وغايته. فغاية الوحي الأولى والأخيرة هي الإنسان الذي يريد أن يعرف طريقَه إلى الله، ليصير «شريكاً له في طبيعته الإلهيّة».

لهذا، يمكننا أن نقول بأنّ الوحي في المسيحيّة قد يحمل أخطاء، وهذه الأخطاء تصنع هي أيضاً شخصيّةَ الإنسان؛ وأن نقولَ أيضاً بأنّ الله يكشف عن ذاته، كما يشاء هو، «بقرارٍ منه حرّ»، ولو كان ذلك في ظلمات الحياة البشريّة المدلهمّة؛ ويخطّ مستقيمًا ما رسم من أهدافٍ ولو كان ذلك في أحداثٍ تاريخيّةٍ كثيرةِ الإعوجاجاتِ والالتواءات.

***

أمّا في الإسلام فالكلام يطول جدًا إن أردنا استعراض ما يجده المسلمون في القرآن من علومٍ إجتماعيّة وسياسيّة وأدبيّة وفلسفيّة ولغويّة واقتصاديّة وطبيّة وعلميّة وفلكيّة وفيزيائيّة وكيماويّة...

في القرآن يجد المسلمون، بحسب محمد عزّة دروزة: «مختلف شؤونهم الدينيّة والدنيويّة، الرّوحيّة والماديّة، العامّة والخاصّة، السياسيّة والقضائيّة والاجتماعيّة والشخصيّة والإنسانيّة»[٤٦].

---

(٤٥) و ل ٢؛ التعليم المسيحي، عدد ٥١.

(٤٦) القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ، ص ٥ –٦.

وعند أنور الجندي، إنّ كلّ ما في الأرض من علوم مصدرها ومرجعها القرآن، بل «إنّ القرآن بمثابة ندوةٍ علميّة للعلماء، ومعجم لغة للّغويّين، وأجروميّة نَحْوٍ لمن أراد تقويمَ لسانه، وكتب عروضٍ لمحبِّ الشِعر، وانسكلوبيدية عامّة للشرائع والقوانين»[٤٧].

هذا القرآن، بحسب قول الدكتور يوسف مروّة[٤٨]، نجد فيه كلّ «ما يؤكّد ويدعم مواضيع العلم الحديث : مِن تجزئة الذرّة، وثنائيّة المادّة، والأشعّة الكونيّة، وطبقات الجوّ، والضغط الجوّي، وتركيب الماء والهواء، ولغة الحشرات، وبصَمات الأصابع، والكائنات المجهريّة، وعدم فناء المادّة، وغزو الفضاء، والذبذبات الصوتيّة، والنقل البعيد، والرؤية عن بُعد (التلفزة)، إلى غير ذلك من حقائق العلم الحديث»[٤٩].

وفي رأي أحمد سليمان، إنّ القرآن تناول بالبحث كلَّ المعارف والعلوم الممكنة «تناولاً شاملاً جامعًا مانعًا. لم يبقِ فيه للأجيال التي تلتْ نزولَه ما تزيده، ولم يترك للعلم وآلاته أن يُضيفا شيئاً إلى بيّناته... فسبق العلمَ ولم يترك زيادةً لمستزيد»[٥٠].

وفي علم الدكتور مصطفى الرّافعي أنّ في قطرةٍ واحدةٍ من بحر القرآن «زهاءَ ثلاثةِ آلاف علْم. فترى ما عسى أن يكون البحر!»[٥١].

---

(٤٧) أنور الجندي، العالم الإسلامي والإستعمار، ص ٣٢٦.

(٤٨) أنظر لمحة عن حياته وعلمه واكتشافاته بقلمه، في كتابه العلوم الطبيعيةّ في القرآن، منشورات مروّة العلميّة، بيروت ١٩٦٨، ص ٨ – ٩).

(٤٩) يوسف مروة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩.

(٥٠) أحمد سليمان، القرآن والطب، دار العودة بيروت، ص ١٢٠–١٢١.

(٥١) إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٩، ١٩٧٣، ص ١٢٦ حاشية ١.

وعنده أنّ في القرآن «آيات بيّنات في مسائل مـا برحتِ العلومُ الطبيعيّة تحاول الكشفَ عن كنهها منذ عصور»[٥٢].

والشّريعة الإسلاميّة أيضاً، بحسب محمّد قطب، «أرادها اللّه لمستقبل البشريّة كلّها، والّتي وضعها اللّه على مستوى النضج للبشريّة كلّها، وصاغها بحيثُ تشمل كلَّ دقائق حياتهم، وتسير مع كلّ نموّهم وتطوّرهم... وعالج الإسلام هذه الشريعة بحيث لا تخرج الحياة البشريّة في أيّةِ لحظة من تطوّرها عن مفاهيم الإسلام وتشريعاته»[٥٣].

ويختصر الدكتور داوود العطّار سببَ انحطاط المسلمين وتأخّرهم بقوله: «لعلّ أهمّ الأسباب الداخليّة لانحطاط المسلمين وتأخّرهم في الوقت الحاضر هو انصرافهم عن تدارس ما في القرآن من كنوز العلم والمعرفة، والتي ما زالت بكراً حتى الآن»[٥٤].

يتحصّل من مفهوم الوحي المسيحي، أنّ المسيحيّين، تجاه الحقيقة والمطلق، يظلّون في حالة بحثٍ وتفتيشٍ وقلق. وهم لا يجدون في كتبهم الموحاة أيّة حقيقة تعالج الوضع البشري، رهينَ الظروف التاريخيّة وتحوّلاتها. بل هم في صراع ونضال دائمَين. لا شيء ينكشف لهم طالما هم في هذا العالم العابر. ولذلك هم، في قلقهم هذا، يعيشون حالةَ رجاءٍ دائم. يتطلّعون باستمرارٍ نحو العالم الآتي، ويأملون، بعد انتقالهم من هذه الحياة، مواجهةَ الحقيقة والمطلق اللّذين

---

(٥٢) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(٥٣) محمد قطب، جاهليّة القرن العشرين، ص ٢١-٢٢.

(٥٤) د.د. العطار، موجز علوم القرآن، مؤسّسة الاعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص ٧.

يبحثون عنهما في هذه الدنيا. هذا الرجاء هو لهم اليوم بسبب معاناتهم مع اللّه. هذا هو صليبهم المنتصب أمام عيونهم أبدًا.

أمّا ما يتحصّل من مفهوم الوحي الإسلامي، فهو أنّ المسلمين، تجاه الحقيقة، مطمئنُّون. لا قلق عندهم ولا اضطراب. يواجهون الحقيقة فيجدون لها ألف ألف حلّ وحلّ في كتابهم «المنزل». هذا الكتاب، فيه «الحق اليقين»[٥٥]، و«القول الفصل»[٥٦]. كلّ ما يترجّاه المسلم من الحياة الآتية يعرفه هنا. وما سيحصل عليه هناك لا يختلف عمّا حصل عليه هنا. ولهذا يجد في كتابه «كلَّ الحلول لكلِّ المشاكل»، كما يجد فيه كلَّ العلوم والاختراعات والمعارف. هذا «الكلُّ في كلِّ شيء» جعل المسلمَ قابلاً لوضعه، غيرَ متألِّمٍ من أيِّ نقص، وغيرَ قلقٍ على مسيرته وحرّيّتِه. حتّى إنّ سعادتَه في الجنّة لن تختلف عن سعادته في الأرض.

***

ثامناً – كمالُ الوحي وتمامه

كمال الوحي المسيحيّ في شخص يسوع المسيح. فهو الوحي، وملء الوحي، تمامه، وغايته ونهايته، واستمراريّته إلى مدى الدهر باستمرار الرّوح في الكنيسة. لا بعده وحيٌ يرتجَى خارجًا عنه، ولا قبلَه وحيٌ لم يكن متَّجِهًا إليه. فالمسيح هو صاحب الوحي، وهو موضوعه. به تمّ كلُّ شيء، وبه كان «ملء الزمن» (غل ٤/ ٤). وما تمّ به

(٥٥) سورة الحاقة ٦٩/ ٥١.

(٥٦) سورة الطارق ٨٦/ ١٣.

سلّمه إلى رسله، و«تسلّم» رسلُه ما سلّمهم إيّاه. وهؤلاء «بلّغوا الناس»، عن طريق الكنيسة، ما تسلّموه، وذلك بهدي الرّوح القدس ومواهبه. وفي النهاية، سوف يتمّ الوحي وينتهي بتمام المشاهدة العيانيّة لسرّ اللّه.

هذا ما يعلّمه المجمع، فيقول: «ألحقيقة الخالصة التي يُطلعنا عليها الوحي، سَواء عن اللّه أم عن خلاص الإنسان، فإنّها تسطع لنا في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله، وملؤه، في آنٍ واحد»(٥٧). ويعلّم أيضًا: إذا كانت غاية الوحي خلاصَ الإنسان، فالخلاص تمّ واكتمل بالمسيح. فالمسيح، إذاً، هو غاية الوحي: «وعليه، فهو الذي –إن رآه أحد فقد رأى الآب– بحضوره الذاتي الكامل، وبظهوره، وبأعماله وأقواله، وبآياته ومعجزاته، وخاصّة بموته وقيامته المجيدة من بين الأموات، وأخيراً بإرساله روحَ الحقّ، يتمّم الوحي، ويكمّله، ويثبّته»(٥٨).

ألقول بأنّ المسيح هو كمال الوحي يعني :

أوّلاً – أنّ الوحي في المسيحيّة ليس كتاباً. وما كتابُ الإنجيل سوى ذكريات أو مذكّرات شخصيّة(٥٩)، كتبها أناسٌ بصدق. في هذه «المذكّرات» بعض تعاليم معلّمهم، وبعض أعماله وسيرة حياته. وهي مهمّة لأنّها تعرِّفنا إلى المسيح وعملِه الخلاصيّ. أقرّتْها الكنيسةُ لأنّ فيها «الشهادة الرئيسيّة على حياة الكلمة المتجسّد»(٦٠). وهذه الكتب

(٥٧) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ٢.

(٥٨) ألمرجع نفسه، عدد ٤.

(٥٩) تعبير استعمله الدستور في عدد ١٩، سيأتي ذكره في نصّ لاحق.

(٦٠) دستور في الوحي الإلهي، عدد ١٨.

«تؤكّد كلَّ ما يتعلّق بالمسيح، وتعبّر أكثر فأكثر عن تعاليمه الأصيلة، وتبشّر بقوّة العمل الإلهي الخلاصيّة التي تمّمها المسيح، وتخبر عن بدايات الكنيسة وانتشارها العجيب، وتنبئ بكمالها المجيد»[٦١].

ثانياً - إذا كان المسيح هو تمام الوحي فهذا يشير إلى إمكانيّة تعدّدِ كَتَبَةِ الوحي، مراعاةً لأحوال المسيحيّين، وانسجاماً مع مبدأ الكرازة. وقد عبّر المجمع عن ذلك أيضاً بقوله: «كتب المؤلّفون الأناجيلَ الأربعة، واختاروا بعضَ ما كان يُنقل بغزارة، شفويًا أو كتابةً، وأوجزوا البعضَ الآخر، أو فسّروه مع مراعاة ظروف الكنائس... وكتبوا بتلك النِّيّة، سواء تدفّقت الأمور من ذاكرتهم وذكرياتهم الشخصيّة، أو صدرت عن شهادة أولئك الذين عاينوا بأنفسهم»[٦٢].

ثالثاً - ويعني، بحسب تعبير المجمع أيضًا: «أنّ التدبير المسيحي الذي هو العهد الجديد والنهائي لن يزول أبداً، ولن يُرتَقَبَ بعدَه أيّ وحي جديد علني قبل الظهور المجيد لسيّدنا يسوع المسيح»[٦٣]. هذا يعني أنّ ما في العهد الجديد يكوّن أساساً كاملاً لحياة الكنيسة حتّى تسيرَ به مزوّدةً كفايةً نحو مَعَادِها.

«ومع ذلك، وإنْ أتى الوحيُ على تمامه، في المسيح، فهو لم يتمّ الإفصاحُ الكاملُ عن مضمونه. فيبقى على الإيمان المسيحيّ أن يُدرك عبر الأجيال وتدريجيًا ما ينطوي عليه من فحوى»[٦٤].

---

(٦١) المرجع نفسه، عدد ٢٠.

(٦٢) المرجع نفسه، عدد ١٩.

(٦٣) المرجع نفسه، عدد ٤، راجع ١ طيموتاوس ٦/ ١٤، تيطوس ٢/ ١٣.

(٦٤) التعليم المسيحي، عدد ٦٦.

ثمّ «إنّ الإيمان المسيحيّ لا يستطيع أن يتقبّلَ "وحياً" يدّعي أنّه يفوق، أو يصحّح، الوحيَ الذي كان المسيحُ نهايتَه»[٦٥].

رابعاً – ويعني أخيراً عناية الكنيسة عناية فائقة بكتب الوحي جميعها ، كما هي، بتعدّد رواياتها. وذلك استناداً إلى القول بمختلف مصادر الوحي، شفويّةً كانت أم كتابةً، إخباريّة هي أم رسائل أم أعمال أم رؤى..؛ لأنَّ «الكنيسة تمسّكتْ وتتمسّك دائماً، وفي كلّ مكان، بالإنجيل الرباعيّ الشّكل»، وتحترم تعدّدَها... وقد رفضت كلَّ محاولة لدمجها[٦٦]. هذا الاحترام يستند إلى مفهومها للوحي، أيّ أنّ الوحي الحقيقي ليس في ما كُتب، بل عن مَن كُتب؛ «وعلى حدٍّ قولِ الآباء المأثور: يُقرَأ الكتابُ المقدَّس في قلبِ الكنيسة أكثر ممّا يُقرَأ في موادٍّ تعبيرِه»[٦٧].

***

أمّا كمال الوحي في الإسلام فهو القرآن وكلُّ ما في القرآن. ولا وحي بعدَ القرآن. ألقرآن هو الوحي الكامل والنّهائي. وليس محمّد، في حقيقة الأمر، سوى «شاهد» عليه. لقد ذهب محمّد وبقي القرآن، وهو الأساس. وقد نقول: ذهب «الإنسان» وبقي «الكتاب»، أي ذهب «الروح»، وبقي «الحرف». لذلك قلنا ونقول بأنّ المسلمين هم «أهل كتاب» فيما المسيحيّون «أهل شخص».

---

(٦٥) ألتعليم المسيحي، عدد ٦٧.

(٦٦) رَ: التعليم المسيحي، عدد ١٢٧.

(٦٧) رَ: القديس إيلاريون أسقف بواتييه، رسالة إلى الأمبراطور قسطنطين ٩؛ القديس إيرونيموس، في الرسالة إلى الغلاطيّين ١، ١، ١١–١٢؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١١٣.

لم يتحمّل المسلمون، عبر العصور، أن يستمرّوا متعلّقين بـ «الكتاب» من دون «الإنسان». لهذا حصل عندهم ما حصل من تقديس للنبيّ واعتباره كائنًا ساميًا فاعلاً شفيعاً حيّا، يهتمّ بهم، ويهديهم إلى حيث يريد. ولهذا، أقاموا له الأعياد والاحتفالات والصلوات والابتهالات... وهو تكريم رفضه المسلمون أنفسُهم، ولكنّه قد حصل.

وحصل ثانياً الإيمان بوجود الإمام المهدي المنتظر، إنساناً كاملاً حيّا إلى مدى الدّهر، يعتني بالكتاب، وبحفظِه، وتفسيره، وتأويله، وبقائه. وهو موقف الشيعة الإماميّة الذين لم يتقبّلوا اتّباع كتابٍ جامدٍ، فآثروا اتّباع شخصٍ حيٍّ. وهذا حاصلٌ أيضاً.

هذان موقفان طبيعيّان، لأن ليس، في الإسلام، مَن يضمن الوحي ويتولاّه بسلطان، ويقدّمه للعالم بصيغةٍ عصريّة مناسبة، وبقراءةٍ تناسب متغيّرات هذا العالم، كما هو، في المسيحيّة، حال الكنيسة.

ومن الطبيعي أيضاً، نتيجة للوحي في القرآن، أن لا يتسنّى للمسلمين إمكانيّة تحديث موضوعات إيمانهم، أو عصرنتها، وتطوّرها؛ وأنْ لا يكون من حقّهم وضْعُ صلواتٍ واستحداث أعيادٍ وطقوسٍ، وذلك نظراً إلى العلاقة المباشرة بين المسلم والكتاب، وإلى عدم وجود أيّة سلطةٍ روحيّة فاعلةٍ على الأرض تستطيع أن تطوّر ما في «الكتاب».

بهذا المعنى نقول: إنّ الوحي في الإسلام «مغلق»، يدور في دائرة لا تتعدّى ثلاثة: اللّه، جبريل، ومحمّد. وهو أيضًا «مغلق»، لأنّه محصورٌ بين دفّتَي كتاب واحد، مؤلِّفُه واحد، في فترة زمنيّة واحدة، ولمجتمع واحد.. لا تعدّدية في الوحي الإسلامي، أي لا تنوّع فيه ولا تطوّر.

تاسعاً – طابع الوحي الجماعي

١. للوحي المسيحي **طابعٌ جماعيٌ**، أي إنّه لا يتوجّه إلى الفرد فحسب، بكونه فرداً معزولاً يتولّى شؤونَ نفسه بنفسه، إنّما يتوجّه إلى الفرد في «جماعة»، أي «كنيسة». فلكأنّ الوحيَ يعني «الجماعة» لا الفرد؛ بحيث أنّها هي المُوحَى إليها لا الفرد. وهي التي عليها أن تشهد لما به تؤمن لا الأفراد المعزولون.

وهذا الوحي المدرَج في كتابٍ لا يُعرف وحياً إلاّ بشهادة الكنيسة. ألكنيسة تقرّه، وتفسّره، وتحافظ عليه، كوديعةٍ مقدّسة.

ثمّ إنّ الصلة بين الكنيسة والوحي تتأتّى من كون الإثنين لا يمثّلان مرجعَين متنافسَين: فالكنيسة تشهد للوحي، والوحي مصدر تعاليمها؛ للكنيسة سلطانها المطلق من الوحي، والوحي مطلق كامل ناجز تتولّى الكنيسة تعيينه وتفسيره وتبليغه. وليس لأحد أن يشكّ في صلاحيّات الكنيسة هذه. فهي المسيح المتجسّد في العالم، والوحي المستمرّ متلازمًا لنموّ البشريّة. إنّها هي المسيح المستمرّ حيًا في العالم.

فعلاقة الوحي بالكنيسة، إذًا، هي علاقة ارتباط عضوي. لا ينفصلان. إنّهما متلازمان. غير أنّ الكنيسة لها أن تستخرج معاني الوحي وتُقدّمها للناس حيث هم في مختلف عصورهم ومجتمعاتهم وحالات تطوّرهم. وليس لأحدٍ أن يجد ما تستطيع الكنيسة أن تجد. فالوحي أُعطي أوّلاً وآخرًا لها. هذا يعني أنّ مسيحيّاً خارجَ الكنيسة لا يكون. أي أن مسيحيّاً يحاول فهمَ الوحي اعتماداً على ثقافته وتربيته وهوى قلبه، هو مسيحيّ قد يصنع لنفسه مسيحاً على حسب ثقافته وتربيته وهوى قلبه.

«إنّ الكنيسة التي أُودِعتْ نقْلَ الوحي وتفسيرَه، "لا تقتصرُ على الكتاب المقدّس في الوصولِ إلى يقينها في جميع نقاط الوحي. ولهذا، فمن الواجب تقبُّلُهما (أي الكتاب والكنيسة)، وتوقيرهما كليهما بنفس عاطفة المحبّة والاحترام"»[٦٨].

«مهمّة تفسير كلمة اللّه، المكتوبة أو المنقولة، تفسيراً أصيلاً، عُهِدَ فيها إلى سلطة الكنيسة التعليميّة الحيّة وحدَها، تلك التي تمارِسُ سلطانها باسم يسوع المسيح»[٦٩].

***

هذا الطابع الجماعي للوحي غيرُ وارد في الإسلام: لقد نزل الكتاب على محمّد، ومحمّد دفعه إلى الناس لكي يسيروا بموجبه. فكلُّ مَن «قرأه» يكون مسلماً مؤمناً، لا شائبة في إسلامه. نعني بذلك أنّ المسلم يأخذ إسلامَه من «الكتاب» مباشرة، لا من «جماعة». ولئن كان من «جماعة»، أو «أمّة» في الإسلام، دعا القرآن إلى تكوينها، فهي «أمّة» اجتماعيّة سياسيّة تُطبِّقُ شريعةَ الإسلام، ويكون القرآن دستورها الأوحد.

فالوحي الإسلامي، إذًا، على صعيد «الجماعة»، كان في سبيل بناء مجتمع سياسي، هو «دار الإسلام» بمقابل «دار الحرب» التي هي دار غير المسلمين. وعلى صعيد الفرد، هو في سبيل هديه إن سارَ بموجب الشريعة. فالفرد في الإسلام يكون مسلماً وإنْ لم ينتمِ إلى

(٦٨) ول ٩؛ التقليم المسيحي، عدد ٨٢.

(٦٩) ول ١٠؛ التعليم المسيحي، عدد ٨٥.

«الأمّة». وانتماؤه إلى «الأمّة» يكون في سبيل بناء مجتمع سياسي يُقيم أحكام القرآن، وليس في سبيل الخلاص أو صحة الإنتماء إلى الإسلام.

علينا أن نلاحظ، في مجال هذا الطابع الجماعي للوحي، أنّ المسلمين الذين يجتمعون للصلاة «يوم الجمعة»، هم لا يجتمعون من قِبَلِ الواجب الملزِم؛ ولا يجتمعون عند صلوات ليتورجيّة تضعها الجماعة، أو لها الحقّ في وضعها؛ ولا يجتمعون لذكرى حدثٍ خلاصيّ تمّ في التاريخ؛ ولا يجتمعون في احتفالٍ أو عيدٍ يدور على نعمةٍ ربّانيّة تلقّاها وليّ... هذا، وإن اجتمع المسلمون «يوم الجمعة» فهو اقتداءً باجتماع اليهود «يومَ السبت»، واجتماع المسيحيّين «يومَ الأحد». وكم من فرق!!

عاشراً – الطابع المَعَادي للوحي

وأخيرًا يتميّز الوحي المسيحي بكونه **وحيًا مَعَادِيًا** (نُهَيَوِيًا eschatologique)، أيّ أنّه «لم يتمحور حول حياة يسوع الأرضيّة فحسب، بل يتّجه نحو ظهوره الأخير الذي يُمهِّد له، منذ اليوم، تاريخُ الكنيسة والعالم أجمع... وإليه تتطلّع الكنيسة»[٧٠]... وبفضله تستطيع الكنيسة أن تدرك بوضوح مسيرتها التاريخيّة.

في ذلك اليوم، حيث يصبح الوحيُ متجلِّيًا بتجلّي يسوع النهائي[٧١]، سيظهر البشر أيضاً معه في المجد[٧٢]. ويتطلّع البشر كلّهم

---

(٧٠) راجع رؤيا ٢٢/١٧.

(٧١) راجع ١ بطرس ١/٧ و١٣.

نحو هذا التجلّي الذي سيتمّ في آخر الأيّام، بفارغ الصبر، بالمشاركة مع الخليقة كلّها[٧٣]، حيث تُستبدل بعده حياةُ الإيمان بحياة المشاهدة المباشرة للّه وجهًا لوجه[٧٤].

فالوحي المسيحي، إذاً، في معناه الحقيقي، وفي حقيقته القصوى، يتطّلع نحو تحقيق غاية الإنسان الأخيرة التي هي الحياة مع المسيح، وفيه ومن أجله. إنّه وحي ذو غاية مَعَاديّة، حيث تصير مشاركة فعليّة في الطبيعة الإلهيّة.

***

في الإسلام يتمحور الوحي حول بناء حياةٍ دنيويّة، ينتشر فيها «السلام الإسلامي»، وتطبّق فيها شريعة القرآن. ولا تُنتظر سعادةٌ في الجنّة تختلف عن سعادة الأرض، بما فيها من طيّبات مادّيّة، وتحقيقٍ لشهواتٍ جسديّة، واستحصالٍ على عددٍ وافرٍ من الحُوْر... فما هو هنا سوف يجده المسلمون هناك. وما يكوّن سعادتَهم هنا هو نفسه يكوّن سعادتهم هناك. وليس اللّه نفسه هناك بأكثر ممّا هو هنا إلاّ بنسبة ١٪[٧٥]. وسعادة المسلمين هناك، لا باللّه نفسه، بل بما يُعِدّ لهم اللّهُ من خيراتٍ وملذّات وأطايب

***

---

(٧٢) راجع كولوسّي ٣/ ٤.

(٧٣) راجع روما ٨/ ٩–٢٣.

(٧٤) راجع ١ قورنتس ١٣/ ١٢؛ ٢ قورنتس ٥/ ٧.

(٧٥) أي: إنّ المسلم يعرف عن اللّه هنا تسعة وتسعين إسماً؛ ويبقى له إسم واحد لا يعرفه؛ وسوف يعرفه هناك في الحياة الثانية.

في الختام نقول: هناك مغالطات في مفهوم معظم المسلمين للوحي المسيحي، نختصرها في ثلاث:

١. يقولون بأنّ لعيسى إنجيلاً نزّله عليه اللّهُ، وأنزله معه من السماء إلى الأرض؛

٢. و يقولون أيضاً بأنّ هذا الإنجيل «الحقيقي» قد ضاع، أو ضُيِّعَ، أو أُخفي، أو أُتلِف، أو حُرِّفَ، وزُوِّر؛

٣. ثمّ يأخذون على الكنيسة تعيينَ هذه الكتب، وتمييزها عن سواها، إذ قبلت منها ما قبلتْ، ونفتْ ما نفت. ثمّ حصرت تفسيرها بنفسها؛ وزادت تعاليمَ عليها، وحدّدتْها بعقائد ثابتة.

يقول شريف هاشم، مثلاً: «إنّ المسلمين يؤمنون بأنّ النّبي عيسى قد ترك للبشرية إنجيلاً سماويّاً»[٧٦]؛ وأيضاً: «إنّ القرآن والمسلمين والمؤمنين به لا يعترفون إلاّ بإنجيل واحد، هو إنجيل النّبي عيسى»[٧٧].

وبالمعنى نفسه يقول عبد الكريم الخطيب بأنّ «الواقع والعرف لا يسمحان بأن يكون لعيسى أكثر من كتاب»[٧٨]، و«أنّ أنصار التثليث قضَوا قضاءً مبرَماً على كلِّ أثرٍ لهذا الإنجيل العيسوي»[٧٩].

نجيب : لم يكتب المسيحُ كتابًا، ولم ينزّل كتابًا. فمن أين جاء المسلمون بهذه المقولة؟! إنّه كلام لا سند له في المسيحيّة، لا قديماً ولا

---

(٧٦) الإسلام والمسيحيّة في الميزان، ص ١٥.

(٧٧) المرجع نفسه.

(٧٨) يرد في المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٧٩) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

حديثاً، لا في العقيدة ولا في التاريخ. ولم يقل به أحد، وليس هو في وارد أي منطقٍ مسيحيّ.

يقول سماحة مفتي الجمهوريّة اللّبنانيّة الشيخ حسن خالد بأنّ الكنيسة استبدلتِ الإنجيلَ الواحد بأناجيل؛ فأخفتِ الإنجيلَ الحقيقي، لأنّه يناقض تعاليمَ مجامعها. فأشار إليها ناصحاً: إنّ « هذا الإنجيل لا يمكن أن يكون أناجيل»[٨٠].

نجيب : تعلِّم الكنيسةُ بأنّ كتاب الإنجيل روايات تاريخيّة وذكريات مَن عاينوا وسمعوا ونقلوا بصدق...فليس هو اللّه الذي كتبه لعيسى، كما يكرِّر ذلك سماحتُه : «إنّ سيدنا عيسى عليه السلام جاء حاملاً معه كتابه الإنجيل»[٨١].

فمن أين جاء سماحتُه بهذه المقولة؟! أهو الذي يعلّم الكنيسة ما به يجب أن تؤمن وتعلّم! أم عليه أن يسمع ويتأمّل ويقبل ويؤمن. فقبل القرآن بسبعة قرون كانت الكنيسة تعلّم ما هي عليه الآن، لا بما يقوله الشيخُ معتمداً على قول القرآن بأنّ الإنجيل محرَّف ومزوّر.

ثمّ إنّ قول الشيخ حسن خالد بأنّ الإنجيل تكلّم على محمّد ووصفه في أكثر من مكان فهو قولُ جاهلٍ بمفهوم الوحي من أساسه.

إنّنا نؤكّد لسماحته بأن ليس من شأن الوحي أن يتنبّأ عن المستقبلات، ولا أن يتكلّم على علوم الناس، ولا أن يبدّل ويغيّر في قوانين الكون، ولا أن يبشّر بأحداثٍ عتيدة، ولا أن يحلّ مشاكل، ولا أن

---

(٨٠) موقف الإسلام من الوثنيّة واليهوديّة والنصرانيّة، ص ٧١٣.

(٨١) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩٥.

يتضمّن دقائق العلم والمعرفة، ولا أن يسنّ شرائع... كتاب الإنجيل هو، مذكّرات، أو ذكريات عن بعض حياة يسوع المسيح وبعض أعماله وتعاليمه، كتبها مَن عاينها وشاهدها وسمعها، وألهمه الروح على كتابتها، وثبّتت الكنيسة ما كتبه بسلطان.

***

نختصر ونقول: إنّ الإنجيلَ ليس كتابًا منزَلاً من السماء. يسوع لم يَنزِّلْ كتاباً. ولم يكتب إنجيلاً. ولم يأمر بأن يكون للكنيسة كتاباً. وليس الخلاص متعلِّقاً بكتاب. وليس الكتاب هو تمام الوحي وغايته.

ألإنجيل كتاب كتبه رجالٌ من الكنيسة ملهمون. كرزوا به شفويًا، ثمّ كتبوه، ليبقى فقط شاهداً على الوحي الذي هو المسيح نفسه. ويربأ المسيحيّون أن يُدعَوا، كما يحلو للقرآن تسميتهم، «أهل كتاب». فهم لا ينتسبون إلى أيِّ كتاب. هم ليسوا «كتابيِّين» ولا «إنجيليّين». بل هم «مسيحيّون» ينتسبون إلى المسيح.

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً، إذ إنّ النازل من السماء هو «القرآن». والقرآن هو الوحي بكامله. وما محمّد سوى شاهد لهذا الكتاب. والمسلمون هم حقّاً كتابيّون قرآنيّون، لا محمّديون، بل ولا مسلمون بحسب مفهوم القرآن نفسه(٨٢).

---

(٨٢) رَ: نظرة مسيحيّة في الإسلام، الآنف ذكره.

٢

الإيمان

١ . كلّ ما في المسيحيّة من معـتقداتٍ ماورائيّة يحتاج إلى تدخّلٍ من اللّه. ولا يكون إنســانٌ مسيـحيّـا من دون نعمــةٍ من اللّه مجّـانيّة : فالإنسانُ، في طبيعته ومعطياته، لا يسعه أن يُقرّ بأنّ اللّهَ واحد وثالوث في آن واحد؛ ولا أنّه عليٌّ ومتجسِّدٌ في الوقت عينه؛ ولا أنّه غير خاضعٍ للألم والموت ومع هذا يتألّم ويموت...

وكذلك أيضـاً لا يصبح إنسانٌ مسـيحيّـا حقّا إنْ لمْ يتعـمّدْ بالماء والروح، ويصبح مع المسيح كـياناً روحيّا واحداً، ويشاركـه في حياته الإلهيّة. وكذلك لا تُغفَر خطيئةٌ ارتكبها إنسانٌ ضدّ اللّه إنْ لمْ يَعْتَرِفْ بها للكنيســة المتمثّلة بكاهنٍ مـأذون. وكذلك المسيـحي الذي لا يقبل الروحَ القدس ويعيش في مواهبه لا يبرح خارجَ القداسـة والخلاص والملكوت.

كلّ هذه تحتاج إلى إيمان. ومضـامينُ الإيمان لا تخضع للعقل ولا للفطرة، بل لنعمةٍ من اللّه مجّانيّة. وهذا ما أكّده بولس الرسول: «لا أحدَ يَسَعُهُ أنْ يَقولَ : يسوعُ رَبٌّ، إلاَّ بروحٍ قُدُس» (١ قور ١٢/٣)؛ وما قاله يسوعُ نفسه: «قـال يسوع: لا يسَعُ أحـداً أن يَجيءَ إليَّ مَا لمْ يَجـتَذِبْه

الآبُ الذي أرسَلَني.. (لأنّه) مَـا مِن أحدٍ رأى الآبَ إلاّ الذي مِن لدُنِ الآبِ. فهذا قد رأى الآب» (يو ٦/ ٤٤، ٤٦).

٢ . هذه الحقـيقة تتكرّر في الأناجـيل، على لسان يسوع نفـسه. وهذه بعض أقواله، ننقلها للدلالة على أهمّيتها.

قال يســوع : «أنا أعرِفُه، لأنّي مِن لدُنْه جِـئتُ. وهو أرسَلَني» (يو ٧/ ٢٩). وقال: «أنتم لا تَعـرِفونَه. وأنا أعرفُه.. أجل أنا أعـرفه» (يو ٨/ ٥٥). وقال : «ما عرَفَكَ العالَم، أيّها الآبُ البـارّ، وعرفتُكَ أنا.. قد عرَّفْتُهمُ اسمَكَ. وسأعرِّف» (يو ١٧/ ٢٥-٢٦). وقـال : «أظهرتُ إسمَك للنّاس» (يو ١٧/ ٦). وقال : «أللّهُ مـا رآه أحدٌ مرّةً: ألابنُ الأحـدُ اللّه، الكائنُ في حِـضْنِ الآب، هو هو خبَّـر» (يو ١/ ١٨). وقـال : «مَن رآني رأى الآب» (يو ١٤/ ٩). وقـال : «مـا مِن أحدٍ يَـعرِفُ الابنَ إلاّ الآب، ومَـا مِن أحـدٍ يعـرفُ الآبَ إلاّ الابنُ، ومَن يشاءُ الابنُ كَـشْـفَهُ لَه» (مـتى ١١/ ٢٧؛ لو ١٠/ ٢٢). وقال : «إنّ الآبَ قد أودَعَ يديهِ كلَّ شيء» (يو ١٣/ ٣).

إسـتناداً إلى هذه الأقوال، نسـتنتج بأنَّ أحـداً لا يسَعُـهُ أن يكونَ مسيـحيًا إن عرف اللّهَ من غيـر طريق يسوع المسيح. والمسيـحيّون هم مـسيـحيّـون، لا لأنّهم اتّبعـوا المسيـح فحـسب، بل لأنّهم عرفـوا اللّهَ، وعـرفـوا الحقَّ والطريقَ والحـيـاةَ والقـداسـة والخـلاص من خـلال معـرفتـهم يسوع المسـيح؛ ولا يعرفون شـيئـاً من غير طـريق يسـوع المسيح.

٣ . فالإيمان، إذاً، إسـتناداً إلى كلام يـسوع، هو « **هبةٌ من اللّه**، فضـيلةٌ فائقة الـطبيعـة يبثّهـا اللّه. " ولكي يعقـدَ الإنسانُ هذا الإيمان، يحتاج إلى نعمةٍ من اللّه تتداركه وتعـضده، كما يحتاج إلى عونٍ داخليّ

من الروح القدس. وهذا الروح يُحرِّك القلبَ ويوجِّههُ إلى اللّه، ويفتح عيني النفس ويمنح الجميع عذوبةَ تقبُّلِ الحقيقة والإيمان بها " »[١].
ويقول أيضاً: «لا يمكن الإيمان إلاّ بنعمة الروح القدس وعونه الدّاخليّ»[٢].

٤ . موضوع الإيمان الأساسي في المسيحيّة هو **اللّه في ثلاثة أقانيم** وليس سوى ذلك: «فقانون الإيمان يُقسم إلى ثلاثة أقسام : " أوّلاً كلام على الأقنوم الإلهيّ الأوّل وعلى عمل الخلق الرّائع؛ ثمّ على الأقنوم الإلهي الثاني وعلى سرّ فداء البشر؛ وأخيراً على الأقنوم الإلهيّ الثالث بنبوعِ تقديسنا ومَبدإه " »[٣].

ألإيمان، إذاً، بحسب تعاليم الكنيسة، يكون باللّه وحده، أي بكلّ الحقائق التي أوحى بها، ويعجز العقل عن معرفتها : إنّه «القبولُ الحرُّ لكلِّ الحقيقة التي أوحى بها اللّه»[٤].

٥ . ثمّ إنّ الإيمان ليس إدراكاً عقليًا لموضوعاته، بمقدار ما يكون «**لصوقاً شخصيًا باللّه**، وقبولاً للحقيقة التي أوحى بها». فهو (بهذا المعنى) غير الإيمان بشخص بشريّ... (و) قد يكون من العبث والخطإ أن يجعل المرءُ مثل هذا الإيمان بإحدى الخلائق»[٥].

---

(١) و ل ٥؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٥٢.
(٢) ألتعليم المسيحي، عدد ١٥٤.
(٣) ت ر ١، ١، ٤؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٩٠؛ رَ : عدد ١٧٨.
(٤) ألتعليم المسيحي، عدد ١٥٠.
(٥) رَ : إر ١٧/ ٥-٦؛ مز ٤٠/ ٥؛ ١٤٦/ ٣-٤؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٥٠.

٦ . إذا كان الإيمان «لصوقاً شخصيًا باللّه»، فهذا يعنى أنّه «**لا يمكن إكراهُ أحدٍ على اعتناق الإيمان**»[٦]. ولئن كان على الإنسان واجب الإيمان بالحقائق الروحيّة، وتلبية الدعوة الإلهيّة، فإنّ «اللّه يدعو الإنسانَ لخدمته في الروح وفي الحقّ. وإنْ ألزمتْ هذه الدّعوةُ الإنسانَ ضميريًا فهي لا تُكرهه. ألمسيح «شهد للحقيقة، ولكنّه لم يشأ فرضها بالقوّة. وملكوته يمتدّ بالمحبّة التي يجذب بها إليه جميع البشر»[٧].

٧ . **ليس الإيمان عملاً منفرداً، منعزلاً**. إنّه عمل جماعيّ مشترك. صحيح أنّ «الإيمان فعلٌ شخصيّ: إنّه جوابُ الإنسان الحرّ على مبادرة اللّه الذي يكشف ذاتَه. ولكنَّ الإيمانَ ليس فعلاً منعزِلاً. فما من أحدٍ يستطيع أن يؤمنَ منفرداً، كما أنّه لا يستطيع أحدٌ أن يعيشَ منفرداً. وما من أحدٍ أعطى نفسَه الإيمانَ كما لم يُعطِ أحدٌ نفسَه الحياة. فقد تقبَّل المؤمنُ الإيمانَ من غيره، وهو من واجبه أن ينقلَه إلى غيره. إنّ محبّتنا ليسوع وللبشر تحملنا على أن نُحدِّثَ غيرَنا بإيماننا. وهكذا فكلٌّ مؤمن حلقةٌ في سلسلة المؤمنين الطويلة. ولا أستطيع أن أؤمن بدون أن أُحملَ في إيمان الآخرين، وبإيماني أنا أُسهِمُ في حمْلِ إيمان الآخرين»[٨]..

ألكنيسة أوّلاً هي التي تؤمن، وهكذا تحمل إيماني، وتغذّيه، وتدعمه. ألكنيسة أوّلاً هي التي تعترف بالربّ في كلّ مكان... ونحن معها وفيها محمولون على أن نعترف نحن أيضاً : «أؤمن»[٩]،

---

(٦) بيان في الحرّيّة الدينيّة (ح د)، عدد ١٠.

(٧) ح د ١١؛ ألتعليم المسيحي، عدد ١٦٠؛ رَ: عدد ١٨٠.

(٨) التعليم المسيحي، عدد ١٦٦.

(٩) قانون الرسل : د ٣٠.

«نؤمن»[١٠]. «لا أحـد يكون اللّهُ أباه ولا تكون الكـنيسـةُ أمَّـه»[١١]. «إنّنا نعتقد بالكنيسة أمًا لولادتنا الجديدة»[١٢]. وإذ كانت لنا أمًا كانت أيضاً مربيّةَ إيماننا.

ليس الإيمان كـنزاً يُخـفَـى، بل نوراً يُضـيء، نوراً لا يـنقص أبداً عندمـا يشـارك فـيه الإنـسانُ أخـاه. بل بالعكـس، إنّه يزيد. ولكنّ هذا الإيمان ليس نوراً نتقاسمـه؛ لأنّه، في نتيجة الأمر، نعمة إلـهيّـة مجّانيّة شـخـصيّـة خاصّـة، يعرف اللّهُ لمن يمنحـها؛ وتجاوبٌ صـادق مع هذه النعمة.

٨. مـعظم الملحـدين هم كـذلك لأنّهم لم يَحظَـوا بمَن يدلّهم على اللّه. لهذا، فإنّ الذين يبغون الإيمانَ باللّه **لا بدّ لهم من دليل**، أو وسيط. فالشـهادة في المسيحـيّة واجبٌ على رسل المسيح. وهو قد كلّفهم بذلك: «وأنتم على ذلك شـهود»[١٣]؛ «وتكونونَ شهـودي في أورشليم، وفي كلّ اليـهـوديّة والسامـرة، حـتّى أقـاصي الأرض» (رسل ١/٨). وهم عرفـوا دورَهم هذا فقالوا: «يسوع هذا.. نحن شـهوده جميـعاً» (رسل ٢/٣٢)؛ أو: «ونحن له شهود» (رسل ٣/١٥)؛

٩. هذه الشـهادة تقضي على الرسول بأن يقوم بواجب البشارة بيسوع المسـيح، بموته وقيامته، وبالخـلاص الذي جاء به. فهي واجب ملحّ من قِـبَلِ الضمـير. يقول بولس لأهـل روما: «كيفَ يَدعُـونَ مَن لمْ

---

(١٠) قانون نيقية–القسطنطينيّة: د ١٥٠ في الأصل اليوناني.

(١١) القديس كبريانوس، وحدة الكنيسة الكاثوليكيّة ٦.

(١٢) فوستس دي رياز، في الروح القدس ١، ٢.

(١٣) لو ٢٤/٤٨؛ يو ١٥/٢٧.

يُؤْمِنوا بِه؟ وكيفَ يُؤمِنونَ بمَن لمْ يَسمَعُوا بِه؟ وكيفَ يَسمَعونَ بلا مُنادٍ؟ وكيفَ يُنادُونَ إنْ لمْ يُرسَلوا؟» (رو ١٠/ ١٤-١٥).

سمعَ فيلِبُّسُ الرسولُ الخَصِيَّ الحبَشِيَّ يقرأ آشعيا النَّبيَّ، فقال له: «أتَدري ما تَقْرَأ؟». قال الخَصِيُّ: «أنَّى لي ذلك، ومَا مِن مُرْشِدٍ؟» (رسل ٨/ ٣١). فالإيمان، إذاً، من السَّمَاع لا من العقل، أي مِن سماع ممَّنْ آمنوا قَبلنا، لا من جهد عقلنا وعلمنا. قال بولس: «قد سَلَّمْتُكمْ أوَّلَ ما سَلَّمْتُ، ما أنا تَلَقَّيتُ» (١ قور ١٥/ ٣ أ)[١٤].

١٠. الإيمان يعني أساساً **قبول رسالة الله الخلاصيّة في يسوع المسيح**. وجوهره عملُ الله في يسوع المسيح نفسه. وقد عبّرتِ الكنيسة عن هذه الحقيقة في صيَغ عدّة:

«إنَّ المسيحَ مات من أجل خطايانا، بحسَبِ الكتب، وإنّه قُبر، وإنّه أُقيم في اليوم الثالث، بحسَبِ الكتب، وإنّه ظهر لِكيفا، ثمّ للإثنَي عشر...» (١ قور ١٥/ ٣-٥). هذا يعني أنّ إيمان الكنيسة الرسوليّة يقوم على إعلان موت المسيح الخلاصي، «مُثبَتاً بواقع دفنه في قبر، وبقيامته الخلاصيّة مُثبَتَة بواقع ظهوره للتلاميذ»[١٥].

«.. كلمة الإيمان التي بها ننادي. فإنِ اعترفتَ بفمكَ أنّ يسوعَ ربٌّ، وآمنتَ بقلبكَ أنّ اللّهَ أقامَه من بين الأموات، تَخْلُص. فالإيمان بالقلب تبرير، والاعتراف بالفم خلاص، لأنّ الكتاب يقول: كلّ مؤمنٍ به

---

(١٤) رَاجع تعبيراً مماثلاً في (١ قور ١١/ ٢٣)، وهو تعبير مألوف في التقليد الربّيني، طبّقه الرسول على التقليد الإنجيلي (رَ: حاشية إونجليون على ١ قور ١٥/ ٣ أ).

(١٥) حاشية إونجليون على (١ قور ١٥/ ٣).

لا يُخزَى» (رو ١٠/٨-١١). «تختصــر هذه الآيةُ الإيمانَ المسيحيّ في ثلاثة، أوّلاً: الإيمانُ قبـول داخلي واعتـراف خارجيّ؛ ثانيـاً: أنّ المسيح يسوع هو حيّ وربّ للجميع؛ ثالثاً: أنّه خلاص أبديّ»[١٦].

«ودُوِّن منهـا ما دُوِّن، لتـؤْمنوا أنَّ يســوعَ هو المسـيحُ، ابنُ اللّه، تُؤمنوا فـتكونَ لكم في اسمِـهِ حيـاة» (يو ٢٠/٣١). هذا يعني أنّ على المؤمنين بيســوع أن يأمنوا بأنّه هـو المسـيح، وهو ابن اللّه. «وبهـذين تكون لنا الحياة الأبديّة»[١٧].

ألإيمان، إذاً، هو قبول الخلاص المعطَى لنــا مجّاناً بواسطة يسوع المسيح من اللّه الآب. هذا القبول يُحدث فينا تغييراً بعملِ الروح القدس.

لكي نفهم جيّداً الأهمّيّة اللاّهوتيّة لهذا الإيمان، لا بدّ لنا من القول بأنّ هذا الإيمان يرتبطُ ارتباطاً عضويًا بيسوع المسيح، وبما جاء به من فداء وخــلاص؛ ذاك لأنّ المسيح هو ملء الوحي وتمامه وكـماله؛ بل هو موضوعه. أي: لا موضوع للإيمان سواه.

لهذا تقـول الرسالة إلى العبـرانيّين: إنّ المسيح هو «رائد الإيمان» (عب ١٢/٢). أي: إنّه، في علاقـته الحميـمة مع الآب، هو أوّل مَن رسمَ طريقَ الإيمان؛ وعلى الناس جميعاً أن يتبعوه، لأنّه «رائد الإيمان».

وهو أيضــاً «مكمِّل الإيمان» (عب ١٢/٢)، أي: مع يســـوع بلغ الإيمانُ الملءَ والكمــال، لأنّ الوحيَ فيـه وحده قـد اكتـمل، وفيـه وحدَه تحـقّق الخــلاص كامـلاً... ويســوع هو المثل الأســمى لكلّ مـؤمن. إنّ

---

(١٦) تفسير إونجليون على رو ١٠/٩.

(١٧) رَ: ٣/٣٦؛ ٥/٤٠؛ ٦/٤٠ و٤٧؛ وتفسير إونجليون على يو ٢٠/٣١.

مشروع اللّه في خلاص البشر لم يتحقّق كاملاً إلاّ في يسوع المسيح، «رائد إيماننا ومُتمِّمه»[١٨]. إنّ أبرار العهد القديم لم يبلغوا الكمال بالشريعة[١٩]، بل انتظروا قيامة المسيح ليحصلوا على الكمال، على الحياة الأبديّة[٢٠].

١١ . إنّ التبريرَ والخلاصَ يأتيان من اللّه بواسطة يسوع المسيح، وليس بكوننا نستحقّهما بسبب إيماننا، أو بسبب حفظنا الشريعة. بهذا المعنى جاء في الرسالة إلى الرومانيّين: «إنّا نعتبر أنّ الإنسان يُبرَّر بالإيمان، بمعزلٍ عن أعمالِ الشريعة» (رو ٨/٢٣)، وفي الرسالة إلى الغلاطيّين: «على عِلمنا، أنْ ليس أحدٌ يُبَرَّرُ بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح. فقد آمنَّا نحن أيضاً بالمسيح يسوع، لكي نُبَرَّرَ بالإيمانِ بالمسيح، لا بأعمالِ الشريعة، إذْ ليس أحدٌ يُبَرَّرُ بأعمال الشريعة» (غل ٢/١٦).

ألإيمان هو مطلب يسوع الأوّل، هو الشرط الوافي للخلاص، عند الإزائيّين. وفي أعمال الرسل، لا شيء مطلوب غير الإيمان، لتطهير القلب وقبول الخلاص. ألإيمان، في إنجيل يوحنّا، هو مسيرة الإنسان بكامله، معرفةً وسلوكاً، نحو شخص المسيح.

ألإيمان، في جوهره، هو لقاء مباشر بين اللّه والإنسان في هذه الحياة. وإله الإيمان هو الذي كشف عن نفسِه في التاريخ، وحقّق

(١٨) «ولْنَتَطَلَّعْ إلى رائدِ الإيمان ومُكَمِّلِه يسوع، الذي احتمل الصليبَ بدلَ الفرح المعدِّ له، وازدرى العارَ، وجلس عن يمين عرش اللّه» (عب ١٢/٢)

(١٩) رَ: عب ٧/١٩؛ ٩/٩؛ ١٠/١.

(٢٠) رَ: عب ١٢/٢٣؛ متى ٢٧/٣٢؛ ١ بط ٣/١٩؛ إونجليون، حاشية على عب ١١/٣٩

الخلاصَ للعالَم، تماماً كما أنّ مسيح الإيمان هو نفسه يسوع التاريخ... ألمطلق والتاريخ في المسيح يلتقيان في الإيمان، ليس لأنّ الإيمان يجد منفذاً له إلى المطلق من خلال التاريخ، فحسب، بل لأنّه يعمل التاريخ ويعمل في التاريخ.

١٢ . إنّ **موضوعات الإيمان لا تخضع للعقل**، إذ هي تفوق الطبيعة؛ ولكنّها لا تخالف مبادئ العقل، لئلاّ تصبح عبثاً وألغازاً.

هذا يعني أنّ المؤمن يبحث، ويسأل، ويُصدَم بشكوكه. بل إنّ المؤمن هو في بحثٍ مستمرّ، في تفتيش دائمٍ عن اللّه، في الغوص في معرفة سرِّه، في حالة أسئلة لا ينفكّ يطرحها، أو تُطرَح عليه. بهذا المعنى، ألإيمان مغامرة دائمة. واستشهد البابا بولس السادس بكلمة للقديس أغوسطينوس تقول : «يجب أن نبحث كمن يجب عليه أن يجد شيئاً. ويجب أن نجد كمن يجب عليه أن يبحث أيضاً». لهذا نصلّي إلى اللّه قائلين: «أعطِ، يا ربّ، الذين يبحثون عنك أن يجدوك، والذين وجدوك أن يبحثوا عنك باستمرار».

***

١ . أمّا الإيمان في الإسلام فموضوعه ليس موضوع خلاص، ومجاله ليس خارج العقل والفطرة، ومحتواه يطاله الإنسان بجهده. وهو لا يحتاج إلى «مرشد»، أو دليل ووسيط؛ ولا إلى نبيٍّ أو وحيٍ من فوق. لهذا نقول :

بالرّغم من ورود لفظة «إيمان» ومشتقّاتها ١٦١١ مرّة في القرآن، وبالرّغم من أنّ القرآن لا يبرح يعلّم الناس ضرورةَ الإيمان،

ويعلن لهم ما يتوجّب عليهم، فلا شيء، في الحقيقة، يكوّن موضوعاً حقيقيًا للإيمان، ولا أيضاً موضوعاً حقيقيًا للوحي. فالمسلم لا يحتاج إلى إيمان حتّى يكونَ مسلماً؛ واللّهُ، أيضاً، لا يحتاج إلى وحيٍ يوحِيه، ولا إلى كتابٍ يُعطيه، ولا أيضاً إلى نبيٍّ يَبعثه، حتّى يعرِّفَ عن نفسه.

٢ . فالوثنيّون، وفيهم فلاسفة ومفكّرون، يقولون بإلهٍ واحدٍ، لا ندّ له ولا ضدّ، ولا شريك ولا صاحبة. لا يوجد في مكان أو زمان. متعالٍ، أزليٌّ أبديّ، كلّيّ العلم والمعرفة. كائن مطلق، روح محض، خير أسمى. ويقولون أيضاً : إنّ اللّه خالق الإنس والجنّ والملائكة والشياطين وكلّ الأجساد والأرواح، خيرها وشرّها. ثمّ يقولون كذلك أيضاً: إنّ اللّه يحاسب البشر على أعمالهم، إنْ عملوا خيراً يكافئهم في جنّة يكونون فيها سعداء، وإنْ شرّا يعاقبهم في نارٍ لا تطفأ.

والقرآن نفسه يعترف بأنّ هؤلاء الوثنيّين يقولون بإلهٍ خالق السموات والأرض، إله خلق الإنسانَ من لا شيء. ويقولون أيضاً بأنّ اللّهَ يكافئ الإنسان على حسناته، ويجازيه على سيّئاته. ويقولون بأنّ الحياة الدنيا حياة لهوٍ ولعب، فيما الحياة الأبديّة هي الحياة الكاملة.

يقول القرآن : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرْضَ، وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ؟ لَيَقولُنَّ اللّهُ. فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (أي يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك)؟» (سورة العنكبوت ٢٩/ ٦١)[٢١].

ويقول أيضاً : «ولَئِنْ سأَلْتَهم مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ مِنْ بَعدِ موتِها لَيَقولُنَّ اللّهُ (فكيف يشركون به). قل (لهم):

---

(٢١) التفاسير الواردة في النصّ بين معكوفتَين، هي من تفاسير «الجلالَين».

ألحمد للّه (على ثبوت الحجّة عليكم). بل أكثَرُهُمْ لا يَعقلُونَ (تناقضَهم في ذلك). وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ . وإنّ الدّارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحَيوانُ (بمعنى الحياة) لَو كانُوا يَعلَمونَ (ذلك ما آثروا الدنيا عليها)» (سورة العنكبوت ٢٩/٦٣-٦٤).

ويقول : «وَلَئِنْ سألْتَهم مَنْ خَلَقَ السموات والأرْضَ لَيَقولُنَّ اللّهُ. قُلِ الحمْدُ للّهِ (على ظهور الحجّة عليهم بالتوحيد). بَل أكثرُهُم لا يَعلَمونَ (وجوبَه عليهم)» (سورة لقمان ٣١/٢٥).

ويقول : «وَلَئِنْ سألْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرْضَ لَيَقولُنَّ اللّهُ. قُلْ أفَرَأيْتُمْ ما تَدْعُونَ (أي تعبدون) مِنْ دونِ اللّهِ (أي الأصنام). إنْ أرادَني اللّهُ بِضُرٍّ؛ هل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ؟ (لا). أو أرادَني برحمَةٍ؛ هل هنَّ مُمسِكاتُ رحمَتِهِ؟ (لا). قُلْ حَسبيَ اللّهُ. عليهِ توكّلَ المتوكّلُونَ (يثق الواثقون)» (سورة الزمر ٣٩/٣٨).

ويقول : «وَلَئِنْ سألتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ. فَأنَّى يُؤْفَكُونَ (يصرفون عن عبادة اللّه)» (سورة الزخرف ٤٣/٨٧).

وحتّى الذين آمنوا باللّه، ما آمنوا به حقَّ الإيمان. قال: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللّهِ وباليَومِ الآخِرِ وما هُمْ بمُؤمِنينَ» (٢/٨).

وحتّى الذين أشركوا باللّه، ما أشركوا به إلاّ بمشيئة اللّه نفسه. قال : «سيقولُ الذينَ أشْرَكُوا: لو شاءَ اللّهُ ما أشْرَكْنا (نحن) ولا آباؤُنَا. ولا حَرَّمْنَا مِنْ شَيءٍ (فإشراكنا وتحريمنا بمشيئته. فهو راضٍ به. قال تعالى): كَذلكَ (كما كذّبَ هؤلاء) كَذَّبَ الّذينَ مِن قَبلِهِم (رسلَهم)، حتّى ذاقوا بأسَنَا (عذابنا). قلْ هلْ عندَكُمْ مِنْ علْمٍ (بأنّ اللّه راضٍ بذلك)

فَتُـخْرِجُوهُ لنـا (أي لا علْم عندكم). إنْ تَتَّبِعُـونَ (في ذلك) إلاّ الظنَّ وإنْ (ما) أنتُمْ إلاّ تَخْرُصُونَ (تكذّبون فيه)» (سورة الأنعام ٦/١٤٨).

٣ . إسـتناداً إلى هذه الأقـوال، نقـول : لا يـحـتـاج المسلم، على مـعتـقداته الماورائيّـة، إلى الإيمان حـتّى يكون مسلـماً. يكفـيه العـقلُ والفطرة. وإلى هذا يُشير القرآنُ بقوله: إنّ الإسلام «فطرة اللّه التي فطر النّاسَ عليـهـا» (سـورة الروم ٣٠/٣٠)؛ وكـذلك جـاء في الحـديث : «ألإسلام دين الفطرة».

«ولن تجد الإسلام، بحسب الدّومي، مُصادِراً لفطرة الإنسان في أيِّ زمان ولا مكان»[٢٢]؛ وبحـسب الإمـام الشيخ مـحـمّـد عبـده: «إنّ الإسلام أكـثر مـلاءمة لمقـتضى الفطرة السلـيمة، فـأباح الطّيِّبـات من الرزق، ولم يكلّفْ نفساً إلاّ وسعهـا. فكان الدين الإسلامي أكثر ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشريّة على اختلافها»[٢٣].

والمبدأ في القرآن صريح واضح، وهو هذا: «لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَـها»[٢٤]. وهو قول يردِّده مـراراً وتكراراً، وبالصيـغة نفســها[٢٥]. فلكأنّ الإنسان فُطِر على الإسلام؛ أي هو لا يحتاج إلى نعـمةٍ إلهيّةٍ حتّى يعتقد ما يعتقـد، ولا يحتاج إلى وحيٍ سماويٍّ حتّى يعرف اللّهَ، ولا إلى أيِّ إيمانٍ حتّى يكون مسلماً.

---

(٢٢) أحمد عبد الجواد الدّومي، مبعوث الأزهر الشريف بلبنان، **الإسلام منهاج وسلوك**، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا–بيروت، ١٩٧٣؛ ص ١٣.

(٢٣) نقلا عن المرجع المذكور آنفاً، ص ١٣.

(٢٤) سورة البقرة ٢/٢٨٦ .

(٢٥) رَ: سورة البقرة ٢/٢٣٣؛ الأنعام ٦/١٥٢؛ الأعراف ٧/٤٢؛ المؤمنون ٢٣/٦٢.

٤. هذا وإنَّ أكثر ما يردُ «الإيمانُ» في القرآن، يردُ مقروناً بالعمل: «**مَن آمَنَ... وعَمِلَ...**»[٢٦]. فلكأنَّ «الإسلام، كما يقول السيِّد سابق: هو إيمان وعمل. الإيمان يمثِّل العقيدة والأصول... والعمل يعني الشريعة، أي الفروعَ التي تعتبر امتداداً للإيمان والعقيدة. الإيمان والعمل، أو العقيدة والشريعة، كلاهما مرتبط بالآخر ارتباط الثمار بالأشجار، أو ارتباط المسبَّبات بالأسباب، والنتائج بالمقدّمات»[٢٧].

هذا يعني أنْ ليس من ذكرٍ لارتباط الإيمان بالخلاص الذي هو من الله مباشرة، و الذي هو أساسٌ في إيمان المسيحيّين. لهذا قلنا ونقول : إنَّ الإيمان في الإسلام مرتبطٌ بالعقل والفطرة وعمل الإنسان.

***

---

(٢٦) «وَبَشِّرِ الَّذينَ **آمَنوا وعمِلوا** الصالحَاتِ أنّ لهم جنّات تجري من تحتِها الأنهار» (٢/ ٢٥)؛ «إنَّ الَّذينَ **آمَنُوا وعمِلوا** الصّالحاتِ سَيَجْعَلُ لهمُ الرّحمَنُ وُدّا» (١٩/ ٩٦)؛ «... مَنْ **آمَنَ** باللّهِ واليومِ الآخِرِ، **وَعَمِلَ** صالحاً، فلا خوفٌ عَلَيهم ولا هُمْ يَحزَنُون» (٥/ ٦٩)؛ «... **مَنْ آمَنَ وَأصلَحَ** (عمله) فَلا خوفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحزَنُونَ» (٦/ ٤٨)؛ «**مَن عمِلَ** صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثى **وهُوَ مُؤمِنٌ** فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجرَهُمْ بأحسَنِ ما كانوا يَعملون» (١٦/ ٩٦).

ويجمل القرآن في آية واحدة مختلف أمور العقيدة مع مختلف أمور العمل الصالح. يقول: «لَيسَ البِرُّ أن تُوَلُّوا وجوهكمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغرِب، ولكنَّ البِرَّ **مَن آمَن** باللّهِ واليَومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنّبيّين، **وآتى المالَ** على حُبِّهِ ذوي القُربَى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ، **وأقامَ الصلاة، وآتى الزَّكاةَ والموفونَ بعهدِهمْ** إذا عاهَدوا، **والصّابرين البأسَاءِ والضرّاءِ وحينَ البأسِ**. أولئكَ الذينَ صدَقوا وأولئكَ هم المُتَّقونَ» (٢/ ١٧٧).

(٢٧) السيِّد سابق، **العقائد الإسلاميّة**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨؛ ٣١٦ ص.

في النتيجة، إنَّ المسيحيّ يحتاج إلى ما يفوق قدرات العقل والفطرة، لكي يكون مسيحيًا حقيقيًا؛ فيما المسلم فبمعطيات العقل والفطرة يكون مسلماً. هذا يعني أنّ المسلم لا يحتاج إلى وحيٍ وإيمان لكي يكون مسلماً. لهذا نقول في الختام ونختصر : يختلف مفهوم إيمان المسلم عن مفهوم إيمان المسيحيّ بما يلي :

١ . الإيمانُ المسيحي عطيّة من اللّه مجّانيّة. موضوعاته حقائق إلهيّة تسمو عقلَ الإنسان. ولا شيء فيها يخضع للعقل الطبيعي. وقد يستطيع الإنسان الوصولَ إلى اللّه، ولكن من خلال الإيمان، لا العقل. والإيمانُ يكون بما أعطى اللّهُ الإنسانَ من وحيٍ، لا بما يصل إليه العقل في طبيعته.

٢ . ثمّ إنّ إيمان المسلم لا يحتّم أيّة علاقةٍ للإنسان مع اللّه، ولا يُدخل الإنسانَ في حياة اللّه. ألله، في الإسلام واحدٌ أحدٌ صَمَد، متعالٍ، لا يستطيع أن يكون على علاقة مع أيّ إنسان. لهذا، نتساءل دائماً إن كان بوسع اللّه في الإسلام أن يختار أنبياء؟ أو أن يعتني بخلقِه؟ وهل يُحبّهم؟ هل يكلّمهم؟ هل ينزِّل عليهم كتباً؟ وهل يوحي إليهم بحقيقة ذاته؟!

٣ . من هنا نقول: إنّ الإيمان في الإسلام ليس «فعلاً» ولا «نعمة»؛ بل «قولاً» و«شهادة»، أي «كلاماً» بأنّ اللّه واحد، ولا إله غيره. هذا يعني أنّ اللّهَ هو الذي يحتاج إلى إيمان الإنسان واعترافه، لا العكس. ألله هو الذي يحتاج إلينا لـ «نجاهد» في سبيله، ونقاتل من أجله، ونثبِّت ملكه. ألله هو الذي يحتاج إلينا لكي ندافع عنه، و«نكبِّره»، ونفرضه على الآخرين.

٤ . ما يُطرح في موضوع الإيمان في الإسلام، ليس، إذاً، مضمونه؛ بل شروطه التي بها يصبح المسلم مسلماً : لا يتكلّم الإسلامُ على ماهيّةِ الإيمان وموضوعاته؛ بل على معرفة الشروط التي تؤدّي إليه أم لا. لهذا تتميّز مدارس علم الكلام في الإسلام حول شروط الإيمان، لا حول مضمونه. وهي ثلاث مدارس في ثلاثة مواقف :

١. موقف من يقول بأنّ الإيمان هو تصديق بالقلب فقط؛
٢. وموقف من يقول بأنّ ألإيمان هو جهر باللّسان فقط؛
٣. وموقف من يقول بالإثنين معاً؛ أي بتلازم الأقوال والأفعال.

وفي أيٍّ حال، إنّ الإيمان، في المواقف الثلاثة، «شهادة». والاختلاف بينها هو في فهْمِ الشروط المطلوبة حتى تكون هذه «الشهادة» صادقة وصريحة، لا في فهْم مضمون الإيمان الذي، في طبيعته، لا يخضع لإدراك العقل؛ بل هو، في حقيقته وتحديده، يتعالى عليه ويتخطّاه، كما هو الحال في المسيحيّة.

لذلك، فـ «الشهادتان» ليستا من أركان الإيمان، بل من أركان الإسلام. والفرق بين الإيمان والإسلام، بحسب القرآن نفسه، كبير: «قَالتِ الأعرابُ: آمَنَّا. قُلْ: لم تُؤمِنُوا. ولكنْ قولوا: أسلَمْنا. ولَمَّا يَدخُلِ الإيمانُ في قلوبِكم»[٢٨].

وبالتالي، يكفي لمن يعتنق الإسلام أن يعلن هاتَين الشهادتَين أمام شهود، أو أمام قاضٍ مسلم في محكمةٍ مسلمة. ولئلاً يكونَ مجالٌ للشكِّ في هذا الإعلان، يطلب الفقهاء أن يُقال بهذه الصيغة: «أشهد أن لا

---

(٢٨) سورة الحجرات ٤٩/ ١٤.

إله إلاّ اللّه. وأشهد أن محمّداً رسول اللّه». والأفضل أن يكون في اللغة العربيّة. ويبدو أنّ الشهادتَين متساويتان، أي الشهادة بمحمّد كالشهادة باللّه.

ولكن، عرف الفقهاء خطورة هذه المساواة، فطلبوا من القائلين بهما أن يُخفضوا صوتَهم عند إعلانهم الشهادة الثانيّة.

٣

ألنّبـوّة

سـؤالٌ يخطر في البـال : مَن هو الأعظم في البـشر : نبيٌّ قَـضى حيـاتَه وهو ينتظر خلاصَه وخلاصَ شـعبه، أم إنسانٌ عـاديٌّ تحقّق له ولشـعـبه هذا الخـلاص؟ نبيٌّ أُوحِيَ إليـه ليُـعِـدَّ الناسَ لمجيء المسـيح المنتظَر، أم مسـيحيٌّ جاءَه المسـيح المنتظر، وحقّق له خلاصَـه، وأفاض عليه من روح قدسه، وأشركه في طبيعة اللّه؟

لم يكن هذا السـؤال ليخطـر في البال لولا مـا يرسخُ في عقـول الناس اليـوم بأنّ النبيَّ رجلٌ ميَّزه الـلّهُ، ودعاه باسمِـه، وأعلى مقـامَه، وأوحى إليه أسـرارَه، وأشركه بقـراراتِه، ونزّل عليه نامـوسَه... وهو، بالتـالي، وبمميّـزاته هذه، أعظم من أيٍّ مسـيحيٍّ تعـمّدَ باسم المسـيح، واتَّحد به، ونَعِمَ بمواهب روح القدس، فـخلُص وتقدّسَ حتّى شاركَ اللّهَ في ألوهيّتِه.

للتوِّ نردّد مع يسـوع قولَه عن يوحنّا المعمدان : إنّ أصـغَرَ إنسانٍ في ملكوتِ العهد الجديد أعظم من أعظم نبيٍّ في ملكوت موسى .

هذا ما نبغي بيانه ببعض أفكار عن مفهومنا للنبوّة ونشأتها، وتطوّرها، ودورها في التقليد اليهودي-المسيحي، ثمّ في الإسلام:

١. لقد كان في الشرق القديم سَحَرةٌ وعَرّافون وكهّانٌ ومنجِّمون، يستحضرون المستقبل ويستطلعون الغيب. وكان لهم مكانةٌ رفيعة وخطيرة في مجتمعاتهم، وسلطةٌ ونفوذٌ على الملوك والسلاطين؛ لأنّ لهم، مع الآلهة -أو الأبالسة-، كلاماً؛ حتّى إنّ أحداً لا يستطيع الإقدام على أيِّ قرارٍ من دون اللّجوء إليهم... هؤلاء، بما كانوا عليه، يُعتبرون فعلاً أجداداً لأنبياء بني إسرائيل.

٢. ويعترف كتابُ العهد القديم بوجودِ أنبياء غير يهود، أمثال أيّوب، الحكيم الشرقي غير الإسرائيلي[١]، وبَلعام، أحد عرّافيّ ضفافِ نهر الفرات، الذي اعترف بإله إسرائيل[٢]. وكذلك يعترف بأنبياء عند الكنعانيّين، كأنبياء البعل الأربعمائة والخمسين، وأنبياء عشتروت الأربعمائة[٣]. هؤلاء يَدعون باسم البعل، ويرقصون حول المذبح على أنغام الموسيقى، ويضربون أجسادهم بالسيوف[٤]، تماماً كما سوف يصنع أنبياء بني إسرائيل[٥]. ونَبُوكَدْنَصَّر، كما يقدّمه إلينا سفر دانيال، يلتجئ إلى متنبِّئين ويستنجد بهم ليفسّروا أحلامه[٦]. وكذلك أيضاً نجد أناساً في حالة وَجدٍ نبويّة في مَاري على نهر الفرات في القرن

---

(١) رَاجع: مقدّمة سفر أيّوب، العهد القديم، ص ١٠٤٦.

(٢) عدد ٢٢/٥-٦ و١٨؛ ٢٣/١١-١٢ و٢٥-٢٦.

(٣) ١ ملوك ١٨/١٩؛ أنظر أيضاً ٢٢/٥-١٢.

(٤) ١ ملوك ١٨/٢٥-٢٩.

(٥) ١ ملوك ٢٢/١-٢٩؛ ١ صموئيل ١٩/٢٠-٢٤.

(٦) دانيال ٢/٢؛ ٤/٣-٤.

الثالث عشـر ق.م.، وفي بيبلوس في القرن الحادي عـشر ق.م.، وأيضاً نجد رائـين ومتنبّـئين في حَمـاة على نهر العـاصي في القرن التـاسع ق.م.[٧]. والقرآن نفسُه، كما يعترف بمعظم أنبياء بني إسرائيل، يعترف أيضاً بأنبياء غير يهود، أمثال هُود[٨]، وصَالِح[٩]، وشُعَيب[١٠].

٣. إنّ النّبـوّة، في مفهـومهـا الكتابي، وظيـفةٌ روحـيّةٌ قـياديّةٌ، ظهرتْ في حـقبة مـعيّنة من التاريخ اليـهودي، منذ سنة ٧٥٠ ق.م. مع عـاموس وهوشع، حـتّى سنة ٢٠٠ ق.م. مع دانـيال وباروك. وكـانت تقوم المهمّـةُ الأساسيّة لهؤلاء الأنبـياء على تفسير الشـريعة (التوراة) تفسيراً روحانيّاً، مقبولاً لأهل زمانهم[١١].

٤. هذه المهـمّة عينـها قام بهـا «الحكماءُ»، فـي ما بعد، أي بـعد انقطاع النبوّة. لهـذا نرى مفهوم النبوّة توسّـع جـدًا، فأُطلِق إسمُ «نبيّ» على كلِّ رجلٍ قائـدٍ عظيمٍ من بني إسرائيل، عـاش قبلَ هذه الحقـبة، أو بعـدَها. فـأصـبح آدم نبـيًّا، ونوح نبـيًّا، وإبراهيم، ولوط، وإسـحق، وإسـمعـيل، ويعـقوب، وبنوه، ومـوسـى، وهارون، ويشـوع بن نون، وصموئيل، وشاول، وداود، وسليمان، وغيرهم... كلّهم أنبياء؛ في حين أنّهم كانوا في فترةٍ لم تكن يُعرف فيها لا نبوّةٌ ولا أنبياء.

---

(٧) رَ: Bible de Jérusalem, Les Prophètes, Introd., p. 1071-1077.

(٨) **هُود**، نبيّ عاد (ورد ٧ مرّات: **٧**/٦٥؛ **١١**/٥٠ و٥٣ و٥٨ و٦٠ و٨٩؛ **٢٦**/١٢٤).

(٩) **صَـالح**، نبيّ ثمـود (ورد ١١ مـرّة: **٧**/٧٣ و٧٥ و٧٧ و١٨٩ و١٩٠؛ **١١**/٦١ و٦٢ و٦٦ و٨٩؛ **٢٦**/١٤٢؛ **٢٧**/٤٥).

(١٠) **شُعَـيبه** نبيّ مـدين (ورد ١١ مـرّة: **٧**/٨٥ و٨٨ و٩٠ و٩٢ (مرّتين)؛ **١١**/٨٤ و٨٧ و٩١ و٩٤؛ **٢٦**/١٧٧؛ **٢٩**/٣٦).

(١١) رَ: Bible de Jérusalem, Les Prophètes, Introd., p. 1071-1077.

فـإبراهيم مَـثـلاً «أُعطِـي له لَقب نبيّ، ولكن ينقـله إليـه في زمن لاحق»[١٢]؛ وموسى، وهو رسول اللّه وقائد شـعبه لا يُذكَر على أنّه نبيّ إلاّ عرضاً: «وكـتاب التثنية هو كـتاب الشريعة الوحيـد الذي يُطلق عليه إسمَ نبيّ (تث ١٨/١٥)، ولكن، ليسَ على نحو ما يُطلَق على أيِّ نبيٍّ من بين الأنبياء: لم يقم من بعده أحدٌ يماثله (تث ٣٤/١٠)»[١٣].

٥ . وفي بني إسرائيل أيضـاً نجد كثيـرين يتَنبّأون. فهناك مـثلاً «مجموعةٌ مِن الأنبـياء» (١صم ١٠/٥-٦)، ومن «أبناء الأنبياء» (٢مل ٢/٣) يتنبّـأون. ولمّا كـان شـاول يجـدّ في طـلب داود، أرسل رسلَه، «فـرأى رسلُه جـماعـةً يَتنبّـأون.. فـحلَّ روحُ الربِّ على رسلِ شـاول فتنبّأوا هم أيضاً. فأُخْبِر شاولُ فأَرسَل رسلاً آخَرِين فتنبّأوا هم أيضاً. وعاد شـاول فأرسلَ رسلاً مـرّة ثالثة فتَنبّـأوا أيضاً. فذهب بنفـسه... فحلّ عليـه أيضاً روحُ اللّه، فـجَعَل يَسيـر ويتنبّأ... لذلك قـيل: «أشاولُ أيضاً من الأنبياء؟»[١٤].

٦ . فالنبوّة، إذاً، في أصلها، لم تكـن وقفاً على بني إسرائيل، ولا على بعض المختارين من بني إسرائيل، ولا على أناس متّصفين بالصدق والإخلاص واستقامـة السيرة، ولا على الآباء، ولا القضـاة، ولا الرواة، ولا الحكماء ولا الرّائين.. بل هناك أنبياء من كلِّ شعب، وأنبياء من أناس عاديّين، وأنبياء أبناء أنبـياء، وأنبياء كبار وأنبياء صـغار، وأنبياء صدق وأنبياء كذب..

---

(١٢) رَاجع: تكوين ٢٠/٧؛ معجم اللأهوت الكتابي، مادّة «نبيّ»، ص ٧٩٧.

(١٣) معجم اللأهوت الكتابي، مادّة «نبيّ»، ص ٧٩٧.

(١٤) ١ صموئيل ١٩/١٨-٢٤؛ ١٠/١٠-١٢.

٧. وليس تمنّي موسى بغريبٍ عن منطوق هذا الواقع بأن تكونَ النبوّةُ شاملةً وعامّة، فقال: «ليتَ كلّ شعبِ الرّبِّ أنبياء بإحلالِ الربِّ روحَه عليهم» (عد ١١/ ٢٩)؛ أو قول يوئيل الذي يُنبئُ بفيض الرّوح على كلّ إنسان: «وسيكونُ بعدَ هذا أنّي أُفيض روحي على كلِّ بشر، فيتنبّأ بنُوكُم وبناتُكم» (يوئيل ٣/ ١-٢).

٨. هذه الحقيقة في شمول النبوّة، عبّر عنها القديس بولس خيرَ تعبير، فقال: «إنّ في وسعِكُم جميعًا أنْ تَتَنَبَّأوا وَاحِداً فَوَاحِداً» (١قور ١٤/ ٣١)؛ وقال: «وأكثَرُ رَغْبَتي في أنْ تَتَنَبَّأوا» (١قور ١٤/ ٥). لهذا، كان أنبياء في كنيسة أورشليم[١٥]، وأنبياء في أنطاكية[١٦]، وأنبياء في أفسس[١٧]، وفي قورنتس[١٨]، وأنبياء ونبيّات في قيصريّة[١٩]...

٩. وسوف يقول القديس بولس بأنّ النبوّات تزول ذات يوم: «النبوّات تُبطَل. والألسنة تَنتهي. والمعرفةُ تُبطَل. لإنّا نعرف معرفةً ناقصة. ونتنبّأ تنبؤًا ناقصًا فمتى جاء الكامل يبطل الناقص» (١ قور ١٣/ ٨-١٣). والكامل جاء مع المسيح، حيث كشف اللّهُ عن ذاته.

---

(١٥) رسل١١/ ٢٧؛ رَ:١٥/ ٣٢، و٢١/ ١٠...

(١٦) «وكان في الكنيسة التي في أنطاكية بعضُ الأنبياء والمعلِّمين، هم: برنابَا، وسمعان الذي يُدعى نِيجِر، ولوقيوسُ القيرينيّ، ومَنَاينُ رُبِّيَ مع أميرِ الرُّبعِ هيرودُس، وشاول» (رسل ١٣/ ١).

(١٧) «... ووضع بولسُ يَديه عليهم (أي تلاميذ من أفسس)، فنزلَ الروحُ القدس عليهم، وأخذوا ... يَتَنَبَّأونَ» (رسل ١٩/ ٦).

(١٨) «والذينَ أقامهمُ اللّهُ في الكنيسةِ همُ الرّسُلُ أوّلاً، وَالأنْبِيَاءُ ثانياً» (١قور ١٢/ ٢٨)؛ وعن تنوّع المواهب ووحدتها، ومنها النبوّة ، رَاجع :(١قور ١٢/ ١٠).

(١٩) «وكان له (أي فيلبّس) أربعُ بناتٍ عَذارى يتَنَبَّأْنَ»، رَاجع (رسل ٢١/ ٩).

١٠ . هذا الكلام يعني أنّ الـذين نالوا الملءَ والكمـال ليس لهم أن يعـودوا، بعـد ذلك، إلى الناقص والجـزئي. والذين نالوا الرّوح القـدس وأمسَـوا هياكلَ للّه ليس عليهم أن يعـودوا أيضاً إلى إيحاءاتٍ غامـضة. والذين نالوا الخـلاص بيسـوع المسيح ليس عليـهم، أيضاً وأيـضاً، أن ينتظروه من أيِّ ملاكٍ، أو نبيٍّ، أو رسولٍ، أو وحيٍ. والذين عرفوا الحقَّ كمـا هو ليس عليهم أن يعـودوا إلى الرمز... لقد أصـبحتِ النبـوّة، بعدِ فـيضِ الرّوح القـدس على المؤمـنين بيـسـوع المسـيح، من مـخلّفـاتِ الحضارة، لا تفيد شيئاً.

١١ . ثمّ إنّ «النبوّة.. موهبـة يفيضـها الروح القدس على جـماعة المؤمنين[٢٠]، ويخصّ بهـا بعـضـاً مـنهم فـيُـدعَـون أنبـيـاء[٢١]، مـثل أغابوس[٢٢]، ويهوذا وسِيلا[٢٣]، وهم دون الرسل رُتبةً[٢٤]، ودورهم في

(٢٠) تث ١٨/١٨؛ ٢بط ١/٢١؛ متى ٥/١٢؛ رسل ٢/١٧-١٨؛ ١٩/٦؛ ١قور ١١/٤-٥: "كلُّ رجلٍ يُصلّي أو **يتنبّأ**.. وكلّ امـرأةٍ تُصلّي أو **تتنبّأ**.."؛ ١٤/٢٩: "وإنْ كـان **أنبياء**، فليتكلّم اثنانِ أو ثـلاثة، وليَحكُمِ الآخَرون. (٣١): فإنّ فـي وُسْعِكُم جميـعاً أن **تتنبّأوا** واحداً فـواحداً، لكي يتعلّمَ الجـميعُ ويُعَزّى الجـميع. (٣٢): **وأرواح الأنبياء تخضعُ للأنبياء**...(٣٧): إذا كان أحدٌ يظن أنّه **نبيٌ** أو روحاني، فليَعـرِفْ أنّ ما أكتُبُ به إليكم، إنّمـا هوَ وصـيّةٌ من الرب... (٣٩): إذاً يـا إخوتي، غـاروا على **التنبّؤ**، ولا تَمنَعوا التكلُّمَ بالسنة". في هذا النّص، «يُخضع بولس النبـوءة لحكم الجماعة (٢٩)، مع الاحتفاظ بحريّة المتنبّئ (٣٢)». (تفسير إوَنْجلِيون على١ قور ١٤/٢٩-٣٣).

(٢١) رسل١١/٢٧: "في تلك الأيّام هبط **أنبـيـاء من أورشليم** إلى أنطاكـيـة"؛ ١٣/١: "كان **في أنطاكية، في كنيسـتها، أنبياء** ومعلّمون"؛ ١٥/٣٢: "وكان **يهوذا وسِيلا نبيّين** أيضاً"؛ ٢١/٩، ١٠: "وكـان له (لفيلبّس) **أربعُ بناتٍ عذارى مـتنبّئات**. وأقَمنا عدّة أيّام، فانحدر من اليهوديّة **نبيٌّ اسمه أغابُوس**".

(٢٢) رسل ١١/٢٨؛ ٢١/١٠.

الكنيسة أهمّ من التنبّؤ بالمستقبلات[٢٥]، أو قراءة الأفكار[٢٦]. إنّه شرح الكتب المقدّسة، ولا سيّما كتب الأنبياء القدامى، (وبنوع خاصّ كتب الشريعة)، بهدي الروح القدس»[٢٧].

١٢ . هذه النظرة إلى النبوّة، وإلى مؤسّسات العهد القديم كلّها، قال بها يسوعُ نفسه عندما أشار إلى أنّ هذا الهيكل، وكلّ ما يرمزُ إليه، سوف يُهدَم، وسوف يُعبَد اللّهُ، لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم، بل بالروح والحقّ، وفي كلّ مكان[٢٨]. فخراب الهيكل رمزٌ لنهايةِ النبوّات وزوال الناموس والشريعة.

١٣ . قال يسوع عن يوحنّا المعمدان إنّه «لم يَقم في مواليد النّساء أعظم من يوحنّا، ولكنّ الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه» (متى ١١/ ١١). يوحنّا «أكثر من نبيّ» (متى ١١/ ٩)، لأنّه أعدّ مباشرةً لمجيء ملكوت اللّه. وهو «الأصغر» في ملكوت يسوع لأنّه ظلٌّ من أنبياء

---

(٢٣) رسل١٥/ ٣٢.

(٢٤) ١ قور ١٢/ ٢٨-٢٩: "فقد وضع اللّهُ في الكنيسة أوّلاً رُسُلاً، ثانياً أنبياء، ثالثاً معلّمين، ثمّ مُعجزات، ثمّ مواهب شفاء، وإسعافات، وتدابيرَ، وأنواعَ ألسِنَة. هل الجميعُ رسُل؟ هل الجميعُ أنبياء؟ هل الجميع معلّمون؟ هل الجميع فاعلو مُعجزات؟.."؛ أف ٤/ ١١: "وهو جعل بعضاً رسلاً، وبعضاً أنبياء، وبعضاً مبشّرين، وبعضاً رعاة ومعلّمين، تأهيلاً للقدّيسين لعمل الخدمة، لبناء جسدِ المسيح". في تفسير ر إونجليون، "الأنبياء : هم المبشّرون والواعظون الملهَمون المكمّلون لعمل الرسل".

(٢٥) رسل١١/ ٢٨؛ ٢١/ ١١.

(٢٦) ١ قور ١٤/ ٢٤-٢٥؛ ١ طيم ١/ ١٨؛ ٤/ ١٤.

(٢٧) رَاجع: تفسير إونجليون على رسل١١/ ٢٧.

(٢٨) يوحنا ٤/ ٢١-٢٤.

العـهد القديم. وهـو «الأعظم» لأنّه كان خـاتمة عهـد قديم وبداية عـهد جديد: «قد توالتْ جميع نبوءات الأنبياء وآيات الشريعة حتى انتهت إلى يوحنّا»[٢٩]، أي: تنبّأ الأنبياء كلّهم والتوراة إلى أن ظهر يوحنا، أو أيضاً: «ظلّت التوراة والأنبـياء حتى عـهد يوحنّا» (لو ١٦/١٦). هذا يعني أنّ يوحنا الذي فاق الآباء والأنبياء يبقى «دون أصغر مؤمنٍ بيسوع»[٣٠].

١٤ . ومجـيء المسيح على الأرض لم يكن، كـما يَظنّ كـثيـرون، لإبطال النبوءات، والاستغناء عنهـا؛ بل، بالعكس، كان من أجل نشرها، حتى تشـمل جميـعَ شعب اللّه، تماماً كـما تمنّى موسى، وتـنبّأ يوئيل، ورغب بولس، وأعلنَ بطرسُ في العنصرة: فـروح الرّبّ أُفيض على كلّ ذي جسد؛ والنبوّة صارت من الأمور العاديّة في شعب اللّه الجديد[٣١].

١٥ . والحقّ يُقـال : إنّ «التـعليمَ النبـويّ لن ينقـضـي مع عـهـدِ الرسل، وإلاّ لكان من العـسـيـر إدراكُ رسالة الكـثيـرين من قـدّيسـي الكنيسة»[٣٢].

***

١٦ . هذا كان في الـعهد القـديم، وفي العهـد الجديد، والكنيـسة الأولى. وهو أيضاً سوف يكون في عصر محمّد، مع "أهلِ الكتاب" في مكّة. لقـد كانت النبـوّة عند نصـارى مكّة وظيفـةَ مَن «يبشّـر» الناس،

---

(٢٩) متى ١١/١٣؛ لو ١٦/١٦.

(٣٠) تفسير أونجليون على متى ١١/١١.

(٣١) رَاجع : رسل١١/٢٧-٢٨؛ ١٣/١؛ ٢١/١٠-١١.

(٣٢) Vocabulaire de Théologie Biblique, (Prophètes)

و«يبلّغهم» كلمةَ اللّه، و«ينذرهم» بعذابِ جهنّم. وكان النبيّ، عندهم، هو «البشير والنذير». والنبوّة، والحال هذه، لم تكن تلك المؤسّسة الرّوحيّة المختارة من اللّه، ولا تلك الموهبة السامية التي يُنعِم بها اللّهُ على أناسٍ من دون أناس. إنّها «بشارة و إنذار»: بشارة بالسعادة الأبديّة، وإنذار بعذابات جهنّم.

١٧ . والنّبيّ لم يكن، في قبيلته وبين شعبه، على غير ما كان عليه «مُلهمون» Inspirés و«راؤون» Voyants و"متنبّئون" Prophètes، و«شعراء»، و«عرّافون»، و«منجّمون»، و«سحَرة»، و«كهّان»... فالتنبّؤ مألوفٌ بين هؤلاء، في استطلاع الغيب[٣٣]، ومعرفة مشيئة الآلهة، والتكلّم باسمها، واستراق السمْع[٣٤]، وتبصّر المستقبلات، واكتشاف الأسرار، واستحضار الأرواح، ورؤية الملائكة والشياطين والجنّ وما إلى ذلك...

١٨ . ولم تخلُ بيئةُ مكّة من هؤلاء المتنبّئين : فكتبُ السيرة مليئة بمن تنبّأ بمجيء محمّد، واكتشفَ نبوّتَه، وعرف مستقبلَه، وتكهّن بما سيكون عليه مصيره، وبما ستؤول إليه رسالته؛ بدءاً بالقسّ ورقة بن نوفل من قريش، والراهب بحيرا، والراهب سرجيوس من بصرى

(٣٣) وكان اللّه مراراً يُطلع النّبي على الغيب. قال: "ذاك من أنباء الغيب نوحيه إليك..." (آل عمران ٣/ ٤٤؛ هود ١١/ ٤٩؛ يوسف ١٢/ ١٠٢). وكان محمّد مراراً، لكي لا يكون كسائر المتنبّئين والسحرة، يرفض إمكان معرفة الغيب. قال: "قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه. ولا أعلم الغيب. ولا أقول لكم إنّي ملَك..." (الأنعام ٦/ ٥٠؛ هود ١١/ ٣١؛ الأعراف ٧/ ١٨٨).

(٣٤) إشارة إلى ما ورد في القرآن بما اتّهم به محمّد من أنّه يسكنه جنّ يسترق السمْعَ من أبواب السماء. (انظر: س. الحجر ١٥/ ١٨).

حوران، والرّاهب عيص من الشام، والرّاهــب عدّاس النينوي، وخديجة نفســها التي كانت تعــرف وتفسّر مــا يحدث لبعلِهــا من رؤى. هذا عدا الأحبار والعرّافين وملوك فارس والروم والحــبشة والقبط... حتّى إنّنا، لكثرة مَن تنبّأ عن محمّد، بتنا نتساءل، لا عن صحّة ما تنبّأوا به، بل عن هذا المناخ العــام الذي تــوافــرت فــيه الــتنبّــؤات حــتى شــملت أفــراداً وجماعات.

١٩ . ومــحمّــد نفــسه لم يســلم، في هذا المناخ، من تهمٍ كــثيــرة وضعتْه في خانة المتنبِّئين والســحَرة والكهّان والشعراء والمتعاطين مع الجنّ. وكان دائماً يرفض أن يكون منهم؛ ذاك لأنّ الإصــلاح الاجتماعي العظيم الذي جاء به، صيّره، لشدّةِ حاجةِ الناسِ إليه، نبيًا عظيماً من بين العظماء.

٢٠ . وفي النتيــجة، يبدو لنــا أنّ رسالةَ محــمّد كانت عظيــمةً، لا بسبب أنّها من وحي سماويّ؛ بل بسبب أنّها حــركةٌ دينيّة، تصحيحيّةٌ، إجتماعيّةٌ، روحيّةٌ، ثوريّة. إنّها عظيــمةٌ، لا بسبب أنّ صاحبها نبيٌّ ميّزَهُ اللّهُ بما لا يعود الفضلُ فيه إلاّ لجبريــل، بل بسبب أنّ ثورتَه الإجتماعيّة قلبت أسسَ المجتمعاتِ القــبليّة البدويّة، وظلْمَ الدّولَتَين الكبرَيين، فارس والروم، آنذاك. ونجحتِ الرسالةُ نجاحاً كبيراً لأنّ صاحبَها استطاعَ أن يربط تعاليمَه الإجــتماعيّة الثوريّة بالأفق الأعلى، بعــمُدِ السماء، بالدِّين وباللّه؛ وذلك حتّى تفعل فعلَها في النّاس، وتستمرّ، وتجمعَ حولها أكبرَ عددٍ من المؤيِّدين. فكان له ما شاء.

٢١ . وبات من المؤكّــد، عند باحــثين كــثر، أنّ مناهــضةَ قــريشٍ لمحمّــد، لم تكن بسبــب دعوتِه إلى دينٍ جــديد، ولا إلى إلهٍ مجــهول لدى

الناس، ولا إلى تعاليمَ جديدة، لا يعرفـها أهلُ قريش... أهلُ قريش، منذ أيّام جَدّهم الأعلى قُصَيّ ومـؤسِّسِ مُلْكِهم، كانوا قوماً تجّـاراً. والتّاجر يميل في طبعه إلى السلم والمهادنة والتسامح. فـهم يقبلون في كعبتهم أيَّ إلهٍ كان، وأيَّ دينٍ كـان... وقد كـان في الكعبة، يوم دخلَـها محـمّد، أكثر من ثلاثمائة وخمسةٍ وستّين إلهاً. فلن يزعجهم إلهٌ جديد، أو تمثالٌ لإلهٍ جـديد؛ بل قـد يفيـدهم هذا الإله إذا مـا كـان وراءه عابدون جُـدد يُستفاد منهم.

٢٢ . فـمن المؤكّد، إذاً، أنّ السـبب الواضح الذي قـامت من أجله قيـامةُ قريشٍ على محـمّد كان في دعـوته إلى ثورةٍ إجتماعـيّة أطاحت بالأغنيـاء الأعزّة، واستـبدلتْـهم بالفقـراء الأذلّة. وهذا ما حـدث. وقد اعترف بذلك محمّدٌ نفسُه، وفي القرآنِ نفسه، للذين خاضوا معه معركة بدر: «وَلَقَدْ نَصَـرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ»[٣٥]، أي فقراء صـعاليك. وكم كان يسـتشهد مـحمّدٌ بأولئك الذين لم يسـمَعوا دعوةَ نوح، إذ اتّهـموه بقـولهم : «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَـعَكَ إلاّ الّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا»[٣٦]، أو بقولهـم عندما «قَالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون!!»[٣٧].

٢٣ . فالنظرة إلى محـمّد إذاً نظرتان: نظرة إليه نَبِيّـا من السماء، ونظرة إليه مُصلحاً إجتماعيًا. وفي اعتقادِنا، أنّ الفضل كلّ الفضل يعود إلى كونه مـصلحاً لمجتـمع مكّة، لا إلى كونه نبيّـا من السماء. ومـا كان انتسـابُه إلى صفوف الأنبياء إلاّ دعـماً لهذا الدور الإصلاحي الإجتماعي

---

(٣٥) سورة آل عمران ٣/١٢٣.

(٣٦) سورة هود ١١/٢٧.

(٣٧) سورة الشعراء ٢٦/١١١.

الكبير. وفي اعتقادنا أيضاً أنّ مثلَ هذه النظرةِ الإصلاحيّة التاريخيّة تَرُدُّ الفضلَ فيها إلى محمّد نفسه، لا إلى جبريل الذي لم يُفدْنا سوى الزّعم بأنّه استلب القرآن من "اللَّوحِ المَحْفُوظِ»[٣٨] من كبد السماء منذ الأزل.

***

٢٤ . وفي الختام، نقول: كيف نُجلّ نبيًا، حُسِبتْ مهمّتُه الأساسيّة تقييدَنا بشرائعَ إلهيّةٍ، ربَطها بعُمُدِ السماء، ونزّلها علينا مباشرةً من عند اللّه؛ ثمّ راح، حمايةً لهذه الشرائع-الربُط، ودفاعًا عن اللّه، يصنّف الناسَ بين مؤمنين وكافرين، وموحِّدين ومشركين، فيوعد هؤلاء بالهلاك ونار الجحيم، ويَعِدُ أولئك بالخلاص وجنّةِ النعيم... في حين أنّ يسوع، عند المسيحيّين، جاء ليُعيد الإنسان إلى حرّيّةِ الأبناء، أبناء اللّه، ولينقضَ كلَّ هذا، وقد علّم فيما علّم : دَعِ الناموسَ، وشريعةَ السبت والختان والرّجم وذبائح الأوثان وبعض الأطعمة وما إلى ذلك، واترك قربانَكَ، أي: دعِ اللّهَ جانباً، واذهبْ وصالحْ أخاكَ أوّلاً[٣٩]. فمحبّةُ أخيك أولى من كلِّ شرائع السماء والأرض. فمَن يدّعي محبّةَ اللّه ولا يُحبّ أخاه فهو كاذب[٤٠]... فتعاليم الأنبياء في هذا المجال ناقصة مشينة بحقّ الإنسان. ويجب أن تقف عند حدّها بعد أن أدّتْ غرَضَها.

---

(٣٨) سورة البروج ٨٥/٢٢.

(٣٩) رَاجع : متى ٥/٢٣-٢٥؛ أنظر: مر ١١/٢٥؛ متى ١٨/٣٤-٣٥؛ لو ١٢/٥٨-٥٩.

(٤٠) «إن قالَ أحدٌ: إنّي أُحِبُّ اللّـهَ، وهُوَ يُبغضُ أخاه، كان كذّاباً. فمَن لا يُحبُّ أخاه الذي يراه، لا يَسَعُهُ أن يُحبَّ اللّهَ الذي لا يَراه. وإنّ لنا منه هذه الوصيّةَ أنَّ مَن يُحِبُّ اللّهَ يُحِبُّ أيضاً أخاه» (١ يوحنّا ٤/٢٠؛ رَاجع :١/٩ و١١ و١٥)...

٢٥ . ونقول أخيـرًا : إنّ المسيحيّ الذي فاض علـيه روح القدس، فتعمَّد باسم يسوع، وتثـبّتَ، وأكلَ جسدَ الربِ وشرِبَ دمه، ويعيش في شـركة القـديسين، وفي أحـضان الكنيـسـة التي أعطيت لهـا مفـاتيح الملكوت، وينعم بغفرانٍ كاملٍ شامل عن ذنوبه ومـعاصيه إن عاش حياةَ توبة صـادقـة... هذا المسـيـحيّ الذي حـصل على ملء الروح وفـيض مواهبـه، عليه ألاّ يعتبـر نفسه أقلّ قدراً مـن أعظم نبيّ لا يزال يتنبّأ عن الوعـد المنتظر! في يقيني أنّ آخـر مؤمنٍ بيـسوع المســيح هو أعظم من أنبياء العـهد القديم جمـيعهم. والذين أُنعِم عليهم أن يكونـوا من تلاميذ العليّة يخسرون كثيراً إن هم تشوّقوا إلى أن يبقوا من شيوخ الهيكل.



٤

أللّـــه

مقدّمة

ألصـــراع الديني في الغرب هو صـــراع بين اللّه واللاّ–إله، أي بين وجـود اللّه وعدم وجـوده، أي بين الإيمان والإلحـاد. أمّا الصـــراع في الشرق فهـو صراع بين آلهة موجودة، وبين مؤمنين ومـتديّنين عابدين كلّ إله، وبين أديان وطوائف ومذاهب لا حـدّ لها ولا حصـر. إنّه صراع بين اليـهوديّة والمسـيحيّـة والإسلام والدّرزيّة والنُّـصَيريّة، والـبوذيّة والبرهمانيّة...

يتـميّـز الصـراع في الغرب بكونه صـراعـاً فكريًا عمـيـقاً غنيًـا حضاريًا؛ فيما الصراع في الشرق هو صراع طائفيّ، مذهبيّ، تعصّبيّ، تقليديّ، بدائيّ، جهاديّ، قتاليّ عنيف. ألصراع في الغرب هو صراعٌ من أجل الإنسان وكرامة الإنسان وحرّيته ورُقيّه؛ والصراع في الشرق هو صراع من أجل اللّه، في سبـيل اللّه، والدفاع عن اللّه، ولو أدّى ذلك إلى تدمير الإنسان والإنسانيّة.

ألصراع في الشـرق هو صراعُ آلهة تتقـاتل ليحلَّ بعضُـها مكانَ بعض، صـراعُ متديِّـنين ينتصـرُ بعضـهم على بعض، ويلغي بعضـهم بعضـاً. إنّه صراع بين أن يكون هذا الإله واحـداً أحداً مهـيمناً، أو أنْ لا يكون. وإنّه لَفرضٌ واجب على كلِّ مـؤمنٍ متديّن، أنْ يُلغي كلَّ دينٍ غـير دينه، أو كلَّ إلهٍ سـوى إلهـه... نحن، في الشرق، نتـقـاتل من أجل اللّه، ونتحزّب، ونتباغض، ونقضـي بعضنا على بعضٍ حتى الإبادة. نحن في وضـعٍ، هو، في الحقيقة، من أعظم سـخافات هذا الكون الغارق بين آلهة وأديان. والضـحيّة دائماً هو الإنسـان.

وبما تبقّى لنا من بعض الحرّيّة والوعي، نجـيز لأنفسنا سؤالَين : مَن هو اللّه الذي نعبد؟ ومَن هو اللّه الذي لا نعبد؟ وما كنّا لَنطرح هذين السؤالَين، لو لم تكن مسـألة اللّه مسألةً شخصيّـةً، تُقلق العقل، وتُعذِّب القلب، وتُتعِب الحـياة كلَّها، وتهـزّ الكيان برمّـته. وقد تتـفاقم المشكلة عندما نجد أنفسَنا ملزمين في عيشٍ مشترك، وفي حوارٍ مع آخرِين، بل في جدالٍ وجهادٍ وصدام.

***

أوّلاً – اللّه الذي لا أعبد

١ . أللّه الذي لا أعبد هو، بادئ ذي بدء، اللّهُ الواحـد الأحد، الفرد الصَّمَـد. إنّه تعريف صحيح. يعني: أنّ اللّهَ واحـدٌ في طبيعتـه، أَحَدٌ في ذاته وأقنوميّته، بعيدٌ متعالٍ لا يُطال، ممتلىء من ذاته، كاملٌ في صفاته، غنيٌّ عن غيره، مغلَقٌ على نفسـه، منعزلٌ في سمائه، لا يرغب في شيء، ولا يستطيع أن يُحِبَّ سوى نفسه، لئلاّ يتغيّر ويتحرّك باتّجاه مَن يُحِبّ.

هذا «اللّه»، يجب ألاّ يكون هو الذي خلق العالم، بحسب قول كثيرٍ من الفلاسفة الأقدمين، والفلاسفة المسلمين، لئلاّ يكونَ محتاجاً إلى ما يخلق. ولئن نحن أردناه خالِقاً، فلئلاّ يكونَ شيءٌ في الكون وُجِد من دونه. فهو الذي قال لكلِّ كائنٍ: كنْ فكان، بحسب ما جاء في القرآن[1]. غير أنّ الأصحّ هو القول بأنّ العالم «انبثَقَ» أو «فاضَ» عن اللّه؛ تماماً كما يفيض الصقيعُ عن الثلج، والأريجُ عن الزهر، من دون أن ينقص الثلج من برودته، أو الزهر من أريجه.

٢. هذا اللّه الصَّمَد، المغلَق على ذاته، ممتنع على الآخرين، لا يُدركُه إنسان، ولا تمسُّ قلبَه صلاة، ولا تهزُّه استغاثةُ محتاج[2]، ولا تنفع لديه شفاعةُ وليٍّ أو قدّيس[3]. وهو، بالتالي، لا يستطيع أن يعتني بأحد، أو أن يحبّ أحداً. في حين أنّ الإنسان يهمّه جدّاً أن يُقيم معه علاقة. ألّله الصَّمَد متعالٍ جدّا، قابعٌ وراء السماء السابعة، في عزلة إلهيّة مطبقة، لا يشعر بحاجة إلى أحد. إنّه يتفرّج على العالم من فوق، فيما العالم، من تحته، يتقاتل بسببه وفي سبيله ومن أجله.

هذا «اللّه» إلهٌ صعب، صلب، جامد، ظالم، منتقم، مهيمن، جبّار. خلق الألم وابتعد عنه. أوجد المرض من دون أن يُصاب منه بأذى. نصبَ الصليبَ على دروب البشر من دون أن يقترب منه. ملأ الدنيا عذاباتٍ وشقاواتٍ من دون أن يتعذّب هو أو يشقى. قهَرَ العالَمَ بالموت

---

(١) رَ: ٢/ ١١٧؛ ٣/ ٤٧ و٥٩؛ ٦/ ٧٣؛ ١٦/ ٤٠؛ ١٩/ ٣٥؛ ٣٦/ ٨٢؛ ٤٠/ ٦٨.

(٢) لئن وجدنا في القرآن والإسلام ابتهالات وصلوات.. فهي موجودة بسبب حاجةٍ في طبيعة الإنسان إلى اللّه، وليس بسبب محبّة موجودة في طبيعة اللّه.

(٣) هذا ما علمّ القرآن في قوله: «ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع» (٣٢/ ٤).

وراح هو يتسلّى برائحة الجثث ويستهزئ بالمائتين. أنزلَ البشر إلى الجحيم من دون أن يعرف شرور الجحيم وسعير نيرانها..

٣ . ألله الذي لا أعبد هو «إله معجزات وخوارق». يتحدّى النظام الكوني الرائع الذي وضعه منذ البدء، فراح يوقف الأرض عن حركتها ساعةً يريد، ويدمّر نظام الكون عندما يحلو له ذلك، ويتعدّى على قوانين الطبيعة، ويتصرّف بملكه كما يشاء، يقيم الموتى، يشفي المرضى، يصنع المعجزات، يتحدّى العلم والنِّظام ليثبت نفسه بطرق غير علمية وغير نظاميّة، يعجّزنا نحن ليظهر قدرته هو.

هذا «اللّه» يفعل ما يفعل ليُظهر أمامَنا جبروته، ويكشف لنا عن علمه الواسع. فهو لا يعمل بنعومة، أي بواسطة «نعمةٍ» تنساب في نظام الكون وكأنّها منه، ولا يدَعُنا نكتشف أسرارَ الكائنات بما خلقَ فينا من قدرات، وبما عندنا من حرّيّة. إله المعجزات هذا يسدّ الحاجات، يلبّي المطالب، يحلّ المشاكل، يفكّك العِقد. جعل الإنسانَ حقيرًا ليعلو هو، وشاءه ضعيفًا ليُظهر قوّته هو، وأخضعه لتفاهات الدنيا ليُبعدَه عن ذاته ويُغرِّبه عن نفسه.

٤ . ألله الذي لا أعبد هو إله «جهاد»، يَطلبُ منّي أن أجاهد من أجله، وأقاتل في سبيله، أن أدافع عنه، وأحمي جلالَه، وأناضل من أجل أن يبقى واحداً وحيداً، منفرداً بوحدانيّته وألوهيّته. يريدني أن أخاف عليه من أن لا يكون «أكبر»، وأن أخاف منه لتجبّره وهيمنته. إنّه، على ما يبدو، يحتاج إليَّ لكي أرفعَه، و«أكبّره»، و«أشهد» له بإنّه هو «اللّه» وليس سواه.

إنّه إله يطلب منّي أن أُبغضَ الآخرين من أجله أكثر ممّا يطلب منّي أن أحبَّــهم كوسيلةٍ إليـه. فهو إلهٌ يزرع العـداوةَ بين الناس ليرتاح هو، يفرِّق بينهم ليسودَ عليهم جميعهم. إنّه إلهٌ قليل الصبر، يضرب بسرعة. ينتقم. يثـأر لنفسه. يَغار. لا يُطـيق أحداً بمستواه. إنّه ناطور يتـجسّس علينا. همّه المطالبة بحقّه. ولا حقّ عنده لأحد غيره.

٥ . أللّه الّذي لا أعـبـد هو إلهٌ «يختـار شـعبًـا» من دون شـعب، ويفـضّل أمّةً على أمّـة، ويهـتمّ بأناسٍ ويُهمـل آخرين. هو إله إحـتكار. يحتكر جماعةً له. يُؤثرها على ســواها. يُعطيها ما لا يعطي سواها. يُنعم عليها بالنبوّة، والوحي، والأنبياء والرّسل والنُّذُر والكارزين والقدّيسين والأولياء.. وحتّى بالملائكة.

هذا «اللّه»، في حقيـقة أمره، ليس للجميع. يعني أنّه يبـغضُ أكثر ممّا يُحبّ. إنّه ضـيّق الآفـاق. وهو وقْفٌ عـلى أناس مـعـيّنين. إنّه على مستوى الذين حكَروه، وحصـروه في تاريخهم، وجعلوه موجودًا من أجلهم، وقـيّـدوه ليـهـتمّ بهم وحـدَهم، ويدافع عنهم. وفـي ظنّهم أنّهم يمثّلون البشريّة كلّها، فاستحقّوا اللّه وحدهم.

٦ . أللّه «المشــترع» هو أيضًا إلهٌ لا أعـبده. إنّه إلهٌ ظالم مـسـتـبدٌّ. سَنّ لنا شرائع، ونزّلهـا علينا، فقضى بهـا على حرّيّتنا قضاءً مـحكَماً. وضـع قوانينَ جمّدتِ التاريخ عن كلّ تطـوّر ورقيّ. قيّدنا بشـرائع أنزلَها علينا ثمّ انســحب. بعث رسلاً وأنبيـاءَ ثمّ اختفى وراءهــم. ولا يستطيع إنسـانٌ أن يعود إليه ليتخلّص ممّا «أنزل» وممّن «بعث».

هذا «اللّه» لا يهـمّه تطوّر الإنســان، ولا يهمّه أن يكشــف الإنسانُ عمّا في الكون من طرائف خلَقها هو. إله محكومٌ علينا معه حكماً مؤبّدًا.

نحن معه محكوم علينا بألاّ نتطورّ، وبألاّ نسير إلى الأمام. محكومون في أن ندور في فراغ، بسبب هذه الشريعة الأزليّة الأبديّة التي لا تتطوّر بتطوّر الإنسان. أنّها شريعة من فوق، لا تخضع للعلم والتطوّر، ولا لمتقلّبات الزمان.

٧. هذا «اللّه» الذي لا أعبد هو «إله الأنبياء والرسل»، الذي صوّروه على صورتهم وصورةِ عصرهم وفي مستواهم. هؤلاء الأنبياء والرسل نطقوا باسمه، فحصروه ضمن جدرانهم. لقد صنعوا له تاريخًا من أحداث تاريخهم. فكان كما هم وحيث هم. وَصَفُوه بصفاتهم، فأفقروه. بل سلبوا عنه ما لا يُطيقونه في نفوسهم. فكان كما يريدون.

ثمّ راحوا يقدّمون لنا اختبارَهم؛ فيما كان عليهم ألاّ يلزمونا بما اختبروا وبما قدّموا لنا من وسائل. وأيّ إنسان يرضى بأن يكون مثالُه بمستواه؟! أو يقبل من غير اللّه خلاصَه وسعادته؟! وفي كلّ حال، إله هؤلاء الرجال هو إلهُ زمانهم وبيئتهم وثقافتهم وحضارتهم، لا إله كلِّ زمان وحضارة.

٨. ألّله الذي لا أعبد هو «اللّه–في–ذاته»، الواجب الوجود بذاته، ألذي «ليس كمثله شيء»[٤]، والّذي «لا تُدركه الأبصار»[٥]. هذه مقولاتٌ عبقريّة، وفي قمّة ما يمكن أن نقولَه عن اللّه. فهي تحفظ له تعاليّته ووحدَته وكيانَه المميّز، وتتّفق مع ما توصّل إليه الفلاسفة والعلماء.

(٤) سورة الشورى ٤٢/ ١١.

(٥) سورة الأنعام ٦/ ١٠٣.

غير أنّ هذا التحديد العبقري هو، بالنسبة إلى علاقتنا باللّه، هو تحديد مأساوي، إذ يجعل اللّه بعيداً عن واقعنا، ومعتزلاً عنّا اعتزالاً كاملاً. بل هو، في الواقع، تحديدٌ ساخرٌ بالإنسان، إذ لا نرى فيه أيّ علاقة بين هذا «اللّه-في-ذاته» وبين الإنسان الساعي إلى تحقيق ذاته بمَا في أعماقه من شوقٍ نحو المطلق والكمال .

في هذا التحديد، يعرِّف اللّه عن نفسه بالنسبة إلى ما يريد أن يبتعد عنه، أي يعرّفنا عن ذاته بالنسبة إلى العالم. وهذا ليس تحديدًا «للّه-في-ذاته»، بل هو أيضاً وأيضاً تحديدٌ نسبي، تحديد يجعل اللّهَ بعيداً عن العالم بُعداً أنتولوجيّاً هائلاً، إلى درجة أنّنا لا نستطيع عبادته أو التقرّب منه.

لذلك، فنحن أمام إلهٍ نعجز عن معرفتِه لسببَين متناقضَين: لسبب أنّه مغلَقٌ علينا في-ذاته وبعيدٌ عنّا جدًّا؛ ولسبب أنّ معرفتنا له، إنْ عرفناه، لا تزال مرتَهنةً بالعالم المحسوس، وهو عالم مادّيّ، ناقص، خاضع للزمان والمكان والحركة؛ فيما اللّه بعيدٌ كلّ البعد عن المادّة والنقص والزمان والمكان والحركة...

٩ . أللّهُ الذي لا أعبد لا إسم له لكي أعرفَه به. لفظُ «اللّه» لا يعني لي شيئاً. إنّه إسم جنْس، يُطلَق على كلّ كائنٍ مطلق كامل أزليّ... مثل هذه الكمالات تضفيها عليه الأديانُ والفلسفاتُ جميعُها، وثنيّةً كانتْ أم توحيديّة؛ يهوديّة أم إسلاميّة أم مسيحيّة. واللّهُ، بهذه التسمية، هو نفسه في كلّ الأديان، وعند كلّ الفلسفات. وهو، بهذا الإسم، لا يتميّز في دينٍ عن أيّ دينٍ آخر، أو في شعبٍ عن أيّ شعبٍ آخر.

أمّا الإسم الحقيقي للّه، الذي يبيّن هويَّتَه وعملَه، فهو الاسم الذي يشير إلى علاقةٍ بينه وبيننا. فالوالد، مثلاً، إنسان. ونسمّيه «أباً»، أي باسم العلاقة بينه وبين أبنائه؛ ولا يحسن أن نسمّيه إنساناً؛ لأنّه لا يختصّ، وحدَه، بهذا الإسم. هكذا، فاللّه الذي نريده إلهاً لا يختصّ، وحدَه، بهذا الإسم. لذا علينا أن نسمّيه، كما سمّاه يسوع، «أباً». وطلب منّا أن ندعوه أباً، وأن نصلّي له «أبانا».

١٠ . وأخيراً، لئن كان للّه تسعة وتسعون إسماً تدلّ على كمالاته المطلقة، وعلى صفاته «في-ذاته»، وصفاته «العلائقيّة» مع غيره؛ فإنّ الإنسانَ، عندما يدركُها كلَّها يُصبح في مقدوره معرفة اللّه معرفة تامّة؛ ويُصبح اللّه في حوزته وقبضته. وبذا، لن يختلف اللّهُ هنا عمّا سنعرفه عنه هناك في الحياة الثانية إلاّ بنسبة ١٪ فقط.

بالتسعة والتسعين، قبض الإنسانُ على ٩٩٪ من اللّه. وما ينقصه منه شيءٌ لا يُذكر. هذا يعني أنّ اللّهَ أصبحَ رهينةً بين أيدينا، خاضعاً لمقولات عقلِنا. وربما يعني هذا أيضاً أنّ العقل قد يستطيع أن يصنع اللّهَ على صورته ومثاله؛ بدل أن يكون العكس. وهذه طعنة مميتة في صميم اللّه. إله التسعة والتسعين هو إله أسير العقل المحدود، وفي مستوى الإنسان المخلوق.

***

ثانياً – أسباب رفض هذا الإله

١ . هذه الإعتبارات أخذ بها فلاسفة يونانيّون ومسلمون، فأنكروا كلّ علاقة ممكنة بين «اللّه» والإنسان: أنكروا «معرفة اللّه للجزئيّات»، حفاظًا على علوّه المطلق. وأنكروا «عنايته بالكائنات»، لئلاّ يصيبَه، بسببها، نقص. وأنكروا أن يكون اللّهُ هو الذي «خلق العالم» المادّي، ودخل في حركة الزمان والمكان؛ لأنّ اللّه، في هويّته، روحانيٌ لا ماديّ، خارجٌ عن الزمان والمكان، غير محتاجٍ إلى أحد. لقد كان وكان معه العالمُ الذي «فاض» عنه منذ الأزل، أو «انبثق».

٢ . ومع هذا نسأل : هل نؤمن حقًّا بإله العقل؟ أيهمُّنا كثيراً أن نؤمن بـ «إلهٍ صمد»؟ أو بـ «اللّه–في–ذاته»؟ أنستطيع أن نُدرِكَ اللّهَ كما هو، في جوهرِه، وطبيعتِه؟ وهل في معرفةِ أسماء اللّه، والوقوف على كمالاته وصفاته ما يؤكّد لنا أنّه حقًّا كذلك؟! أليس اللّهُ، في جوهره، هو «الآخَر بالمطلق»؟، أي البعيد الأكبر عن حدود قدراتنا؟!.. مثل هذا «اللّه»، لا يدخل أبداً في حقل تفكيرنا، ولا في مسيرة حياتنا، ولا في مجالات حسِّنا وشعورنا. والبحث فيه إنّما هو تَرَفٌ فكريٌّ، وبابٌ من أبواب قهرِ النفس.

٣ . ونسأل أيضًا : هل أعطى هذا «اللّهُ» الكلّيُّ القدرة عقلَنا الضعيفَ قدرةً يتخطّى بها حدودَه؟ أم إنّ اللّهَ اللاّمحدود تنازل عن لامحدوديّته، وجعل نفسَه في مستوى عقلِنا المحدود ليعرّفَ المحدودين عن ذاته؟

إذا افترضنا أنّ العقل تخطّى حدودَه، فعرفَ اللّهَ اللاّمحدود، فأين هي الحدود الجديدة بين اللّه والعقل إذاً؟ ومتى يصبح العقلُ،

بتــحدّيه هذا، إلهًــا مكانَ اللّه؟ وإذا افــترضنا أنّ اللّه نزل إلى مــستــوى العقل، فهل أظهر اللّه لهذا العقل كلَّ ذاتِه؟ أم استبقى اللّهُ لنفسِه أسرارًا لا يلجها عقل؟

في الحالة الأولى، نـقول: لا شيء في هذا العالم الزائل يـستطيع أن يحملَ كمالاتِ المطلق؛ إذ قد ينوء تحــتها، ويزول. وفي الحالة الثانية نســأل أيضًــا: هل أعطانا اللّــه كلَّ شيء؟ أم حــرمنا مِن شيء؟ فــإن لم يعطِنا كلَّ شيء كفــانا منه حرمانًا. وإنْ أعطانا كلَّ شيء كفــانا بهذا عن نفسه؛ فما عليه، عندئذٍ، إلاّ أن يستريح.

٤ . أمّا القــول بــ «إله الكتب المنزلة» فهو قــولٌ عبقــريٌّ في إبعادِ اللّه عن خليقــته، كما في جــعلِه قريباً منهــا : ففي بُعده، كمــا في قربه، يتعامل الإنســان مع «كتابٍ»، لا مع «شخص»؛ مع «كتاب» قــاهرٍ جامد، لا مع «صليب» مقهور ملعون من طغمات أهل الأرض والسماء؛ مع إلهٍ «صمَد» لا يشعر ولا يحبّ ولا تُخرَق حدوده، إلهٍ لا يتعامل مع الإنسانِ بحرّيّة، ولا يترك له أيَّ مجالٍ للعمل معه بحرّيّة.

إله الكتاب هذا، إلهٌ جامد صامد لا يتغيّر، ولا يتزحزح. إنّه هو هو، بتعاليمــه الثابتة وشرائعه الجامــدة، كابوسٌ علينا إلى الأبد. ألكتاب هو البديل عن اللّه. إنّه مــعصوم. فــيه يجد الإنســانُ الحقَّ كلَّه، والعلمَ كلَّه، واليــقينَ كلَّه... في حين أنّ الإنسانَ يتطوّر، والزمــن يتغــيّر، والمجتــمع يتبــدّل، وكلُّ ما في الكون مزعزعٌ وكــأنّه على كفّ عفريت. فــهل يُعقل، والحال هــذه، أن يتخلّف «إلهُ الكتــاب المنزَل» عن ذاك الإنسان الجــامحِ بحرّيّته في أرجاء الكون! وحرّيّته هذه هي هوّيّته وكرامته ومجده !! أنا لستُ أُطيق إلهاً حصرَ ذاتَه في كتابٍ.

٥ . أهلُ «الكتاب المنزل» مطمئنُّون إلى ما في كتابهم من نبوّةٍ هي خاتم النبوّات، وتعليمٍ فيه العلمُ كلُّه، وعقيدةٍ لا تبديل فيها، ويقينٍ ليس فيه شكّ، وحقيقةٍ منزَلةٍ لا يداخلها ريب، وحلٍّ لكلٍّ مشكلة من مشاكل البشر، وشريعة لكلٍّ مستجدّات الكون، وعصمةٍ في كلٍّ شيء..

٦ . «أهل الكتاب» المنزل يعرفون مشيئة الله معرفةً كاملة. يتكلّمون باسمه. يجاهدون من أجله. يحدّدون هويّته كما يشاؤون... كلُّ حوارٍ معهم باطل، لأنّهم مطمئنّون جدًّا إلى ما به يؤمنون، فيما سواهم يتلمّسون طرقهم، ويفتّشون عن مآربهم باستمرار، ويبحثون عن الحقيقة إلى منتهى الدهر.

ألله عند «أهل الكتاب» المنزَل ملْك اليد : ألشريعة إرادة إلهيّة أزليّة أبديّة لا تتزحزح. نُظم الكون والحياة محدَّدة. حركات العالم والكائنات منتظمة. ألعلوم كلّها نستخرجها من آياتِ «الكتاب المنزل» المعصوم. وهذا أمر طبيعي، لأنّ الكتاب كلّه هو من عند الله؛ وهو «كلام الله»؛ أي هو الله الحاضر أبداً؛ وهو معجزة المعجزات المستمرّة تحت عيون البشر.

٧ . ماذا نصنع بـ «الكتاب المنزل»، عندما نصبح مع الله وجهاً لوجه في الحياة الثانية. والكتاب هذا، بحسب أهله، هو الله نفسه؟! أيبقى الكتابُ معنا يحكمنا هناك في حضرة الله نفسِه؟! أم يبقى هنا في هذه الدنيا يحكم أناساً يبقون معه مدى الدهر؟! وإذا ما كان على «الكتاب المنزل» أن يستمرّ -ويجب عليه أن يستمرّ- فمعنى ذلك أنّه يجب أن يبقى الإنسانُ هنا مستمرًّا أيضاً. هذه احتمالات منطقيّة وممكنة؛ ولكن لا جوابَ عليها يَفيدنا شيئاً.

٨ . سنّةُ هذا الكون المخلوق الحَركةُ والتطوّر. وكذلك سنّة الإنسان والمجتمع البشري حركةٌ وتطوّرٌ مستمرّان. أمّا سنّة «الكتاب المنزل» فجمودٌ وثبات. لهذا نرانا أمام إحدى المعادلتَين: إمّا أن يتخلّف الكونُ والإنسانُ والمجتمعُ عن «الكتاب المنزل»، فيتقيّدوا بقيوده؛ وإمّا أن يتطوّر «الكتابُ المنزَل» ويتغيّر، فيُطوِّر الإنسانَ والمجتمعَ وكلَّ شيء.

غير أنّنا، في هذه المجالات المتحرّكة، لا بدّ من أن يتحرّكَ اللّهُ نفسُه ويتطوّر؛ إذ هو خاضعٌ أيضاً للتطوّر والحرّيّة والحركة؛ وإلاّ لما كانَ اللّه إلهاً لهذا الإنسان الحرّ المتطوّر والمتحرّك. وفي نظام الكون وطبيعةِ الإنسان والمخلوقات جميعها، إنّ الحرّيّة والتطوّر والحركة هي من مقوّمات الوجود. واللّه هو هو «الكائن»، الموجود الأعظم.

٩ . ثمّ إنّ ألأنبياء والرّسل ماتوا، وموتُهم كان للبشريّة رحمةً. أمّا «الكتاب المنزل» فلا يموت. إنّه إلى مدى الدهر باقٍ. لا يُخلي مكانَه لأحد. معظم الأنبياء والرّسل عُذِّبوا، وأُهينوا، وصُلبوا، وقُتلوا، ثمّ قضوا. أمّا «الكتاب المنزل» فلا يمسّه أيُّ أذًى. قد يُهان ويُدنَّس ويُمزَّق في مكانٍ ما، ولكنّه يستمرّ، من حيث المبدإ، مكرَّماً طاهراً، مُصاناً عند المؤمنين به.

رحيلُ الأنبياء كان ضروريًا لمجيء غيرهم ممّن تتناسبُ تعاليمُهم مع تطوّرِ الإنسان ورقيِّه وحرّيّته. أمّا بقاء «الكتاب المنزل» أمام عيوننا، فيحكمنا حكمًا مؤبّدًا؛ بل ويتحكّم بنا إلى الأبد. إنّه حاكم لا يتغيّر ولا يموت. لا يُخلي مكانه لغيره. ونسأل: هل يُسلِّمُ الإنسانُ زمامَ نفسِه لكتابٍ لا يموت؛ ويبقى بذلك محكوماً به، ويستمرّ هو قاصراً إلى مدى الدهر؟!.

١٠ . إنّنا، مع «كتابٍ منزَل» معصوم، نحن، حقًّا، في خطرٍ لا يوازيه أيّ خطرٍ على حرّيّة الإنسان وكرامته وتطوّره ورقيّه، وعلى خلاصه أيضاً. ألقولُ بـ «الكتاب المنزَل» هو ظلمٌ أبديّ ساحقٌ ماحقٌ، ألحقه اللّهُ نفسُه بنفسِه وبالإنسان. وليس على الإنسان من شرٍّ أعظم منه. وكم عليه، ليستعيد بعضَ كرامتِه وحرّيّتِه، أن يفرَّ من قيودٍ وأغلالٍ أُحكمتْ عليه في «الكتاب المنزَل» إحكاماً.

***

ثالثاً – اللّه الذي أعبد

قد تكون صورةُ اللّه الذي أبحث عنه لأعبده موجودةً في المسيحيّة. فلننظر إذا ما كانت صورته المسيحيّة تناسبُ وضعَنا البشري الراهن، وتُقنع عقولَنا، ويبقى لنا معه بعضُ الكرامة والحرّيّة.. نقول: إنّ صورة اللّه في المسيحيّة تتمحور حول نقطتين أساسيّتين: الأولى هي صورة إلهٍ «دخل التاريخ» فأحبّ الإنسانَ وأقامَ معه علاقةَ حبّ؛ والثانية صورة إله «تخلّى عن ذاته» حتّى الموت ليخلّص المائتين.

١ . إنّ القول بـ «علاقةٍ بين اللّه والإنسان» ليس قولاً جزافاً، ولا هو عرَضٌ من الأعراض الدخِيلة على هويّة اللّه، ولا هي أيضاً خارجة عن طبيعة الإنسان. فالإنسان كائن إجتماعي، وكذلك اللّه. فالفردانيّة، أو الأحديّة، فقيرةٌ في ذاتها. إنّها عزلة لا وحدانيّة :

ألإنسان لا يكون إنسانًا حقًّا إلاّ مع آخرين، في مجتمعٍ، في عيلةٍ، في صلةٍ شخصيّةٍ حميمةٍ مع مَن يحبّ. إنّه ذاتٌ إنسانيّة فريدة مميّزة، من دون شكّ؛ ولكن ضمن طبيعةٍ بشريّة يشارك فيها الملايين. وله من

الملايين اختبارها وغناها ومشاركتها. إنّه، إذاً، إنسان–شراكة، أو ذاتٌ اجتماعيّة ذات علاقة.

والعلاقة في اللّه، أيضاً، هي من هويّته وجوهره وطبيعته. بل هي كمالُه. للّه مع آخرين شركة وانفتاح وحوار ومحبّة. إنّه إلهٌ–كلمةٌ يتكلّم مع سواه؛ إلهٌ–روحٌ يَهُبُّ ويَهِبُ ذاتَه لآخَرين؛ إلهٌ يُقيم حوارًا، ويَقطع عهدًا، ويُعلنُ عن نفسِه بنفسه بأشكالٍ شتّى. إلهٌ يَظهر ويتجلّى في الكون. إلهٌ يَسرُّه أن يُشركَ غيرَه بسعادته وملكوته.

ألّله خير مطلق. والخيرُ، في طبيعته، ذو علاقة. وهذه العلاقة تعني محبّة؛ أي محبّة اللّه في ذاتِه، ولذاته، ومن أجل ذاته. والقول بأنّ «اللّه محبّة» يعني أنّ المحبّة هي من جوهره وطبيعته وماهيّته. ولهذا هو خيرٌ مطلق، وخالق، ومخلِّص، ورحمان، ورحيم، وودود، وما إلى ذلك من الصفات العلائقيّة.

ثمّ إذا كانت المحبّة في جوهر اللّه فمعنى ذلك، حتماً، أنّ اللّه هو «أب» يحبّ فيخلق ويخلّص ويعتني ويرحم. يريد الخير والوجود والسعادة والسلام للآخَرين. هذه المحبة لا يمكنها أن تدور على محور الفردانيّة، بل هي خروج من ذاته الذاتيّة إلى ذاتٍ أخرى هي، حكماً، بمستواه. و«الإبن» وحدَه يستحقُّ أن يكون بمستوى «الأب».

ووجود محبّة بين الأب والإبن جعلتِ الإنسانَ يرتاحُ إلى اللّه، إذ لن يكون اللّهُ معه على غير ما هو عليه مع ذاته. هذه المحبّة ليست عرَضيّة؛ بل هي من جوهره. لقد أحبَّ اللّه فكان له «ابن». أحبَّ فكان له ما خلَق. والخلْق فعل محبّة من اللّه بامتياز. والخلاص أيضاً فعل محبّة بامتياز.

وهل من صعوبةٍ، بعد هذا، أن نقول بأنّ اللّهَ ينفتحُ علينا، ويسكن بيننا، ويشركنا في طبيعته؟! «ألشرْك»، بهذا المعنى، هو من طبيعة نظرة المسيحيّة إلى اللّه؛ فيما الشرْك في مفهومه الإسلامي هو تعدٍّ على وحدانيّة اللّه.

وهل من صعوبة، بعدُ أيضاً، على العقل بأن يقرّ ويقبل بإمكانيّة التزامِ اللّهِ لقضايا الإنسان جميعِها، الألم، والحزن، والعذاب، والصلب، والموت؟! هل هذه المحبّة هي للّه ذلّ ونقص، أم هي طريقٌ فُتحتْ أمام الإنسان لكي يشارك اللّهَ في ما هو له، وفي طبيعته الإلهيّة؟! بهذه الشراكة يُصبح الإنسانُ، في مفهوم المسيحيّة، مع اللّه وفيه. وبذلك أيضاً يصير اللّهُ، بحسب قول القديس بولس، كلاً في الكلّ، والكلّ فيه.

إذا كان الموتُ تعبيرًا عن علاقةِ الإنسانِ بهذا الكون، فيُخلي الإنسانُ، به، مكانَه لآخَرين، يكون معنى ذلك أنّ حدوثَ الموتِ في الكونِ رحمةٌ لا لعنة. رحمةٌ يُعبِّر عنها بعلاقة الكائنات بعضها مع بعض، إذ هي كلُّها تُخلي مكانَها لغيرها. ولهذا، لو لم يكنِ الموتُ لكان الشرّ أعظم. فهل من صعوبةٍ، إذًا، في أن يعْبرَ اللّهُ نفسُه، بكونه إلهَ–محبّة، في دهاليز الموت، وهو الذي شاء محبّةَ الإنسان بتفوّق وامتياز؟! فلكأنّ الموت، في هذا المنطق، هو تلك الحقيقة المميّزة للّه وللإنسان، والتي بها تتأكّد العلاقةُ بينهما وتتوطّد.

ثمّ إنّ اللّه، إذا كان «كائناً–واجبَ–الوجودِ–بذاتِه»، من جهة؛ و«إله محبّة»، من جهة ثانية؛ فهذا يعني أنّه سرّ عجيب حقًا : سرّ كائنٍ لا يحتاج إلى سواه إطلاقاً من جهة؛ ومن جهة ثانية، سرّ محبّةٍ لا يكون من دون علاقةٍ مع آخرين بمستواه، أو يشاء أن يرفعهم إلى مستواه،

بأن «يشركهم» في طبيعته وحياته الخالدة؛ أي: إنّ اللّه محبّةٌ في ذاته الذاتيّة. فلكأنّ المحبّة هي بنيةُ الألوهة ولحمتُها، حيث البشر مؤهّلون إلى أن يُصيروا من هذا المجتمع الإلهي وفيه. وهكذا يصير اللّهُ، مرّةً أخرى، كلاً في الكلّ، والكلّ فيه.

وهل بغير هذه المحبّة نطمئنّ إلى اللّه؟! أو نستطيع أن نكون من ذاك المجتمع الإلهي حيث يعنينا اللّهُ وكأنّنا أصبحنا ذاتاً من ذاته؛ أو كأنّه أصبح هو ذاتاً من ذاتنِا؟! وعندئذٍ ندخل في صورته المسيحيّة الثانية، حيث «تخلّى» عن ذاتِ ذاته، وعن ألوهيّته، من أجلنا.

***

٢. ألصورة الثانية لإله المسيحيّين هي صورة إله «تخلّى عن ذاته»، صُلب ومات وقُبر. والإنجيل كلّه ليس إلاّ رواية لهذا «الإله المصلوب»، مع مقدّماتٍ مفصّلة عن بعض حياتِه وتعاليمِه وأعمالِه التي توجّهنا نحو هذا الصليب، الذي يختصر كاملاً كلّ ما قيل وما لم يُقل عن عمل اللّه الخلاصي. آلام اللّه المصلوب قد حصلتْ، لهذا يجد المؤمن لآلامه معنًى، ورافضُ الصليب لا يجد لآلامه ولا لحياته معنًى. إنّ الآلام تُحدِّد أنظمةَ الشعوب وسياساتِها. هكذا هي آلام اللّه قد حدّدتْ مهمّتَه ودورَه في العالم

صليبُ يسوعَ فتح باب الكفر والإيمان على السواء : ألكافر لا يسعه استيعاب الصليب الذي يعني، في ما يعني، «موت اللّه» وفشلَه في مهمّته الخلاصيّة؛ والمؤمن، أيضاً، لا يفهم كيف يعلّق الإنسانُ اللّهَ على الصليب ويَنتصر عليه! كيف تنتصر الخليقة على خالقها؟!

ولكن، حتّى نفهم ذلك بعض الشيء، لا بدّ لنا من العودة إلى البدايات، أي عندما خلقَ اللّهُ الإنسانَ، خلقَه حرًا، حرًا حتّى في إنكاره ورفضه. واللّه نفسُه لم يُجبر الإنسانَ بأيٍّ دليلٍ على وجوده. فالإنسان حرٌّ في أن يقبل اللّهَ وفي أن يرفضَه. وهذا الرفض ليس، في حقيقته، سوى أوّل «صليب» علّق الإنسانُ اللّهَ عليه.

هذا هو «الصليب الأوّل» الذي حمله اللّهُ منذ الخلق، بسبب حرّيّة الإنسان في رفض اللّه. إنّ خلْقَ اللّهِ الإنسانَ حرًا لهو أوّل عمليّةٍ «تخلّي اللّه عن ذاته» بسبب هذه الحرّيّة ومن أجلها. بهذه الحرّيّة فتحَ اللّهُ أمام الإنسانِ أبواباً عديدة من التناقض والبلبلة : أباح له الكفر به، ورفْضَه؛ وأجازَ له القول حتّى بـ «موت اللّه». أكان هذا الموت في عقل الإنسان، أم في إقصائه إلى أعالي السموات، أم في قتله على خشبة الصليب.. إلاّ أنّ اللّهَ اختار الصليبَ لأنّ الصليب، في نظر العالم آنذاك، هو جهالة للحكماء اليونانيّين، وشكٌّ للمؤمنين اليهود. بهذا الصليب، الذي به «تخلّى اللّه عن ذاته»، وعليه صُلب الناموس والخطيئة وإبليس، أعاد اللّهُ للإنسانِ حرّيّتَه.

فحرّية الإنسان هي صليب اللّه. وبسببها صُلب اللّه، ومن أجلها أيضاً تخلّى اللّه عن ذاته، أي عن ألوهيّته. ثمن حرّيّة الإنسان، إذاً، ألوهيّة اللّه.

هذه الحرّيّة تعني، في ما تعني، وفي أسمى ما تعني، أنّ اللّهَ، عندما خلَق الإنسانَ، خلقَ، بإزائه، كائناً حرًا يقول له : نعم وَ لا. وبكلامٍ مسيحي نقول: لقد حمَلَ اللّهُ صليباً منذ أن خلقَ الإنسانَ حرًا. لقد خلق اللّهُ، بإزائه، حرّيّةً تنَالُ من ألوهيّته وسلطته المطلقة على الكون. خلق

ذاتًا في مواجهةِ ذاته، إنسانًا يقف في وجهه، رافضًا له. فكان له ذلك أوّل «صليب» حمله منذ البدء. وبه حكم بالموت على نفسه.

ولا يستغربنَّ أحدٌ مقدارَ تعاسة اللّه في صليبه، أمام عظمة الإنسان في حرّيّته. فلكأنّ حرّيّة الإنسان ملازمةٌ لصليب اللّه.

و«تجسّد اللّه» في يسوع المسيح إعلانٌ آخَر لهذا «التخلّي»، أو قل: إعلانٌ مسبَق لهذا «الصليب». و«الصليب»، بهذا المعنى، ليس سببُه مخالفةَ يسوع لناموس اليهود، كما ليس هو أمرًا محتّماً عليه، بل هو «هدف» سعى إليه بحرّيّته، من أجل الحفاظ على حرّيّة الإنسان، لكي يبقى الإنسانُ قابلاً اللّهَ ورافضاً له في الوقت عينه.

فـ «الصليب»، إذاً، ليس حدثاً مضافاً على هويّة اللّه؛ بل هو المعنى المسيحيّ النهائيّ والأكمل لعمل اللّه الخلاصيّ من أجل الإنسان. وهو المعنى الإنسانيّ الأمثل والأعظم للحفاظ على حرّيّة الإنسان.

بهذا «الصليب» كلُّ شيءٍ تدبّر وانتظم وتقرّر واكتمل. لكأنّ اللّه لم يخلق الإنسان، ولم يصبح إنسانًا حقيقيًا مثله، إلاّ من أجل الصليب. بـ «التخلّي» و بـ «الصليب»، انسلخ اللّهُ عن ذاته ليصبح «اللّه–معنا» أو «اللّه–من–أجلنا». وما كان له أن يصبح كذلك لو لم يدخل في ظلمات الموتِ كلِّها، حتّى «النزول إلى عمق أعماق الجحيم».

فهل قول الملحدين بـ «موت اللّه» أدهى؟ أم دخولُ اللّه في ظلمات الموت والجحيم هو الأدهى؟ ألا فليستفدِ الملحدون من إلحادهم؛ فإنّ اللّهَ قد زادهم إلحاداً. فهو يُسَرُّ بهم، وهم يُعلنون موتَه، أكثرُ من سروره بالمطئنّين إليه وبالرافضين موتَه. هؤلاء الملحدون هم،

للمسيحيّة، غنًى. وهي تعمل معهم بسبب ما يُعانون، ويَبحثون، ويقلقون، ويتساءلون. والقلقون هؤلاء هم أقربُ إلى قلبِ اللّه من المطمئنّين. وهو ينتظرهم عند كلّ منعطف.

من هنا كان لنا ألاّ نفهمَ ألوهيّةَ المسيح إلاّ في علاقةٍ مع موتِه على الصليب، وتخلّيه عن ذاته. ولهذا أنشد بولس مرارًا ما يُسمّى بـ «نشيد التخلّي الإلهي» أي Kénose . فقال فيه : «وَاضَعَ نَفسَه وَأطَاعَ حتَّى الموت، الموت على الصليب. لذلك رَفَعَه اللّه... كيما تَجثو لاسْمِ يسوعَ كلُّ ركبةٍ في السماءِ وفي الأرضِ وفي الجحيم، ويَشهَد كلُّ لسانٍ أنّ يسوعَ المسيح هو الرّبُّ تمجيدًا للّه الآب» (في ٢/٦-١١).

فـ «موت اللّه»، إذاً، ليس ضعفًا في اللّه، بل هو علامة قدرة وحرّيّة ومحبّة وخلاص في أسمى صورة «اللّه-من-أجلنا». وفي كلّ حال، مَن بوسعِه أن يعرف حدود اللّه؟!

إنَّ مفهومَ المطلق في اللّه ليس جوهرًا قائماً بذاته فحسب، بل المطلق، أيضاً، أن يكون للّه «علاقة» مع الكائنات التي خلق، أي أن يكون اللّه «محبّة» مجانيّة، أي أن يكون اللّه «شخصًا». وليس اللّه «شخصًا» إلاّ بمقدار ما «يتخلّى» عن ألوهيّته، و«يتغرّب» عن ذاته، يَرحل من سمائه، «يَصلب» نفسَه بمشيئته، «يموت» من أجل خلاصِ مَن يحبّ.. وذلك حتّى يجمع الكلَّ فيه، ويُصبح الكلُّ شريكاً له في مجتمعه الإلهيّ. ويصير اللّهُ عندئذٍ الكلَّ في الكلّ، والكلُّ فيه.

والكلمة الحقّ هي أنّ المسيح، في تجسّده وموته، هو «التفسير الذّاتي للّه» أو هو «ترجمة اللّه»، و«انفتاح اللّه» على الكون، وانطلاقته نحو البشر، وإقامة الحوار معهم، وتجلّيه لهم، وسكناه بينهم، وحلوله

فيهم، واستحالته إلى ما هم عليه، وتوحّدهم معه، وإشراكهم بألوهيّته... عبّر عن ذلك ابتهال الكاهن في قدّاسه: «وحّدتَ يا ربّ لاهوتَك بناسوتِنا، وناسوتَنا بلاهوتِك، حياتَك بموتِنا، وموتَنا بحياتك. أخذتَ ما لنا، ووهبتَنا ما لكَ».

بعد هذا كلّه، وإذا كان ذلك حقًّا، نسأل: هل كان على اللّه أن يتخلّى عن ذاته ويُصلَب ويموت؟ هل محتوم على اللّه أن يكون له هذا المصير؟ أي هل الموت من طبيعة اللّه؟ إذا كان ذلك كذلك، فهذا يعني أنْ ليس في موت اللّهِ أيُّ فعلِ محبّة؛ بل يبدو وكأنّه حَدَثٌ طبيعيّ من ذاتِ اللّه. ويكون معنى ذلك أنّ صليب المسيح «خدعة» ليس إلاّ. فهل يُعقل ذلك؟ أو: ما معنى ذلك؟

ألحق يقال إنّ تحمّلَ اللّهِ الألمَ والموتَ كان من أجل الآخَرين، تمامًا كما كان في خَلق الإنسان متخلّياً عن ذاته من أجل وجود غيره. وهل غيرُ اللّه يستطيع أن يفعل ذلك؟ أو هل غيره مثله يستطيع أن يتخلّى عن ذاتِه وكماله ومطلقيّته ليقيم له مع الآخرين علاقة محبّةٍ في عالَمٍ ناقصٍ خاطئٍ ضعيف مرتهن لكلّ ما هو نسبيّ؟!

هذه المحبّة، التي جعلت من «اللّه–في–ذاته» «إلهاً–من–أجلنا»، وحدَها، تستطيع أن تفسّر قبول اللّه «صليبَه» ليقضي به على «صلباننا». وكان ذلك بانتصاره على الموت بموته، وبقيامته من بين الأموات، وبلبسه جسداً ممجَّداً، وبصعوده إلى أبيه، وإرساله روحَه القدوس الذي به تكون سعادتنا الأبديّة مع اللّه في مجده.

وهل لنا، بعدُ، حاجةٌ إلى غير محبّة اللّه هذه، حتّى نتأكّد بأنّ موتَ اللّه على الصليب هو الصيغة النهائيّة لهذا العالم الذي نعيش فيه؟! وهل

نعرف اللّهَ حقَّ معرفته إنْ لمْ نعرفه فــي ضعفه وصليبه وموته وتخلّيه عن ذاته؟! لقــد شاء اللّهُ ألاّ يُعـرَف الإّ بواسطة آلامه وضــعفه وصــلبه وموته. لقــد شاء أن يعرفَه البشــر، لا من خلال كماله وعظمــتِه، بل من خلال ضــعفــه وصلبه وآلامــه وموته. وشــاء أن نمجّده، لا مــن خلال عظمتــه، بل من خلال وهنه؛ لا من خلال «قدرته الأزليّــة وألوهته» (رو ١/ ٢٠)، بل من خلال «يسوع المسيح مصلوباً» (١ قور ٢/ ٢).

بهذا، لا تفـيدنا معـرفةُ اللّه في مجـده شيئـاً : لقد «رضيَ اللّهُ أنْ يُخلِّصَ بجــهــالةِ البــشارةِ الذينَ يؤمنــون، لأنّ اليهــودَ يَطلبــون آيات، واليونانــيّينَ يَلتمِســونَ حكمةً، أمّــا نحنُ فننادي بمسيحٍ مــصلوبٍ، هو عِثارٌ لليهود وجَهالةٌ للأمم» (١ قور ١/ ٢١-٢٢). هكذا، فإنّ معرفة اللّه الحقــيقيّة تنطلــق من سرِّ صليب يسوع المســيح، لا من سرِّ اللّه الكائن المطلق.

***

رابعاً – إله يسوع المسيح

إله المسيــحيّين موضــوع إيمان، لا موضوع عــقْل : إنّه يطلب منّا إيماناً، لا أبحاثاً. نؤمن بوجوده فنجــده؛ ولكنّنا لا نستطيع أن نبحث عن طبيعــته، ولا عن ماهيّته، أو جــوهره؛ ولا عمَّن هو، وكيف هو، وكم هو، ولماذا هو، وما عمله فينا، وهل هو قريبٌ أم بعــيد، واحدٌ أم أكثر، ذكرٌ أم أنثى، في مكان أم في لا مكان، في زمان أم في لا زمان، مُغلَق على ذاته أم منفــتح على سواه، صــامدٌ لا يتــغــيّر أم هو يتــغيّــر، حيٌّ أبداً أم أنّه يستطيع أن يموت، لا يتعرّض للألم والموت أم أنّه يتألّم ويموت...

إله المسيحـيّين لا نعرفه بعقلنا. بل بالإيمان. والإيمـان يقتضي له مُخبِرٌ. ومَن يُخبِرُ عن اللّه مثلُ اللّه؟

لنذهب أبعد ونقـول: لا يعرف المسيـحيّون اللّهَ بالاسـتناد إلى ما دلّهم عليـه عقلـهم، أو بالاعتـماد على أدلّـة أرسطو، وتوما الأكـويني، وكانط، وسواهـم... هؤلاء دلّونا على ما يحتاجـه العقل، لا على مَن هو اللّه في حـقيقـته. لذلك قـال يسوع: أنا هو البـاب. أنا الأوّل والآخِر. أنا الألِف والياء. أنا الـطريق والحقّ والحياة. أنا النور. أنا الـرّاعي الصالح. أنا القيامة... يعني أنّنا بواسطته نعرف اللّه، لا بأيّ واسطة سواه.

وقـال أيضاً: «أَظْهَـرْتُ إسْـمَكَ لِلنَّاس» (يو ١٧/٦)، أي هو الذي أظهـر اللّهَ لنا، وعـرّفنا عليـه. هو الـواسطة إليـه. ألم يكن الناس، قـبلَ يسوع، يعرفون اللّـه؟ أم أنّهم كانوا يعرفونه على غير مـا عرّفهم عليه؟ وهل الأنبـياء الذين سـبقـوا يسوع لـم يكشِفـوا للناسِ عن اللّه؟ أم أنّ الناسَ لم يسمعوا للأنبياء؟

وهل قول يســوع هذا هو قول صعبٌ؟ مـشكّك؟ مثيرُ الإعـجاب؟ غير مألوف؟ أم أنّه قولٌ كقولِ أنبياءَ ورســلٍ سبقوه فقالوا مثلَ ما قال؟ وهل هذا القول هو من جملة الأقوال التي عليـها استحقّ يسوع الصلبَ والجلدَ والحكمَ بالموت؟

١ . هذا القول يعني أنّه ليسَ بوسعِ إنسانٍ أن يعرفَ اللّهَ من دون يسوع. أي لا يسعُ إنسـانًا –مسحـيًا بنوعٍ خـاصّ– أن يدّعي الوصول إلى الآب، كـما يقـول القـدّيس بولس، «لأنّا بِهِ نِلْنَا الوُصـولَ إلى الآب» (أف ٢/١٨).

وليس إنسانٌ يحقّ له معرفة اللّه بغيرِ الوسيط الوحيد الذي هو يسوع. ولا يستطيع أحدٌ أن يدركَ اللّهَ، أو أن يَدلَّ عليه، أو يبرهنَ عنه، أو يصلَ إليه إلاّ بواسطة يسوع وعن طريقه. فيسوع هو الدليل على اللّه، وهو الطريق إليه: «به نَقترِبُ منَ اللّه» (عب ٧/ ١٩)؛ «فهوَ قادرٌ أنْ يُخَلِّصَ الّذينَ بِهِ يُقْبِلُونَ إلى اللّهِ الخلاصَ كلَّه، لأنّه حيٌّ على الدّوام لِيَشْفَعَ لهم» (عب ٧/ ٢٥)[٦]، «وهو مات مِن أجلِكُم ليُوصِلَكُم إلى اللّه»(١/بط ٣/ ١٨)، و«الوصول بثقة» (أف ٣/ ١٢).

وهذا يعني أيضاً أنّ كلَّ برهانٍ على اللّهِ من غير طريق يسوع باطل، لا قيمةَ له. والمسيحيّ الحقيقي هو مَن عرفَ اللّهَ بواسطةِ يسوع، وعن طريقه. ومَن يدّعي أنّه يعرفُ اللّهَ من دون يسوع يطعن بما جاء به يسوع، وبما جاء لأجله؛ بل يطعن بيسوع نفسه.

٢ . لنوضح قولَنا أكثر: يستطيع الوثنيُّ، أو اليهوديُّ، أو المسلمُ، أو أيُّ إنسانٍ آخَر، أن يستدلَّ على اللّهِ مِن غيرِ طريق يسوع؛ إلاّ أنّه يستدلُّ بذلك على كائنٍ مطلَقٍ، كلّيِّ الكمال، كلّيِّ القدرة والعلم، خالقِ السماوات والأرض، لا يَحُدُّه مكانٌ ولا زمان، ولا يخضع للمتغيّراتِ ولا للآلام. إنّه كائنٌ كاملُ الصفاتِ والكمالات، استَلّها العقلُ مِن الكائنات، وأوجدها، بالمماثلة والمقاربة، في كائنٍ كامل إسمه اللّه.

هذه الكمالات السامية قد تفيدنا، من دون شكٍّ، في معرفةِ وجودِ كائنٍ كامل، ولكنّها لا تفيدنا في تعيينِ شخصيّةِ هذا الكائن، ولا في تحديدِ هويّتِه، ولا في رسمِ علاقتِه بنا وعلاقتنا به. إنّنا، مع هذا الكائن،

---

(٦) رَ: عب ٩/ ٢٤؛ رو ٨/ ٣٤.

وكأنّنا مع «كائنٍ ما» يتّصف بكلِّ الكمالاتِ؛ ولكن، من دون أن يعني «شخصًا معيّناً»، لنا معه علاقةٌ ما. هو «كائن» لا يعنينا في شيء، ولا يهمّنا أمرُه.

ولكن، إذا قلنا إنّ هذا «الكائن» المتّصف بهذه الكمالات هو «أبٌ» لنا، أو «أخ»، أو «ابن».. عندئذٍ نعرف أنّ هذا الشخص يعني لنا شيئًا. إنّه كائنٌ مميَّز، وليس كائنًا ما. مثل هذه العلاقة هي، في الحقيقة، من جوهر هذا الشخص المعيَّن، وليستْ عَرَضاً دخيلاً عليه. فالأب بكونِهِ أباً، أصبح بهذه العلاقة، وكأنّه شخصٌ آخر.

٣ . هكذا نقول عن اللّه؛ فهو، في الإستدلال عليه من غير طريق يسوع، كائنٌ غيرُ مميَّز، ولا علاقة له مع أحد، ولا يعنينا أبداً، ولا يهمّنا أمرُه، ولا يهمّه أمرُنا. هو لا يفيد، أكان موجوداً أم غيرَ موجود، أكان كلّيَّ الخيرِ والكمال، أم كلّيَّ الشرّ والضلال.

يسوع، وحدَه، حدّد اللّهَ، وعيّن علاقتَه بنا، ورسم موقعَنا بالنسبة إليه، وعرَّفَنا به أبًا محِبًا عطوفاً رؤوفاً، يهمُّه أمرُنا، يعمل على خلاصِنا. يسوع، وحده، «أظهر اللّهَ للناس»، و«كشفَ لهم» عن حقيقته الأبويّة.

٤ . ينتج من ذلك: أنّ ما يقوله الوثنيّ واليهوديّ والمسلم وغيرهم عن اللّه إنّما هو بالنسبة إليهم، قولٌ صحيح. وتأتي صحّتُه من منطقِ القولِ بواجبِ وجودِ كائنٍ مطلقٍ، خالقِ الكون... أمّا، بالنسبة إلى المسيحيّ، فهو قولٌ لا يفيد شيئاً. بل هو عَودٌ إلى الوراء. هو كحالِ مَن ترَكَ أبوّةَ أبيهِ وعلاقتَه المميَّزةَ به ليعودَ إلى أبيه عودتَه إلى أيِّ إنسانٍ لا علاقةَ له به، ولا يعرفه إلاّ بكونِه إنسانًا عاديًا له صفاتٌ إنسانيّةٌ عامّة.

فأيٌّ أبٍ هـو ذاكَ الذي لا يتمـيَّز، بالنسـبة إلى بنيـهِ بشيء! وأيّ إلهٍ هو ذاك الذي لا يتّصف إلاّ بصفاتٍ عامّةٍ ومطلقة!

٥ . إذا كان على اليـهوديِّ والوثنيِّ والمسلم وغـيرِهم أن يبحـثوا عن اللّه بواسطة العقل والحكمـةِ البشريّة، على ما قـال بولس الرسول عن الوثنيّين[٧]، وهو أمر جائز بالـنسبة إليهم؛ فإنّه، علـى المسيحيّ، أن يبحثَ عن اللّهِ على نور يسوع وعن طريقه، وهذا أمرٌ لا يجوز له غيره.

لهذا نقول : إنّ مـعرفةَ اللّه الطبيعيّـةَ، وعلى نور العقل، ليست في الحقـيقةِ إلاّ مـعرفـة تعالجُ قلقَ الإنسان حـيال أسـرار الكون وألغازه. وبهذا فضلُ الباحثين عن أسـبابِ الكائنات وعللها. وهو ما توصّلتْ إليه «الأديانُ» و«الفلسفات» جـميعها. أمّـا معرفة المسيـحيّين للّه فليستْ إلاّ من طريق يَسوع المسيح وبـواسطته؛ لأنّها إنّما هي معـرفةٌ لجوهرِ اللّهِ وعلاقتِه بنا وعلاقتِنا به.

٦ . إنّ الذين عرفوا اللّه بواسطةِ يسـوع دخلوا حقًّا في سرِّ اللّه. وها هم يسمـعون يسوع يقـول لهم: «إنِّي عَرَّفْتُكُمْ كُلَّ مَـا سَمِعْـتُهُ مِنْ أَبِي» (يو ١٥/ ١٥). ولهذا نقـول: ليستْ قوّةُ إيمانِنا باللّه مسـتمَدَّةً من منطقِنا ومن الحكمـةِ البشـريّة والأدلّةِ العقليّـة؛ بل من وساطة يـسوع ونعمتِه، بكـونِه الإبنَ الأوحد الذي فيه ظهرتْ محبّـةُ اللّهِ للبشر[٨]. كما وإنّ خلاصَنا لـيس «بِأعْمَالِ بِرٍّ عَـمِلْنَاهَا» (تي ٣/ ٤)؛ بل بعـملِ يسوع الذي جـدّدنا بروحٍ قدُسٍ. فـهل على المسـيحـي، بعد هذا، أن يعـودَ إلى

(٧) ١ قور ١/ ١٩؛ روما ١/ ٢٢.

(٨) راجع : طيطس ٣/ ٤.

العقلِ وبراهينِه ليعرفَ سـرَّ اللّهِ مِن وراء ظهرِ يسوع، أو من دونه؟! إنّه لأمرٌ عَجَب.

٧. مثل هذا التوجّـه عبّرتْ عنه أقوال ومواقف عـديدة في العهد الجديـد: لقد قال يـسوع بوضوح: «مَـا مِن أحَدٍ يَعْـرِفُ الآبَ إلاّ الإبْنُ، ومَن يَشـاءُ الإبنُ كشْفَـه لَه»[٩]، «ألإبن الأوحدُ اللّهُ، الكـائنُ في حضنِ الآبِ، هُوَ هُوَ خَبّر» (يو ١/ ١٨). يسوع وحـدَه شاهدَ وجهَ اللّه، لأنّه ابنُ اللّه؛ ويسـوع وحدَه تكلّم على الـلّه وخبّـر، لأنّه كلمةُ اللّه الموجـود في حضنِ الآب منذ الأزل وإلى الأبد.

هذا الكلام الرائع في الإستدلال على ما نقـول يوضحه كلام آخر: «مَا مِن أحَدٍ رأى الآبَ إلاّ الّذي مِن لدنِ الآب. فهو قَد رَأى الآب» (يو ٦/ ٤٦). أمّا غير يسوع، مهما كان وضعُـه ومقامُه وموقعُه من اللّه، ومهما كانتْ قداسـتُه وبرارتُه ومكانتُه، أكان نبـيّاً ملهَماً، أم رسـولاً غيوراً، أم ملاكاً مقـرَّباً، أم راءٍ صاحبَ إيحاءاتٍ وإلهامات، فلا يسـتطيع مشاهدةَ وجهِ اللّه، وبالتـالي لا يستطيع أن ينقلَ إلينا عن طبيعـةِ اللّه أيّةَ صورةٍ حقيـقيّة، ولا يستـطيع أن يقدِّم لنا أيّ دليل مقبـول؛ ذلك لأنّ الفرقَ بين مقدورِ عـقلنا وبين طبيعة اللّه شـاسع جدًا. ولا مجال معـه للاستدلالِ على أيّ شيء.

ومثله قول آخـر ليسوع: «أنا أعرفُـه (للآب)، لأنّي مِن لدُنْهِ جئتُ. وهو أرسلَني» (يـو ٧/ ٢٩)، أمّـا العـالَم فـلا يعـرِفُـه. هذا هو الواقع الحقـيقي مع اللّه: نحن، بكونِنا أبـناء هذا العالَم، لا نستـطيع أن نعرفَ

---

(٩) متى ١١/ ٢٧؛ لوقا ١٠/ ٢٢.

اللّه: «أنتم لا تَعرفــونَه. وأنَا أعرفــه» (يو ٨/ ٥٥). كلام واضـح: نـحن لا نعرف اللّه، لأنّنا لم نكن عنده، لأنّنا غــيرُ قادرين على معــرفته: «مَن هُو في حــضنِ الآب هو هو خــبّر» (يو ١/ ١٨)، هــو هو شاهدَ اللّــه وجهـاً لوجه وعرفَه: «ما عَرَفكَ العَالَم.. وَعَرَفْتُك أنَا» (يو ١٧/ ٢٥).

«قـد عرّفــتهم إســمَك وسأُعَــرِّف» (يو ١٧/ ٢٦). هذا كلامٌ آخـر ليسوع يضـع الحقَّ في نصابه. إنّ أتْباعَ يســوع ليسوا هم الذين تعرّفوا على اللّه بأنفـســهم وبقـدراتهم الذاتيّــة؛ بل يسوع هو الــذي خبّــرهم. ويسوع يكمّل مهمّتَه هذه حــتى نهاية العالَم؛ لأنّه، يومَ يكفّ عن متابعة عمله «التَّــعْريفي» هذا، وعن تدريب أتبــاعِه على «المعــرفة»، يكفُّ هؤلاء عن معرفة اللّــه. يسوع يواصل عمله، وإلاّ كان عملُه موقّــتاً، أي ناقصاً، وبالتالي خــاطِئاً وباطلاً أيضاً...لهــذا فيسوع حــاضر لمهمّتــه ومواظِبٌ عليها: «عرّفتُهم وسأعرِّف».

٨ . نستنتج ممّا سبق أنّ اللّه كشَفَ لنا عن نفسه، بطريقةٍ نهائيّةٍ وكاملة، في شخصِ يسوع المسيح. وفي ذلك لم يبقَ له شيء يحتفظ به لنفسهِ بعدَ أن أعطانا ابنَه الأوحد، «فالّذي ما ضَنَّ بابنِه نفسِه... كيفَ لا يُنعِمُ علينا معه بكـلِّ شيء؟!» (رو ٨/ ٣٢). «والسرّ المكتوم منذ الدهور كُشِفَ الآن.. بيســوع. وبيسوع نبّشــر، ونعلّم، ومن أجله نجاهد.. لكي نجعلَ كلَّ أنسانٍ في يسوع كامِلاً» (قول ١/ ٢٧-٢٨).

ففي «ســرّ اللّه هذا أعني المسيــح» نجد «غنًى ملءِ اليقــينِ والفهمِ المكنونةِ فيه كنــوزُ الحكمةِ والمعرفةِ كلّها» (قــول ٢/ ٢-٣). «فحَذَارِ أن يَخلِبَكُم أحدٌ بالفلســفة» (قول ٢/ ٨)، أي بالحكمةِ البــشريّة، والبراهين العقليّة؛ بل بيسوع وحده، الذي به أصبحَ اللّهُ في متناوَلِنا.

٩ . ونقـول أيضًا: إنّ أقـوال يسوع بـأنّه هو هو الذي «خبّـر عن الآب»، و«أظهر اسـمَه للنّاس»، و«كشفـه لمن يشاء»، وغيـرها من أقوال ممثالة عديدة، إنّمـا هي تعني أنّ أحدًا غير يســوع لم يخبّر عن اللّه، ولم يُظهرْه للناس. وكأنّهـا أقوالٌ تطعن في الحكمة البشـريّة، وفي مقدّرات العـقل، وتـطعن في تعـاليم الـرّسل والأنبـيـاء، وفي الوحــي الســابق ومدلولاته... هذا هو الغريبُ، المشكِّكُ، المثيرُ للعجب.

١٠ . والأغربُ من كلّ هذا، أنّ المسيحــيّ الذي يؤمن بيسوع قد لا يجوز له، بعد إيمانه هذا، أن يعرفَ اللّهَ إلاّ بواسطةِ يسوع وعن طريقه. فهو «الوسيط الوحيد» بيننا وبين الـلّه. هذه المعرفة الإلهيّة التي تحصل لنا بواسطة يســوع، وحدَها جـائزةٌ لنا... ومَن يقول إنّه يعـرف اللّهَ من غير وساطة يسوع، لم يدخل في سرِّ اللّه بعدُ، ولا ينتمي إلى المسيحيّة، ولا إلى الكنيسة ولا إلى الإيمان القويم.

***

خاتمة

في الختام نقـول : ليس بمقدور اللّه أن يتخلّى عن ألوهيّـته لأحد؛ ولا من طبيعته أن ينحدر إلى البشر، ويصير مثلهم. إنْ صنَع أفسد ذاته وتلاشى. وأيضاً ليس في وسْع الـطبيعة البـشريّة المخلوقة أن تتـعالى وتتشامخ لتتصل إلى اللّه خـالقِها، وتشاركه في ألوهيّته. فـهذا يجعلها تفقد هوّيتها وحقيقتَها.

إنّ اللّه، عندما يصبح شـريكاً في الألوهة مع أحد، يبطل أن يكون إلهـاً. فـ «الشِّـرْك» أي القول بتـعـدّد الآلهـة، مرفـوض قطعـاً. بل هو

إنكارللألوهة وكفرٌ بهـا. والإنسان، عندما يظنّ نفسَه مـشاركاً اللّهَ في ألوهيّته، هو إنسانٌ مجنونٌ.

بين طبيعة اللّه وطبيعة الإنسان فروقات جوهريّة، إنْ ألغيتُ أُلغي واحدٌ من الإثنين : إمّـا أن يُلغى اللّه فنقع في «الدهريّة» والإلحـاد؛ وإمّا أن يُلغى الإنسان، فنقع في هيمنة إلهيّة مطلقة، من شأنها القضاء المبرم على حرّيّة الإنسان.

والفـروقـات الجـوهريّة هي هذه : إنّ اللّه روح مـحض، فـيـمـا الإنسان مادّة ويـعيش في عالمِ المادّة. ألّله كائن مطلق، والإنســان كائن نسبي. ألّله واجب الوجود، والإنســان ممكن الوجود. ألّله خارج الزمان والمكان، والإنســان رهين الزمــان والمكـان؛ ألّله كلّي الخـيـر والكمـال، والإنســان جبـلة نقصٍ وخطايا. ألّله لا يدخل في عـداد الجنس والعـدد والشكل والنوع، أمّا الإنسان فلا يكون إلاّ في جنس وعدد وشكل ونوع ...

ولكن أيضاً، لا يسـتطيع إنسانٌ أن يعرف اللّه، أو يتمـتّع بسعادة اللّه، وهو جالسٌ خارجَ اللّه، لم يدخـل طبيعتَه الإلهيّـة، ولم يشاركْه في حياته.

بقي أن يأتي اللّهُ نفسُه إلى عند الإنسان ويلبس طبيعتَه البشريّة، ويسكن مـعـه، ويشركـه في ألوهيّـتـه. ولولا هذه المبادرة الإلـهيّـة لما استطاع إنسانٌ أن يعرف اللّه، وأن ينعم بسعادته.



٥

ألثالوث

١ . ألإيمان المسيحي يقوم على ما يلي: «عبادة إله واحد في الثالوث، والثالوث في الوحدة، بغير خلْطٍ للأقانيم، وبغير تقسيمٍ للجوهر: إذ إنّ للآب أقنومَه، وللابن أقنومَه، وللروح القدس أقنومَه؛ ولكنْ للآب والابن والروح القدس الألوهةُ واحدةٌ، والمجدُ واحدٌ، والسيادةُ واحدةٌ في أزليّتها»[1].

٢ . ليس لنا، إنطلاقاً من هذا التعريف واستناداً إليه، أن نُفاضل بين "التوحيد" و"الثالوث". فالمفاضلةُ تعني اختلافاً بين القولَين؛ فيما يؤمن المسيحيّون بالتساوي التامّ، في الجوهر والكمالات، بين الأقانيم الإلهيّة الثلاثة.

٣ . هذا وإنّ المسيحيّين يصرّون، مع قولهم بـ"الثالوث"، على أنّهم موحِّدون، يؤمنون بأنّ «اللّهَ واحد، ولا يوجد إلاّ إلهٌ واحد.. واحدٌ

(١) قانون الإيمان «كلّ مَن» Quicumque : د ٧٥؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٦٦.

بطبيعتِه، وجوهرِه، وإنِّيَّتِه»[٢]؛ وقانون إيمانهم يبدأ بهذا الإعلان : «نؤمن بإلهٍ واحدٍ»، وهو عندهم صلاةٌ واعترافٌ يوميّ. كما يُصرّون أيضاً، مع قولهم بـ "التوحيد"، على إيمانهم بأنّ اللّه، في طبيعتِه وجوهرِه وإنِّيَّتِه، «أب وابن وروح قدس»[٣]. هذا هو إيمانهم وإيمان الكنيسة جمعاء، منذ البدء حتّى آخر الدهر.

٤ . هذا الاعتراف بوحدانيّة اللّه إنّما هو إيمانُ كلِّ مؤمنٍ بوجودِ إله. و«الاعتراف بوحدانيّة اللّه.. لا يمكن فصلُه عن الاعتراف بوجود اللّه. وهو أساسيّ مثله أيضاً»[٤]. فالوثنيّون أنفسهم، مع تعدّد آلهتهم، يقولون بأنّ إلهاً واحداً، عظيماً، هو، وحدَه، في رأس الهرم. هو إله الآلهة، وربّ الأرباب، وسيّد السادات، وملك الملوك. ألتوحيد مطلبٌ عقليٌّ، لا يرتاحُ مؤمنٌ بإلهٍ إلاّ بالشهادة لوحدانيّته؛ كما لا يطمئنّ عقلٌ إلاّ بالقول بهذه الوحدانيّة.

٥ . ألمسيحيّون يؤمنون أيضاً بأنّ اللّه الواحد، ولكنّهم يقولون أيضاً بأنّه ثالوث؛ أي إنّ «الوحدة الإلهيّة ثلاثيّة». «فالأقانيم الإلهيّة لا يتقاسمون الألوهة الواحدة، ولكنّ كلّ واحد منهم هو اللّهُ كاملاً»؛ ولكنّهم «متميّزون تميُّزاً حقيقيّا في ما بينهم»، «وذوو علاقة بعضهم

---

(٢) التعليم المسيحي الروماني ١، ٢، ٨؛ ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٠٠.

(٣) رَاجع : متى ٢٨/١٩؛ ١ يو ٥/٧ ، حيث «نصّ هامشيّ دخل على النصّ الأصلي، في ترجمة الفولكات، كما يلي: إنّ الشهود في السماء ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس. والشهود في الأرض ثلاثة: الروح والماء والدم. وللثلاثة هدف واحد». رَاجع حاشية في إونجليون على ١ يو ٥/٧-٨.

(٤) ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٠٠.

ببعض»[٥]. يقول القديس غريغوريوس النزينزي: «ما إنْ آخذُ في التفكير بالوحدة حتّى يغرقني الثالوثُ في ألَقِه. وما إنْ آخذُ في التفكير بالثالوث حتّى تشدّني الوحدة»[٦].

٦. ونقول أيضاً: إنّ هذه الشراكة الثالوثيّة في اللّه، على صعوبة إدراكها، قد تكون أسهلَ منالاً على العقل من القول بالتوحيد المطبَق: ففي القول بالتوحيد، يبدو اللّهُ واحداً، أحداً، صمداً، متعالياً، جبّاراً، بعيداً، غريباً، مغلَقاً، منعزلاً، مغَيَّباً... لا علاقةَ له مع أحد، ولا يجب أن يكون له علاقة مع أحد. لقد خَلَقَ ما خلَق، وابتعد عمّا خلق؛ لئلاّ ينالَ ألوهيّتَه شيءٌ من نجاسة المادّة. وهو، بهذه الحال، لا محبّة عنده لأحد، ولا رحمة، ولا عناية. لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ. إنّه مساوٍ لذاته، لا يميل باتّجاه أحد، ولا يلين قلبه لأحد.

الثالوث يتأسّس على أنّ اللّه محبّة

٧. ثمّ إنّ القولَ بالثالوث قد يكونُ لخيرِ الإنسان وسعادته أكثر من التوحيد الذي قد يكون إرضاءً لعقله فحسب. ولئن كان القولُ باللّه الواحد أقربَ إلى العقل وأسلم، فإنّ القولَ بالثالوث أغنى للإنسان وأسعد. فلكأنَّ الإنسانَ لا يسعه أن يُحِبَّ اللّه، ولا أن يطمئِنَّ إلى أنّ اللّهَ يُحِبُّه، إذا ما لم يجد في طبيعة اللّه وجوهره حبّاً في ذاته، بين ذاتِه وذاته، أي بين ذاتِه وذاتٍ أخرى بمستواه.

---

(٥) راجع: التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٥٣-٢٥٥.

(٦) خطابات القديس غريغوريوس النزينزي، ٤٠، ٤١؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٥٦.

٨ . والإنسانُ أيضــاً قد لا يطمئنُّ إلى أخيــه الإنسان، ولا يمكنه محبّته، إلاّ إذا اطمــأنّ إلى إلهٍ يُحِبُّ، وتتفاعلُ المحبّةُ في ذاته، أي بين ذاته وذاته، وتتفاقم هذه المحبّة حــتّى تخرجَ من ذات اللّه إلى الإنسان نفسه، بل إلى الكائنات كلّــها؛ ثمّ بين هذه الكائـنات بعضــهـا مع بعض. فلو لم يكن اللّهُ محبَّةً في ذاته لذاته، لما كان في الكون أحدٌ يُحبّ أحداً؛ وبالتالي لما كان استمرارٌ في الوجود.

٩ . فالقولُ بالتوحيد المطبق يؤدّي حــتماً إلى مواقفَ جامدة بين البشر، كما يؤدّي قطعاً إلى قتالِ بعـضـهم بعضاً، وعداوات طاحنة فيما بينهم. فكيف يُحبُّ الإنسانُ أخاه إنْ لم تتأسّس محبّتُه على إله يُحِبُّ في ذاته مَن هو في ذاته من طبيـعته؟ وما هو مبـرِّرُ محبّةِ البشــر بعضـهم لبعض إنْ لمْ تكن هذه المحبّة موجـودة أصلاً في جوهر اللّه؟ وما الدافع إلى أن لا ينهش البشر بعضـــهم بعضاً كالذئاب، إنْ لمْ يكنْ لهم في اللّه مثال من المحبّة وقدوة؟

١٠ . إنّ القولَ بشــراكة في طبـيعــة اللّه وبأنّ «اللّه محــبّة»، هو الذي يجعل المحبّة بين البشر ممكنة، وإلاّ فشريعة الغاب، والسنّ بالسنّ، أَولى. مَن يؤمن بمحــبّــةٍ في اللّه يؤمن، بذات الفــعل، بأنّ اللّهَ شراكــة، وعيلة، ووحدة ثالوثيّة مؤلّفة من أب وابن وروح قدس. والإنسان الحقّ ثالوثيٌّ أيضاً لا محالة، لأنّه ذو بعد جــماعيّ، خير ما يتألّف منه أب وأمّ وبنون.

١١ . نقــول لمنكري الثالوث: لقــد توفّق الملحــدون في إنكار اللّه. فــهم بإنكارِهم اللّهَ الواحــد، أو بإثبــاتهم إيّاه، سَــيّــان. أكــان هذا الإله موجوداً أم كان معدوماً، فهو سيّــان؛ أكان حاضراً أم كان غائباً، فهو لا

يفيدُ ولا يضرّ. ولا شأنَ له مع الإنسان. هذا «اللّه الواحد» بوحدانيّةٍ مطبقة لا حياةَ في داخله، لا انفتاح منه على أحد بمستواه، لا حوار مع أحد سواه. إنّه لا يتجلّى لأحد، إذ لا محبّة تحرّك طبيعته، وتخرج من ذاتهِ إلى ذاتٍ أخرى من طبيعته. ألإلهُ الواحد إلهٌ مطبق، مُغلَق، معزول. هذا الإله أفاد الملحدين جدًا ويُفيدهم دائماً. وهو نفسه منحهم براءةً لإلحادهم.

إسم اللّه "أب"

١٢ . إنّ اللّهَ، في إيمان المسيحيّين، "أب"، وإنْ لم يكن اللّهُ "أباً" فإيمانهم باطل. هم يصرّون على أن يكون اللّهُ "أباً"؛ بل يفضّلون اسم "الأب" على أيِّ إسم آخر، وحتّى على اسم «اللّه» نفسه. وذلك لأنّ لفظة "اللّه"، لا تعني لهم شيئاً، تماماً كلفظة "إنسان" للأب البشري، فهي لا تعني لبنيه أيَّ شيء : فمَن مِن الناس يدعو أباه: "إنساناً" بدل "أب"؟!.. صحيح أنَّ أباه هذا إنسان، ولكنّ تسميتَه باسم العلاقة أولى. صحيح أنّ اللّهَ إله، ولكنّ تسميتَه باسم العلاقة بينه وبيننا أيضاً هي أولى.

١٣ . ثمّ إنّ إسم "اللّه"، بحسب اللّغة، «إسم جنس»، أو إسمٌ عامٌّ، أو إسم مشترَك بين الجميع. هكذا يُسمّيه الوثنيّون، واليهود، والمسلمون، والمسيحيّون، وغيرهم. إسم "اللّه" هو اسمٌ لـ"كائن" مطلق، غير معيَّن، ولا نعرف على مَن يُطلَق بالتحديد. فهو عند الجميع «إله»؛ ومع ذلك، فإنّهم يختلفون في تعيينه وتحديده، وفي دوره الخلاصي، وبُعدِه عن العالم أو قربه منه، وعلاقته به.

١٤ . ثمّ إنّ إسم "اللّه" ليس هو الاسم الذي يطربُ له اللّهُ كثيراً. هذه التسمية لا تعني سوى ما توافق عليه البشر، بعضهم مع بعض. فاسم إله المسيحيّين "أب"، أو "آب" (من أصل سرياني: آبُو). هذا الاسم يُظهر هويّته الحقيقيّة. ويُظهر أيضاً مهمَّتَه الخلاصيّة، كما يُظهر علاقتَه بالكائنات التي خلقها، وبالإنسان الذي ميّزه عنها، فأحّبه وخلقه، وخلّصه، واعتنى به ووعده بميراثه. فاللّه، إن لم يكن «أباً» فهو لا يفيد شيئاً؛ بل الأفضل رفضه، أو إنكاره، أو اللاّمبالاة به، لأنّه سبب معاناة.

... وللآب ابن وحيد

١٥ . هذا اللّه هو "أب" لابنٍ وحيد. وليس من الضرورة أن يكون له أكثر من ابنٍ واحد؛ لأنّ المحبّة بين اللّهِ الأبِ وابنِهِ الوحيد هي محبّة كاملة، شاملة، تامّة، ناجزة، لا تحتاجُ إلى تعدّديّة، كما هو الحال بين البشر الّذين يُثبتون كمالَ أبوّتِهم وعاطفتهم وحاجتهم وشدّة بأسهم بكثرة البنين.

١٦ . إنّ فرح «الآب» هو أن يتأمّل، من دون انقطاع، بالمحبّة المتبادلة بينه وبين ابنه الذي ولده. إنّ الآب لا ينظر إلى ذاته إطلاقاً. إنّه ينظر إلى ابنه، ويتأمّل ذاتَه فيه. فيه يُعرَف، ويُعبَد، ويُحبّ. ولا يبرح مدهوشاً بحبٍّ ابنه الدائم والمتدفّق أبداً: «أجل أنت ابني الحبيب الذي فيه وضعتُ كلّ دهشتي»[٧]، أو «الذي به سُررت». فالابن، إذاً، هو انعكاس بهاء الآب الخاص.

---

(٧) رَ: متى ١٧/ ٥.

١٧ . وعندما جاءَ الابنُ إلى الأرض، كانت مهمّتُه الأساسيّة ورغبتُه الدائمة تحويل البشر جميعهم إلى أن يصيروا عبّاداً للآب[٨]؛ بل صار الابنُ إنساناً مثلهم، ليصيّرهم أبناءَ اللّهِ مثله. إذ لا يحسن، في عيلة اللّه، أن يبقى أحدٌ، في نهاية الدهر، خارجاً عنها. فلكأنّ سرَّ خلاصِ العالم يقوم في نهاية المطاف على أن يدخل الجميع في العيلة الإلهيّة الثالوثيّة، حيث اللّهُ الآب يُحبّنا، ونحن نحبّه؛ ونكون أبناء مثل ابنه، وروحانيّين مغمورين بروحه. يريد الابنُ من إخوته البشر أن ينشدوا للآب نشيداً واحداً. وقد نزل من عند الآب ليُصعدهم معه إليه.

... أمّا روح القدس

١٨ . ألروح القدس، من هو؟ يقول الابنُ لأبيه: «فليكن الحبّ الذي أحببتني به فيهم»[٩]. «ألحبّ الذي أحببتني به»، أي: ألحبّ المتبادل بين الآب والابن هو حبّ دافق أبداً. هذا الحبُّ وحيدٌ من نوعه، فريد في طبيعته، لأنّه يتمّ بين أبٍ وابنٍ كاملَين. وهذا الحبّ الفريد لا يكون في تمامه وكماله إلاّ إذا أصبح ذاتاً حقيقيًا دائمَ الحضور مع الآب والابن. ويفعل فعلَه في العالم ليصيّره، في نهاية المطاف، في ذاك المجتمع الإلهيّ المدهش.

١٩ . لنخاطر في هذا المَثَل ونقول: عندما يشتدّ الحبّ بين زوجَين يروح الزوجان في الكلام عن حبّهما وكأنّه شيء مميَّز مستقلٌّ عنهما : يتذكّران معاً متى ابتدأ هذا الحبّ، ومتى كبر ونما. ويخشيان

---

(٨) رَ : يو ٤/ ٢٤.

(٩) يو ١٧/ ٢٦.

عليه من كلّ خطرٍ يهدّد وجوده. وعندما يعرفان أنّه سيكون لهما، به، فرحٌ بمولود، يشعران وكأنّ هذا المولود هو هو هذا الحبُّ الذي يتكلّمان عليه. هذا الحبّ هو أفضل تعبيرٍ حيٍّ لهما. هو من طبيعتِهما، وكيانهما، وجوهرهما. هُو هُما خارِجٌ عنهما، حاضرٌ معهما.

هذا التشبيه، على بعده، يقرّب لنا مفهوم الحبّ القائم بين الآب والابن. إنّه سرّهما، الذي يربط بينهما في صميم العيلة الإلهيّة. غير أنّ هذا الحبُّ ليس ولداً في هذه العيلة. فالرُّوح «لم يولَد» من الآب والابن، بل «ينبثق» منهما، و«يفيض» عنهما، كتعبيرٍ دائمٍ لحبّهما. عندما يقول الآبُ لابنه: «إنِّي أُحِبُّكَ»، وعندما يقول الابن لأبيه: «إنِّي أُحِبُّكَ»، فهذا الحبّ المتبادل هو الروح القدس المنبثق منهما والفائض عنهما. تبادلُ الحبّ بين الآب والابن، بكونه تبادلاً مستمرًّا، فاعلاً، ثابتاً هو فعلٌ فاعلٌ من طبيعة الآب والابن.

الثالوث الإلهي حلْمُ كلّ جماعة بشريّة

٢٠ . ألثالوث الإلهي يحقِّق حلْمَ كلّ جماعة بشريّة، عائليّةً كانت أم مدنيّة؛ بل هو مثالُ كلِّ عيلةٍ بشريّة : هم واحد على تعدّدهم. يأخذون قرارَهم بالإجماع. ويعبّرون عن إجماعهم بكلمة واحدة؛ يدفعها الروح إلى خارج نطاق الألوهة.

لقد خُلقنا على صورةِ إلهٍ ليس وحيداً، ولا منعزلاً. إنّه إلهٌ سعادتُه في أن يكون على علاقة مع آخرين، أي في أن يكون في حالة حبٍّ دائم. والإنسانُ أيضاً يعرف بأنّه لم يوجد ليبقى وحيداً، بل ليعيش «مع» آخرين، و«من أجل» آخرين. ليس من سعادة حقيقيّة من دون

فرح الحبّ المتبادَل.إلاّ أنّ هذا الحبّ لن يُلغي ذاتيّة أيٍّ طرفٍ من المحبّين. ففي الحبّ احترام لحرّيّة كلّ محبّ، من دون أن تضرّ بالوحدة القائمة بين المحبّين.

أبوّة الله الآب

٢١ . إذا كان في قلب كلّ أبٍ وأمٍّ بشريَّين رغبةٌ في إعطاء الحياة، وفي جلب السعادة والحبّ لأبنائهما، فلا يجب أن نندهش، لأنّ هذا من طبيعة الحبّ، وعلى صورة إلهٍ أبٍ هو محبّة، و«منه كلُّ أبوّةٍ تأخذ اسمَها» (أف ٣ / ١٥). بل ليس أبٌ سواه، أو بمستواه. إنّه أبٌ أبداً، بل مصدر الأبوّة، وأصل كلّ أبوّة.

٢٢ . هذه الأبوّة هي سرُّ إلهٍ يدهشنا باستمرار: منذ الأزل، وقبل خلق العالم، كان اللّهُ أباً؛ لأنّه، منذ الأزل، كان أباً لابنٍ وحيد، وبعد خلْق العالم، طوّر أبوّته حتى شملت الكائنات كلّها، وقد أعطى لهذه الكائنات أن تمارس الأبوّة هي أيضاً. هذه الأبوّة الإلهيّة تُفهمنا أنّ الكائنات البشريّة لا يمكنها أن تكون سعيدةً وهي منعزلة: إنّها مخلوقة على صورة اللّه–الشركة، لا يمكنها أن تحيا حياة كاملة إنْ لم تحْيَ مع آخرين، ومن أجل آخرين.

٢٣ . لا نقولُ ما نقولُه عن اللّه بسبب أنّنا نعرف هويّتَه وطبيعتَه؛ بل نقولُ ذلك لصعوبةِ معرفتنا له في وحدانيّةٍ مطبقة، وصمدانيّةٍ مغلقة على عقولنا. هذا وإنّ التعامل مع إلهٍ تتفاعل في طبيعته المحبّة، فيُحبّ ذاتَه، ويستطيع، بهذه المحبّة، أن يخرج من ذاته إلينا، وأن يُشركَنا بحياته وحتّى بطبيعته الإلهيّة، هذا الإله هو سهلٌ عندنا مقاربته ومعرفته والتماس رحمته.

اللّه، في كلّ أحواله، غير مدرَك

٢٥ . أكان اللّهُ واحـداً أم ثالوثاً، فهو غـيرُ مدرَك، وغيـرُ خاضـعٍ لمنطق العقل. إنّه، في كلّ حالاته، يفوق العـقلَ والعددَ والواحدَ والكثرة؛ كما يفوق الجنسَ والنّوعَ؛ ويخـرج عن المادّة، وعن المكان والزمان. وما نقوله عن اللّه بـأنّه واحد أو ثالوثٌ، وما نُضـفي عليه من صفـات، وما نُعطيه من مـهمّات، وما نسـمّيه بأسمـاء بشريّة، من أب وابن وروح... كلّها أسماء وألفاظ وصفـات وأدوار من لغتنا البشريّة العاجزة أبداً عن سـبر أغـوار سـرّ اللّه. وهي لا تدلّ على ذاتِ اللّه إلاّ بمقـدار تصـوّرنا الواهم.

٢٦ . وبين ما نحن عليـه وما هو اللّه عليـه في ذاته بونٌ شاسعٌ جدًّا، إلى درجة أنّنا نجهل جهلاً مطبقاً كلَّ ما يخصّ اللّه : فعالمنا متعدّد، متناقض، مادّيّ، حسّيّ، نسبيّ، متغـيّر، متحوّل، ناقص... أمّا اللّه فكلّيّ في كلّ شيء: كلّيّ الكمال والقدرة والعلم، مطلق، روحانيّ، أزليّ، أبديّ. هو فعلٌ مـحض، وقدرة مدهشة، ونورٌ يُبـهرُ النّاظرَ إليه إلى حـدّ إطفاء عَينَيه.

٢٧ . نحن نجـهلُ اللّهَ في كلّ شيء. ولا يمكن أن نعـرفَ عنه أيَّ شيء. هو "الآخَـر"، الذي لا شيء بمسـتـواه. ومع هذا، نعلمُ واحـدةً، وهي أنْ لا سـعـادةَ لنا إلاّ في اللّه وحـدَه. والذين حظوا بالقـداسـة فقـداستهم تقوم على قـربهم من اللّه والحضور الدائم أمـامه. يعني: لا حوريات، ولا فواكه، ولا خمر مـعتّقة، ولا أنهار، ولا لبن، ولا عسل، ولا شهوات، ولا حيـاة جنسيّة، ولا شيء ممّا تقوم به الحيـاة البشريّة على هذه الأرض، يمكن أن تكوّن سـعـادةَ الأبرار هـناك. أللّه وحـدَه يكفي.

والسعادة لا يمكن أن تكون إلاّ فيه وبه ومعه. ومع هذا، سنبقى نجهله هناك كما نجهله هنا، لأنّه هو "الآخَر".

هويّة الله محبّة

٢٨ . يبقى أن تكون العلاقةُ بيننا وبين اللّه، في هذه الدنيا، كما في الحياة الثانية، علاقةَ محبّة مستعرة مستمرّة، كعلاقة الطفل بأمّه. فالطفلُ يجهلُ طبيعةَ أمِّه جهلاً تامًّا، ولا يعرف عنها سوى أنّها تحبّه وهو يحبّها. فنحن نعرفُ عن اللّه واحدةً، ولا نعرف سواها، وهي أنّ اللّه محبّة: محبّةٌ-في-ذاته، ومحبّة-لغيره، لأنّه هو الذي خلقَ كلَّ شيء. هذه المحبّة-في-ذاته، ولغيره، ظهرتْ لنا جليًّا، عندما باشرنا في طبيعتنا، وأنعم علينا بالخلاص. وهو هذا الذي نحتاجه منه، ولا نحتاج منه سواه.

٢٩ . إذا كانت هويّة اللّه محبّة، فيجب أن يكفّ الناس عن معرفته بغير هذه البنية. بنيته المحبّة، لا العدد، ولا النوع، ولا أيّ شيء آخر غير المحبّة. واللّه، في هذا المعنى لا يسعنا وصفه بواحدٍ، وثلاثة، وعشرة، وألفٍ. إنّه يعلو على العدد ويتخطّاه.. إنّه الملء والكمال والتمام، أي: كل العدد، وكلّ الحياة، وكلّ الأسماء والصفات. إنّه الكلّ. غير أنّه ظهر لنا وتجلّى بأشكال مختلفة، لأجل إفادتنا، وبقدر إدراكنا.

***

٣٠ . المسلمون أنفسهم أظهروا اللّهَ في العالم بأشكالٍ وصورٍ ليست هي من صفات "التوحيد". فاللّه أزلي، كلّي الكمال، ولا نقص فيه؛ وكذلك القرآن، أزليّ، كامل شامل لا شائبة فيه. وكذلك قال

الفلاسـفة المسلمون وعلماء الكـلام بأزليّة العالم.. فأيّ توحـيد هو هذا الذي يقول به المسلمون؟! أفينكرون على المسـيحيّين قولهم بـ «الوحدة الثالوثيّة في اللّه؟!».

أينكر المسلمون هذه «الوَحـدة الثالوثيّة»، بعـد أن عرفنا أنّ «اللّهَ مـحبّـة» (١ يو ٤/٨ و١٦)؛ ولا يسعـه إلاّ أن يكون كذلك. «فكيـان اللّه ذاته محبّة. وعندمـا يُرسل اللّهُ، بحلول ملء الأزمنة، ابنَه الوحيد وروحَ محبّـته يكشف عن أخصّ سرٍّ له[10]: إنّه هو نفسُه أبداً تبـادل محبّة: آبٌ وابنٌ وروحٌ قُدس. وقد قدّر لنا أن نكون شركاء فيه»[11].

أينكر المسلمون هذا الوحـدة الثالوثيّة في اللّه، لأنَّ القـرآن كفّرها وكفّـر القائـلين بها! أم لأنّ إيمانَهم لم يصلْ بعـدُ إلى الدخول فـي سرِّ اللّه؟!. كلا الأمـرين سببٌ كافٍ لهذا الإنكار. فـالقرآن يجزم : «لقَدْ كَـفَرَ الذينَ قَـالوا إنَّ اللّهَ ثَالثُ ثلاثة»[12]. وقـال أيضـاً : «ولا تَقُـولوا ثلاثة. انتَـهُوا خَـيراً لكـم. إنَّما اللّهُ إلهٌ واحـدٌ. سُـبحَـانَهُ أنْ يَكونَ له وَلَدٌ»[13]. وكذلك أيضـاً يقول المسلمون، كـما قال اليهـودُ قبلهم، وكمـا يقول كلٌّ مؤمنٍ باللّه، بأنّ اللّهَ واحدٌ، لا إله سواه.

٣١ . والمسيحـيّون أيضاً يؤمنون بوحدانيّة اللّه، إلاّ أنّ التّـوحيد عندهم غنيٌّ بكمالاتٍ في طبيـعة اللّه لا حصر لها؛ تفـوق عددَ «الأسماء الحسنى» التـسعـة والتسعين؛ وتتـخطّى كلّ كمـالات الأعداد والأنواع

---

(١٠) رَ: ١ قور ٢/٧-١٦؛ أف ٣/٩-١٢.

(١١) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٢١.

(١٢) سورة المائدة ٥/٧٣.

(١٣) سورة النساء ٤/١٧١.

والأجناس والصفات؛ وتتكلّم على محبّةٍ مشتعلة دائماً في كيان اللّه وجوهره؛ وتعمل على إشراك الإنسان في حياة اللّه ومجده.

٣٢ . ألذين لا يؤمنون باللّه ثالوثاً، كالمسلمين مثلاً، يظنّون أنّ اللّه، في خلقه العالم، حصل على فرح لم يعرفه من قبل، هو فرح التطلّع إلى كائنٍ بإزائه، والتأمل فيه، ومحبّتِه له. وحدَهم المسيحيّون يعرفون أنّ اللّهَ لا يحتاج إلى العالم، ليكون له هذا الفرح. إنّ اللّه لم يخلق العالم ليخرج من عزلته. إنّه في ذاته فرحٌ وسعادة، لأنّه محبّة وذو علاقة مع ذات بمستواه. هذه حقيقة رائعة تجعلنا نفهم مجّانيّة عمل الخلق، وندرك بعضاً من جوهر اللّه، ونعي كيف تكون «الوحدة ثالوثيّة».

٣٣ . بعد هذا، لا نرغبُ في الردّ على بعض المسلمين الذين يردّدون بـ «أنّ الثالوثَ اختراعٌ شاؤوليٌّ كنسيٌّ، شجّع اليهودُ عليه ليمنعوا "الأممَ" من دخول الجنّة، لتبقى خالصةً لهم وحدَهم دون سواهم»[١٤]... ليس لنا ما نقوله على هذا الكلام شيء ، لأنّه كلامٌ يحملُ فسادَه في ذاته : فشاؤول، أو بولس، لم يخترع شيئاً، ولم يكن جاسوساً يهوديًا على المسيحيّين وسائر الأمم، ليمنعهم عن الجنّة، ولم يهادن أحداً من أجل يسوع المسيح، وقد جاب العالم وبشّرهم به، محتملاً كلَّ ضيقٍ واضطهاد.

٣٤ . وثمّة اعتراض آخر على كون اللّه: "أباً" و"ابناً" و"روحاً"، فيه يعتقد المسلمون بأنّ استعمالَ مثلِ هذه الألفاظ على اللّه

---

(١٤) أحمد زكي، **إنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح**، ص ٨٤؛ ٩٠؛ ٩٨؛ ١١٨؛ ١٦٨-١٦٩؛ ١٨١ إلخ.

أمرٌ مشين بحقِّه. فاللّه ليس أباً حتّى يكون له ابنٌ وزوجةٌ أو صاحبة؛ وليس المسيح ابناً حتّى يكون له أبٌ وأمّ وعلاقاتٌ جنسيّة بينهما..

إنّ ما يعنيه المسيحيّون بهذه الكلمات صفاتها ودلالاتها، تختصرها كلمة محبّة. محبّة هي علاقة ملتهبة في ذات اللّه، وخارجَ ذات اللّه. علاقة كانت منذ البدء بين الأقانيم الثلاثة، وتستمرّ إلى الأبد بينها وبين اللّه وهذا الكون الذي يسعى إلى ملئه.

***

٣٥ . وفي الختام، لا يحقّ لنا، مع اللّه، إلاّ أحد احتمالين: إمّا إعلان جهلنا المطبق، فنكون بذلك مؤمنين به وملحدين سواء بسواء؛ وإمّا أخذ الحقيقة من فم يسوع الذي قال: «لا أحد يعرفُ الآبَ إلاّ الابنُ، ومَن يريدُ الابنُ كشفَه له». وما كشفه يسوع لنا هو أنّ اللّهَ محبّة، وأبٌ أرسلَ ابنَه ليرمّم صورتَه الإلهيّة في الإنسان، بعد أن أفسدها شرّيرٌ قابع في شريعةٍ أنزلها مَن أنزلها باسم اللّه، فأسرتِ الإنسانَ، وقضتْ على حرّيّته التي شاءها اللّهُ له منذ أن خلقه.

٦

روح القدس

تختلف معالجتُنا لموضوع "روح القدس" عن معالجتنا لسائر الموضوعات. فنحن، هنا، نفسّر آيات القرآن في "الروح" تفسيراً يختلف عن تفسير المفسّرين المسلمين كافّة، رغم اعتمادنا عليهم. وقد نجد في القرآن، بخلاف ما وجدوا، المعنى المسيحي الحقيقي للروح القدس، ألا وهو أنّه ذاتٌ إلهيّة مستقلّةٌ عن ذات اللّه "الآب"، إلاّ أنّه من طبيعته، ويشترك في جوهره، ويعمل معه على أنّه أساس الإيمان في الإنسان، والفاعل الأكبر في الحياة.

أمّا المسلمون، واعتماداً على القرآن أيضاً، فينتقدون بشدّة مقولة المسيحيّين في "روح القدس". ويرفضون رفضاً قاطعاً أن يكون "روح القدس" أحدَ الأقانيم الإلهيّة الثلاثة. ويعتبرون القائلين بها كفّاراً مشركين، مصيرهم الجحيم حيث العذاب أليم: «لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالوا إنَّ اللّهَ ثَالثُ ثَلاثَة. وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ إلَهٌ وَاحِدٌ. وَإِنْ لمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفَرُوا منْهُم عَذابٌ أَليمٌ. أفَلا يَتوبُونَ إلَى اللّهِ وَيَستَغْفِرُونَه؟!» (سورة المائدة ٥/ ٧٣-٧٤).

ولكن، ونظراً إلى دقّة موضوع "روح القدس" في القرآن، وعمله العجيب، وما جاء عنه فيه من مبهمات؛ نقول: إنّ "روح القدس"، في مفهومه المسيحي الحقيقي، ليس بغريبٍ عن القرآن إطلاقاً؛ بل القرآنُ غنيٌّ جدًّا بهذا المفهوم المسيحيّ، إلى درجة أنّ المفسّرين كافّةً احتاروا بين أن يكون هذا "الرّوح" ذَاتاً، أو شَخصاً إلهيًا، له استقلاليّته، وبين أن يكون الملَكَ جبريل، أو غير ذلك، كما سنرى. والقرآن الذي رفض الثالوثَ، وكفّر القائلين به، لم يسَعْهُ التخلّص من هيمنة "الرّوح"، ودورِه في عمل الخلْق والخلاص، والتنويه بشخصيّة مستقلّة مميَّزة.

والوقوف على الآيات، كلّ الآيات، حيث ترد كلمة "الرّوح"، خير دليل على هذه الشخصيّة المستقلّة وهذا الدّور المميَّز. فلننظر في حقيقة هذا "الرّوح" في آيات القرآن جميعِها، إستناداً إلى تفاسير المفسّرين. فهي قد تفاجئنا بمدلولاتها إلى حدّ ملامسة المعتقد المسيحي الصعب. ولكن، لنبدأ، كعادتنا، بالمفهوم المسيحي لهذا "الروح"، كما في تعاليم الكنيسة والآباء.

أوّلاً – روح القدس في المسيحيّة

ليس بوسعِ الباحثين في اللّه، بلغوا ما بلغوا من العلوم، أن يكتشفوا سرَّ اللّه. وحدَهم الممتلئون من "روح القدس"، والمنفتحون عليه، والعاملون في نعمته وتحت حمايته، لهم المقدرة على اكتشاف سرِّه، والدخول في معرفته، والوصول إلى أخداره، والحصول على نعمته.

١. "روح القدس" هو نفسه الذي سيّر يسوعَ نحو تحقيق هدفه، منذ البشارة به، وولادته، حتى موته وقيامته، مروراً بكلّ أعماله

وتعاليمه ومراحل حياته. هذا "الروح" نفسُه يعملُ في حياة البشر وفي قداسة كلِّ إنسان. وعندما «أتمّ» يسوعُ عملَه الخلاصيّ، بصلبِه وموته وقيامته، تولّى "روح القدس"، من بعده، المهمّةَ كلَّها. لهذا فهو، ليس بارقليطاً جديداً، لمهمّةٍ جديدةٍ لم تبدأ بعدُ؛ بل هو «بارقليط آخَر» (يو١٤/١٦)، يخلف يسوع، ويُتِمُّ عملَه، ويستمرُّ إلى مدى الدهر.

٢. بسبب "روح القدس" هذا، يستمرّ يسوعُ حاضراً في العالَم، متجسِّداً أبداً، مصلوباً أبداً، منتصراً على الموت والشرّ أبداً، عاملاً في كلِّ إنسان وفي العالَم كلِّه حتّى منتهى الدّهر. بهذا "الروح"، يبقى يسوع يعلّمنا. يذكّرنا. يُفهمنا تدريجيّا سرَّ عمل اللّه الخلاصيّ الذي حقّقه. ويستمرّ يُوحي إلينا. يَبقى معنا. يَحيا فينا. يعمل باستمرار على أن نحيا فيه، ونتّحد به، ونفوز معه.

٣. إنّ الحياةَ الطبيعيّة الكامنةَ في الكائنات لن تَكونَ من دون عواملَ خارجيّةٍ تدفعها إلى الظهور: عوامل مثل الحرارة والرّطوبة والأغذية المتنوّعة والمناخات الملائمة؛ وكذلك الأشياء الموجودة لا يراها إنسانٌ من دون عاملٍ خارجٍ عنه وعنها: عامل النّور الذي يضيئها، وعامل المكان والزمان حيث توجد، وعامل سلامة العين الرائية.

هكذا هي أعمالُ الإنسانِ كلُّها، لا فائدةَ فيها، إنْ لمْ يعملْ فيها "روحٌ" خارجٌ عنها، هو «روح القدس»: فلو انَّ أعظم القدّيسين صام وصلّى وتقشّف واحتمل ما بوسعه أن يحتمل، وزهد في الدنيا، ومارس أعمالَ توبة صارمة، وسجد، وتحمّل الآلام والأمراض والمتاعب، واستمرّ على ذلك سنين ودهوراً... ولم يعملْ "رُوح القدس" في هذه الأعمال عملَه، ولم يقدِّسْها بقداستِه، لما أفادته أعمالُه التقويّةُ

هذه شيئاً، ولما كان له خلاص، ولما رأى من القداسةِ بصيصَ نورٍ. وحدَه "روح القدس" هو الذي يخلِّص ويقدّس.

٤ . أنُشكِّكُ أحداً إنْ قلنا له بأنّه مسيحيّ بسبب عملِ هذا "الرّوح" فيه!! أيعلم المسيحيّون بأنّهم، بهذا "الرّوح" إيّاه، يتقدّسون، ويَخلصون، ويخلدون!!. أكُفْرٌ هو إنْ قلنا بأنْ لا إنسان يخلص، أو يتقدّس، إنْ لم يعمل "روح القدس" على خلاصه وتقديسه!!. أكُفْرٌ هو إنْ قلنا أيضاً بأن لا شيء في هذا الكون خالدٌ بخلود اللّه، إنْ لم يعمل "روح القدس" على تخليده!!. وأخيراً، أكُفرٌ هو إنْ قلنا إنَّ ما يُسمَّى في الإنسان "نفْس" لا يحملُ في ذاته أيَّ بذار للخلود!!؛ بل إنّ ما يخلد فيه هو "الروح" الساكن فيه!!. هو "روح القدس" الذي يقدّسُ، ويُقيمُ، ويخلّصُ، ويخلِّدُ. فكلّ كائنٍ في الكون إلى زوال إنْ لم يأتِه الخلودُ من فَوق، مِن خارج، من "روح القدس".

ليس ممّا في قدِّيسي السماء، من بطولاتٍ وفضائلَ وخوارقَ وأعمالِ برٍّ وتقوى وإحسانٍ وصلاح، هو الذي قدّسَهم ورفعهم فوق أعلى علِّيِّين؛ بل ما كانوا عليه من عملِ "روح القدس" فيهم، هو الذي صيّرهم على ما هم عليه. وجلّ ما كان عليهم أن يصنعوه هم، هو أن يُعِدّوا طبيعتَهم البشريّةَ الضعيفة الإعدادَ الكامل لقبول مواهب "الروح" وهبّاته المتتالية.

وعندما يُعِدّونَ طبيعتَهم الإعدادَ الكافي، وينتصرون على رغائب النفس والجسد والأحاسيس كلّها، ويحتملون ما لا يُحتمَلُ من آلامٍ ومتاعبَ، ويُكملون سعيَهم في هذه الحياة، وينفتحون انفتاحاً كلّيًا على مواهب "الرّوح"، عندئذٍ يكونون وكأنّهم ليسوا من هذا العالم :

٥. كلُّ شيءٍ في حياة القدِّيسين، وعندهم، ومعهم، وعليهم، ولهم، أصبح مجبولاً بـ "الرّوح"، أي "روحانياً": أجسادُهم الترابيّة، والأرض التي اشتغلوا فيها، والشجر الذي تفيّأوه، والأحجار التي جلسوا عليها، والثياب التي مسّت أجسامَهم... كلّها "تروحنتْ"؛ لأنّها ذخائرُ إيمانِ أشخاصٍ تَعامَلوا مع "الرّوح"، وعمل "الرّوح" فيهم، فصيّرهم روحانيّين لا جسديّين، سماويّين لا أرضيّين، إلهيِّين لا بشريّين. لقد أصبحوا واللّه واحد، من دون حلول، ومن دون شرك.

وفي عالم الكمال وذروة المحبّة، فروقاتٌ كثيرة تزول بين اللّه ومحبّيه. و"الروح" هو السبب، أي هو العامل الرئيسي، بل الأوحد، على إزالة هذه الفروقات بين المحِبِّين.

٦. وعندما يصبح قدّيسو السماء في هذه الدرجة من الكمال والمحبّة، ومن هذا التعامل الحميم مع "الرّوح"، والانخطاف به، يصبحون، عندئذٍ، واسطةً فعّالةً بين اللّه والبشر. وليس أقرب منهم، والحال هذه، إلى إخوتهم البشر. فهم الذين اعتزلوا البشر، وابتعدوا عنهم، وتوارَوا في الصحاري، وتركوا الأهلَ والأحبّاء، وتخلّوا عنهم مدى الحياة، يعودون إلى البشر، كلّ البشر، وإلى العالم كلّ العالم، من بابه الواسع، من باب "الرّوح" عينه الذي صيّرهم عالَميّين، كاملِين.

٧. ومن منطق الأمور أن يصبحوا، بدورهم، لا روحانيّين فحسب، بل "روحاً قُدُساً". أي هم و"الرّوح القدس" واحد. لهذا، فهم، الآن، يعملُون في إخوتهم البشر عملَ "الرّوح القدس" عينه: لقد منحهم "الرّوحُ" أن يعملوا في العالَم معجزاتٍ خارقة. وهبهم قوّةً على تذليل عوامل الطبيعة وتغيير سيرِها والانتصار عليها.

٨. لم نقل في ما قلناه أكثر ممّا قاله القدّيسُ بولس للمؤمنين بالرّب: «أنتم لستم في الجسد، بل في الرُّوح، إنْ كانَ حقًّا روحُ اللّه ساكناً فيكم. ومَن ليس له روحُ المسيح ليس هو للمسيح... وإذا كانَ روحُ الذي أقامَ يسوعَ من بين الأموات ساكِناً فيكم، فالذي أقام المسيحَ مِن بين الأمواتِ، يُحيي أيضاً أجسادَكم المائتة بروحِهِ الساكنِ فيكم» (رو ٨/ ٩-١١).

يعلّق شرّاحٌ على هذا الكلام: إنّ "قيامة المؤمن المسيحي مرتبطةٌ إرتباطاً عضويًا بقيامة المسيح... ألآب يُقيمُه بقوّةِ الرّوح القدسِ عينِه، الذي به أقام الرّبَّ يسوع "[1].

إنّنا على هذا "الرّوح" لمتكّلون حتّى تكونَ لنا الحياة، ونحصل على الخلاص، ونصبح قدّيسين، ونستمرّ خالِدين بخلود اللّه.

ثانياً - "الرّوح" في القرآن

ترد كلمة "روح"، في القرآن، **٢١** مرّة، وفي تعابير مختلفة. منها "روحُ القُدُس" ٤ مرّات[2]؛ و"الروح الأمين" مرّة واحدة[3]؛ و"روحنا" ٣ مرّات[4]؛ و"روحه" مرّة واحدة[5]؛ و"روحي" مرّتَين[6]؛ و"الروح من أمره" مرّتَين[7]؛ و"الروح من أمر ربّي" مرّة

(١) تفسير «أونجليون» على روما ٨/ ٩-١١.

(٢) سورة البقرة ٢/ ٨٧، ٢٥٣؛ سورة المائدة ٥/ ١١٠؛ سورة النحل ١٦/ ١٠٢

(٣) سورة الشعراء ٢٦/ ١٩٣.

(٤) سورة مريم ١٩/ ١٧؛ سورة الأنبياء ٢١/ ٩١؛ سورة التحريم ٦٦/ ١٢.

(٥) سورة السجدة ٣٢/ ٩.

(٦) سورة الحجر ١٥/ ٢٩؛ سورة ص ٣٨/ ٧٢.

واحدة[٨]؛ و "روحاً من أمرنا" مرّة واحدة[٩]؛ "وروح منه" مرّتَين[١٠]؛ و "الملائكة والرّوح" ٣ مـرّات[١١]، و«الرّوح»، من دون إضــافــة مــرّة واحدة[١٢].

وسنستعرضُ هذه الآيات لنعرفَ مقصودَ القرآن فيها :

أ . «رُوحُ القُدُسِ» :

١و٢ . «وآتَينا عـيسَى ابنَ مَريمَ البَـيِّنات. **وَأيَّدْنَاهُ برُوحِ القُدُسِ**» (**٢** / ٨٧ و٢٥٣: آيتان متشابهتان، لفظاً ومعنىً).

٣ . «أذكُـرْ نعـمتِي عَـلَيكَ وعلَى وَالِدتكَ إذ **أيَّدْتُكَ برُوحِ القُـدُسِ**» (**٥** / ١١٠).

٤ . «قلْ **نزَّلَه رُوحُ القُدُسِ** مِن ربّكَ بالحقِّ، لِيُـثـبِّتَ الذينَ آمَنُوا" (**١٦** / ١٠٢).

* "روح القدس"، في هذه الآيات، وبحــسب تفسيـر المسلمـين، هو "جـبـريل"، الذي جاء عـيـسى ليـقوِّيَـه، ويؤيِّده، منذ ولادته، في حياته، ورسالـته العتيدة، ونضاله ضـدَّ بني إسرائيل. ثمّ "يثبّت الذين آمنوا" بالقرآن على أنّه منزَلٌ من عند اللّه بالحقّ.

(٧) سورة النحل ١٦ / ٢؛ سورة غافر ٤٠ / ١٥.

(٨) سورة الإسراء ١٧ / ٨٥.

(٩) سورة الشورى ٤٢ / ٥٢.

(١٠) سورة النساء ٤ / ١٧١؛ سورة المجادلة ٥٨ / ٢٢.

(١١) سورة المعارج ٧٠ / ٤؛ سورة القدر ٩٧ / ٤؛ سورة النبإ ٧٨ / ٣٨.

(١٢) سورة الإسراء ١٧ / ٨٥.

* أمّا نحن فنقول:

أوّلاً – يستعمل القرآن تعبير "روح القدس" استعمالاً مألوفاً. وهو تعبير مسيحيّ مألوف أيضاً. وله مدلوله الخاصّ. والقرآنُ لم يأخذْه إلاّ عن المسيحيّة.

ثانياً – يستعمل القرآن «روح القدس» في المناسبات نفسِها التي استعملتْه فيها المصادر المسيحيّة، أي في اجتراح العجائب، وإتيان البيّنات، وفي الوحي والتأييد والتثبيت، وفي ولادة عيسى، وعماده، وتقويته على أعدائه، وتثبيت المؤمنين به في إيمانهم... ممّا يعني أنّ للتعبير بعداً مسيحيًا واضحاً في ذاكرة محمّد، ولو هو، في استعماله له، يقصِّر عمّا جاء في الإنجيل، وتعاليم الكنيسة، والآباء، ولا يدرك أهمّيّته ودوره الخلاصي، ولا يقرُّ له بهذا الدّور بسبب تشدّده على وحدانيّة اللّه ورفضه الثالوث.

ثالثاً – يختلف المفسِّرون المسلمون كافّة في معنى "روح القدس" في هذه الآيات، فيقول الرّازي، مثلاً، في تعليقه على (٢/٨): "اختلفوا في الرّوح على وجوه"؛ وعلى (٢/٢٥٣) يقول: "في تفسيره أقوال: فهو تارة جبريل؛ وطوراً الإنجيل؛ وثالثاً الإسم الّذي كان يُحيي به عيسى الموتى؛ ورابعاً ألرّوح الذي نَفخ فيه؛ وخامساً ألقدس هو اللّه تعالى، فنسبَ روحَ عيسى إلى نفسه تعظيماً له وتشريفاً؛ وسادساً إنّ روح القدس الذي أيّد به يجوز أن يكون الرّوح الطاهرة التي نفخها اللّه تعالى فيه، وأبانه بها عن غيره ممّا خلق من اجتماع نطفتَي الذكر والأنثى".

ب . «الرُّوحُ الأمين» :

٥ . «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِين. **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**، عَلَى قَلْبِكَ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين» (٢٦/١٩٢-١٩٤).

* في تفسير المسلمين : « "ألروحُ الأمين" هو جبريل. "وسمّاه "روحاً" من حيث خُلِق من الرّوح. وقيل: لأنّه نجاة الخلق في باب الدين. فهو كالرّوح الذي تثبت معه الحياة. وقيل: لأنّه روحٌ كلُّه لا كالنّاس الذين في أبدانهم روح. وسمّاه "أميناً" لأنّه مؤتمن على ما يؤدّيه إلى الأنبياء»[١٣].

* وفي تفسيرنا : إذا كان القرآن تنزيلٌ من اللّهِ، ربِّ العالَمين نفسهِ، فكيف يصيرُ جبريل هو الذي نزلَ به؟! ألأولى أن يكون "الروحُ الأمين" ، بدلاً عن "ربِّ العالِمين" ، أو شخصاً آخَرَ، من عند ربّ العالمين، يساوي "ربَّ العالِمين" . قد يكون هو الرّوح القدس، الذي يناط الوحي به مباشرةً، كما في معتقد المسيحيّين.

جـ . «الرّوحُ مِنْ أمْرِهِ» و«مِنْ أمْرِ رَبِّي» :

٦ . «يُنَزِّلُ الملائكةُ **بالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ** عَلى مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ» (١٦/٢).

* يقول المسلمون: «اختلف أهلُ التأويل في معنى "الروح" هنا؛ فقيل: الوحي، وهو النبوّة. وقيل: كلام اللّه، وهو القرآن. وقيل: هو بيان الحقّ الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق، لا ينزل مَلَكٌ إلاّ ومعه روح. وقيل: الرّحمة. وقيل: الهداية لأنّها تحيا بها القلوب، كما تحيا

(١٣) تفسير الرازي على ٢٦/١٩٣.

بالأرواح الأبدانُ. وقيل: ألروح هنا هو جبريل. والـ (ب) في «بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» بمعنى مع[١٤]. وعند الطبرسي: "ألروح مَلَك في السماء مِن أعظم مَن خلَقَ اللّه. فإذا كان يومُ القيامة، وقفَ صفّاً والملائكةُ كلُّهم صفّاً"[١٥].

* وفي تفسيرنا : هذا الروح هو من أمرِ اللّه، أي هو روح من مشيئة اللّه، أي من عند اللّه، أو من فعْله، ومن ذاتِ ذاته؛ لأنّ "الأمْر" عند اللّه هو فعْلٌ. وهذا ما يعتقد به المسيحيّون في هويّة روح القدس.

٧ و٨ . «وَيَسْأَلونَكَ عَنِ **الرُّوحِ**. قُلِ **الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**. وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً» (**١٧** / ٨٥).

* في تفسير المسلمين : يسألُ اليهودُ عن الرُّوح الذي يحيا به البدن؛ فقل لهم، يا محمّد، هذا علمٌ لا تَعلمونَه. ويقولون: إنّ المراد منه «الرّوح الذي هو سبب الحياة»؛ أو «القرآن»؛ أو «مَلَكٌ من ملائكة السموات»؛ أو «جبريل، الرّوح الأمين»[١٦].

* وفي تفسيرنا : إنّ "الرّوح" المُشار إليه هنا في هذه الآية هو "روح اللّه"، الذي يجهله اليهود وغير اليهود. ولكنّ للنصارى به علماً ولو قليلاً. ويُرجِّحُ هذا التفسيرَ قولُه بأنّ هذا الروح هو «مِن أمْرِ» اللّه، أي من اللّه، من عند اللّه، «أي من شرعه، أي لا سبيل إلى معرفة هذا من طبعٍ ولا فلسفة؛ وإنّما يُنال من جهة الشرع»[١٧]. معنى ذلك أنّه

---

(١٤) تفسير القرطبي على ١٦/ ٢.

(١٥) تفسير الطبرسي على ١٦/ ٢.

(١٦) راجع تفاسير المسلمين على ١٧/ ٨٥.

(١٧) تفسير ابن كثير على ١٧/ ٨٥.

هو "الرّوح" الذي لا يُدرَك إلاّ بواسطـة النقل، لا بواسطة العـقل. وهذا ما يقوله المسيحيّون عن روح القدس.

هذا بالإضافة إلى اعتراف أهل التفسير بالخلاف الكبير حول هذا الرّوح في هذه الآية، فـقال ابن كثـير: «قـد اختلف المفـسّرون في المراد بالرّوح هاهنا على أقوال»[١٨]. ويعدّد أكثر من ثمانية أقوال.

٩. «رَفِيعُ الدَّرَجَـاتِ، ذُو العَرْشِ، يُلْقِي **الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ** عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيُنْذِرَ يَومَ التَّلاقِ(ي)» (٤٠/ ١٥).

* في تفـسـيـر المسلمين : إنّ الـلّهَ يُنزلُ "الرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ"، أي الوحيَ، أو القـرآن، أو الكتـاب، أو النبـوة، على مَن يشـاء من الأنبـيـاء ليخوِّفَ به الناسَ يوم تلاقي الأبرار والأشرار، أي يوم القيامة...

* وفي تفسيرنا : مرّة أخرى نقول: ألروح هو من أمر اللّه، لا هو "جبريل"، ولا "الوحي"، لأنَّ المناسـبة هي يوم القيامة، حـيث خُتمتِ النبوّات؛ وانتهى الوحيُ؛ ولم يعـد لجبريل أيُّ دورٍ في آخر الأزمنة. أللّهُ نفسُـه يقضي بين النّاس؛ ويجـري عليهم الحـساب، ثواباً أو عـقاباً. فـ "الرّوح"، هنا، إذاً، أقـرب إلى أن يكونَ شـخـصـاً إلهـيّـا من أن يكون "الوحيَ"، أو "ملَك وحيٍ"، أو "جبريل"، أو أيَّ شيءٍ آخر.

هذا بالإضافـة إلى اختلاف المفسّـرين فيما بينهم. فـقال الرّازي: «اختلفـوا في المراد بهذا الرّوح»[١٩]. وقال الطـبري: «وقد اخـتلف أهلُ

---

(١٨) المرجع نفسه.

(١٩) تفسير الرازي على ٤٠/ ١٥.

التأويل في معنى الرّوح في هذا الموضع»[٢٠]. وفي اختلافهم دليلٌ على صعوبة تحديد هويّة هذا الروح.

١٠. «وَمَا كَان لبَشَرٍ أنْ يُكلِّمَه اللّهُ إلاّ وَحْياً، أو مِن ورَاءِ حِجَاب، أو يُرْسِلَ رَسُولاً، فَيُوحِيَ بإذْنه مَا يَشاءُ. إنَّه عليٌّ حَكيم. وَكَذلكَ **أَوْحَيْنَا إلَيكَ** (يا محمّد) **رُوحاً مِنْ أمْرِنَا**. مَا كنتَ تَدري مَا الكتابُ وَلا الإيمان. ولَكنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهدي به مَن نَشاءُ مِن عِبادِنا» (٤٢/ ٥١-٥٢).

* في تفسير المسلمين: كلّ مَن أوحى اللّهُ إليهم، من الأنبياء، كلّمَهم إمّا في المنام، أو بإلهام، أو بالسماع من دون رؤية، أو "يُرسلُ رسولاً" إليهم، هو جبريل. أمّا بالنسبة إلى محمّد فقد أوحى اللّه إليه "روحاً من أمرنا"، أي القرآن الذي هو نورُ هدايةٍ للبشر.. «والمراد به، أي بالرّوح، القرآن. وسمّاه روحاً، لأنّه يفيد الحياةَ من موت الجهل أو الكفر»[٢١]. أمّا القرطبي فيعدّد المعاني، ويقول: «"روحاً" أي نبوّة (عن ابن عبّاس)؛ ورحمة (عن الحسن وقتادة)؛ ووحياً (عن السّدي)؛ وكتاباً (عن الكلبي)؛ وجبريل (عن الربيع)؛ والقرآن (عن الضحّاك)»[٢٢].

* وفي تفسيرنا: لا يمكن أن يعني تعبيرُ "رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا" أيَّ قولٍ ممّا ذكره المفسِّرون. إنّما هو روحٌ من عند اللّه، يختلفُ عن جبريل، كما يختلفُ عن الوحي والقرآن والكتاب. إنّه "ذات" إلهيّة، "مِن عند اللّه"، يعلّم ويهدي وينذر... أي لا هو ملاك، ولا هو كتاب. إنّه ذاتٌ من

---

(٢٠) تفسير الطبري على ٤٠/ ١٥.

(٢١) تفسير الرازي على ٤٢/ ٥٢.

(٢٢) تفسير القرطبي على ٤٢/ ٥٢.

عند اللّه جاءَ محمّداً ليعلِّمَه الكتابَ والإيمان. فلا يُعقَل، إذاً، أن يكون هو نفسُه الكتابَ والإيمان.

بالإضافة إلى ما أشار إليه بعض المفسّرين من اختلافٍ في التأويل والتفسير. قال الطبري: «واختلف أهل التأويل في معنى الرّوح في هذا الموضع»، وأضاف: «وقد بيّنّا معنى الرّوح فيما مضى بذكْر اختلافِ أهلِ التأويل فيها»[٢٣]. وفي هذا دليلٌ آخر على صعوبة إدراك المفسّرين المسلمين هويّةَ هذا الروح.

د . الرُّوحُ وَالمَلائِكَة :

١١ . «تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إلَيهِ فِي يَومٍ كانَ مِقدَارُهُ خَمسِينَ ألفَ سَنَة» (٧٠/ ٤).

* في تفسير المسلمين : المقصود بهذا الكلام، أنّ الملائكة، والرّوح، أي: جبريل، تنزلُ من السماء في يوم القيامة لتدين الكافرين. ويومُ القيامة هذا، بالنسبة إلى الكافرين، يُقدَّرُ، لشدَّتِه، بخمسين ألف سنة.

* وفي تفسيرنا، نسأل : لماذا ذُكر جبريلُ هنا مستقلاً عن سائر الملائكة؟! فلو كان يقومُ بتنزيل الوحي، لقُبلتْ تسميتُه مستقلّةً عنهم. غير أنّه لا وحي في اليوم الأخير. ولا دورَ لجبريل يختلف عن دور سائر الملائكة؛ وبالتالي، لا يُذكَرُ جبريلُ مستقلاً عنهم. لهذا فالمقصود بـ" الرّوح " هنا شخصٌ آخر، غير جبريل، لأنَّ للّه وحدَه، دون الملائكة، دورَ القضاء في اليوم الأخير. فهو الدّيّان وحدَه، ولا ملائكة تدين معه.

---

(٢٣) تفسير الطبري على ٤٢/ ٥٢.

هذا المقصود لا يبعد عـمّا يقوله الرّازي: «إعلم أنّ عادةَ اللّهِ تعالى في القرآن أنّه، متى ذكَـرَ الملائكةَ في معرض التهويل والتـخويف، أفرد الروحَ بعـدهم بالذكر، كـما في هذه الآية، وكـما في قوله: "يـوم يقوم الروح والملائكة صـفّاً" (٧٨/٣٨). **وهذا يَقتَـضِي أنّ الرُّوحَ أعْظَمُ مِنَ المَلائِكَةِ قَـدْراً.** وقـال بعض المكاشِـفين: **إنّ الرُّوحَ نورٌ عظيمٌ هو أقـربُ الأنوارِ إلى جلالِ اللّهِ.** ومنه تتشعّب أرواحُ سائر الملائكة والبشـر».

ونحن لا قولَ عندنا أجودُ من هذا القول.

١٢ . «يومَ يَقُومُ **الرُّوحُ وَالمَلائِكَةُ** صَفّاً، لا يتكلّمون إلاّ مَن أذِنَ له الرَّحْمَنُ، وَقالَ صَوَاباً. ذَلكَ اليَومُ الحَقُّ» (٧٨/٣٨–٣٩)

* في تفسير المسلمين : إنّ "الّروح" هنا هو جبريل، الذي يأتي، مع الملائكة، في اليوم الأخير، ليشفعوا لدى اللّه بالبشر.

* وفي تفسيرنا، نتسـاءل دائماً: لماذا يُفصَل جبريل عن الملائكة، ومهمّتُه، هنا، في اليوم الأخيـر، "اليوم الحقّ"، لا تختلف عن مهمّتهم! أيكونُ "الرّوح" من جنسٍ آخَر غير جنـس الملائكة! يبدو ذلك، كما رأينا في الآية السابقة.

والمفسّرون أنفسهم أشاروا إلى اختلاف المفسِّرين، فقال الرازي: «اختلفـوا في الرّوح في هذه الآية: فعن ابن مسـعود: إنّه مَلَكٌ أعظم من السـموات والجبـال. وعن ابن عـبّاس: هو ملَكٌ من أعظم الملائكة خَلـقاً. وعن مجـاهد: خُلق على صورة بـني آدم وليسوا بنـاس. وعن الحسن وقتادة: هم بنو آدم. وعن الضحّاك والشعبي: هو جبريل».

وقال القـرطبي: «واختلفوا فـي الرّوح على أقوال ثمانيـة». وقال

إبن كثير: «اختلف المفسّرون في المراد بالرّوح هـهنا ما هو؟ على أقوال». وقال الطبري: «اختلف أهلُ العلم في معنى الرّوح في هذا الموضـع»...

إلاّ أنّ الطبري يوضـح بكلامٍ نتبنّاه. قال: «والصـوابُ من القول أن يُقال: إنّ اللّهَ تـعالى ذكْرُه أخـبرَ **أنّ خَلْقَه لا يملكون منه خطاباً** (أي: **لا يفـهمـون من أمرِ الرّوح شـيئـاً**). ويكمّل: وجـائزٌ أن يكونَ بعضَ هذه الأشـيـاء (أي المعانـي) التي ذُكـرتْ. واللّه أعلم أيّ ذلك هو؟ ولا خبـر بشيء من ذلك أنّه المعنيّ به دون غيره يجب التـسليم له، ولا حجّة تدلّ عليه، وغير ضائرٍ الجهل به»[٢٤].

١٣ . «تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإذْنِ رَبِّهِم مِنْ كُلِّ أمْرٍ»(٩٧ / ٤)

* في تفسير المسلمين : تمييزٌ دائم بين جبريل والملائكة.. إنّ اللّه أنزل القرآن، في ليلة القدْر، من اللّوح المحفوظ إلى السـماء الدنيا.. فيها، ولشرفها، تتنزّلُ الملائكةُ وجبريلُ، بأمرِ قضاه اللّه..

* وفي تفسيرنا، سؤالٌ دائم : لِمَ هذا التمييزُ؟! وما شأنُ الملائكة الآخَرين بالوحي حتّى يكونوا حاضِرين! أيكونون من جنسٍ غيرِ جنس " الرّوح " ! أو " الرّوح " من جنسٍ يختلفُ عن جنسِهم! يبدو ذلك.

هذا بالإضافـة إلى اختلاف أهل التأويل فـيما بينهم حـول معنى الرّوح في هذه الآية. يقـول الطبـري: «اخـتلف أهلُ التـأويل في تأويل ذلك». ويقـول الرازي: «ذكـروا في الرّوح أقـوالاً (ثـمـانيـة). ويعلّق: **والأصحّ** أنّ الرّوح هـهنا جبريل. وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه، كأنّه تعالى يقول: **الملائكة في كفّة والرّوح في كفّة**». غير أنّ هذا «الأصح» هو

---

(٢٤) تفسير الطبري على ٣٨/٧٨.

تمييز هذا «الرّوح» تمييزاً بيّناً عن الملائكة. هو، على ما يبدو، ليس منهم. وهو مطلوبنا.

هـ . «رُوحَنَا» :

١٤ . «واذكُرْ في الكتابِ مَرْيمَ، إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِها مَكَاناً شَرْقِيًا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِم حِجَاباً. **فَأرْسَلْنا إِلَيهَا رُوحَنَا**، فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًا. قَالَتْ: إنّي أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنكَ إنْ كُنتَ تَقِيًا. قَالَ: إنَّما أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لكِ غُلاماً زَكيًا» (**١٩/١٦-١٨**)...

* في تفسير المسلمين : ألرّوح هنا هو جبريل الذي اتّخذ صورةَ إنسانٍ جميلِ الخلقة، ليُثير في مريم الشهوةَ لتحبل وتلد.

* وفي تفسيرنا نقول : يحذو المسلمون هنا حذو التقليد المسيحيّ الذي يعتبرُ الملاكَ الذي بشّرَ مريم هو جبرائيل.. ولكن، لماذا لم يسمِّ القرآنُ جبريلَ باسمه، وهو يذكره في مكان آخر، فسمّاه "الرّوح"؟! هل يقصد كالإنجيل، "روح القدس"، أي شخصاً إلهيًا، ظهرَ على مريم، فبشّرها بولادة يسوع؟! يُرَجَّحُ ذلك.

هذا، بالإضافة إلى اختلاف أهل التأويل في معنى "الرّوح" هنا. فقال الرازي: «اختلف المفسّرون في هذا الرّوح. فمنهم من قال: إنّه جبريل؛ ومنهم: إنّه الرّوح الذي تصوّر في بطن مريم بشراً». وقال الطبرسي أيضاً: «إنّ الروح الذي خلق منه المسيح تصوّر لها (أي لمريم) إنساناً». فالرّوح، إذاً، هو الذي تصوّر لمريم، وليس جبريل.

وبالإضافة أيضاً إلى أنّ المناسبة، في القرآن كما في الإنجيل، هي نفسها، أي مناسبة البشارة بميلاد يسوع. فلماذا، إذاً، يكون جبريلُ في

القرآن، بينما هو روح القدس في الإنجيل؟!

١٥ . «وَالتّي أحْصَنَتْ فَرْجَها، **فنفَخْنا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**. وجَعَلْنَاهَا وَابنَهَا آيَةً للعَالَمِين» (٢١/ ٩١).

* في تفسير المسلمين : إنّ اللّهَ أرسلَ إلى مريمَ الملاكَ جبريلَ، الذي نفخَ في جَيْبِ درْعِها، فحملتْ بعيسى، الذي، هو وأمُّه آية من آيات اللّه، حيث ولدتْه أمُّه من غير رجل.

* في تفسيرنا : لا يستقيم المعنى في اعتبار الرّوح هنا هو جبريل؛ بل هو روحُ اللّه. مصدرُ هذه الرواية: الإنجيل. والإنجيل يقول بأنّ "المولود منها هو من الرّوح القدس" . وهو في القرآن كذلك!

هذا بالإضافة إلى ما جاء في تعليق الرازي حيث يقول: «فَنَفَخْنَا الرّوحَ في عيسى فيها؛ أي أحييناه في جوفها»؛ فلكأنّ النفخَ لم يكن، كما يقول عامّة المسلمين، في مريم؛ بل في عيسى. والإنجيل واضح أيضاً بأنّ يسوع هو الذي وُلِد من روح القدس.

١٦ . «ومَريمَ ابنَةَ عِمْرَانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا، **فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**. وَصَدَّقَتْ بكَلِمَاتِ رَبِّها وَكُتُبِه. وكَانتْ مِنَ القَانِتِين» (٦٦/ ١٢).

* يفسّرُ المسلمون بأنّ مريمَ، مثال الذين آمنوا، حفظتْ نفسَها فنفخ اللّهُ فيها «جبريلَ حيث نفخَ في جيبِ درعِها، بخلْقِ اللّهِ تعالى فعْلَه الواصلَ إلى فرْجِها، فحملتْ بعيسى»[٢٥]، وصدّقتْ بما قال الربُّ لها، وأصبحت من الطائعين.

---

(٢٥) تفسير الجلالين على ٦٦/ ١٢.

* وفي تفسيرنا : إنّ الإنجيل، مصدرَ هذه الرواية، يتكلّم على روح القدس، لا على جبرائيل: «وُجِدَتْ حاملةً من الرّوح القدس»[٢٦]. فلِمَ يخالفُ التفسيرُ المصدرَ، والقرآنُ نفسُه يتكلّمُ على الرّوح، لا على جبريل. وبعض المفسِّرين، كالرازي، يتكلّم على أنّ النفخ «كانَ في عيسى»[٢٧]، لا في جبريلَ؛ أو كما يقول القرطبي: «نفخنا، أي أرسلنا جبريلَ فنفخَ في جيبِها من روحِنا، أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى»[٢٨]؛ ممّا يعني أنّ الذي حلَّ في عيسى هو «روحٌ من اللّه»، وليس جبريل؛ أي: إنّ جبريلَ هو الذي نفخَ في مريم روحاً من اللّه.

و . «**رُوحٌ مِنْهُ**» :

١٧ . «يَا أهلَ الكتَابِ! لا تَغْلُوا فِي دِينِكُم. ولا تَقُولُوا علَى اللّهِ إلاَّ الحَقَّ: إنَّما المسيحُ عِيسَى ابنُ مَريمَ ، رسولُ اللّهِ، وكَلِمَتُه ألقاها إلى مَريَمَ، **ورُوحٌ مِنْهُ**. فآمِنوا باللّهِ ورسُلِه. ولا تَقُولُوا ثلاثَةٌ. انتَهُوا خَيراً لكُم. إنَّما اللّهُ إلَهٌ واحدٌ» (٤/ ١٧١).

* في تفسير المسلمين : ألمقصودُ بالروح هنا هو المسيح نفسه، الذي وُلدَ من "نَفَسِ اللّه" ونفْختِه، كما ولد آدم. يقول الجلالان: «وروح»، أي ذو روح، «منه» أُضيف إليهِ تعالى تشريفاً له، وليس، كما زعمتم، ابنَ اللّهِ، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة، لأنّ ذا الروحِ مركّبٌ، والإله منزّهٌ عن التركيب، وعن نسبة المركّب إليه».

---

(٢٦) متى ١/ ١٨؛ أو «من روحٍ قدسٍ ما تَحمِل» (متى ١/ ٢٠)؛ أو «روحٌ قدُسٌ يهبُطُ عليكِ... فسيُدعَى المولودُ قدُّوساً، وابنَ العليّ» (لو ١/ ٣٥).

(٢٧) تفسير الرازي على ٦٦/ ١٢.

(٢٨) تفسير القرطبي على ٦٦/ ١٢.

* وفي تفسيرنا : إنّ القرآن يستعملُ تعبيراً مسيحيًا مألوفاً بالنسبة إلى المسيح. كما يعطي المسيحَ، بسبب كونه روحاً **من** الله، دوراً لا يقلّ عمّا يعطيه إيّاه المسيحيّون أنفسهم.

والله، سواء عند المسيحيّين أم عند المسلمين، أرسلَ المسيح عيسَى من لدنه. والرّوح القدس يقوّيه ويؤيّده ويُعينه. هذا الرّوح، هو «**منه**»، أي: لا هو هو، ولا هو مِن غيرِه، أو من دونه. ولا هو الله المرسِل، ولا هو عيسَى المرسَل. إنّما هو **من** الله. و«التنكير، كما يقول الرازي، يفيد التعظيم. فكان المعنى: إنّه روحٌ شريفٌ قدُسِيٌّ عَالٍ»[٢٩]. ونسبته إلى الله تفيد «التشريف والتفضيل».

يضاف إلى هذا كلّه شهادة بعض المفسّرين المسلمين في قولهم بـ «أنّ أهل العلم اختلفوا في تأويله». ويعدّد الطبري أقوالاً ثمانية في معنى «**وَرُوحٌ مِنْهُ**»، ويعلّق قائلاً: «ولكلّ هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب»[٣٠].

١٨ . «أولَئِكَ (الذِينَ لا يُخالفون اللّهَ ورسولَه) كَتَبَ في قلُوبِهِمِ الإيمَانَ، **وَأيّدَهُمْ برُوحٍ مِنْهُ**، ويُدخِلُهُم جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تحتِها الأنهَارُ، خَالدينَ فِيها» (٥٨ / ٢٢).

* في تفسير المسلمين : إنّ الله، في اليوم الأخير، يثبّتُ المؤمنين ويقوّيهم بـ " نورٍ " من عنده، ليعرفوا مَن يصادقون، وعمّن يبتعدون، فتكون لهم الجنّة خالدين فيها.

---

(٢٩) تفسير الرّازي على ٤/ ١٧١.

(٣٠) تفسير الطبري على ٤/ ١٧١.

فروحُ اللّه، إذاً، هو ذاك "النور" الذي يدلّـهم على فوزهم بجنّات اللّه وسعادتهم فـيها. وفي ذلك يقول ابن عبّـاس: «نصرهم (اللّه) على عدوّهم. وسمّى تلك النصرة روحاً، لأنّ بها يحيا أمرهم»[٣١].

* وفي تفسيرنا : الأنسب أن يكون الروح الذي مِنَ اللّه، في هذه الآية، هو اللّه نفسه الذي يتـولّى، في اليوم الأخـير، خـلاصَ المؤمنين الصادقـين، وهلاكَ المخالفين. ولا يُعـقلُ أن يستـمرَّ، في لحظة القـضاء الأخيـر، أيُ «نورٍ»، أو «هدايةٍ»، أو «وحيٍ»، أو «إيمانٍ»، أو «نصرةٍ» من عند اللّه. فيوم الحساب هـو يوم حساب. لا وحي فيه ولا هدى ولا نور ولا إيمان.

ز . اَللّهُ نَفَخَ مِنْ رُوحِهِ فِي آدَم :

١٩. "ثمّ سَوّاهُ (أي آدمَ)، وَنَفخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ» (٣٢/ ٩).

* في تفسير المسلمين : إنّ اللّهَ خلق آدمَ و "نفخ فيه من روحه"، أي جـعله حيّـا حسّـاساً بعـد أن كـان جمـاداً. وذلك بأن جعله يسـمع ويبصـر ويحبّ ويعقل. وقـد أضاف اللّهُ الروحَ إلى نفـسهِ للتـشريف. «واعلم، يقول الرازي، أنّ النّصـارى يفترون علـى اللّه الكذب، ويقولون بأنّ عيسى كان روحَ اللّه، فهـو ابن. ولا يعلمون أنّ كلّ أحد روحه روح اللّه بقوله: «ونفخ فيه من روحه»، أي الرّوح التي هي ملكه»[٣٢].

* أمّـا في تفسـيرنا : فـإنّ المصدر الذي عنـه أخذ القـرآن، هو التـوراة، التي تشيـر إلى "روح الرّبّ" الذي جعل من آدم علـى صورة

---

(٣١) عن الرازي في تفسيره على ٥٨/ ٢٢.

(٣٢) تفسير الرازي على ٣٢/ ٩.

اللّه ومثاله. وهو لا يختلفُ عن الرّوح الذي نفخه في مريم لتلدَ عيسى. والنّفخ الإلهي هو هو سواء في مريم أم في آدم. فلمَ يكون النفخُ في آدم حياة، وفي مريم مولوداً ليس كسائر البشر؟!

هذا بالإضافة إلى أنّ الرّوحَ لا يعنى هنا جبريل ولا الوحي ولا القرآن، كما يفسّر المسلمون عادةً. فما يكون إذاً؟! لا بدّ من أن يكون من اللّه، من عنده، من أمره، أو هو نفسه. ولا تزال صعوبةُ تحديدِ هويّةِ هذا الروح قائمةً عند أهل التأويل.

٢٠و٢١ . «فَإذا سَوَّيْتُهُ، **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كلُّهُمْ أجْمَعُون» (**١٥ / ٢٩؛ ٣٨ / ٧٢**).

* في تفسير المسلمين : إنَّ اللّهَ الذي أتَمَّ خلقَ آدمَ، وساوى بين أجزاء بدنه باعتدال الطبائع، وأجرى فيه من روحِه، أي صار حيّاً، أمرَ الملائكةَ بأن يسجدوا له. «أضاف اللّهُ سبحانَه روحَ آدم إلى نفسه تشريفاً لآدم وتكريماً»[٣٣].

* وفي تفسيرنا : «إنّ المأمورين بالسجود لآدم هم كلّ ملائكة السموات»، على ما يقول الرازي[٣٤]. فهناك، إذاً، إشارة إلى أنّ " الروح " هو أكثر من أن يعني إحياء آدم؛ بل هو روحٌ من اللّه أسكنَه اللّهُ في آدم، ولذلك طلب من الملائكة أن يسجدوا، لا لآدم، بل لهذا الروح الحالّ في آدم. وإلاّ لكان اللّه يدعو الملائكة إلى السجود لسواه. وحاشاه من ذلك. وسجود الملائكة لآدم أمرٌ غريبٌ في القرآن، ويردّده مراراً[٣٥].

---

(٣٣) تفسير الرّازي على ١٥ / ٢٩.

(٣٤) تفسير الرازي على ١٥ / ٢٩.

(٣٥) أنظر: ٢ / ٣٤؛ ٧ / ١١؛ ١٧ / ٦١؛ ١٨ / ٥٠؛ ٢٠ / ١١٦...

وكذلك تعنّت إبليس الذي أبى السجودَ لآدم؛ وفيه أيضاً دليل على أنّ الرّوحَ الّذي في آدم هو أكثر من عنصرِ حياة طبيعيّة، هو روح من اللّه، أي روح إلهيّ: كلّهم سجدوا لآدم إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الهالكين[٣٦].

ويشير إلى هذا المعنى الإلهيّ للرّوح، بحسب قول الرّازي، ما «ذهبت الحلوليّة إلى أنّ كلمة (مِن) تدلّ على التبعيض. و**هذا يوهم أنّ الرّوح جزء من أجزاء اللّه تعالى**». ويعلّق الرّازي، طبعاً، «وهذا في غاية الفساد»[٣٧]. ومع هذا، يشير الرّازي نفسه، إلى أنّ اللّه «**لمّا أضاف الرّوحَ إلى نفسه، دلّ على أنّه جَوهرٌ شَريفٌ عُلوِيٌّ قُدُسِيٌّ**»[٣٨].

ثالثاً – دور جبريل في القرآن

جبريل، في التقليد اليهودي–المسيحي، هو ملاك البشارات السارّة. ولم يكن يوماً ملاكَ الوحي. فمن أين جاءَه المسلمون، في تفاسيرهم، بهذه المهمّة؟! هذا وإنّنا لا نجد، في المرّات الثلاث التي يرد فيها إسم جبريل، في القرآن، أيّة علاقة له بالوحي أو بتنزيل القرآن :

١ . قال : «قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا **لجبريلَ** (فليمتْ غيظاً)، فإنّه نزَّلَه (أي القرآنَ) علَى قلبِكَ بإذْنِ (بأمر) اللّهِ، مُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيهِ (من الكتب المنزَلة قبله)، وهُدًى (من الضلالة)، وبُشْرَى (بالجنّة) للمؤمنِينَ» (٢ / ٩٧)[٣٩].

---

(٣٦) أنظر: الحجر ١٥ / ٣٠؛ص ٣٨ / ٧٣؛ بالإضافة إلى المراجع في الحاشية السابقة.

(٣٧) تفسير الرّازي على ٣٨ / ٧٢.

(٣٨) المرجع نفسه.

(٣٩) ما بين قوسَين من تفسير الجلالَين.

يُجمع المفسِّرون على أنّ اليهود هم أعداء جبريل. وبالتالي، هم أعداءُ محمّد، وأعداء اللّه أيضاً، وأعداء الوحي، والقرآن، وكلّ ما في الإسلام...

نقول :

– لم يرد لا في التوراة ولا في التقاليد اليهوديّة أنّ اليهود كانوا أعداء اللّه، أو أيٍّ من الملائكة. فهل بسبب العداوة المتبادلة بين محمّد واليهود، أصبح اليهودُ أعداءَ اللّه وجبريل؟

– ثمّ ما الرّابط بين الجملتَين: الشرط وجوابه: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجِبْرِيلَ/ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ»؟! مَن نزّلَ مَن: أهو اللّه الذي نزّل جبريل؟ أم جبريل هو الذي نزّل القرآن؟! ألصيغة اللّغوية تشير إلى أنّ اللّه هو الذي نزّل جبريل على محمّد؛ وليس جبريل هو الذي نزّل القرآن على محمّد.

– يكون معنى الآية، إذاً، أنّ جبريل هو ملاك البشارات، لا ملاك الوحي والتنزيل. وهذا هو دوره في التقليد النّصراني. ولا دور له سواه. وبالتالي، لا علاقة لجبريل بتنزيل القرآن، ولا بأيٍّ تنزيلٍ، أو وحيٍ، سابقٍ أو لاحق.

٢ . وقال : «مَنْ كانَ عدُوًّا للّهِ ومَلائِكَتِه ورُسلِه **وَجبريلَ** ومِيكَالَ، فإنَّ اللَّهَ عدوٌّ للكَافِرين» (٢/ ٩٨).

نقول :

– هذا صحيح. واليهود لم يكونوا يوماً أعداءَ اللّه حتّى يكونوا بالتالي أعداءَ الملائكة والرُّسل وجبريل وميكال. بل، هم، في سورة

البقرة نفسِها، يعتبرون أنفسهم أبناء اللّه؛ فكيف بهم الآن يُعادُونَه؟!

– ثمّ إنّ مقصودَ الآية هو التذكير بمبادئ الإيمان؛ أي: الإيمان باللّه وملائكته ورسله، وبنوع خاصّ جبريل وميكال، لأنّ اليهود والنصارى لا يعرفون غيرَهما في تقاليدهما؛ لهذا ذكرَ اسمَهما. ولم يذكرْهما بسبب مهمّتهما.

– فلا علاقة لجبريل هنا بالوحي، ولا بالتنزيل، ولا بالقرآن. كما لا شأنَ له بـ «الرّوح» ولا علاقة له به، لا من بعيدٍ ولا من قريب؛ فلماذا يعتبره المسلمون وكأنّه هو «الرّوح» الذي هو أساس الوحي والتنزيل؟

٣ . وقال : «وإنْ تَتُوبا (أي حفصة وعائشة، زوجا محمّد) إلى اللّهِ، فقد صَغَتْ قُلُوبُكُما (أي مالتْ إلى تحريم ماريّة القبطيّة، أي سَرَّكُما ذلك مع كراهة النّبيّ له)، وإنْ تَظاهَرَا (أي تتعاون حفصة وعائشة) عَليهِ (أي على النّبي فيما يكرهه)، فإنَّ اللَّهَ هُو مَولاهُ (ناصره)، **وَجبريلُ** وصَالِحُ المؤْمِنين (أي أبو بكر وعمر فيكونون ناصريه) وَالملائكَةُ بَعْدَ ذلِكَ (أي بعد نصر اللّه والمذكورين) ظَهِيرٌ (أي أعوان له في نصره على حفصة وعائشة اللّتَين كرهتا محمّداً بسبب تفضيله ماريّة القبطيّة عليهما)» **(٦٦/ ٤)**[٤٠].

نقول :

وهنا أيضاً لا شأنَ لجبريل في الوحي إطلاقاً، ولا في تنزيل القرآن؛ ولا ذكر له بأنّه هو «روح» من عند اللّه؛ ولا دور له سوى أنّه

---

(٤٠) ما بين قوسَين من تفسير الجلالَين.

سَتر ضعف النّبيّ في ميلِ قلبه إلى القبطيّة على حساب حفصة : «يَا أيُّها النَّبِيُّ! لِمَ تُحَرِّمُ مَا أحلَّ اللَّهُ لَكَ (مِن أمَتِكَ ماريّة القبطيّة، لمّا واقَعَها في بيتِ حفصَة امرأته، وكانتْ غائبةً. فجاءتْ وشقَّ عليها كونُ ذلكَ في بيتِها وعلى فراشِها، حيثُ قلتَ: هي حرامٌ عليَّ). تَبْتَغِي (بتحريم ماريّة عليكَ) مَرضَاةَ أَزْوَاجِكَ. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (أي غفر لكَ هذا التحريم).

"جبريل"، إذاً، ليس هو "الرّوح" الذي ساواه المسلمون به؛ ولا علاقة له بالوحي أو بالتنزيل.

وطالما إسمُ جبريل معروفٌ في القرآن وفي الحديث النبويّ والتقليد الإسلامي واليهودي، فلِمَ لَمْ يُذكَرْ في آيات «الروح»، بدل الرّوح؟! ولِمَ استعملَ اللّهُ كلمة «الرّوح» فاستعجم ذلك على المفسِّرين المسلمين حتّى اكتشفوا له، في كلِّ مرّة، أكثر من ثمانية معانٍ؟!

رابعاً – حقيقة "الرّوح" في القرآن

يلفت النظرفي آيات الروح الإحدى والعشرين أمور :

١ . **نفخ اللّه من روحه في آدمَ**[٤١]، وفي مريم[٤٢]؛ ونفخَ في الصُّور[٤٣]. فاعلُ النّفخ هو اللّه دائماً. وكذلك نفخ عيسى في الطين فأصبح طيراً[٤٤]، وكأنّ عيسى هو كاللّه يَنفخ فيَخلق. والنفخُ يعني أنّ

---

(٤١) (٣٢/٩؛ ١٥/٢٩؛ ٣٨/٧٢)

(٤٢) (٢١/٩١؛ ٦٦/٩١٢).

(٤٣) (٦/٧٣؛ ١٨/٩٩؛ ٢٠/١٠٢؛ ٢٣/١٠١؛ ٢٧/٨٧؛ ٣٦/٥١؛ ٣٩/٦٨؛ ٥٠/٢٠؛ ٦٩/١٣؛ ٧٨/١٨).

(٤٤) (٣/٤٩؛ ٥/١١٠).

اللّهَ أفـرغ روحَـه في الشيء الذي يـقصـدُ ولوجَـه. والـنافخُ ليس هو جبريل إطلاقاً، إلاّ في تفاسـير المسلمين الذين قصدوا إبعادَ كلِّ ظنٍّ في أن يكونَ النافخُ هو اللّه، أو روحٌ مِنَ اللّه، أو روح اللّه...

٢ . "**الروحُ والملائكة**" ثلاث مـــرّات. لـيس الروحُ من جـنس الملائكة، لأنّه يُذكَـر متمـيّزاً عنهم ومسـتقلاً بمهـمّته عـن مهمّـتهم. إنّه منسـوب دائماً إلى اللّه، خـاصّ به، مِن عندِه، وبأمرِه.. ممّا يؤكّـد أنّه لا يمكن أن يكون مـلاكاً، ولا جـبريلَ نفسَه، الموكَّلَ بالوحي، كـما يـقول المسلمون.

ثمّ إنّ هذا الرّوح يُذكَـر مع الملائكة، بما له علاقـة باليوم الآخـير، حيث لا دور لجبريل في أيِّ وحيٍ، أو تنزيلٍ، أو هداية.

٣ . "**روح اللّه**" (مـرّتين)، "**روحي**" (مـرّتين)، "**روحنا**" (٣ مرّات)، "**روحه**" (مـرّة)، و"**روح منه**" (مرّتين)، أي إنّـه روح خاصّ باللّه. يَنتسب إليه. هو من عنده، يرسلُه إلى الأنبـياء.. لكأنّه ذاتٌ إلهيّة، ذو شخـصيّة مـستقلّة. وبسـبب استقـلاليّتِـه هذه، اعتبـره المسلمون جبريل، أحدَ الملائكة وأعظمهم.

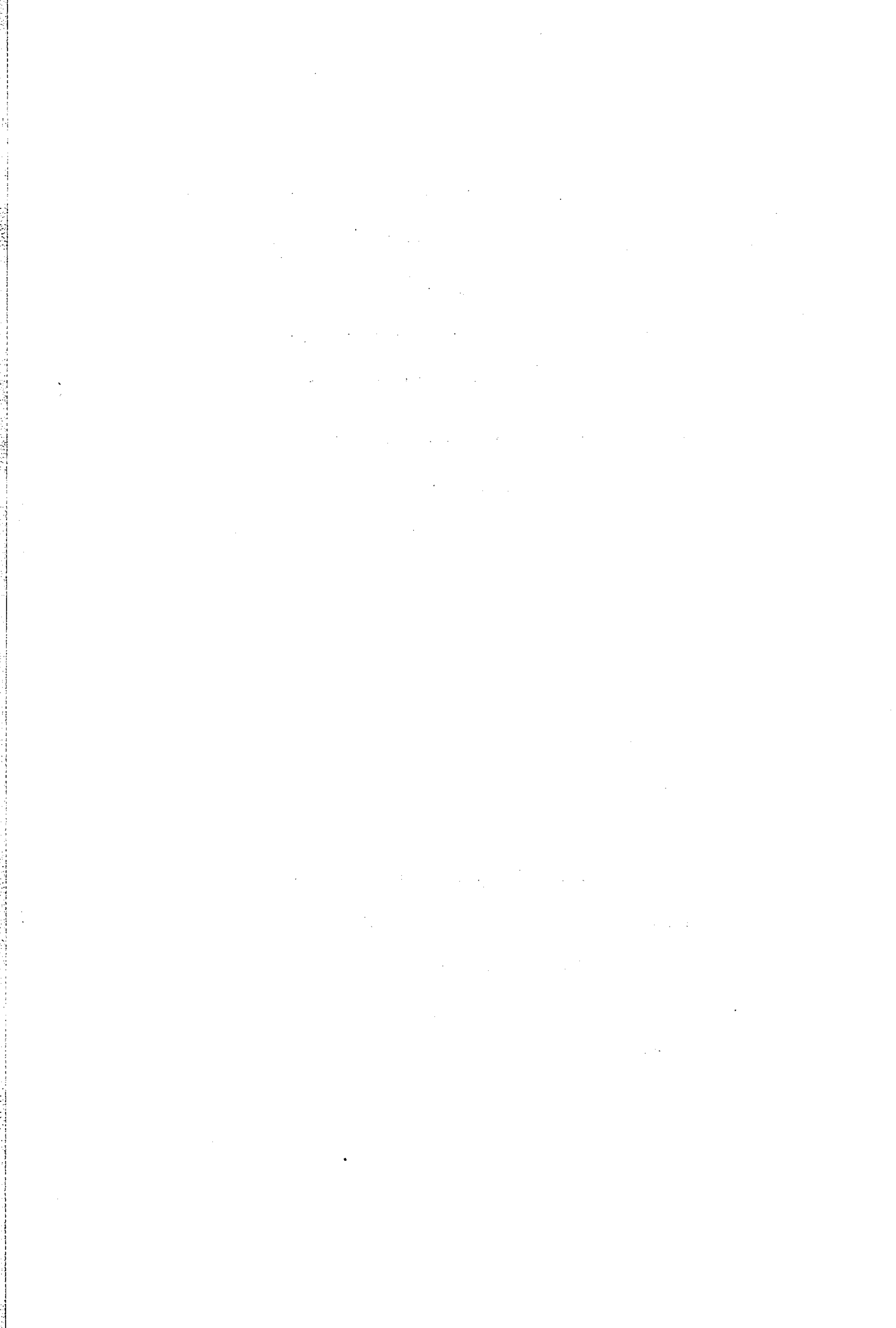
٤ . "**الروح من أمره**" (مرّتين)، "**الروح من أمر ربّي**" (مرّة)، و"**روحـاً من أمـرنا**" (مـرّة)، و"**الروح.. من كلّ أمـر**" (مـرّة). هذا «الأمرُ» لا يعني إطلاقاً أنّ الروحَ خـاضـعٌ لأمر اللّه، بل يعني أنّه "**مِنْ**" عند اللّه، من شـأنِ اللّه، من اللّه. ليس هو اللّه نفـسَه؛ وأيضـاً، لا يـعمل مسـتقلاً عن اللّـه؛ بل يعمل معـه، بالتوافق، والمسـاواة. يعمل بـ«**أمر**» إلهيٍّ واحد، أي بسلطانٍ واحد، وبمشيئةٍ واحدة، وفعلٍ واحد.

٥. "**روح القدس**" (٤ مرّات)، "**الروح الأمين**" (مرّة واحدة)، هو الروح الذي أيّد به اللّهُ عيسى، و (مرّة واحدة فقط) يقصد به الروح الذي أيّد محمّداً في تنزيل القرآن. إنّه، إذاً، غير جبريل، بدليل أنّ التعبير هو تعبير مسيحيّ محض؛ ويُذكر هذا «الروح» في تقديس المؤمنين ومساعدتهم وتأييدهم، كما هو الحال عند المسيحيّين.

وإذا كان جبريل في التقليد اليهودي-المسيحي، الذي عنه أخذ القرآن، هو ملاك البشارات السارّة، وهو لم يكن يوماً، في هذا التقليد، ملاكَ الوحي؛ فمن أين جاءَه المسلمون بهذه المهمّة؟!

خاتمة

نقول أخيراً : لا يقول بالرّوح الذي هو روح اللّه إلاّ المؤمنون به. والذين يؤمنون به يجدون فيه الحلَّ لكلِّ مستعصى. والإيمانُ به أهون المستعصيات العقليّة. و عدم الإيمان به مستعصىً أعظم. عملُ الرّوح القدس في الكون عملٌ خفيٌّ، يطالُ عمقَ أعماق كيان الانسان. ويجب أن يعلم مَن يريد أن يعلم أنّه لو قام بأعظم الأعمال، وضحّى بحياته، وامتنع عن المحرّمات جميعِها، ولم يأتِ إلاّ بالحلال والكمال، ولم يَخِلَّ بواجبٍ، ولم يترك صلاةً، ولا حسنَةً إلاّ وأتمّها. ولو صام الدهرَ كلّه، ووزّعَ أمواله على المعوزين... ولم يكن الرّوح القدس هو الذي يقدّسُ هذه الأعمال، لا تُفيده أعمالُه هذه شيئاً.



٧

ألشرّ والخطيئة الأصليّة

قد يكون على رأس البشريّة إنسانٌ أوّل يسمّى آدم، وقد لا يكون. والإنسان الأوّل، أكان آدم أم كان كائناً آخر تطوّر نحو الإنسانيّة. هذا الإنسان، بحسب تعليم الكنيسة، ارتكب بحقِّ اللّه خالقه وبحقِّ نفسهِ شرًّا استمرّ في ذرّيته إلى الأبد.

يقول تعليم الكنيسة: «أغوى الشرِّيرُ الإنسانَ منذ بدء التاريخ، فأساء (هذا الإنسان) استعمالَ حرّيته»[1]، فسقط في التجربة، وارتكب الشرَّ. ولكنّه استمرّ يحتفظ بالرّغبة في الخير؛ لهذا فهو لا يزال «يعاني من انقسام في ذاته؛ بل «حياةُ البشر كلُّها، سواء كانت فرديّةً أو جماعيّة، تبدو صراعاً مأسويًا بين الخير والشرّ، بين النّور والظلمات»[2].

---

(١) ألمجمع الفاتيكاني الثاني، دستور الكنيسة في عالم اليوم، (ك ع)، عدد ١٣.

(٢) ألمرجع السابق نفسه؛ ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٧٠٧.

لم يحدِّد تعليم الكنيسة شخصيّة «الشرّير» الذي أغوى الإنسانَ، ولا هويّته. هل يكون هذا «الشرّير» ميلاً طبيعيًا في الإنسانِ إلى الشرّ، أم هو كائنٌ ذو شخصيّة مستقلّة؟ يصعب علينا الميلَ إلى أحد الاحتمالَين؛ لأنّ القول بأحدهما يطرح أسئلةً في أصل الشرِّ لا يسع عقلُنا، بمعطياته، حلَّها.

أوّلاً – من أين يأتي الشرّ؟

على هذا السؤال الكبير، نجيب: ليست خطيئةُ آدم هي التي انسحبتْ على البشريّة؛ بل هناك، في الطبيعة البشريّة المخلوقة، أي «الممكنة الوجود بغيرها»، أي القابلة للانحلال، نقصٌ ما، أو فسادٌ ما، أو أيضاً شرٌّ ما، يلازمُ الإنسانَ، بسبب كونِ هذا الإنسانِ غيرَ «واجب الوجود بذاته». هذا النقصُ في «الوجود» يُبعد الإنسانَ عن أن يكون كاملاً كاللّه. واللّهُ ذاتُه لا يقدر أن يخلق إلهاً آخر مثله، لأنّه اللّه واحد.

هذا النقصُ، أو الشرّ، من أين أتى؟ كيف هو؟ وما مسؤوليّة الإنسان فيه؟ يجيب كتاب التعليم المسيحي: بما قاله «القديس أغوسطينوس: "لقد فتّشتُ من أين يأتي الشرُّ ولم أجدْ حلاً"[٣]، ولن يجدَ بحثُه الخاصّ الأليم مخرجاً إلاّ في اهتدائه إلى اللّه الحيّ. فإنّ «سرّ الإثم» (٢ تس ٢/ ٧) لن يتّضح إلاّ على نور سرِّ التّقوى (ر: ١طيم ٣/ ١٦). إنَّ كشْفَ المحبّة الإلهيّة في المسيح أظهر مدى الشرّ وفيضَ النّعمة معاً (رو ٥/ ٢٠)»[٤].

---

(٣) إعترافات القديس أغوسطينوس، ٧، ٧، ١١.

(٤) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٣٨٥.

ومع هذا، فإنّنا نعفي أنفسنا من الكلام على الشرّ، وعلى أصله، وسبب وجوده في الكون. فالشرّ لا يزال إلى الأبد موضوعَ بحثٍ مستمرٍّ في الأديان والمعتقدات، كما في المذاهب الفكريّة والفلسفيّة المختلفة؛ عند المؤمنين باللّه، كما عند الجاحدين.

منذ القديم، تتراوح مواقف الفلسفة بين مفهومَين متناقضَين للشرّ : ألرضوخ لواقع الحال، أو الثورة على الوضع البشري. ألرضوخ لواقع الحال يبرّر وجود الألم بكونه حالةً طبيعيّة؛ وفي الثورة نعترف بأنّنا عاجزون عن فهم عبثيّة الوضع البشري؛ لهذا يجب أن يؤدّي بنا هذا العجز إلى الثورة على كلّ شيء.

ولقد حاول البشر، عبر التاريخ، تفسير ظاهرة الشرّ في الكون، فكان بينهم مَن قال بوجود إلهَين، إله خير وإله شرّ؛ ومَن قال بأنّ الشرّ غير موجود إنّما هو نقصان في الخير؛ ومَن قال بأنَّ الشرّ ضروريّ كضرورة الظلمة لإظهار النور؛ ومَن قال بأنّ الشرور كانت وسيلةً لكي يجد اللّهُ له عملاً في التاريخ.

وبالرغم من كلّ شيء، ومهما كانت التفاسير لوجود الشرّ، يبقى الشرّ «معضلة» أمام العقل البشري، الذي لا يسعه أن يُدرك ما وراء الوجود. إلاّ أنّنا، وإن كنّا لا نجد جواباً في مجالات الفكر، فإنّنا سنتوقّف على جواب المسيحيّة والإسلام. وهذا ما يعنينا.

ثانياً – جواب المسيحيّ

ليس على المسيحيّ أن يجيب على سؤال «من أين أتى الشرّ»؛ بل عليه أن يكتفي بتوضيح موقفه من الشرّ. وهو يستلهم، في توضيحه

هذا، كلام يشوع بن سيراخ، إذ يجد فيه نهجاً سليماً له، وفي كلامه على مشيئة اللّه في السماح بحدوث الشرّ. قال يشوع :

«لا تقلْ: ألربُّ جعلني أحيد، فإنّه لا يعملُ ما يَمقُتُه.

لا تقلْ: هو أضلَّني، فإنّه لا حاجةَ له في الرجل الخاطئ...

هو صنَعَ الإنسانَ في البدء، وترَكَه يستشيرُ نفسَه...

وضعَ أمامكَ النارَ والماءَ، فتمُدُّ يدَك إلى ما شئتَ.

ألحياة والموتُ أمامَ الناس. فما أعجبَهم يُعطى لهم...

لم يوصِ أحداً أن يكونَ كافِراً، ولا أذِنَ لأحدٍ أن يخطأ»[٥].

فالإنسان ليس، إذاً، محكوماً بمصيرٍ أعمى؛ وليس مجبراً على أيِّ عملٍ من دون مشيئته الشخصيّة؛ بل يتعلّق به بأنْ يختارَ الخيرَ أو الشرّ؛ كما يتعلّق باللّه خلقُ هذا العالم على ما خلقه عليه، من خيرٍ وشرّ، ومن تناقضاتٍ فيه كثيرة جدّا، وذلك لحكمة نجهلها فعلاً. ولسنا، في أيِّ حال، بمستوى فهْمِ ما يشاء اللّهُ في خلْقه.

إنّنا، حقّا، لا نحسن الكلامَ على إنسانٍ بريءٍ يُصيبُه شرٌّ في حياته.. ومَن يسعه الجواب على هذا السؤال : لماذا خلق اللّه عالماً فيه هذا القدْر من عذاب الأبرياء، الذي لا نجد له مبرِّراً، ولا حلاً.

غير أنّ المسيحيّ يجدُ الجوابَ الشافي في صليبِ المسيح. وجوابُه لن يكون عن أصل الشرّ؛ بل عن إيجاد الدواء الشافي للشرّ. فالشرُّ، في عملِ المسيح الخلاصيّ، خاضع لمشيئة اللّه وعنايته.

---

(٥) سي ١٥/١١-١٢ و١٤ و١٦-١٧ و٢٠.

١ . إذا كان اللّه أباً محبًا، خلقَ العالم حسَناً[٦] وحسناً جدًا [٧] ومنتظماً، ويعتني بمخلوقاته جميعها، فلماذا الشرُّ موجودٌ إذاً؟.. لماذا لم يخلق اللّه عالماً من الكمال بحيث لا يتمكّن أيُّ شرّ من الولوج فيه؟ لقد كان بمقدور اللّه، بكونه الخير المطلق والكمال المطلق، أن يخلق عالماً أفضل. فلماذا لم يفعل؟!.

جواب المسيحيّ هو هذا : إنّ اللّهَ أراد، بحكمته، أن يخلق عالماً في «حالة صيرورة»، أي عالماً يسير دائماً، باستمرارٍ وباطّراد نحوَ نهايته وكماله، عالماً في «حالة مخاض»، أي عالماً يتطوّر، وينمو، ويتوالد، ويتجزّأ. تحيا منه أجزاء، وتموت أجزاء. وبهذا يسعى إلى كماله، ممّا يعني أنّه لم يبلغْ، بعدُ، إلى كماله؛ أي إنّه في حال أنين ومخاض وولادة يمتزج فيها الفرح والألم.

٢ . ثم إنّ الإنسان، بكونه كائناً مخلوقاً عاقلاً وحرًا، عليه أن يسعى نحو غايته القصوى، بحرّيته ومحبّتِه للأفضل والأكمل. فبإمكانه، فيما هو يسعى، أن يضلَّ ويخطأ، وقد ضلَّ وخطئ فعلاً، فمال، بحرّيّته وإرادته إلى الضلال والخطيئة، أي إلى الشرّ.. واللّهُ، إذاً، ليس علّةَ الشرّ، لا مباشرةً ولا بوجهٍ غير مباشر[٨]. ولكنّه يسمح به، مراعياً حرّيّةَ الإنسان وخيارَه.

٣ . ويختصر تعليم الكنيسة جوابَ المسيحيّين بقوله : «سماحُ اللّه بالشرّ الطبيعيّ والشرّ الأدبيّ سرٌّ يجلوهُ اللّهُ بابنه يسوع المسيح

(٦) تك ١/ ٤ و١٠ و١٢ و١٨ و٢١ و٢٥ و٣١.

(٧) تك ١/ ٣١.

(٨) رَ : القديس أغوسطينوس، في الحرّيّة ١، ١، ١؛ توما الأكويني، خ ل ١-٢، ٧٩، ١.

الذي مات وقام للتغلّب على الشرّ. الإيمان يُثبت لنا أنَّ اللّهَ لا يسمح بالشرِّ لو لم يكن يستخرج الخيرَ من الشرِّ نفسِه، بسبُلٍ لن نعرفَها معرفةً كاملة»(٩).

ثالثاً - الخطيئة الأصليّة

١ . يتحمّل الناسُ اليومَ، راضين أم مكرَهين، نتائج خطايا آبائهم: وما آدم، في حقيقة الأمر، إلاّ اسم معنويّ لجميع البشر الذين سبقونا ولنا بهم صلة بطريقةٍ ما. يقول التعليم المسيحي: «ألجنس البشريّ كلُّه في آدم، "كأنّه الجسد الواحد لإنسانٍ واحد"(١٠). وبسبب "وحدة الجنس البشريّ هذه" جميعُ البشر داخلون في خطيئة آدم، كما أنّهم داخلون جميعاً في تبرير المسيح»(١١).

٢ . وإنّنا، بما في طبيعتنا من «خطيئة آدم» و«تبرير المسيح»، من خيرٍ وشرّ، من مميّزات ونقائص، متضامنون مع الآخرين، مع عائلاتنا، ومحيطنا، ووسطنا المهني، وجنسيّتنا، وأجيالنا. متضامنون بمقدار ما ينتمي البشر جميعُهم إلى عيلةٍ بشريّة كبيرة واحدة. والخطيئة، في نظر الكنيسة، أكانت حالةً أم فعلاً، أصليّةً أم شخصيّةً، تسيء إلى هذا التضامن. نقول : إنّ الخطيئة إساءةٌ إلى الحقيقة والضمير. إنّها إجحافٌ بمحبّة اللّه والقريب. إنّها تجرح طبيعة الإنسان الفرد وتُؤذي التضامنَ البشري(١٢).

---

(٩) ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٣٢٤

(١٠) توما الأكويني، في الشرّ ٤، ١.

(١١) ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٠٤.

(١٢) رَ: القديس أغسطينوس، مدينة اللّه ١٤، ٢٨.

٣ . وما نسمّيه اليوم «خطيئة أصليّة» هو، في الحقيقة، «حالةٌ لا فِعْل»[١٣]؛ أي حالةٌ وُجد فيها الإنسانُ في «حالة صيرورة»، كما سبق القول، و«حالة مخاض» ينمو فيها الإنسان ويتطوّر، ويتوالد. وهو لا يتحمّل فيها أيّة مسؤوليّة؛ وليس عليه إلاّ أن يحسّن وضعه، ويغيّر تضامنه، ليصبح مع «المسيح»، بدل «آدم»، أي مع مَن جلب له الخلاص، بدل مَن أبعده عنه.

رابعاً – الخطيئة الأصليّة على ضوء مأساة الجلجلة

١ . في ظنّنا أنّ العلمَ كلّه لا يستطيع أن يكشف عن سرِّ الشرّ، ولا عن أيِّ سرٍّ من أسرار الحياة. قد ينير العلمُ بعضَ جوانب سرِّ الشرّ، إذا ما أخذ مأساةَ الجلجلة بعين الاعتبار. هنا، على الجلجلة، لا يساعدنا اللّهُ بسبب كونِه كلّيَّ القدرة، بل بسبب ضعفه، وآلامه، وعذاباته، وذبيحة الصليب، وموته، وتخلّيه عن ذاتِه وعن ألوهيّته.

٢ . ويوم ينظر العلمُ إلى مأساة الصليب، فإنّه ينحني، من دون أيِّ شكّ، أمام سرٍّ أكبر من سرّ الخطيئة المسمّاة أصليّة: «ليستِ الزلّةُ بمقدَارِ العطيّة.. وحيثُ كَثُرَتِ الخطيئةُ طَفَحَتِ النِّعمة. حتّى كما مَلَكَتِ الخطيئةُ بالموت، كذلكَ تَمْلِكُ النِّعمَةُ بالبرِّ لحياةٍ أبديَّةٍ بيسوعَ المسيحِ ربِّنا»[١٤]. هذا كلام رائع في ما يعني من تفوّق النعمة على الخطيئة، أي من تفوّق نتيجة الخطيئة عليها هي نفسها. وهذا ما عناه أغوسطينوس عندما أعلن: «طوباكِ أيّتها الخطيئة لأنّك جلبتِ لنا الخلاص!».

---

(١٣) ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٠٤.

(١٤) رو ٥/ ١٥ و٢٠-٢١.

٣ . ألشرُّ موجودٌ في الكونِ وفي الطبيعة البشريّة، وفي كلِّ فردٍ فيها. وكلُّ إنسانٍ، بسبب انتمائه إلى الطبيعة البشريّة، يحملُ أعباءَ هذا الانتماء. ولهذا فهو موجودٌ في حالةٍ بعيدٌ فيها عن اللّه. ولا يمكنه أن يستعيدَ **إمكانيّةَ** القرب من اللّه، و**إمكانيّةَ** التكفيرِ عن شرٍّ لم يقترفْه، إلاّ بوسيلةٍ لا يستطيعها هو، وسيلةٍ خارجةٍ عن إرادته. أكانت هذه الوسيلةُ وَحياً، أم نعمةً، أم كفّارةً، أم كبشَ محرقة، أم غسلاً ووضوءاً، أم تعميداً، أم ظهوراً إلهيًا، أم فداءً يقوم به اللّه نفسه، أم أيَّ شيء آخر.

٤ . وبسبب مكانة الإنسان عند اللّه خالقه، من جهة؛ ولعدم مسؤوليّته الشخصيّة الكاملة، من جهةٍ ثانية، وجد اللّهُ أنّ تدخّلَه بات عليه محتوماً. وفي العقيدة المسيحيّة، جاء اللّه نفسُه، يكشفُ للإنسان عن مدى محبّتِهِ له. فأصبحَ، بذلك، عند الإنسانِ **إمكانيّةُ** الخلاص من هذا الشرّ، الذي يوجد في جبلّته، بسبب انتمائه إلى البشريّة، وبسبب الشرّ الذي صنعه هو بملء إرادته ووعيه.

نقول دائماً كلمة " **إمكانيّة** "، لأنَّ الإنسانَ واقفٌ على مسافةٍ متوازية بين الخير والشرّ. يمكنه أن يصنعَ الخيرَ كما يمكنه أن يصنع الشرّ، بحرّيّته؛ و" لأنّ اللّهَ الذي خلقكَ بدونك، على ما يقول أغوسطينوس، لا يخلّصك بدونك ".. ففي القول بمقولة " **الإمكانيّة** " تسلم حرّيّةُ الإنسان، كما يسلم صلاحُ اللّه ومشيئته في محبّة الإنسان.

٥ . ولا شيء يضاهي محبّةَ اللّهِ للإنسان في خلقه سوى محبّته في استمراريّة هذا الخلق، وفي عمل خلاصِه. ولا شيءَ يضاهي الخلقَ والخلاصَ سوى بقاء الإنسان، أمام الخير والشرّ، حرًا، أي،

بـإمكانه اختيار ما يشاء. هكذا رأينا يشوع بن سيراخ يقول بأنّ اللّه لا يعمل في تضليل أحد؛ بل ترك الإنسانَ يقرّر بنفسه ما يشاء[(١٥)].

٦. عندما خلق اللّه الإنسانَ لم يعطِه الكمال الذي أعطاه لابنه الوحيد. ولم يكن بوسعه أن يصنع ذلك؛ لأنّه لا يسع أيّ إنسان أن يكون موضوع محبّة اللّه الكاملة، بسبب أنّه مخلوق، وأدنى من اللّه. وبالتالي، ليس هو بمستوى اللّه، كما هو الابنُ، الذي به يكون رضاه كاملاً، كما قال مرّة عنه: «هذا هو ابني الحبيب الذي به ارتضيتُ». فالإنسان كائن مخلوق. وكلّ مخلوق محدود، ممكن الوجود بغيره، أي ليس واجب الوجود بذاته. إنّه حشو. وهو ليس اللّه، ولا ابناً للّه بالطبيعة. هو مخلوق لا مولود، كابنه الوحيد. والمولود يكون من طبيعة الوالد؛ أمّا المخلوق فمن طبيعة أخرى، دون طبيعة الخالق.

٧. وبكون الإنسان كائناً محدوداً، لا يحقّ له القول بأنّ اللّه خلَقه هكذا ليزيدَ في آلامه، وليحتاجَ إليه دائماً، ويعبدَه كعبدٍ لسيِّد! إنّ الحرّيّة، التي لا يرضى عنها بديلاً، هي سببٌ مباشر لما يُصيبه من شرور وآلام؛ وهي معرّضةٌ دائماً للضعف والانكسار والفشل، وتعرِّضُ صاحبَها للثورة على اللّه. ولا تقبل بوضعها مخلوقة؛ بل تشاء أن تكون كحرّيّةِ الابنِ الوحيد المولود من طبيعة الوالد.

٨. والإنسان لا يرضى عادةً بوضعه المخلوق هذا. إنّه يثور على ذاته، وعلى اللّه الذي خلقه هكذا، وعلى المجتمع الذي يقيّده، والمسؤولين الذين يحكمونه، والشرور والأمراض التي تنتابه. إنّها

---

(١٥) رَ: سي ١٥/١١-١٢ و١٤ و١٦-١٧ و٢٠.

عبثـيّة قاتلة. وليس بوسـعه أن ينتشل نفسَـه من هذه العبثيّـة القاتلة. فعليـه، والحال هذه، إمّا أن ينتحـر ليأسِه من إصلاح وضـعه؛ وإمّا أن يعود اللّهُ ويتدخّل مجدّداً لإصلاح شأنه.

لقد كان على اللّه، في المنطوق المسيحي، أن يصيـر إنساناً حتى يخلّص الإنسـان. وبهذا الـتأنّس الإلهي أصـبح للإنسـان مقـدرةٌ على طاعته من جديد، وعلى القول له: «نعم»، بدل تلك الـ «لا» التي قالها منذ خلْقه. وأصبح عليه أن يصلّي كلّ يوم: «لتكن مشيئتك».

٩ . بهذه النظرة، يشعر الإنسانُ بأنّه، وإنْ لمْ يكنْ كاملاً كالابن الوحيد، أصبح مدعوًا إلى الدخول في فرح اللّه، ومـستحقًا الحياةَ معه، ومؤهّلاً للمـشاركة في حـياته وفي فرحه: «فـإنّه اختارَنا فـيه (أي في المسيح ابـنه) قبلَ إنشاء الـعالم، لنكونَ في حـضرته قدّيسـينَ، لا عيبَ فينا. وقـد سَبق بمحبّةٍ فـحدَّدَنا للبنوّةِ بيسـوعَ المسيح ومن أجله، وَفْقَ رِضى مشيئته» (أف ١/ ٤-٥).

هذا يعني أنّنا، بالرغم من كوننا مخلوقِين، قد شاء اللّه أن يدخلَنا في عيلتـه كأبناء، دخـولاً كاملاً، مـحبوبِين كـابنه الوحيـد، ودعانا إلى القداسة فإلى المجد الأبديّ[١٦]. و«البنوّة»، التي شاءَها الآبُ لنا بيسوع المسيح ابـنِه، هي الخلاص عينـه الذي قصده الآب لنا، مـنذ الأزل، وقد حقّقه في ملء الزمن.

***

(١٦) رَ: قول ٣/١٢؛ ١ تس ١/ ٤؛ ٢ تس ٢/١٣؛ روم ١١/٢٨.

خامساً – نظرة الإسلام إلى الشرّ

لنستعرض ما جاء في القرآن : إنّ اللّهَ قال للملائكة: سأخلق آدمَ خليفةً لي في الأرض. فاعترضَ الملائكةُ: أتجعل فيها مَن يُفسد فيها ويَسفكُ الدماء! فيما نحن نسبّحك ونمدحك ونقدّس اسمك!؟[١٧].

ومع ذلك، خلق اللّهُ آدمَ، وميّزه عن الملائكة، ورفعه فوقهم، وعلّمه أسماء الموجودات كلّها. ولم يعلّمها الملائكة (٢/ ٣١). فاغتاظ الملائكة من اللّه. وعَصَوه. فأمرهم بأن يسجدوا لآدم. فسجدوا إلاّ إبليس الذي أبى واستكبر وكفر[١٨]. فسأله اللّه: يا إبليس! مَا لَكَ لا تسجد؟ فأجاب: لا أسجدُ لبَشَرٍ خلقتَه من صلصال، من حَمَإٍ مسنون[١٩]. أو كما أجاب أيضاً في مكان آخر: لا أسجد. أنا خيرٌ منه. خلقتَني من نار، وخلقتَه من طين[٢٠].

إلاّ أنّ اللّهَ غضب على إبليس. فأخرجه من الجنّة. ولعنَه إلى يوم الدّين[٢١]. ونبَّهَ اللّهُ آدمَ وحوّاء: إنّ إبليسَ هذا هو عدوٌّ لكما. وقد يُخرجكما من الجنّة، حيث أنتما سعيدان، لا تشعران بجوع، ولا تستحيان من عري، ولا تحسّان بعطش، ولا تتعرّضان لحرّ شمس ولا لرياح زمهرير[٢٢].

---

(١٧) رَ: سورة آل عمران ٣/ ٣٠.

(١٨) رَ : ٢/ ٣٤؛ ٧/ ١١؛ ١٥/ ٣١؛ ١٧/ ٦١؛ ١٨/ ٥٠؛ ٢٠/ ١١٦؛ ٣٨/ ٧٤.

(١٩) أي من طين يابس أسود متغيّر اللّون (١٥/ ٣٣).

(٢٠) رَ : ٧/ ١٢؛ ١٧/ ٦١؛ ٣٨/ ٧٦.

(٢١) رَ : سورة ص ٣٨/ ٧٧–٧٨.

(٢٢) رَ: سورة طه ٢٠/ ١١٧–١٢٠.

وهدّد إبليسُ اللّهَ بأنّه سيغوي آدمَ وزوجتَه[٢٣]، ويجرّب ذريّتَهما ويستأصلهم بالإغواء[٢٤]... وعزم اللّهُ على اختبار آدم : أيطيعُ إبليسَ، أم يطيعه هو؟!. فطلبَ منه أن لا يقربَ شجرةً في الجنّة، هي شجرة الخلد[٢٥].

إلاّ أنّ آدمَ سمع لوسوسات إبليس الذي طلب منه ومن امرأته أن يذوقا الشجرة. فذاقاها. فأغواهما. فأكلا. فأزلّهما. فسقطا. ولمّا بدت لهما سَوآتُهما، طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة[٢٦].

وجاء في تجاريب إبليس لهما بأنّ اللّهَ منعهما الأكلَ من الشجرة لكي لا يصبحا مَلاكَين، أي خالدَين كاللّه نفسِه (٧/ ٢٠). ولكن، لمّا علم اللّهُ بمعصيتهما، غضب عليهما، وأخرجهما من الجنّة إلى الأبد[٢٧]. لكنّ آدمَ تابَ عن فعلته. فتاب اللّهُ عليه[٢٨].

ومع هذا، وبالرّغم من توبة آدم، لم يكفّ اللّهُ عن عقابه، إذ أسقطه من الجنّة، هو، وزوجتَه، وذرّيتَه، حتى يوم الدين. قال لهما: «أهبطا منها جميعاً، بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ»[٢٩]، أي أنتما وذرّيتُكما، ويصبحُ الواحدُ من ذرّيتكما عدوّاً للآخر إلى يوم القيامة[٣٠].

---

(٢٣) رَ: سورة الحجر ١٥/ ٤٢.
(٢٤) ١٧/ ٦٢؛ ٣٨/ ٨٢.
(٢٥) رَ: ٢/ ٣٥؛ ٢٠/ ١٢٠.
(٢٦) رَ: ٧/ ٢٢؛ ٢٠/ ٢١.
(٢٧) ٢/ ٣٦؛ ٧/ ٢٤-٢٥.
(٢٨) رَ: سورة البقرة ٢/ ٣٧.
(٢٩) رَ: ٢٠/ ١٢٣.
(٣٠) رَ: ٢/ ٣٦؛ ٧/ ٢٤.

ولكنّ اللّهَ الذي شدّد العقاب على آدم وذرِّيَّته، وعدَهم بالهدى (أي بالقرآن). قال: «أهبطوا منها جميعاً (أي ذرِّيَّة آدم). فإمّا يأتيَنَّكُم مِنِّي هدى. فمَن تبعَ هدايَ فلا خوفَ عليهِم. ولا هم يحزنون»[٣١]. أو أيضاً: «قال: أهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعضٍ عدوٌّ. فإمّا يأتيَنَّكم مِنِّي هدىً. فمن اتّبع هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى»[٣٢].

***

نقول : إنّ الشرَّ في القرآن معروفةٌ أسبابه؛ غير أنّ الخلاص منه غير معروفة طرقه. لهذا يبقى الإنسانُ، مهما استعاذ باللّهِ من الشيطان الرجيم، رهينة هذا الشيطان.

ونقول أيضاً : مسيرة آدم ومفاعيل خطيئته توبته، عليه وعلى ذرّيته، ووعدُ اللّه له ولذرِّيَّته بالهدى والخلاص.. هي نفسها مسيرة المسيحيّة، مع فوارق أساسيّة ثلاثة :

الفارق الأوّل – إنّ الخلاص، عند المسيحيّين، تحقّق في تجسّد ابن اللّه وصلبه وموته وقيامته؛ فيما هو في الإسلام، تحقّق في القرآن، كلامِ اللّه الأزلي، الذي فيه الهدى واليقين والحلّ لكلّ معضلة.

الفارق الثاني – إنّ المسلمين حطّوا رحالَهم عند آدم، ونسبوا إليه معصيةً استمرّت تتفاعل في ذرِّيَّته إلى نهاية الدهر؛ فيما المسيحيّون يتساءلون باستمرار عن رأس البشريّة، ويبحثون دائماً عن سرِّ الشرِّ والإثم.

---

(٣١) ٢/ ٣٨.
(٣٢) ٢٠/ ١٢٣.

ألفارق الثالث – إنّ المسيحيّين يقولون ببشريّةٍ فيها "**إمكانيّة**" الشرّ، كما فيها "**إمكانيّة**" الخير. هذه "**الإمكانيّة**" هي لها بسببَين: بسبب أنّها غير «واجبة الوجود بذاتها»؛ وبسبب الحرّية التي تمتاز بها وتتميّز. ولهذين السببين، كان لا بدّ لها من هادٍ، يساعدها على انتشالها من وضعها الرّاهن كخليقة ممكنة الوجود بغيرها، وعلى توجيه هذه الحرّيّة، وافتدائها. وكان القرآن، بالنسبة إلى المسلمين، هذا الهادي، وبالنسبة إلى المسيحيّين، ألمسيح الذي كفّر بذاته عن هذا الوضع الواهن، وعن سوء استعمال حرّيّتنا من دون أن يُزيلها.

خلاصة

وخلاصة القول إنّ ما نسمّيه «خطيئة أصليّة» هي، في حقيقة الأمر، وضع الإنسان المخلوق المحدود. وهو وضع الطبيعة البشريّة كلّها، أكان في أساسها خطيئة فعليّة ارتكبها آدم أو غير آدم، أم لم يكن أحدٌ ارتكب أيَّ فعل. ألخطيئة هي «حالة لا فعل». هكذا جاء في تعليم الكنيسة، كما رأينا.

ففي هذه النظرة المسيحيّة إلى الشرِّ الموجود في الخليقة، وإلى «الخطيئة الأصليّة»، أي المتأصّلة في الطبيعة البشريّة –ولا نقول خطيئة آدم– مقاربةٌ عقليّةٌ مقبولةٌ أكثر ممّا جاء به الإسلام وسائر الأديان والمذاهب العقليّة.

٨

ألتجسّد

جاء في التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة: «الإيمان بالتجسّد الحقيقيّ لابن اللّه هو العلامة المميِّزة للإيمان المسيحيّ: "بهذا تعرفون روحَ اللّه. إنّ كلَّ روحٍ يعترف بأنّ يسوعَ المسيحَ قد أتى في الجسد هو من اللّه" (١ يو ٤/ ٢). ذلك هو يقينُ الكنيسة البهيج منذ البدء، عندما تتغنّى "بسرّ التقوى العظيم": "لقد أُظهر في الجسد" (١ طيم ٣/ ١٦)»[1].

أمّا المسلمون فيرفضون رفضاً قاطعاً ألوهيّةَ يسوع المسيح، أو بنوّتَه الطبيعيّة للّه، أو اعتبارَه أحدَ الأقانيم الإلهيّة الثلاثة؛ كما يرفضون، بالتالي، صلبَه، وقيامَتَه، وبقاءَه حيّاً حاضراً فاعلاً في كنيسته وفي العالم، كما يقول المسيحيّون. وحجّتُهم على ذلك يستلّونها، بحسب رأيهم، من مراجعَ ثلاثة: من العقل، والإنجيل، والقرآن:

---

(١) ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٦٣.

فـالعـقل يرفضُ أن يكون في الكون أكـثـر من كـائنٍ واحـدٍ كلّيٍّ الكمال، هو اللّهُ الواحد الأحـد، لا شريك له، ولا بنين ولا بنات. ويرفض أن يحلّ اللّهُ في جسمٍ، أو في مكان وزمان، لئلاّ يكون مـحدوداً، فيبطل أن يكون إلهاً.

والإنجيلُ واضحٌ في إظهار إنسـانيّةِ عيسى، وطاعتِه وخـضوعه الكامل لمشيئـة اللّه. وكان خلال حياته، على ما كـتب عنه تلاميذُه، يأكل ويشرب وينام، ويصلّي، ويحزن، ويتألّم، مثله مثل سائر البشر.

والقرآن يؤكّد : «لَو كَانَ فِيهِـمَا (أي في السماء والأرض) آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَـا» (٢١/ ٢٢). ويلوم اللّه عيسى عمّا إذا كـان قال للناس إنّه إله؛ وأنكر عيـسى مثل هذا القـول : «وإذْ قالَ اللَّهُ: يا عيـسَى ابنَ مريمَ! أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتَّخِذُوني وأمّي إلَهَين من دونِ اللّهِ؟! قال: سـبحانَكَ! ما يكون لي أن أقول ما ليسَ لي بحقٍّ...» (٥/ ١١٦).

***

أمّا المـسيـحيّـون فيـستندون، في حـجّتـهم على ألوهيّة يسـوع المسيح، إلى تعاليم الوحي، ومعطيـات الإيمان، وشهادة الرسل، وتقليد الكنيسة، وأقوال الآباء، وسلوك القدّيسـين، ومسيرة المؤمنين.

لهـذا، لن يكون كلامُنا دفـاعـاً عقليًـا عن ألوهيّـة يسوع المسـيح وبنوّتِه للّه الآب، كما كان ذلك قديماً مع "الآباء المدافعين" Apologètes ، الذين بلوا بلاءً حسناً. إنّ موضوع تجـسّد اللّه إنّما هو موضوع إيمان، غير خـاضع للعقل، الذي لا يسعه، في أيّ حـال، استيعاب مـقاصد اللّه وأعماله. حجّتنا على ما نقول نأخذها ممّا يلي :

أوّلاً – إنّ اللّه نفسَه يدافعُ عن نفسِه وعن المؤمنين به، لا العكس. والمبدأ القائل بأنْ "لا يتكلّم على اللّه إلاّ اللّه" مبدأ صحيح . جاء في تفسير الرازي : «عقولُ المخلوقات ومعارفُهم متناهية، والحقُّ تعالى غيرُ متناهٍ؛ والمتناهي يَمتنع وصولُه إلى غير المتناهي. ولأنَّ أعظمَ الأشياء هو اللّه تعالى، وأعظمَ العلوم علمُ اللّه سبحانه وتعالى. وأعظمُ الأشياء لا يمكن معرفتُه إلاّ بأعظم العلوم، فعلى هذا، **لا يعرفُ اللّهَ إلاّ اللّه**»[٢]. وليس على الإنسان، بالتالي، إلاّ أن يصلّي ويصنع الخير ليفتحَ اللّه له ويُنيرَ عقلَه.

ثانياً – لا يكون مسيحيٌّ مؤمناً لمجرّد قناعةٍ عقليّةٍ عنده. بل هو كذلك بسبب **اختباره اللّهَ في حياته الخاصّة**، اختباراً روحيًا عميقاً، بعيداً كلَّ البعد عن كلِّ محاولة إقناعٍ أو دفاعٍ؛ إن كان ذلك بالجهاد أو بالإكراه. وإلاَّ كان اللّهُ من جملة موضوعات البحث والتنظير التي تُفرض على الإنسان فرضاً. فاللّه يُختَبَر ويُعاش حياتيًا لا نظريًا؛ يُدافَع عنه لا بإجبار الناس مكرَهين؛ بل بمحبّتهم. إنَّ «اختبار اللّه» Expérience de Dieu ، لا إدراكه، هو السبيل إلى اللّقاء به، ومحبّته، وإقامة علاقة معه ومع الناس جميعهم.

ثالثاً – إنّ موضوعاتِ الإيمان كلَّها هي خارج المدرَكِ والمعقول. وإلاّ فالاعتقادُ بها، إن كانت تخضع للعقل، لا يُسَمَّى إيماناً؛ وإذا ما عرفناها، من دون إيمان، فلن نكون في حاجة إلى وحي اللّه، ولا إلى نبوّة الأنبياء، ولا إلى كتبٍ منزَلة، ولا إلى أيِّ تدخّلٍ إلهيٍّ. واللّهُ الذي

---

(٢) الرازي، التفسير الكبير، باب ٢، في مباحث عن الإسم، مجلّد ١، ص ١٢١.

يقتنعُ به عقلُنا إنّما يكون صنيعةَ عقلنا، بل أقلّ درجة منه. وبالتالي لا يكون إلهاً. والحال، إنّ اللّه هو «الآخر»، و«المطلق»، و«الكلّيّ الكمال»، و«خارج الزمان والمكان»؛ ولن يكون بوسعنا معرفة شيء عنه.

هذه المحاذير تعني :

أوّلاً – أنّ المسيحيّ هو مسيحيٌّ لأنَّه لا يعرف اللّهَ من دون يسوعَ المسيح، إذ «مَا مِن أحدٍ يَعرفُ الآبَ إلاّ الابنُ ومَن يشاءُ الابنُ كَشْفَهُ له» (متى ١١/٢٧). لهذا، فيسوع المسيح هو الوسيط الوحيد بينه وبين اللّه الآب؛ بل هو الوسيلة الوحيدة إلى اللّه الآب؛ وهو الذي قال في ما قال : «أظهرتُ اسمَكَ للنَّاس» (يو ١٧/٦).

ثانياً – يربأ الإنسانُ أن يُسلِّمَ زمامَ نفسِه ومصيرَه لغير اللّه. وليس من مخلوق، مهما سما، يستحقّ اتِّباعَه، أكان نبيّاً، أو ملاكاً، أو أيَّ روحٍ من أرواح الأرض والسماء. وحدَه المسيح، بكونه ابناً للّه، مرسَلاً من الآب، يستطيع أن يكون لنا مثالاً وقدوةً ومرتجى، إذ فيه وحدَه نجد الخلاصَ والقداسةَ، والحياةَ مع اللّه وفيه، والسعادةَ الحقيقيّة.

ثالثاً – أنّ المسيحي لا يكون مسيحيّاً إنْ لم يكنْ بهداية الرّوح القدس ونعمته. هذا الرّوح هو الذي يغيّر ما في الإنسان. ولا يستطيع إنسان، بقواه الشخصيّة، عملَ أيّ شيء صالحٍ من دون الروح. ولولا الرّوح لما كان لإيمانٍ معنىً ولا لفعلٍ فائدة. هذا الرّوح هو الذي يُقدِّسُ أعمال الإنسان. ولولاه لما كانت قداسة على وجه الأرض.

***

ثمّ نودّ أنْ نُطَمْئِنَ الّذين ينكرون منطقَ "التجسّد"، والمسلمين بنوع خاصٍّ، فنقول :

أوّلاً – إنّ صعوبة القول بتجسّد اللّه ليست أعظم من صعوبة القول بـ «بُعْدِه» transcendance، حيث لا نجد للّه أيّة علاقة بينه وبين البشر. إنّه إلهٌ متفوِّقٌ، متعالٍ، بعيدٌ جدًّا، مُفارِقٌ للعالم، متجاوزٌ كلَّ شيء؛ لا يُقيم صلةً، ولا شراكةً، ولا محبّةً، ولا عنايةً، ولا حواراً مع أحد، ولا انفتاحاً على أحد. هذا الإله نحن لا نحتاج إليه في شيء. رفضناه أم قبلناه سيّان. والبراهين على رفضه أم على قبوله سيّان. إنّه خَلقنا –إن كان هو خلَقنا– ورمى بنا في هذا الكون اللاّمحدود. ومع القول بـ «بُعْدِه» وعلوِّه، من دون القول بالتّجسّد، يُخشى علينا من أن نجد تبريراً للكفر به وإلحاده.

ثانياً – ونقول أيضاً: إنْ كان التجسّدُ نقصاً في اللّه، كما يقول المسلمون، فإنّ المسيحيّين، في الحقيقة، يرفضونَ إلهاً يتّصف بالبعد والكبر والكمال والوحدانيّة.. فحسب. ولا يتّصفُ بالقرب والمشاركة والمحبّة.. ويُخشى على اللّه الذي هو كلُّ شيء أن يصبحَ، بهذه الكمالات فقط، كلا شيء. فبسبب «بُعده»، يُصبحُ معه «كلّ شيء» و «لا شيء» سيّان. وبالتالي، يُصبحُ معه الإيمان والكفر سواء. وهو تبريرٌ آخر لكفر الكافرين، وإلحاد الملحدين.

ثالثاً – ثمّ نقول لمن يريد أن ينظر إلى واقع الإسلام : إنّ المسلمين، في فئاتهم وشيعهم جميعها، حاولوا، هم أيضاً، وبلا قصدٍ منهم، تجسيداً ما للّه! فماذا يعني قولُهم، مثلاً، بأنّ القرآنَ هو "كلامُ اللّه"! أليس هذا اعترافاً، ولكن بأسلوبٍ آخر، بتجسيدٍ للّهِ في «كتابٍ»،

بدل أن يكونَ تجسيداً في شخصٍ بشريٍّ يولد وينمو ويعلّم ويتألّم ويموت من أجل مَن جاء لأجلهم؟! ما القرآن، في حقيقته، إلاّ تجسيدٌ للّه الذي لا يُطيقُه المسلمون بعيداً متعالياً إلى هذا الحدِّ من البعد والتعالي.

رابعاً – ولا يلومنا أهلُ السنّة إنْ ذكّرناهم بالشيعة الإماميّة الذين يقولون بركن سادس للإسلام، هو "الإمامة". وما الإمامُ، في ما يصفونه، إلاّ بعضُ اللّه على الأرض. ألإمامُ، في رأيهم، معصومٌ من كلّ خطأ وخطيئة. هو الإنسانُ الكامل. عنده علوم الأرض والسماء. له الحقّ وحدَه في تأويل كلام اللّه، وتفسيره، وفي الاجتهاد في الشريعة. له أن يحفظَ الوحيَ من التحريف والتزوير.. بل، إذا كانت مهمّةُ النّبيّ إنزالَ الوحي في فترة زمنيّة محدّدة، فمهمّة الإمام أعظم، وهي الحفاظ على هذا الوحي مدى الدهر.. أليسَ هذا تجسيدٌ للّه الذي لا يُطيقُه الشيعة بعيداً متعالياً إلى هذا الحدِّ من البعد والتعالي!!

خامساً – ونُلفتُ النّظرَ أيضاً إلى أنّ أدياناً ومذاهبَ عدّة استقلّتْ عن الإسلام، بسببِ قولها بوجوب «ظهور» اللّه و«تجلّيه» في الإنسان: فالدروز، مثلاً، قالوا بظهور اللّه اثنتَين وسبعين مرّة، كان آخرها في الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر اللّه (ت ٤١١هـ/ ١٠٢١م). إنّ اللّه، في عقيدتهم، لا يُعرَف إنْ لم يكشِفْ عن نفسه. ولهذا سمِّي الدروز "بني معروف"، من المعرفة، أي هم الذين عرفوا اللاّهوت ظاهراً متجلّياً كاشفاً عن نفسه في النّاسوت... وفي رأيهم أيضاً أنّ إلهاً قابعاً فوق السماوات السبع ليس بإله؛ بل هو "مسخ". بل «نحنُ نجهلُ مثل هذا الإله، كما نجهلُ ما وراء هذا الجدار الذي بقربنا»، كما يقولون(٣).

---

(٣) رَاجع: كتاب بين العقل والنبيّ، فصل: التجلّي الإلهي، ص ٩٣-١١٦.

سادساً – ونشيرُ أيضاً إلى دينٍ آخرَ انشقّ عن الإسلام واستقلّ عنه، هو دين العلويّين النّصيريّين. فهؤلاء أيضاً اعتبروا اللّهَ «متجلّياً» في شخص عليٍّ بن أبي طالب (ت٤٠هـ/٦٦١م). وهو تجلّيه السابع والأخير في الإنسان. وقد ظهر اللّهُ في عليٍّ، بحسب قولهم، ليعرفَه الناس، ويأنسوا به، ويحبّوه، ويعرّفهم بنفسه بطريقة أفضل... بهذا التجلّي يستطيعُ اللّهُ أن يُقيمَ مع العالم علاقاتٍ من المحبّة والوصال[٤].

سابعاً – فلكأنَّ التجسّدَ، في ما ثبت لنا من التاريخ، حاجةٌ عند الإنسان ومحبّةٌ في اللّه... عند المسيحيّين، إلهٌ واحدٌ أحدٌ صمَدٌ بعيدٌ متعالٍ، هو إلهٌ حقيقيٌ من دون شكّ، ولكن في ذاته، ولذاته، وبالنسبة إلى ذاته؛ أمّا بالنسبة إلى الإنسان فهو إلهٌ معزولٌ في دائرةٍ إلهيّةٍ صمَديّةٍ مُغلَقة. ولن يُصبحَ اللّهُ إلهاً محِبّاً، وأباً حنوناً، وأمّا رؤوماً، ورحماناً رحيماً، وتوّاباً غفوراً، إلاّ عندما يصبح في متناول الإنسان ومجالات عقله وإدراكه... وبكلمةٍ مألوفةٍ عند المسيحيّين، عندما يُصبح اللّهُ «عمّانوئيل المترجم إلهنا–معنا». هذا الإله هو «ما رأيناه وسمعناه» (١ يو ١/٣).

ثامناً – ومع هذا، إنّ ما قلناه عن نوعٍ من التّجسّد في القرآن، وفي مختلف فروع الشيعة، وعند الدروز الموحِّدين، والعلويّين النّصيريّين... ليس برهاناً على عقيدة المسيحيّين بالتجسّد الإلهي، وبألوهيّة المسيح، بقدر ما هو قبسٌ من نورٍ قد يضيء سبيل بعضَ

(٤) رَاجع: كتاب العلويّون النّصيريّون، التجلّي الإلهي عبر العصور، ص ٤٤–٥٢.

المسلمين في قبـول هذه العقيدة الإيمانيّـة الأساسيّة، ويشيـر إلى عمق حاجة في الإنسان ليجد إلهَه معه، ويشاركه في حياته وسعادته.

***

أمّا إيمان المسيحيّين بالتجسّد الإلهي، فهو هذا :

أوّلاً – لقد عبّـر القدّيس بولس عن هذه العقـيدة الأساسيّـة كما يلي: «لمّا أتى مِلْءُ الزَّمن، أرسلَ اللّهُ ابنَه مولوداً مـن امرأةٍ، مولوداً تحتَ الشريعة، لكي يَفتديَ الذينَ تحتَ الـشريعة، حتّى ننالَ التبنّي» (غل ٤/ ٤–٥). هذا «التبنّي» «هو مشاركة في بنوّة الربّ يسوع للآب السماوي بالروح القدس، علاقة وجوديّة جديدة مـع اللّه الآب، استحقَّها لنا الابنُ بموته وقيامته»[٥].

ثانيـاً – وتعلّم الكنـيسة: أنّـنا «نؤمن ونعـتـرف بأنّ يسـوع الناصـريّ، المولود من فتـاةٍ من إسرائـيل، في بيتَ لحم، في عهـد الملك هيرودس الكبيـر والإمبراطور أوغسطس قيصـر الأوّل، نجّار الصنعة، الذي مـات مـصلوباً فـي أورشليم إبّانَ حكْم الوالي بُـنطس بيـلاطس، ومُلْكِ الإمبراطور تيبـاريوس، هو ابنُ اللّهِ الأزليُّ المتأنِّس، وبأنّه «خرج من اللّه» (يو ١٣/ ٣)، و«سكن بيننا، ورأينا مجـدَه، مجداً من الآب لابنه الوحيـد، الممتلئ نعـمةً وحـقّاً... أجَلْ، من امـتلائه نحن كلّنا قـد أخذنا، ونعمةً فوقَ نعمة (يو ١/ ١٤ و١٦)»[٦].

---

(٥) تفسير إونجليون على غل ٤/ ٥.

(٦) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٢٣.

ثالثاً – وتعلّم الكنيسة أيضـاً، فتقول: «إنّ اسم يسوع يعني أنّ اسمَ اللّه نفسَـه حاضـرٌ في شخص ابنه[٧] الذي صار إنسـاناً لافتداء البشر افـتداءً شاملاً ونهائيًّـا من الخطايا. إنّه الاسمُ الإلهيّ الذي وحده يجلب الخلاص[٨]، وبوسع كلّ إنسان من الآن فصـاعداً أن يدعوَه لأنّه اتّحد بجميع البشر بالتجسّد[٩]، بحيث إنّه «ليس تحت السماء اسمٌ آخرُ أُعطي في الناس به ينبغي أن نخلص» (أع ٤/١٢)[١٠].

***

لماذا صار الكلمة جسداً؟

أوّلاً – «صار الكلمـة جسداً **ليُخلِّصَنا بمُصـالحتنا مع اللّه**: اللّه «هو نفسـه أحبّنا وأرسل ابنَه كفّـارةً عن خطايانا» (١ يو ٤/١٠). «إنّ ذاك قد ظهر ليرفع الخطايا» (١ يو ٣/٥).

«مريضـةً، كانت طبيعتنا تطلب الشِّفاءَ؛ وساقطةً، أن تُقال عَثرَتُها؛ وميـتةً، أن تُبْعث حيّـة. كنّا فقدنا امـتلاكَ الخيـر، فكان لا بدّ من إعادته إلينا. وكنّا غـارقين في الظلمـات، فكان لا بدّ من رَفْـعِنا إلى النور؛ وكنّا أسرى ننتظر مُخلِّصاً؛ وسُجناءَ ننتظر عـوناً؛ وعبيداً ننتظر محرِّراً. هل كانت هذه الدواعي بدون أهمّـيّة؟ ألم تكن تستـحقّ أن تحرّك عطفَ اللّه

---

(٧) رَاجع: أعمال الرسل ٥/٤١؛ ٣ يوحنا ٧.

(٨) رَاجع: يوحنا ٣/٥؛ أعمال الرسل ٢/٢١.

(٩) رَاجع: رو ما ١/٦-١٣.

(١٠) رَاجع: أعمال الرسل ٩/١٤؛٢٨/٢٠؛ يعقوب ٢/٧؛ التعليم المسيحي، عدد ٤٣٢.

إلى حدّ أن تُنزله حتّى طبيعتنا البشريّة فيعودها، إذ إنّ البشريّة كانت في حالةٍ جدّ بائسة وجدٍ تَعِسة»[١١].

ثانياً – «ألكلمة صار جسداً لكي نعرف هكذا محبّة الله. «بهذا ظهرت محبّة الله في ما بيننا، بأنّ اللّهَ أرسلَ ابنَه الوحيد إلى العالم لنحيا به» (١ يو ٤/ ٩)؛ إذ إنّ الله «أحبّ العالم هكذا حتّى إنّه بذل ابنَه الوحيد لكي لا يهلك كلُّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياةُ الأبديّة (يو ٣/ ١٦)»[١٢].

ثالثاً – «لقد صار الكلمة جسداً لكي يكون مثالاً لنا في القداسة: «احملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي» (متى ١١/ ٢٩). «أنا الطريق والحقّ والحياة. لا يأتي أحدٌ إلى الآب إلاّ بي» (يو ١٤/ ٦). والآب، على جبل التجلّي، يأمر: «إسمعوا له» (مر ٩/ ٧)[١٣]. فهو، في الحقيقة، مثال التطويبات وقاعدة الناموس الجديد: «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا» (يو ١٥/ ١٢). هذه المحبّة تتضمّن تقدمة الذات الفعليّة في إثره»[١٤].

رابعاً – «صار الكلمة جسداً لكي يجعلنا «شركاء في الطبيعة الإلهيّة» (٢ بط ١/ ٤): «فهذا هو السبب الذي من أجله صار الكلمة بشراً، وابنُ الله ابنَ الإنسان، لكي يصير الإنسانُ ابنَ الله بدخوله في الشركة مع الكلمة، وبنَيلِه هكذا البنوّة الإلهيّة»[١٥]. «إذ إنّ ابنَ الله صار

---

(١١) القديس غريغوريوس النيصي، خطاب ١٥، ٣؛ التعليم المسيحي، عدد ٤٥٧.

(١٢) التعليم المسيحي، عدد ٤٥٨.

(١٣) رَ: تثنية الاشتراع ٦/ ٤-٥.

(١٤) رَ: مرقس ٨/ ٣٤؛ التعليم المسيحي، عدد ٤٥٩.

(١٥) القديس إيريناوس، الردّ على الهرطقات ٣، ١٩، ١.

إنساناً لكي يصيّرنا آلهةً»[١٦]. «إبن اللّه الوحيد، إذ أراد أن نشاركه في ألوهته، تلبّس بطبيعتنا حتّى إذا صار هو بشراً يصيّر البشرَ آلهة»[١٧].

خامساً – «كثيراً ما ردّد آباء الكنيسة قولهم هذا: إنّ ابن اللّه صار إنساناً ليجعل الناس أبناء اللّه. هذا «العبور» من الإنسانيّة إلى الإلهيّة لن يكون من دون «وسيط»: يجب على الابن الوحيد أن يجمع البشر ليدخلوا «به ومعه وفيه»، بعون الرّوح، في حضن العيلة الثالوثيّة. حتّى آدم نفسه، لو لم يخطأ، لكان في حاجة إلى تجسّد الابن الوحيد «ليعبر» إلى اللّه. فـ «في المسيح اختارنا اللّه منذ الأزل لنكون أبناءه» (أف ١ / ١١).

« "فليست الخطيئة، إذاً، هي التي استحقّتْ لنا المسيح، بل هو حبّ اللّه الذي صار إنساناً من أجلنا ليجعلنا آلهة. ألخطيئة لا تفسِّر سرَّ التجسّد؛ بل هي التي جعلت سرَّ التجسّد سرَّ فداء "[١٨].

إنّ مشيئة اللّه هي أن يجعل منّا "آلهة"، أن يدخلنا في حياته الإلهيّة، في عيلته الثالوثيّة، أن يشركنا بحياته. يريد أن نأكل من ثمار الشجرة التي، وحدها، تستطيع أن تهبنا الحياةَ الأبديّة. إلاّ أنّنا أكلنا الثمرة قبل نضوجها. لقد كان علينا أن ننتظر. نريد، كآدم وحوّاء، أن نأكل من الثمرة ونصير آلهة عاجلاً.

---

(١٦) القديس أثناسيوس، في التجسّد ٣,٥٤.

(١٧) توما الأكويني، فرض «عيد جسد المسيح»، في السَّحَر، قراءة ١؛ ألتعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٦٠.

(١٨) Georges Martelet, *Libre réponse à un scandale*, Ed. du Cerf, 1986, p. 40

نريد، كـالابن الشـاطر، أن يُقـسَم لنا الميراثُ حـالاً. ولكن، نحن لا نستطيع أن نعطي ذواتَنا الحياةَ الخالدة. يســوع نفسُه لمْ يخلِّص نفسَه بنفســه، بل ترك أباه يخلِّصه. مـجدُه له من آخَـر: «إنْ أُمَجِّدْ أنـا نفسي فـبـاطلٌ مـجـدي. أبي هو الذي يمجِّـدُني» (يو ٨/ ٥٤)[١٩]. يســوع لم يخلِّص نفسه بنفـسه، كما عرض عليـه إبليس في بدء دعوته[٢٠]، وكما عــرض عليـه أعــداؤه ذلك ثلاث مــرّات وهو على الجلجـلة: «خلِّصْ نفسَك»[٢١].

---

(١٩) رَاجع: يوحنا ١٧/ ٥.

(٢٠) رَاجع: لوقا ٤/ ١-١٣.

(٢١) لوقا ٢٣/ ٣٥ و٣٦-٣٨ و٣٩-٤٣.

٩

الصليب

إنّ موضوع الصليب، بالنسبة إلى المسيحيّين، هو من الموضوعات المحوريّة في عقيدتهم. فالصليب هو مختصر إيمانهم، وعنوان حرّيتهم، ومرتجى سعادتهم، وعلامة محبّة اللّه للعالم، وخلاصهم في اليوم الأخير. وكلام القديس بولس يعبّر عن ذلك خيرَ تعبير. قال: «أمَّا نَحْنُ فَنُنَادِي بمَسِيحٍ مَصْلُوبٍ، هُوَ عثَارٌ لليَهُودِ وَجَهَالَةٌ للأمَم» (١ قور ١/ ٢٣).

***

لقد نطق السيّد أحمد زكي، الذي هاجم القديسَ بولس هجوماً عنيفاً، بكلمَة حقٍّ عندما قال: "فَإذَا انْتَفَى الصّليبُ، مَاذَا يَبْقَى مِن دِينِ شاؤول؟ لا شيء"[1]. هذا كلامٌ عظيم. يؤيّدُه فيه شاؤولُ نفسُه، الذي قال: «أمَّا أنا فَمَعَاذَ اللّهِ أنْ أفتَخِرَ إلاّ بصَلِيبِ رَبِّنَا يسوعَ المسِيح» (غل ٦/ ١٤).

---

(١) إنزعوا قناع بولس عن وجه المسيح، ص ٦٤٨.

لكأنّ الصليبَ، بالنسبة إلى المسيحيّين، كان، منذ البدء، قدَرَ اللّه الذي خلق الإنسانَ حرًا، وقدَرَ يسوع الذي سعى إليه منذ بدايته، والهدفَ الذي وصل إليه في آخرِ حياته.. والمخلَّصون، في مفهوم المسيحيّين، يعيشون في ظلٍّ هذا الصليب؛ والهالكون أيضاً، هم هالكون، على حدِّ قولِ بولس، لأنّهم أعداء الصليب[٢].

ولئن ركّز المسلمون وألحّوا، في كتاباتهم الكثيرة، على إلغاء الصليب، فلأنّهم يعرفون بأنّهم بذلك يلغون المسيحيّةَ من أساسها. وهم يعتمدون في تركيزهم وإلحاحهم على الحجج التالية :

أوّلاً – تفسيراً لما جاء في آية النساء[٣]، التي تأبى أن يكون المصلوب هو عيسى نفسه؛ بل هو : إمّا كائن آتٍ من عالَمٍ آخر، أرسله اللّهُ لهذه الغاية؛ أو هو أحد التلاميذ قدّم نفسَه ليُصلَب مكان معلّمه، مثل أن يكون سمعان بطرس، أو سمعان القيرواني، أو يوسف الرّامي؛ أو يهوذا الإسخريوطي الذي رمى عيسى عليه شبهه، فقبض عليه اليهود بدل عيسى الذي اختفى عن أعينهم تحت أجنحة الظلام... والخلافُ بين المسلمين حول هويّة «الشبَه» لا يزال قائماً. وفي أيّ حال، إنّ عيسى،

---

(٢) رَاجع: فيلبّي ٣/١٨.

(٣) جاء في سورة النساء (٤/١٥٧– ١٥٩): "وقولِهم (أي اليهود): إنّا قَتَلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ، رسولَ اللّه. (وقول اللّه): وَمَا قَتَلوه. وَمَا صلبوه. ولكنْ شُبِّهَ لَهُم (أي ألقى اللّهُ على عيسى شبهَه فظنّوه إيّاه). وَإنَّ الّذِيْنَ اخْتَلَفوا فيه (أى في عيسى) لَفِي شكٍّ منه (أي من قتله). مَا لَهُمْ بِهِ (أي بقتله) مِنْ عِلْمٍ إلاّ اتّبَاعَ الظَّنِّ (أي اتّباع ما يتخيلون). ومَا قَتَلوهُ يَقِيْناً (حال مؤكّدة لنفي القتل)* بل رَفَعَهُ اللّهُ إليهِ. وكان اللّهُ عزيزاً حكيماً.* وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاّ لَيُؤمِنَنَّ به(بعيسى)، قَبْلَ مَوتِه (أي قبل موت عيسى عند قرب الساعة) ويومَ القيامَةِ يكونُ (عيسى) عليهم شهيداً".

كمـا يقولون، لم يتمكّن اليهـودُ منه، ولم يمتْ قتلاً؛ بل بقي حـيّاً إلى أن رفعه اللّهُ إليه.

ثانياً – إنّه من غيـر المعقـول عند المسلمين أن يتعـرّض المسيح، وهو، بنظرهم، نبيٌّ عـظيم، إلى هذا المقـدار من الإهانة والذلّ على أيدي أعدائه. وإلاّ ما عسى يكون الهدف الذي جاء من أجله، إذا كان أعداؤه قد غلبوه!!. وهل يُعقل أن يفشل اللّهُ في أنبيائه، فينتصر أعداؤه عليه!!.

ثالثاً – ثمّة طوائف نصرانيّة قديمة قالت بنظريّة "الرّفْع". وفي رأي بعضــهم أنّ "المسيح" العنصرَ الإلهي دخل في يســوعَ الناصري عند عمـاده، ثم خرج منه عند صلبه. وفي رأي آخرين: إذا كـان المسيحُ عنصراً إلهيّـاً، فلا يُعقل أن يصلَب، ويهان على أيدي أشــرار، ومن غير المعقول أن يموت. وآخـرون، ممّن يرون المسيحَ نبيّاً عظيمـاً، يرفضون انكسارَه لأعدائه وأعداء اللّه...

رابعاً – يقول المسلمون بعدم الصلب، لأنّ القرآن قال بأنّ المسيح لم يُقـتل ولم يُصلَب. قال أحـدُ متـرجِمي كـتبِ الداعيـة أحمـد ديدات: "ونحن كمسلمين لا نقـبل بشأن عيسى إلاّ ما يـقوله لنا القرآن الكريم. ولا نريد أن نعرفَ أكثر ممّا يُخبرنا به القرآنُ الكريم"[٤].

***

أمّا المسيحيّون فليسوا، في معتقدهم، في حاجة إلى إثباتِ الصلب التـاريخي، أو إلى الردّ على المسلمـين وسائر الشـيع النّصـرانيّـة التي

---

(٤) أحمد ديدات، مسألة صلب المسيح، بين الحقيقة والافتراء، ص ١٩٤.

سبقت. فالكنيسة، منذ البدء، على هذا الإيمان، وفي هذه المسيرة، مسيرة الآلام، والصلب، والموت والقيامة.

وبعض المسيحيّين الذين رفضوا مسيرةَ الصليب، رفضوها لشدّة إيمانهم بأنّ المسيحَ، بكونه إلهاً، لا يُمكن أن يُصلب، ويتألّم، ويهان، ويموت... وأمّا الذين يصرّون على الصلب فإنّهم يصرّون في الوقت نفسه على أنّ اللّهَ الذي هانَ عليه أن يصير إنساناً، لا بدّ من أن يكمّلَ مسيرتَه الإنسانيّة هذه، أي مسيرة الولادة والألم والموت. وكلّ ذلك كان من أجل أن يصير كالإنسان ليصيّر الإنسانَ مثله.

لهذا، فإنّ المسيحيّين يؤمنون بالمسيح مصلوباً،

١. لأنّ اللّهَ نفسَه، عندما خلق الإنسانَ حرًّا، خلقَ لنفسِه صليباً؛ لأنّه خلقَ بإزائه كائناً يستطيع أن يقولَ له: نعم و لا. يستطيع أن يرفضَه و أن يقبلَه، أن يطيعَه و أن يعصاه.. إنّها الحرّيّة، صليب اللّه، عنوان مجد الإنسان. وكان على اللّه، بشخصِ المسيح ابنِه وعمله الخلاصيّ، أن يكمّلَ دفاعَه عن هذا الإنسان وعن حرّيته وخلاصه.

٢. فما أحسن ما قال بولس في هذا المجال : ألصليب «أبطل شريعة الوصايا بما فيها من فرائض» (أف ٢/ ١٥)، أي أبطل الشريعة التي قيّدت حرّيّة الإنسان. والصليب «محا الصكَّ المكتوب علينا» (قول ٢/ ١٤)، أي الكتابَ الذي تُدوَّن فيه خطايا يرتكبها الناس، وكأنّها ديون عليهم. والصليبُ «عرّى الرئاسات والسلاطين، وفضح أمرهم. وبالصليب جرَّهم في ركبه ظافراً» (قول ٢/ ١٥)، أي إنّ يسوع المسيح ظفر على تلك الكائنات جميعاً، وجرَّها في ركبه الظافر. وبالصليب

صالح يسوعُ «كلّ شيء» (قول ١/ ٢٠)، أي "إنّها مصالحة عامّة تشمل جميع الأكوان، الأرض والسماء، وجميع الخلائق "[٥].

٣ . وليس بولس وحدَه مَن قال بصلب يسوع وشدّد على الخلاص بالصليب. فالأناجيل كلّها، القانونيّة والمنحولة، تعترف بهذا الحدث التاريخي. وكذلك التقليد الكنسي المتواتر عن الآباء والكتبة والمؤرّخين. إنّه حدثٌ تاريخيّ لا شكّ فيه. وهو أيضاً حدثٌ خلاصيّ لا شكّ فيه. لكأنّ الصليبَ كان الوسيلةَ الأهمّ التي أتمّ اللّه بها خلاصَ العالم، وأعادَ للإنسان حرّيّته التي سلبها منه الناموس ورجال الناموس.

ويقتضي لنا الكثير من الثقافة اللاّهوتيّة حتّى نفهمَ مسيرة يسوع على درب الصليب وأبعادَها الخلاصيّة. وقد لا نجد لخلاصنا درباً أخرى غير درب الصليب.

٤ . والفرق الكبير الحاصل بين المسيحيّين وغير المسيحيّين هو أنّ المسيحيّين عرفوا أن يفتدوا حياتَهم، بكلّ ما يخصّها من آلام وأحزان وأمراض ومشاكل ومتاعب ومصاعب، فأشركوها بحياة ربِّهم ومخلّصهم، وحملوا صليبَهم معه... أمّا غير المسيحيّين فلا يزالون يبحثون سدىً عمّن يحملُ معهم أحزانَهم وآلامَهم، ويساعدهم في حمل مصاعبهم، وحلِّ مشاكلهم، ويفتدي حرّيّتَهم وحياتهم.

٥ . ويبدو لنا أنّ الصليبَ، بما يعني من آلام وأحزان وأتعاب ومشاكل، هو من واقع الحياة البشريّة. فلكلّ إنسان صليبه. وهو أمرٌ

---

(٥) رَاجع تفسير إونجليون على قول ٢/ ١٤–١٥ و قول ١/ ٢٠.

محتَّم.. وإذا كـان الأمرُ كذلك، يكون أمـامَ الإنسانِ أحدُ الاحتمـالَين: إمّا أن يكون كـ"سِـيزِيف"، الفتى الأسـطوري، الذي حمل صخـرتَه على كتـفيه، صـاعداً بها إلى قـمّة الجبل؛ وعند بلوغـها، تهوي به إلى قـعر الوادي، فيـعود يحمـلها مجـدّداً. وهكذا إلى آخر الدهر. يعـيشُ عبثـيّةً قاتلة، لا مفرَّ له منها ولا خلاص.. وإمّا أن يتشبّه بيسوع فيحمل صليبَه على منكبَيه، ويسيـر معه، ويفتدي نفسَه، ويتخلّص من عـبثيّة الوضع البشري الراهن. وهكذا يحظى بحلٍّ عظيمٍ لما هو فيه من مآسي الحياة.

٦. ويتّـضـح عند الذين يرفـضون عـبثـيّـة سِيـزِيف، ويطعنون بصليب يســوع معاً، أنّهم لا يعـرفون من واقع الحيـاة البشـريّة إلاّ ما هان. فهم مطمئنّون جدّاً لما هم عليه. والبشريّة، في عقيدتهم، تسير على نمطٍ محدّدٍ مرسوم. والإنسان مسـيَّرٌ بحقائق جاهزة وبشريعة مُنزَلة. والعالم يدور على نفسه، ولا يسير إلى الأمام خطوة. هؤلاء لا يفقهون عبثيّـة سيزيف، ولا يقبلون صليبَ يسوع، ولا يعرفون أنّ الحـياةَ أكثر تعقيداً ممّا يظنّون.

٧. ونودّ أن نقول للمسلمين أخيراً بأنَّ عليهم أن يُعيدوا النّظرَ في موقـفهـم من الصليب، وفي معـرفتـهم لحيـاة البشـر العمـيقـة القلق والكثيـرة العقد. ونقول لهم أيضـاً: إنّ الذين رأوا ما رأوا، وسمعـوا ما سمعوا، من حيـاة يسوع وموته على الصليب، لم يكونوا على هذا القدر من الغباء حتّى يُصدّقوا أوهاماً وأشباحاً، وأشباهاً.

٨. هذا، بالإضـافة إلى ما رأوا وســمعـوا، فإنّ إيمانَهم بالمسيح المصلوب من أجل خـلاص العالم قد نالهم منه قـداسةً وخـلاصاً. تعلّم الكنيسـة في تعليمـها الرسـمي بأن لا قداسة من دون صـليب. تقول:

«يمرّ طريق القداسة عبر الصليب. وليس من قداسة تخلو من التجرّد ومن الجهاد الروحي[٦]. والتقدّم الروحي يتضمّن الجهاد والإماتة اللذين يؤدّيان تدريجيًا إلى العيش في سلام التطويبات وفرحها»[٧]...

***

١ . لقد أحبَّ اللّهُ الإنسان حبًا مجّانيًا. أحبّه حرًا، يتصرّف بحرّيةٍ كاملة. هذه الحرّيّة حمّلتِ اللّهَ، منذ أنْ خلقه، «صليباً» كبيراً جدًا. واستمرّ هذا الصليب على أكتاف اللّه بسبب هذه المحبّة وهذه الحرّيّة : محبّة اللّه للإنسان، وحرّيّة الإنسان بإزاءِ اللّه.

٢ . إنّ الصليب الذي تمجّده المسيحيّة يرتكز على هذين البُعدَين المشار إليهما : محبّة اللّه للإنسان، وحرّيّة الإنسان بإزاء اللّه. صليب محبّة اللّه للإنسان، وصليب حرّيّة الإنسان في رفض هذه المحبّة. هذا الصليب، في بُعدَيه هذين، هو عنوان البشريّة مع اللّه، وعنوان اللّه مع البشريّة. إنّه عنوان القبول والرفض، عنوان النَّعَم و اللاَّ، عنوان ما صنع اللّهُ مع الإنسان، وما صنع الإنسانُ باللّه، وعنوان ما صنع الإنسانُ بالإنسان بسبب موقفه من اللّه.

٣ . هذا العنوان الأخير بدأ واضحاً مع بداية الإنسان في تعدِّيه على حرّيّة أخيه الإنسان. وأصعب هذا التعدِّي ذاك الذي كان باسم اللّه، حتّى أصبح كلُّ واحدٍ يفرض على أخيه ما يُريد وكأنّها إرادة اللّه. فيما اللّهُ نفسه تمالكَ ذاته حتّى لا يفرض على الإنسان إرادتَه.

---

(٦) رَاجع : ٢ طيم ٤.

(٧) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٠١٥.

٤ . ما فـرضـه الإنسان على أخـيه الإنسان، باسـم اللّه، سبّب للّه حمْـلَ صليبٍ جديد. لقـد حاولَ الإنسـانُ، في تبريرِ تعـدّيه على أخـيه، اخـتراقَ السـماء، وتنزيلَ شـرائعَ باسم اللّه، وكـتبٍ موحـاة من عنده، وأديانٍ وصفـها سمـاويّة، ومعتـقداتٍ جامـدة، وتعاليمَ ثابتة، وأنبـياءَ ورسلٍ وأولياءَ وملائكةٍ وآلهة... حتـى امتلأتِ الإرضُ منها. وهو ما لم يُردْه اللّهُ الذي صَلَبَ نفسَه بسَببها.

٥ . هذه "السمـاويّات" النازلة على الإنسان من فوق سـبّبتْ للّه "صليـباً" جديـداً، وتجلّياً جـديداً، ومحـبّةً جديـدة، وخلاصاً جـديداً، وأرضاً جديـدة... فكان يسوع النّاصري ظهوراً آخـرَ للّه، جاءَ يُعلِن أنّ محـبّةَ اللّه لا تزال هي هي، وأنّ حرّيّةَ الإنسـان مصانةٌ من اللّه نفـسِه، وأنّ العملَ في اكتشاف أسرار الكون مستمرٌّ أبداً.

٦ . مع "صليـبِ يسـوع" هذا، برهانٌ آخـر على مـحـبّـةِ اللّه للإنسان، وعلى قدسـيّةِ حريّةِ الإنسان. وعنوانٌ جديدٌ للقـيامة والمجد، ولاستـمراريّة تجلّي اللّـه في العالم، عَـبر "جمـاعة" بشـريّة، تواكبُ الإنسـانَ في تطوّره ونموّه ورقيّـه؛ ويسـتمـرّ اللّهُ فيـها، عـبر "سـرِّ المائدة"، غذاءً روحيّـاً، هو برهان على أنّ اللّهَ يمارِس محبَّتَه عـبر موادِّ الكون الزائلة.

٧ . ومع هذا نخشى أنْ نقـول بأنّ اللّه، حتّى مع هذا "الصليب"، كاد يفشل، لأنّ حـركةً "سماويّةً" جديدة نشـأتْ مع الإسلام، وأعادتِ اللّهَ إلى صَمَـدانيّته، والإنسانَ إلـى عبوديّته، والكونَ إلى مـادّةٍ شرّيرةٍ عَمياء، لا تُفيد قداسةً ولا خلاصاً.

٨ . هذه العــودة إلى الوراء، منعتِ اللّـهَ من أن يُحِبَّ، وقـيّـدتِ

الإنسانَ من أن يكونَ حـرًا، وسمّرتِ الكونَ كلَّـه بعمدِ السـماء. فلكأنَّنا، هذه المرّة، نحن مع صليبٍ لا عنـوان له سوى تدمـير الإنسـان والكون في سبيل اللّه، وبالتـالي، تغييب اللّه وراء سموِّه وصمدانيّـته وأحديّته، أي صلبُه صلباً لا فائدة منه إطلاقاً، بل تدميره تدميراً كاملاً.

٩ . هذا التـدمـيـر الكامـل تولاّه «الإسـلام المدني»، الذي فـرض "تنزيلاً سماوياً"، قهَرَ به الإنسـانَ، وجعل قتْلَ الإنسانِ أخاه من أجل اللّه، صِراطاً مسـتقيماً؛ وهو ما خـشيه اللّه نفسه منذ البـدء، عندما قال لقايين: «أين أخـوك هابيل؟»، ما صنعتَ به؟ لماذا قتلتَه؟ إنّ دمَـه يصرخ إليّ بالانتقام. ولكنّي لم أنتقم؛ بل سأجعلك تعيش مأساةً أبديّة.

١٠ . مع «الإسلام المدني» ذهبتْ عناوينُ الصليب كـلُّها. وأصبح الصليبُ نفسُـه مشتَبَـهاً به؛ وبالتالي، لا وجود له، ولا فـاعليّة. أللّهُ في «الإسلام المدني»، واحدٌ، أحَدٌ، صمد، متعـالٍ، مهيمنٌ، جبّار... لمْ يعدْ إلهَ محـبّة، ولا يعرف الأبـوّة، وليس لنا فيه أيُّ رجـاء. ولا هو، بالنتيـجة، موضوع سعادة؛ لأنّ الإنسـانَ في الجنّة سوف يجد سعادات كثيرة في غير اللّه، أي في لذّة الأكل والشرب والنكاح والشهوات الحسّيّة...

١١ . وكذلك الإنسان، في «الإسـلام المدني»، لا يتنعّم بمحبّة اللّه، ولا بالحرّيّة التي وهبـه إيّاها اللّه. هذا «الإسلام المدني» ضنينٌ على اللّه أكثر من اللّه نفسه على نفسه؛ يهمّـه الحفاظ على وحدانيّة اللّه وكرامته أكثر ممّا يهمّه الحفاظ على محبّة الإنسان وحريّته.

١٢ . والضحيّة، في كلّ وجه، اللّهُ والإنـسان معاً. كلّ ذلك بسبب رفض «الإسـلام المدنـي» للصليب، عنوانِ محـبّةِ اللّهِ للإنسـان، وحرّيّةِ الإنسان بإزاء اللّه، والقيامة والمجد والسعادة.

هذه مغيَّبات «الإسلام المدني» التي كلَّفتِ اللّهَ ألوهيّتَه.

١٣ . لم يستطعِ اللّهُ، وهو كلّي القدرة، أن يحافظَ، مع «الإسلام المدني» على أيّةِ واحدةٍ من المغيَّبات الثلاث: لم يستطع، وهو ضابط الكلّ، أن يخلِّصَ الإنسانَ من أديان السماء وكتبها المنزَلَة، وأنبيائها المشترعِين، ورسلِها المبعوثين.

١٤ . وحدَها المسيحيّة، التي آمنتْ بطريق «الصليب»، حافظتْ على عظمةِ اللّه ومحبّتِه، وعلى حرّيّة الإنسان وكرامته، وسرِّ الكون العظيم... ويوم يحلو لها أن ترفعَ «الصليب» عن كتف اللّه، تُلغي، في الوقت نفسه، اللّهَ والإنسانَ والكون، أي: المحبّةَ والحرّيّة والوجود.

١٥ . وأخيراً، وفي هذا المناخ العام لمفهوم المسيحيّة للصليب، نفهم دعوة يسوع الواضحة لكلِّ إنسان: «مَن أراد أن يتبعَني، فليكفرْ بنفسه، وليحملْ صليبه، ويتبعني» (متى ١٦/ ٢٤). والكنيسة تعلّم دائماً أنّ المسيح « بآلامه المقدّسة، على خشبة الصليب، استحقّ لنا التبرير»[٨]. وقد أبرز الطابع الفريد لذبيحة المسيح على أنّها «علّة خلاص أبديّ» (عب ٥/ ٩). والكنيسة توقّر الصليب مرنّمةً: «ألسلامُ عليكَ، أيّها الصليب، يا رجاءَنا الوحيد!»[٩].

---

(٨) مجمع ترنت، الجلسة ٦ أ، قرار في التبرير، ق ١: د ١٥٢٩.

(٩) نشيد لواء الملك، ألتعليم المسيحي، عدد ٦١٧.

١٠

ألفداء

صنع اللّهُ للبشـر أموراً عدّة، «لكي يَصيـرُوا بِهَا شُرَكاءَ الطَّبـيعةِ الإلهيّة» (٢ بط ١ / ٤)[1]، ومتّحدين به اتّحاداً كامـلاً. وليستِ المسيحيّةُ بأقلّ من أن تكون اشـتراكـاً في الحيـاة الإلهـيّة واتّحـاداً باللّه. إلاّ أنّنا نتـوقّف عند ثلاثة أمور، تظهـر فـيهـا هذه الشراكـة بأعظم ما تظهـر؛ ويتّضح افتداؤه لهم وخلاصهم. هذه الثلاثة هي:

١ . محبّة اللّه المجّانيّة، وقد ظهرت في خلق العالم من العدم؛

٢ . «المعموديّة، التي هي الباب الذي يدخل منه الناس إلى الكنيسة»[2]؛

٣ . التوبة التي بها يرافق اللّهُ البشرَ في حياتهم، ويصالحهم مع ذاته.

---

(١) يعلّق شرّاح إونجليون على تعـبير: «شركاء في الطبيـعة الإلهيّة»، فيقـولون: «تعبير فريد في العهد الجديد. كان توق الإنسان الشديد إلى الألوهة ظاهراً لدى اليونان، في الفلسفة، والمعـرفة، والديانات السرّيّة. لكنَّ الإيمانَ المسيحيَّ وحـدَه حقّق هذا التوق، فأشرك المؤمن حقًّا في طبيعة وحياة اللّه الآب والابن والروح القدس».

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٩٥٠.

أولاً - محبّة الله المجانيّة

جاء في التعليم المسيحي: « لقد استطاع إسرائيل، على مرّ تاريخه، أن يكتشف أنّه لم يكن للّه إلاّ داعٍ واحدٌ حملَه على الكشف عن ذاته له، وعلى اختياره له، بين سائر الشعوب، ليكونَ شعبَه الخاصّ، هو "حبُّه المجّاني"[٣]. وقد فقهَ إسرائيلُ، بفضل أنبيائه، أنّه بدافع الحبّ أيضاً لم يكُفَّ اللّهُ عن تخليصه[٤]، وعن مغفرةِ نكيثته وآثامه»[٥].

و « يُشبَّه حبُّ اللّه لإسرائيل بحبِّ أبٍ لابنه (رَ: هو١ / ١١). وهذا الحبّ أقوى من حبِّ أمٍّ لأبنائها (رَ أش ٤٩ / ١٤-١٥). أللّه يحبّ شعبه أكثر ممّا يحبّ زوجٌ حبيبتَه (رَ: أش ٦٢ / ٤-٥)؛ وهذا الحبّ يتغلّب حتّى على أقبح الخيانات[٦]؛ وهو يذهب إلى درجة بذلِ الأغلى: «هكذا أحبَّ اللّهُ العالَمَ حتّى إنَّه بذلَ ابنَه الوحيد» (يو ٣ / ١٦)»[٧].

و « القدّيس يوحنّا يذهبُ أيضاً إلى أبعد من ذلك عندما يعلن أنّ «اللّهَ محبّة» (١ يو ٤ / ٨ و١٦): فكيان اللّه ذاته محبّة. وعندما يرسل اللّه، بحلول ملء الأزمنة، ابنَه الوحيد وروحَ محبّته، يكشف عن أخصّ سرٍّ له[٨]: إنّه هو نفسُه أبداً تبادل محبّة : آبٌ وابنٌ وروحٌ قدس، وقد قدّر لنا أن نكون شركاءَ فيه»[٩].

---

(٣) رَ: تث ٤ / ٣٧؛ ٧ / ٨؛ ١٠ / ١٥.

(٤) رَ: أش ٤٣ / ١-٧.

(٥) رَ: هو ٢؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢١٨.

(٦) رَ: حز ١٦؛ هو ١١.

(٧) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢١٩.

(٨) رَ: ١ قور ٢ / ٧-١٦؛ أف ٣ / ٩-١٢.

(٩) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٢١.

ألمبدأ إذاً جليٌّ واضح وهو أنّ «اللّه محبّة»، محبّة في كيانه؛ ومحبّة لسواه؛ محبّة مجّانيّة؛ ومحبّة غافرة وساترة كلّ إهانة... وقد برهن اللّهُ عن هذه المحبّة في جميع ما صنع: في الخلق، كما في الخلاص؛ في تبرير الإنسان وتقديسه؛ في الكشف عن مشيئته، كما في متابعته الإنسان من أجل تخليصه من شرور يميل إليها بإرادته الحرّة؛ وأخيراً في إرسال ابنه، وهو ذروة حبّه.

لقد رأينا، في فصلٍ سابق، أنّ الشرّ موجودٌ في العالم؛ ولكن، مَن المسؤولُ عنه؟ ومَن بوسعه أن يرفعه عن البشر؟ أيُّ كائنٍ مخلوقٍ يستطيع محوَ آثاره؟ لا أحد. لذلك يمكننا القول بأنَّ اللّهَ، الذي رضي بوجود الشرّ، وحدَه يستطيع أن يسيطرَ عليه، مع حفاظه على حرّيّة الإنسان التي كانتْ هي السبب في وجوده.

ألله وحدَه يقضي على نتائج ما صنع الإنسانُ بحرِّيَّته من شرّ، من دون أن يقضي على هذه الحرِّيّة. لهذا، كان لا بدّ للّه وحدَه من أن يتدبّرَ حرِّيّةَ الإنسان من دون القضاء عليها.

هذا هو المعنى الأوّل للفداء.

إلاّ أنّ هذا الفداء قد يكون بطرقٍ عدَّة : إمّا بوحيٍ إلهيٍّ، وإمّا بإرسالِ رسلٍ وأنبياء، وإمّا بظهوراتٍ وعجائبَ. وقد يكون أيضاً بظهورِ اللّه نفسِه، أو بتجسّده.

في المسيحيّة كان يسوع المسيح، ابن اللّه، هو المرسَل من لدن اللّه الآب، لافتداء الإنسان وخلاصه وسعادته. وفي الإسلام كان القرآن، هو كلام اللّه المنزَل، الذي به هداية الإنسان ونجاته.

لقد عـزم اللّهُ، في المعتقد المسـيحي، حفـاظاً على الإنسان، وعلى أعظم ما في الإنسان، أي حرِّيّته، أن يـفتدي هذا الإنسانَ وهذه الحرِّيّة، بأيِّ ثمن.. وبسبب أنّ الإنســانَ خُلق على صورة اللّه ومثـاله، قرّر اللّهُ نفسُه أن يفتديه ممّا هو فيه. وكان فداؤه له على ثلاثة صعد :

١ . فداء من الشرّ الحاصل في جبلّة الطبـيعة البشريّة؛ ولكن، من دون أن يغيّـر اللّهُ في هذه الطبيعـة. وقد عالجنا ذلك في فـصل سابق، فصل «الشرّ والخطيئة الأصليّة».

٢ . فـداء ممّا صنع الإنسانُ ويـصنع من خطايا بســبب حرِّيّتـه الشـخصيّة؛ ولكن، أيضـاً، من دون أن يقضـي على هذه الحرِّيّة، التي بها سموُّ الإنسان وكرامتُه.

٣ . فداء ممّا أساء الإنســانُ إلى حرِّيّته بما قيّـدها به من شرائع، نسَبَها إلى اللّه نفسه، فـقضى بها على اللّه وعلى الإنسان وعلى الحرّيّة معاً.

لهـذا اقتـضى على اللّه أنْ يفـتديَ الطبـيعـةَ البـشريّةَ برمّـتهـا، والإنســانَ كلَّ إنسان، والحـرِّيّةَ أيضاً ممّــا جعل لهــا البشــرُ والأديانُ والأنبياءُ من قيود وحدود.

***

المسيحـيّة والإسلام يعتـرفان بهذا الواقع. إلاّ أنّهما يـختلفان في معالجتـه. والاختلاف يقوم إمّا على التزامِ اللّهِ نفـسِه فداء هذا الإنسان من هذا الشرِّ الشامل، بسبب ما وهبَه مِن حـرِّيّة؛ وهو موقف المسيحيّة. وإمّا يقوم علــى وحيٍ إلهيٍّ حُدِّد وجُمِّد في كتــابٍ مُنزَل. في هذه الحال،

وهي حال الإسلام، تستمرّ البشريّةُ رهينةَ هذا الكتاب المنزَل، تعالجُ شرَّها بذاتها، وتقضي بجمود هذا الكتاب على حرّيّتها. ولا يعتقد أحدٌ بأنَّ الكتابَ يسعه أن يفتديَ الإنسانَ ممّا هو فيه.

تعلّمُ المسيحيّة أنّ اللّهَ نفسَه هو الذي تولّى عمَلَ الفداء. وآلام المسيح، وموته وقيامته توحي إلينا إلهاً جُنَّ في حبِّه لنا.

لقد أجابَ اللّهُ على سؤالنا الصعب حول سرِّ الشرّ، ففاجأنا بسرٍّ أكثرَ صعوبة، ألا وهو سرّ إلهٍ «مسيحٍ مصلوبٍ هو عِثارٌ لليهودِ وجهالةٌ للأمم» (١ قور ١/ ٢٣).

إنّه حقًّا «عثار لليهود» في أن يكون المسيحُ، الذي ينتظرونه ليخلِّصهم، معلَّقاً على الصليب، يصلّي لأبيه السماويّ ليخلِّصه من خاصّته! وهو حقًّا «جهالة للأمم» في أن يكون يسوع المسيح هو اللّه نفسه، قد تخلّى عن ألوهيّته محبّةً للإنسان الذي شاء أن يكون مثلَ اللّه!

لقد كان اللّهُ مجنوناً، حقًّا، بحبِّه للإنسان، مجنوناً كعاشقٍ لا يعرف بأيّة وسيلة يعبِّر عن حبِّه لمن يُحبّ.

إنّ اللّه، الخبير بالأمور الإنسانيّة، يعرف أنّ الناس لا تصدّق بسهولة حبَّ مَن لا يضحّي من أجلهم. لهذا، اخترع وسيلةً غيرَ مألوفةٍ ليبرهن عن حبِّه : لقد تخلّى عن أمجاده الإلهيّة كلِّها، وصار إنساناً كسائر الناس، وقاسى العذابَ من أيديهم. وفي الوقت الذي كانوا يعذّبونه، كان يَغفر لهم. إنّها أيضاً لمناسبةٌ أخرى أن يُظهر حبَّه لمن يُحبّ

هذا هو موضوع الكرازة المسيحيّة المركزيّ المحوريّ، الأساسيّ والجوهريّ : لقد شاء اللّه أن يأخذ طبيعتَنا ويتحمّل آلامَنا، ليظهر لنا

إلى أيٍ حدٍّ يُحبُّنا.

يبدو أنّ اللّهَ، في سلوكه طريقَ الحبّ، لم يفتّش عن راحته. فحبُّه غير عاديّ، ولا يستطيع النّاسُ تصوّرَه. وهم لا يعرفون مثيلاً له في محبّتهم المتبادلة. إنّه حبّ أبويّ، وليس أبٌ في الأرض لا يستمدّ أبوّتَه منه. إنّه حبّ يتحمّل اللّهُ فيه كلّ أنواع العذاب من أيدي مَن يُحِبّ. في هذا الحبِّ يستخدم قدرتَه المطلقة ليمارسَه معنا. لهذا أخذ الطريقَ الصعب، طريقَ الصليب.

«يوم الجمعة» كان عظيماً، لأنَّ اللّهَ فيه أظهر للبشر، من خلال آلامه، كيف يكون حبُّه لهم : سلوكٌ مجنون لحبٍّ مجنون في طريقٍ مجنون. قد تُشكّكنا آلامُ اللّه، وصليبُه، وموتُه؛ لأنّنا نظنّه وكأنّه خسر شيئاً من سعادته، وتخلّى عن أمجاد ألوهيّته، هو الذي لم تكنْ ألوهيّتُه اختلاساً[١٠]. ولكنّ الذي يُحبّ لا تسأله ما يصنع مِن أجل مَن يُحبّ[١١].

إنّ موت اللّه لم يكن «درساً» فيه علّمنا اللّه حبّه لنا فحسب؛ بل هو «ذبيحة» بها صالحنا معه إلى الأبد؛ بها ضحّى بنفسه من أجلنا؛ فختم الصكَّ بدمه؛ وسلّمنا إيّاه في سرٍّ نأكل فيه جسدَه ونشرب دمه.

لهذا نقول : قبل أن يفهم المسيحيُّ سرَّ الشرّ العاملِ في العالم، عليه أن يفهم سرَّ اللّه الذي أوحى بحبِّه من على جبل الجلجلة. وقبل أن

---

(١٠) رَ : فيليبّي ٢/٦.

(١١) إنّ همَّ العاشقِ ليس اكتساب شيء من عشقه، أو الحفاظ على إنعامٍ ما؛ بل همُّه أن يُظهر حبَّه لمن يُحبّ؛ بأيّة وسيلة ولو فاقت كلّ حدّ. فبسببِ الحبِّ يهدي العاشقُ عشيقتَه شيئاً ولو استدان ثمنه؛ وكذلك اللّه، بسبب حبّه هذا، أهدى البشرَ ابنَه الوحيد، ولو كان ذلك بدفعه للموت دفعاً.

يتمرّس المسيحيّ على فهم معاني الألم والموت، عليه أن يتمرّس على التأمّل في وجه المصلوب. آلام اللّه على الجلجلة لم تنتقص من ألوهيّته؛ بل هو بها، وبالنسبة إلينا، أكثرُ ألوهيّةً ممّا لو كان في عليائه يتمتّع بالوحدانيّة والصَّمْدانيّة. ليس تجسّدُ اللّه ستاراً يختفي وراءَه، بل هو حبٌّ مجنونٌ أوحاه إلينا من خلال هذا التجسّد.

إنَّ الذي كتب هذه المعادلة : «أللّه محبّة» هو الرسولُ نفسُه، الذي كان، وحدَه، شاهداً على آلام الجلجلة. هذا الرسول شعر بحرارة حبّ المسيح له، وهو متّكِئ على صدره.

وأخيراً نقول : في كلِّ حبٍّ لا بدَّ من بعضِ الذلّ؛ إنّما على الجلجلة كان الذلُّ كلُّه. لا بأس. فإنّ الذلّ يلحق كلَّ صاحب حاجة. ولكأنّ اللّهُ، بسبب حبّه الكبير لنا، يحتاج إلينا من أجلنا نحن. لهذا كتب بولس في آخر حياته: «لقد أحبّنا اللّه جدًّا» (أف ٢/ ٤). وهذا الحبُّ قد صُنع من ذاك الجنون.

***

لقد استفدنا من هذا الحبِّ المجنون عندما أقام اللّهُ ابنَه من بين الأموات، وأشرَكنا بقيامته : «فالذي أقام المسيح يسوع من بين الأموات يُحيِي أيضاً أجسادَكم المائتة بروحِه الساكن فيكم» (رو ٨/ ١١). فلكأنّ «قيامة المؤمن المسيحيّ مرتبطة ارتباطاً عضويًا جوهريًا بقيامة المسيح»[١٢].

---

(١٢) رَ : ١ تس ٤/ ١٤؛ ١ قور ٦/ ١٤؛ ١٥/ ٢٠–٢١؛ ٢ قور ٤/ ١٤؛ ١٣/ ٤؛ روم ٦/ ٥؛ أف ٢/ ٦؛ قول ١/ ١٨؛ ٢/ ١٢–١٣؛ ٢ طيم ٢/ ١١؛ تفسير إونجليون على رو ٨/ ١١

«إنّكم قائمـون من الموت مع المسيح.. وعندما يَظهـر المسيح، الذي هو حياتكم، عندئذٍ أنتم أيضاً ستظهرون معه، مملوئين مجداً» (قول ٣/ ١–٣). في هذا أيضـاً، «يضع بولسُ صلةً وثيـقة بين المؤمن والمسـيح، بين الأرضيّ والسماويّ، وبين الماضي والمستقبل»[١٣].

«وسمعتُ من العرشِ صوتاً جَهوراً يقـول: «هوذا مسكِنُ اللّهِ مع البشر، وسَـيَسكُنُ معهم، وهم يكونونَ له شُـعوباً (من كلّ الأمم)، واللّهُ نفسُه يكونُ معهم، إلهاً لهم. وسـيمسحُ كلَّ دمعةٍ من عيونهم: والموتُ لا يكون من بعـد، ولا حـداد، ولا صـراخ، ولا وَجع يكـون من بعـد؛ لأنّ الأشـياء الأولى قـد زالتْ» (رؤ ٢١/٣–٤). هذا يعني أنّ «الموت نفسـه يزول، فـلا يكون مِن بعـدُ. ويكون عـالَمٌ جديد، يـحقّ فيـه للمـؤمن أن يسـأل: أيُّ مقامٍ يبقى لجحيمٍ يُعذَّبُ فيها إنسانٌ إلى غير نهاية؟!»[١٤].

يجيـب سفر الرؤيـا نفسه، فـيقـول: «وأُلقِيَ الموتُ والجحـيمُ في بُحيرةِ النّار. ذلك هو الموت الثاني، بحـيرةُ النّار. فمَن لم يكن مكتوباً في كـتاب الحـيـاة، أُلقِيَ في بُحيـرة النّار» (رؤ ٢٠/ ١٤–١٥). هذا أيضـاً يعني: أنّ كاتبَ سـفر الرؤيا يرى للموت نهايةً (رؤ ٢١/ ٤)، لأنّ مـحبّة اللّه للإنسـان مربّيـة، تقوده، من خـلال التـأديب بالعذاب، إلى التـوبة الكاملة، ثمّ إلى الخلاص فالحياة الجديدة الأبديّة»[١٥].

***

---

(١٣) تفسير إونجليون على قول ٣/ ٤.

(١٤) تفسير إونجليون على رؤ ٢١/ ٤.

(١٥) رَ: رو ١١/٣٢؛ تفسير إونجليون على رؤ ٢٠/ ١٤.

ليس على المسـيحيّ، إذاً، بعد أن يـعرف بأنّه قائمٌ مـع المسيح، أن يصـارع ضـدَّ الشرِّ من دون أن يفـهم، أو من دون نور رجـاء. ليـستْ عيونه غـارقةً في اليأس والأسى؛ بل، إذا ما فتح عـينَيه على المصلوب، يندهش ممّا يرى من صنيع اللّه من أجله ومن أجل البشر جميعهم : مع صليب المسيح وجد معنىً لآلامه وللموت.

في محـبّة اللّهِ لنا بطريقـةٍ لا نعقلهـا، عرّض اللّهُ نفـسه إلى أن لا نعقله ولا أن نصـدّق ما صنعه. ولكنّه، في الوقت نفسـه، وجدنا لآلامنا مخرجاً. فلسنا، من بعدِ صليب المسيح، متعثّرين بآلامنا وموتنا : عندما نكون متأكّدين من أنّ اللّهَ يُحبّنا إلى هذا الحدّ، فلن يعودَ، من بعدُ، مجالٌ لأنْ نشكَّ من أنَّ عذاباتنا وشرورنا وموتنا لها حدّ.

ألمسيـحيّ، أمام الآلام، هو كسائر الناس. والمعنى المسـيحيّ الذي يعطيه لآلامـه لا تلغي صفـة الأسى والشدّة عنها. بل هـو، عندما يكون أمام حدث الجلجلة، لا يتعجّب كثـيراً ممّا يرى. يسوع نفسه لم ينجُ من القلق ولا من الحزن والغمّ. فهو لم يلقَ ساعاته الأخيرة كبطل من أبطال الميتولوجيا.

والمسيحيّ، كمعلِّمه، لا يسعه أن يتعالى على الآلام والموت. ومهما يكن قويَّ الإيمان، وكثيرَ النعمة، وشديدَ الرجاء، فالإيمان ليس مخدِّراً، ولا النعمة منوِّماً، ولا الرجاء بالسعادة الأبديّة بَنْجاً.

ألحق نقول : ليـستْ آلامنا وشرورنا هي من مـشيئـة اللّه فينا إلاّ من بعد أن نتأكّد من أنّنا، بسببهـا، سنقوم وننتصر عليها بموت المسيح وقيامـته. فالمسيـحيُّ المؤمن الحقيقيّ هو الذي يعـرف آلامَه وشرورَه، ويعرف أنّ اللّهَ أعطاه قدرةَ الانتصـار عليها.

والكنيسةُ لا تبرح تؤسِّس المنظّمات الاجتماعيّة لتخفّف من آلام الإنسانيّة المعذَّبة، ما استطاعتْ. وهي، في محاربتها آلام البشر، لن تعلنَ قداسةَ إنسانٍ يقدِّم نفسَه، بإرادته، للعذاب والاستشهاد. المسيح نفسه كان يحاول التخلّص من أيدي الذين يريدون القبض عليه. ولكن، عندما أصبح ذلك محتَّماً، سلّم نفسَه، فقبضوا عليه.

ثمّ إنّ اللّه، الذي صنع الصلبان، صنع لها أيضاً أكتافاً تحملها. وإنّنا لَنسمع صوتَه في محنتنا، كما سمعه بولس : «تكفيكَ نعمتي؛ لأنّ قوّتي في الضعف تكتمل» (٢ قور ١٢/ ٩). وكان القديس فرنسيس دي سال يقول: «إنّ الربّ يرافق في الطريق النعاج الأمينة؛ أمّا الضعيفة فيحملها على كتفَيه. وعلى كتفيه مكانٌ لجميع النعاج الضعيفة».

قد يفهم المسيحيُّ المؤمن، ولو متأخراً بعضَ الوقت، بأنَّ آلامَه كانت له خيراً : فهي تذكّره بأنّه كائنٌ مخلوق، وتُخرجه من ذاته وأنانيّته، وتساعده على فهم الآخرين، وتطهّره.

ولكنّ بعض الآلام لا تُفهم. وفي هذه الحال، عليه أن يقول : إنَّ حبَّكَ يا ربُّ لا يُحَدّ. وهذا يكفي. وقد يُجيبه الربُّ أيضاً، كما «أجابَ تلك المرأة التي فقدتْ وحيدَها الصغير: "سامحيني. سيأتي يوم تفهمين. تعرفين. وتشكرين. وما أنتظرُه الآن منكِ أن تسامحيني. فسامحيني". هذه المرأة الذائبة حزناً هي في صميم سرّ اللّه. وإذا ما رضيتْ بوضعها، فإنّ سرّ الخلق يكتمل فيها. وعندئذٍ تتأكّد من محبّة اللّه لها. وبهذا أيضاً تصبح مسيحاً آخر. وباختصار، هي قدّيسة»[١٦].

---

(١٦) مقتبسة عن محاضرة لجورج برنانوس، تحت عنوان: أصدقاؤنا القدّيسون، ألقاها

هذا الاستسلام لمشيئة اللّه ليس سهلاً. لهذا، نحن لا نقدّمُ للّهِ آلامَنا، بل نقدّم له ما به نصير إليه بسبب آلامنا. يجب أن نذهب بآلامنا إلى آخر درجات الحبِّ، أو إلى أعلى قمم الحبّ، فتكون لنا، عندئذٍ، آلاماً خلاصيّة. ولا بدّ لنا، في ذروة ما نفهم من معاملة اللّه لنا، من أن نُقنع عقلَنا بصوابيّة الصلاة التي علّمنا إيّاها : «لتكنْ مشيئتك»؛ إذ لا حيلة لنا سوى الاستسلام لهذا السرِّ العظيم من الوجود.

ثانياً – المعموديّة للتكفير

جوابُنا على حبِّ اللّه لنا، الذي ظهر جليّا واضحاً في تجسّده وآلامه وموته وقيامته، هو أن نخطو خطوةً صغيرةً نحوه. هذه الخطوة هو نفسه دلّنا عليها، وهي : مَن آمن واعتمد يخلص. فالمعموديّة هي الباب وهي الجواب الأوّل من قِبَلنا.

جاء في تعليم الكنيسة في تحديد المعموديّة ومعانيها ما يلي: «المعموديّة المقدّسة هي ركيزة الحياة المسيحيّة كلِّها، ورتاج الحياة في الروح، والباب الذي يوصل إلى الأسرار الأخرى. فبالمعموديّة نُعتَق من الخطيئة، ونولد ثانية ميلادَ أبناء اللّه، ونصير أعضاء للمسيح، ونندمج في الكنيسة، ونصبح شركاء في رسالتها. ألمعموديّة هي سرّ الولادة الجديدة بالماء وفي الكلمة»[١٧].

في تونس في ٤/٤/١٩٤٧.

(١٧) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٢١٣.

و«هي السرّ الأوّل والرئيسيّ لمغفرة الخطايا، لأنّه يوحّدنا بالمسيح الذي مات لأجل خطايانا، وقام لأجل تبريرنا (رَ: رو ٤/ ٢٥)، حتّى «نسلك نحن أيضاً في حياة جديدة "» (رو ٦/ ٤)[١٨].

بالمعموديّة، إذاً، يلتزم المسيحيّ بقضايا الإنسانيّة كلِّها؛ فهو بها يحاربُ الشرَّ الطاغي على البشر؛ وبها يعمل على تحريرهم من هذا الشرّ الشامل؛ وذلك بإعادة الصلة بين المطلق والنسبيّ، وبلحمة الحلقة التي انقطعتْ بسببِ ما في الحرِّيّة من إمكانيّات الخيار بين الخير والشرّ، بحيث أصبحتِ المسافةُ بين اللّه والإنسان مضطربةَ المعالم، تميل مع أميال الطبيعة السهلة.

لقد تمدّدتِ المسافةُ بين اللّه والإنسان، بسبب حرِّيّة الإنسان. هذه الحرِّيّة هي المسؤولة عن كلِّ شرٍّ في البشر وعن كلِّ شرٍّ في كلِّ شخص. لقد قصّر اللّه، بمجيئه إلى الأرض، تلك المسافة. وأقام صلةً بينه وبين الإنسان. قام بها اللّهُ أوّلاً. وعلى الإنسانِ أن يُجيب. ألّلهُ هو الذي بادرَ، واستمرّت المبادرة عندما أعطى هذه المهمّة الإلهيّة للكنيسة.

ألمعموديّة جهادٌ روحيّ ضدّ الشرّ المتأصّل في الطبيعة البشريّة؛ فيما الجهاد في الإسلام قتالٌ لكلِّ إنسانٍ رافضٍ للّه، لا ضدّ الشرّ الموجود في الإنسان نفسه.

ألمعموديّة تُدخِل المسيحيَّ في شراكةٍ روحيّة في جماعةٍ تعمل لقداسته الشخصيّة؛ فيما الجهاد يعمل على إدخال غير المسلمين في الإسلام، ويعمل على انتشار الإسلام بأيِّ ثمن.

---

(١٨) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٩٧٧.

ألمعموديّةُ تُقيمُ صلةً بين اللّه والإنسان، بادرها اللّهُ نفسُه ليحرّرَ الإنسانَ من نتائج الخطيئة التي ارتكبها بإرادته؛ فيما الشريعة، في الإسلام، ترسمُ بين اللّه والإنسان حدوداً.

ألمعموديّةُ، بهذا المعنى، تحرّر الإنسان، وتجّدد حياتَه؛ بينما الشريعة تعمل على تقييده من جديد. ألمعموديّةُ تفيد الشخصَ وتعمل فيه من الداخل؛ فيما الشريعة تعمل على ضبط الخارج.

بالمعموديّة يغفرُ اللّهُ خطايا الإنسان الحاصلة من انتمائه إلى البشريّة؛ كما يغفر الخطايا الناتجة عن حرّيّته الشخصيّة. بها يعود الإنسانُ إلى برارته وقداسته الأصليّتَين، فيستحقّ بذلك مشاركةَ اللّه في حياته الإلهيّة... وهذا ما لا يجب أن يفوتَ المسلمين؛ لأنّ ما في الإسلام من غسْلٍ ووضوءٍ ومراسيمَ تطهيرٍ عديدة، لحالات الإنسان العديدة، يعمل، كالمعموديّة، ولكن، من الخارج.

هذا الغسْل الدائم في الإسلام، وهو كالمعموديّة عند شِيَعٍ نصرانيّة قديمة، أخذها الإسلامُ عنهم، كـ "المعمدانيّين" الأقدمين، أو "المغتسلة" الذين وطّدوا منازلَ سكناهم على ضفاف الأنهر، طلباً للماء الدائم للتطهير[19].

ألغسلُ، أو الوضوء، يكون في بدءِ كلِّ صلاة، وعند كلِّ حاجةٍ الى طهارةٍ جسديّة. لذا، فهو دائمٌ متكرِّر، لأنَّه عملُ الإنسان من أجل اللّه؛ أمّا المعموديّة فهي لمرّة واحدة؛ لأنّها عملُ اللّه من أجل الإنسان.

---

(١٩) أو أيضاً "الصابئة"، و"المندائيّين": أنظر كتاب «مذهب الصابئة»، في سلسلة الأديان السرّيّة، رقم ١٠.

ألغسْل محدود النتائج؛ أمّا المعمـوديّة فلا حدود لنتائجها. من أجل هذا، تُقيم المعموديّةُ صلةً بين المعمَّدِ والبشــريّةِ جمعاء المُمثَّلَةِ بالكنيسة؛ فيما الغسل لا فعلَ له سوى تطهير المغتسِلِ وحدَه، ولا صلة يُقيمها بين المغتسِلِ والبشريّة، ولا حتّى مع الأمّة الإسلاميّة.

بالغسل كلٌّ يَعمـل لحسابِ طهارته الشخـصيّة؛ فيمـا بالمعموديّة تعمل على اسـتعادة صلة الإنسانِ مع اللّه نفسـه، واستعـادة لحمةٍ بين الإنسان والبـشريّة كافّة، إلى درجـة أنّ كلَّ معمَّد مسـؤول عن خلاصِ كلِّ البشر.

وبسبب إعادة الصلة بين الإنسان المعمَّد والبشريّة كلّها، أو بسبب التزام المعمَّـد لقضايا البشريّة ومصـيرها، نجد ما يبرِّرُ تعمـيدَ الأطفال الذين لا شـرَّ فيـهم يُسـألون عنه[٢٠]. وقـد يُعلِنُ إيمانَ الطفل عـرّابان يَنوبان عنه، ويساعـدانه في مسيرته الرّوحـيّة؛ وذلك لأنّهما يـشهدان، أمام اللّه والكنيســة، على التزام هذا الطفل، وولوجه معـركة الحرّيّة في الخيار بين الخير والشرّ، التي تتولاّها البشريّة كلُّها[٢١].

---

(٢٠) جاء في التعليم المسيـحي عن معموديّة الأطفال: «... مجّانيّةُ نعـمة الخلاص تَظهَر، في كلِّ نصاعتهـا، في معموديّة الأطفال. ومن ثمّ، فالكنيـسة والأهلُ يَحرمون ولدهم نعمةً لا تقدَّر، وهي أن يصير ابناً للّه، إذا لم يمنحوه المعموديّة وقتاً قصيراً بعد مولده» (رَ: ق ك ش ، ق ٦٧٦، ١)؛ عدد ١٢٥٠.

(٢١) جـاء في التـعليم المسـيـحي عن العـرّابَين: «الـلّذَين يجب أن يكونا مـن المؤمنين الرّاسـخين، المؤهّلين والمستعدّين لمعاضدة المعـتمد جديداً، طفلاً كان أم بالغاً، في طريقه إلى الحياة المسيحيّة. مهمّتهما وظيفة كنسيّة حقيقيّة، على أن تتحمّل الجماعةُ الكنسيّة كلُّها نصيباً من المسؤوليّة في تنمية نعمة المعموديّة وصونها» ، عدد ١٢٥٥.

خُلقنا بمشيئة اللّه الآب، وخُلِّصنا بعملِ المسيح، ووُجدنا بإرادة غيرنا، وهكذا أيضاً نُعُمَّد بنعمة الرّوح القدس... لا مجالَ، بعدُ، لحرّيتنا حتّى نطالِبَ بها. دورُ الحرّيّة يأتي عندما يتعلّق الأمر بنا. أمّا الآن، فلا شيء يتعلّق بنا، لا خَلقنا، ولا خلاصنا، ولا وجودنا بالشكل الذي وجدنا فيه، ولا محبّة اللّه لنا، ولا مشاركتنا في حياته الإلهيّة.

بهذا المعنى نقول: إنّ المعموديّة تجمّل الطبيعة البشريّة فينا، تقدّسها، وتخلّصها. هذه المعموديّة لا تَعنينا كأفراد مستقلّين بشخصيّتنا فحسب، بمقدار ما تعنينا كأفراد منتسبين إلى الطبيعة البشريّة بمجملها. ألمعموديّة تعني الطبيعة، فيما سائر الأسرار تعني الفرد. ألمعموديّة تعمل في تقديس الطبيعة وتأليهها، وسائر الأسرار تعمل في تقديس الفرد وخلاصه. ولهذا فهي لا تُنزَع منّا بإرادتنا الشخصيّة، لأنّها أصبحتْ من طبيعتنا كشكلنا ومزاجنا وموروثاتنا من والدينا ومن المجتمع...

وسوف يتعرّض عهدُ المعموديّة هذا للانتكاس؛ وهو لا محالة سينتكس بسبب وهنِنا بكوننا نحمل نعمةَ اللّه في «آنيةٍ من خزف» (٢ قور ٤/ ٧)؛ «ولا نزال في مسكننا الأرضيّ» (٢ قور ٥/ ١)، المعرَّض للعذاب والمرض والموت. هذه الحياة الجديدة التي تجعلنا أبناء اللّه يمكن أن تَضعف، بل أن تَتلَف بالخطيئة»[٢٢]. ثمّ تأتي التوبة لترمّمها من جديد.

---

(٢٢) رَ: التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٢٠.

ثالثاً – التوبة والمصالحة

يقول القديس يوحنّا: «إنْ قُلنا أنْ لا خطيئةَ لنا، فإنَّا نُضَلِّلُ أنفُسَنا، ولا يكونُ الحقُّ فينا. إنْ كنّا نعترفُ بخطايانا، فإنّه أمينٌ وبارٌّ، فيغفرُ لنا الخطايا، ومِن كلِّ ظلْمٍ يُطَهِّرُنا. إنْ قُلنا إنّا ما خَطِئْنا، فإنّا نُكذِّبُه، ولا تَكونُ كلمتُه فينا» (١ يو ١/٨–١٠).

فنحن إذاً خطأة من دون شكٍّ؛ وإن اعترفنا بهذا، وتبنا عمّا اقترفنا، يغفر اللّهُ لنا. وهو قد علّمنا أن نصلّي: «إغفرْ لنا ذنوبَنا» (لو ١١/٤)؛ وأمَرَنا أن نتوب: «تُوبُوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١/١٥). كلّ مسيحيٍّ يخطأ. وعليه أن يتوب. وتوبته مقبولة عند اللّه، الذي يغفر له، إن أقرّ واعترف، ثمّ كفّر وندم، وقصدَ قصداً صادقاً بأن لا يعود يخطأ.

من أهداف التجسّد دعوتنا إلى التوبة والمصالحة مع اللّه. لقد أتمّ المسيح ذلك. ثمّ كلّف الكنيسة متابعة عمله: «إنّ الربَّ يسوع المسيح.. أراد لكنيستــه أن تواصل، في قوّة الروح القدس، عملَ الشفاء والخلاص.. وهذا ما يهدف إليه.. سرُّ التوبة وسرُّ مسحة المرضى»[٢٣].

هذه التوبة هي جوابٌ آخَر من الإنسان على محبّة اللّه المجّانيّة له. وهي، بكونها سرًا، تتولاّها الكنيسةُ نفسُها، لأنّها هي أيضاً نالها ما نالها من خطيئة الإنسان الذي نكس عهد المعموديّة. جاء في تعليم الكنيسة : « إنّ الذين يُقبلون إلى سرّ التوبة.. يتصالحون في الوقت

---

(٢٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٢١.

نفسه مع الكنيسة التي جرحوها بخطيئتهم، والتي تسعى بمحبّتها ومثالها وصلاتها في سبيل توبتهم»[٢٤].

وجاء أيضاً : «ألخطيئة هي أوّلاً إهانة للّه، وقَطْعٌ للشركة معه. وهي، في الوقت نفسه، مساسٌ بالشركة مع الكنيسة. ومن ثمّ فالارتداد يستنزل علينا صفح اللّه، ويحقّق المصالحة مع الكنيسة، في آنٍ واحد. وهذا ما يوحيه ويحقّقه، ليترجيًا، سرُّ التوبة والمصالحة»[٢٥].

فالكنيسة، إذاً، معنيَّةٌ بالخطيئة وبالتوبة عنها. لهذا يحقّ لها وضعُ يدِها على الخطيئة وطرق الكفّارة. صحيح أنّ اللّهَ وحدَه يغفر الخطايا (مر ٢/٧)، ولكنّه فوّض إلى الناس هذا السلطان، ليمارسوه باسمه، وفوّض إليهم "خدمة المصالحة"[٢٦].

وهذا الطابع الكنسي للتوبة قد يستند إلى الكلمة التي وجّهها المسيح رسميًا إلى سمعان بطرس : «سأُعطيكَ مفاتيحَ ملكوتِ السموات. فما ربَطتَّه في الأرض رُبط في السموات، وما حللتَه في الأرض حلَّ في السموات» (متى ١٦/١٩). «مهمّة الربط والحلّ هذه التي أُعطيتْ لبطرس، قد أُعطيتْ أيضاً لهيئة الرسل متّحدينَ برئيسهم»[٢٧].

«وتعني لفظتا **الحلّ والربط**: أنّ مَن تعزلونه من شركتكم يُعزَل من شركته مع اللّه، وأنّ مَن تقبلونه ثانيةً في شركتكم، يقبله اللّهُ أيضاً

---

(٢٤) ك ١١؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٢٢.

(٢٥) رَ : ك ١١؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٤٠.

(٢٦) رَ : يو ٢٠/٢١-٢٣؛ ٢ قور ٥/١٨ و٢٠.

(٢٧) متى ١٨/١٨؛ ٢٨/١٦-٢٠؛ : ٢٢؛ التعليم المسيحي، عدد ١٤٤٤.

في شـركتـه. فالمصـالحـة مع الكنيسـة لا تنفـصل عن المصالحـة مع الله»[٢٨].

هذه التوبة، بمـراحلها جمـيعهـا، واجبـة على المؤمنين، تفرضـها الكنيسةُ عليهم: تفرض الإقرارَ أو الاعترافَ بالخطايا الشخصيّة، كبيرةً كانت أم صـغيرة؛ ثمّ تفـرضُ التكفيرَ أو التعـويضَ عنها، بقصـاصات روحيّـة، كالصلوات وأعـمال برّ؛ وأخيـراً تطلب القصـدَ على أن يمتنع الخاطئ عن معـاودة خطيئته، وذلك بأن ينوي، ساعـةَ توبته، أن يسعى في طريق المحبّة.

تفرضُ الكنيـسةُ على المسيـحيّين أنْ تكونَ توبَتُهم، في مـراحلها جميعها، أمام أحدِ ممثّليها الموكول إليهم سلطان الحلّ والرّبط. ومشكلةُ المؤمنين وغيـر المؤمنين كلّها تكمن هنا، في تدخّل الكنيسـة بين الخاطئ وربِّه، وفي تدخّلها في ثنايا الضمير الشخصيّ الباطنيّ الخاصّ، الذي لا يحقّ لأحدٍ معرفةُ خـفاياه سوى صاحبه. فالخطيئـةُ تنال من ضميرِ صاحبها، فما شأنُ الآخرين فيها؟

إنّ تعـدّي الكنيسـةِ على خـفايا الضـمائـر انتهـاكٌ فاضحٌ لسـرِّ الإنسـان، وتحطيمٌ جسـيمٌ لكرامتـه وحرِّيّتـه. هذا صـحـيحٌ في المنطق البشـري المألوف. ولـكن، إذا كـانَ الذنبُ يَطالُ الكنـيسـةَ، وينالُ من قداستِـها وشرفِها ورسالتِـها ومهمّتـها، فهذا المنطق غيـر صـحيح، في مجال القداسة والخلاص.

والحجّة واضحة، وهي أنّ المؤمنَ عضـوٌ في جسم الكنيسة، مثله

---

(٢٨) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٤٥.

مثل أيِّ إنسان هو عضو في المجتمع البشريّ الذي يعيش فيه. فكلّ شرٍّ يأتيه إنسانٌ يحاسبه عليه المجتمع الذي ينتمي إليه. فثمّة «حقّ عامّ» يحصّله المجتمع من الإنسان المذنب.

لهذا يجب على الكنيسة أن تضع يدَها على الخطيئة، وعلى كيفيّة التبرير منها، والتعويض عنها.

وجوبُ الإقرار بالخطيئة أمام الكنيسة يأتي من أنَّ نتائج الخطيئة تتعدّى مرتكبِيها. فكما تقفُ الخطيئةُ مانعاً لقداسة مرتكبِيها، فهي، أيضاً، وبطريقة أعظم، تنالُ من قداسة الكنيسة التي فيها يتمّ التواصل بين اللّه والبشر. لهذا تضعُ الكنيسةُ يدَها على الخطيئة، وتفرضُ التكفيرَ عنها، وكيفيّة التوبة والمصالحة بين مرتكبيها وبين اللّه...

***

أمّا الوسائل للكفّارة ولنيل الغفران فقد ذكرَها آباء الكنيسة؛ وهي:

«الجهود المبذولة للتصالح مع القريب، ودموع التوبة، والاهتمام بخلاص القريب (رَ: يع ٥/ ٢٠)، وشفاعة القدّيسين، وممارسة المحبّة التي "تستر جمًّا من الخطايا" (١ بط ٤/٨)»[٢٩].

وأيضاً «عبر أفعال مصالحة، والاهتمام بالمعوزين، وممارسة العدالة والحقّ والدفاع عنهما[٣٠]، والإقرار بالذنوب أمام الآخرين،

(٢٩) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٣٤.

(٣٠) رَ: عا ٥/ ٢٤؛ أش ١/ ١٧.

والتأديب الأخـويّ، ومراجعة الحـياة، ومحاسـبة الضميـر، والإرشاد الروحيّ، واحتمـال الأوجاع، والصبر على الاضطهـاد من أجل البرّ. أن نحمل الصليب كلّ يومٍ، ونتبع يسوع هو الطريق الآمَنُ إلى التوبة»(٣١).

وكذلك أيضاً «بالإفخـارستيّا يتغذّى ويتقوّى الذين يحـيون حياة المسيح، "وهي التريـاق الذي يُعتقنا من أخطائنا اليومـيّة ويصوننا من الخطايا المميتة "»(٣٢).

وأيضاً : «قـراءة الكتاب المقـدّس، وليتـرجيّـا الساعـات، وصلاة الأبانا، وكلّ عمل خـالص من أعمال العـبادة والتقـوى ينشّط فينا روح الهداية والتوبة، ويساهم في غفران خطايانا»(٣٣).

وأخيـراً : «الرياضات الـروحيّة وليـترجـيّات التـوبة، والحجّ في سبـيل التوبة، والتضحـيات الطوعيّة كـالصوم والصدقة، والمشـاركة الأخويّة (الأعمال الخيريّة والرسوليّة)»(٣٤).

***

إذا كـان المسلمون يأخـذون على «الاعـتراف بـالخطايا للكاهن»، فيعتبرونه تشجيـعاً لمرتكب الخطيئة على أن يرتكب خطايا أكثر... فإنّنا نقول ونجزم بأنْ ليس من مسيحيٍّ واحدٍ يعاود خطيئتَه بسبب اعترافِه

---

(٣١) رَ : لو ٩/٢٣؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٣٥.

(٣٢) رَ : مجمع ترنت، الجلسة ١٣ أ، قرار في سرّ الإفـخارستيّا، ق ٢ : د ١٦٣٨؛ التعليم المسيحي، عدد ١٤٣٦.

(٣٣) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٣٧.

(٣٤) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٤٣٨.

بهـا. بل ما من أحـدٍ إلاّ ويخطأ بسـبب ضعـفه، ولا أحـد إلاّ ويعتـرف بخطيئته بسبب محبّته. والذي يحبّ كثيراً لا يبرح يقرّ بضعفه دائماً.

وإذا كان من اعـترافٍ مـتواترٍ عند بعـض المسيحـيّين، فهـو ليس بسبب كـثرة خطاياهم، بل لأنّهم يحسّون بضـعفهم أكثـر من سواهم، ويشعرون بحاجةٍ إلى مصالحـةٍ مع اللّه مستمرّة، ويرون شرَّ هفواتهم الصغيـرة وكأنّها كبـائر، ويعون أنّهم، في خطيئتـهم المكرَّرة، يصلبونَ اللّهَ تكراراً... فـلا مـعنى، إذاً، للكلام بأنَّ الاعـتـرافَ بالخطايا يعـرّض مرتكبيها إلى ارتكاب المزيد منها.

إنّ المسيـحيّ الأعمق روحانيّـةً، والأقوى إيماناً، والأكثر قـداسةً، والأنقى ضـميـراً، هو أكـثرُ الناس التـزامـاً بالتوبـة، وبكشف خفـايا ضميره، وبالاعتـراف عن أصغر هفواته لدى الكنيسة لتسـاعدَ ضعفَه، تشدِّدَ عزمَه، وتُحيي إيمانَه، وتُشركه في إنعامات الروح عليها.

فـالإيمان الحيُّ هو الذي يقدِّم الدليـلَ الساطع على أنّ في العـالم أناساً يعملون على محاربة الشرِّ في نفوسِهم، لا في الآخرين.

هذا الحسّ الرّوحيّ يعيـه المسيحـيّون، وحدَهم، لأنّهم يَعُـونَ شرَّ الخطيئـة الشخـصيّة عـلى الجماعـة البشـريّة برمّتهـا. فقـدّيسٌ واحدٌ يستطيع أن ينزّل الـنعم الإلهيّة على العـالم أجمع. وكذلك خـاطئٌ واحدٌ يستطيع أن يجلب على المجتـمع شروراً جسيمـة، ويمنع عنها كلَّ سبل القداسة.

لهذا، فـالكنيسـةُ، كلُّها، كـمؤسّـسة إلهـيّة يعـمل فيهـا روح اللّه القدّوس بامـتيـاز، تتولّى هي مـسيرةَ القـداسة في العـالم، لا الأفراد.

ولهذا أيضـاً لا قداسةَ إلاّ في الكنيسـة. فهي تعمل أيضـاً، مع ربِّها، في فداء العالم وخلاصه.

هذا الحسّ الرّوحيّ يفـوت المسلمَ في علاقـته مع اللّه، وفي عـمله من أجل الحصول على سرِّ القداسة عـبر التوبة عن الخطايا والاعتراف بها مهما كانت صغيرة وخفيّة في أعماق الضمير.

لهـذا نقول أخـيـراً بأنّ الفداءَ، والخـلاصَ، والقـداسةَ، وكـشفَ الضمير، حقائق لا وجود لها في غير المسيحيّة. وقد يكون الجهاد وحدَه السبيلَ إلى نشر الإسلام؛ ولكنّه سـعي إلى إبعاد اللّه عن العالم، وعمل على زيادة الشرّ في الإنسان.

١١

ألإفخارستيّا

أوّلاً – ألإفخارستيّا سرّ الشركة

ألإفخارستيّا ركنُ إيمان المسيحيّين، وينبوع حياتهم الروحيّة، وسرّ «مشاركتهم» اللّهَ في طبيعته. بها لا يخاف اللّهُ من أن ينالَ البشرُ من ألوهيّته، ولا البشر يرتعبون من قربهم منه والتنعّم بحياته الأبديّة. بالإفخارستيّا، يتخطّى الإنسانُ الحدودَ القائمة بين الألوهة الخالدة والبشريّة الفانية. بها شاءَ اللّهُ أن يحلَّ فيهم، ويسكنَ بينهم، ويُشرِكَهم في سعادته وخلوده.

يقول تعليم الكنيسة في المجمع الفاتيكاني الثاني : الإفخارستيّا هي «منبع الحياة المسيحيّة كلّها وقمّتها»[١]. «فالأسرار وجميع الخِدَم الكنسيّة والمهامّ الرسوليّة مرتبطة كلّها بالإفخارستيّا ومترتّبة عليها. ذلك بأنّ الإفخارستيّا تحتوي على كنز الكنيسة الروحيّ بأجمعه، أي على المسيح فصحنا بالذات»[٢].

---

(١) دستور في الكنيسة، عدد ١١.

(٢) خدمة الكهنة الراعويّة وحياتهم، عدد ٥؛ رَ: التعليم المسيحي، عدد ١٣٢٤.

ويقول أيضاً : «الإفـخارستيّا هي قمّـة العمل الذي به يُقدِّسُ اللّهُ العـالمَ في المسيح، كـما أنّهـا ذروة العـبادات التي يرفـعهـا الناس إلى المسيح، وبه إلى الآب في الروح القدس»(٣).

في الساعات الأخيـرة من حياته، قُبَيل آلامه، وعـشيّةَ موته على الصليب، وفي عشاءٍ حميمٍ، جمـع يسوعُ تلاميذَه، وكشف لهم سرًا من أسرار الملكوت : « وبَينا هُم يأكلون، أخذ خـبزاً. وباركَ. وكسرَ. وأعطاهُ التـلامـيذَ وقـال: خُـذوا وكُلُوا. هذا جـسَـدي. ثمّ أخذَ كـأسـاً. وشكرَ. وأعطاها التـلاميذَ وقـال: اشْرَبُوا منهـا جمـيعاً. فـهذا دمُ العـهد، دمي المسفوكُ عن ناسٍ كثيرٍ لغفرانِ الخطايا»(٤).

وبعد ذلك، حـثّهم على أنْ يصنعـوا مثله، وعلى أنْ يتـذكّرواذلك، حيـاتَه وتعاليمَـه وموتَه وقيـامَتَه، فـقال: «هذا هو جـسدي من أجلكم. إصنَعوا هذا لذكـري... وكلّما شـربتم اصنَعُوا هذا لذكري. فكـلّما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تبشّرون بموتِ الربّ حتّى مجيئه»(٥).

ما صنعـه التلاميذ ليس ذكـرى فحسب، بل هو ذكـرٌ دائم لعمل الربِّ لهم وللعالم قاطبةً إلى مدى الآباد والدهور.

وبدورهم، سلّم التـلاميـذُ المسيحـيّين ما تسلـمّوه من معلّـمهم. وراحَ المســيحـيّون، في أنحـاء العالم، وعلى مـدى الدهر، يصنعـون ما صنع الربُّ من أجلهم...

---

(٣) مجمع الطقوس، «السرّ الإفخارستي»، ٦؛ رَ: التعليم المسيحي، عدد ١٣٢٥.

(٤) متى ٢٦/٢٦–٢٨؛ مر ١٤/٢٢–٢٤؛ لو ٢٢/١٩–٢٠؛ ١ قور ١١/٢٣–٢٥.

(٥) ١ قور ١١/٢٣–٢٦.

وتمّت الشراكـةُ كاملةً بين اللّه والإنسان، شـراكةٌ أنزلتِ اللّهَ من سمائه، ورفـعتِ الإنسانَ من بشريّته، شراكـةٌ «أخلتْ» اللّهَ من ألوهيّته، و«ألّهت» الإنسانَ في بشريّته. بل بها أعطى اللّهُ الإنسانَ ما به يستطيع الإنسانُ أن يصبح إلهاً. وبذلك تحقّقت كلمةٌ نبويّة قديمة: «أنا قلتُ عنكم إنّكم آلهة» (مز ٨٢/٦).

يقول تعليم الكنيسة عن هذه الشراكـة الإلهيّة–الإنسانيّة : «إنّنا، بهذا السـرّ، نتّحد بالمسـيح الذي يصيّرنا شـركاء في جسـده وفي دمه لنكون جسـداً واحداً»[٦]. ويقول أيضاً : «إنّ جـميع الذين يتناولون من هذا الخبـز الواحد المكسور، أي المسـيح، يدخلون في الشركة مـعه، ولا يعودون يؤلّفون سوى جسد واحد معه»[٧].

وكـذلك يشـدِّد على أنّ «المناولة» تنمّي اتّحـادَنا بالمسـيح، إذ إنّ قبولَ الإفـخارستيّا فـي المناولة، ثمرتُه الأولى الاتّحاد الحمـيم بيسوع المسيح. فالربّ يقول لنا : «مَن يأكلْ جسدي ويشربْ دمي يثبتْ فيَّ وأنا فيه» (يو ٦/٥٦). فالحيـاة في المسيح ركيزتها الإفخارسـتيّا : «كما أنّ الآبَ الحيَّ أرسلني وأنّي أحيـا بالآب، فكذلك الذي يأكلني سيحـيا بي» (يو ٦/٥٧).

وهكذا، وبسبب هذا الاتّحاد الحمـيم، ومن أجله أيضاً، نشأتْ في الكنيسة جمعيّـاتٌ ورهبانيّاتٌ ومؤسّساتٌ متميّزةٌ ومتـخصّصة بعبادة الإفخارستيّا ليلَ نهار. وأصـبح، أيضاً، كلُّ عملٍ ذو شأن، دينيًا كان أم

---

(٦) رَ : ١ قور ١٠/١٦–١٧؛ رَ: التعليم المسيحي، عدد ١٣٣١.

(٧) رَ : ١ قور ١٠/١٦–١٧؛ رَ: التعليم المسيحي، عدد ١٣٢٩.

دنيويًا، يتمّ في إطـار الاحتفـال بسرّ الإفخـارستيّـا، بحيث أنّه لا يكون «عـيـد» بين المسيـحـيّين على وجـه الأرض إلاّ وله عـلاقـة مبـاشـرة بالإفخارستيّا، التي هي، في حقيقة الأمر، عيد الأعياد.

هذا العيد أصـبحَ، لأهمّيّته، احتفـالاً يوميًا، ومشاركـة فعليّة لكلّ مؤمن بـالمسيح. وقـد لا تخلو كنيسـةٌ في رعيّـة، أو معبـدٌ في دير، أو مصلّى في محبسة، من وجود القـربان المقدّس فيه. وقد لا يكون كاهن من دون أن يبدأ نهارَه بإقامـة القدّاس. ولا راهب، أو راهبة، يتخلّف عن المشاركة اليوميّة بجسد الرب ودمه.

بالإفخارستيّا ختم يسوع حيـاتَه؛ وبها يبدأ المسيحيّون حياتَهم، آملين أن يسمـعوه يقول لهم يومـاً، كما قال لتـلاميذه بعدَ ذاك العـشاء الأخير من حياته : «سوفَ أَشربُ عصيرَ الكرمةِ هذا معكُمْ رَحِيقاً جَديداً فِي ملكوتِ أَبي»(٨).

فإفخارستـيّا الأرض استباق لوليمة السمـاء: «إنّ السيّد المسيح ترك لخـاصّـته عـربونَ هذا الرجـاء وغـذاءً للطريق: ســرّ الإيمان (أي الإفخارستيّا) الذي يجمع عناصر من الطبيعة زرَعها الإنسانُ وتحوّلتْ إلى جسد المسيح ودمه الممجَّدَين. إنّـه لمأدبة الشركة الأخويّة، واستباق للوليمة السماويّة»(٩).

إنّ تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه إنّما هو استباق لتحـويلٍ أعظم سيتمّ في نهايـة الأزمنة، عندما لا يكون الخبز والخـمر،

---

(٨) متى ٢٦/ ٢٩؛ مر ١٤/ ٢٥؛ لو ٢٢/ ١٨.

(٩) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، عدد ٣٨، ٢.

وحدَهمـا، عرضةً للتـحوّل إلى جسد المسـيح ودمه فحـسب؛ بل عندما سـيأتي المسـيح يحوّل العـالمَ بأسـره، المكتمِلَ بعـملِ البـشريّة كلّهـا، ويجدِّده، ويؤلّهه، و«يصير اللّهُ كلاً في الكلّ» (١ قور ١٥/٢٨).

وبتعـبيـر آخر نقـول: إنّ في كلّ احتفـال بالإفخـارستيّـا، نعلن انتصــار المسيح على قوى المـوت. سيخلّص المســيحُ جهودَ البـشر من الزوال، والأرضَ من الدمار...

لا شيء ممّا تقوم به الطبيعة الإلهيّـة والطبيعة الإنسانيّة، يسمح لنا بالقول بأنّ بين اللّه والإنسـان أيّةَ مشاركةٍ، أو تفـاعلٍ، أو تقاربٍ، أو تعاونٍ، أو أيِّ شبهٍ بينهمـا. كلّ قول بالشَّبَه بين اللّه والإنسان طعنٌ في صميم اللّه، وجهل لحقيقة الإنسان. أللّه، باختصار القول، هو «الآخَر».

ألمسيحـيّةُ، بالإفخارسـتيّا، تخضع لمنـطقٍ آخَر : بالإفخارسـتيّا صار اللّهُ إنساناً؛ وأصبح الإنســانُ إلهاً. إنّه لَقول يلامس الجنون : لئنْ صحّ فإنّنا حقّا نُصادم سرّا كبـيراً : سرّ إلهٍ أزليٍّ أبديٍّ بعيدٍ عن متناول البشر؛ غير أنّه إلهٌ يهب جسدَه مأكلاً ودمَه مشرباً؛ إلهٌ يُحبُّ خليقتَه إلى درجة أنّه أجاز لها مشاركتَها له في طبيعته وحياته الإلهيّة الخالدة.

في هذه المقـولة المسـيحـيّـة، أي: المشاركـة بين اللّه والإنســان، يختلط علينا جوهـرُ اللّه والإنسان معاً : فلا اللّه يتـمتّع بالألوهة وحدَه؛ ولا الإنسان بقي في حيّز المخلوق. ثمّة «مشاركة» حقيقيّة بين الإثنَين.

ألإفخـارستيّـا أعجوبة إلهـيّة مسـتمرّة أبـدَ الدهور، لا من حيث مـحبّـة اللّه للبـشر فـحـسب؛ بل من حـيث إعطاء اللّه البـشرَ إمكانيّـةَ المشاركة في ألوهيّته.

ثانياً – أسس الشركة الإلهيّة–الإنسانيّة

إنّنا نفهم هذه «الشركة الإلهيّة–الإنسانيّة» فـهماً حقيقيّا، إنطلاقاً من حالاتٍ خـمس : ألتجسّـد ، ألكنيسـة، أولويّة الإنسان، سرّ العـماد، وسرّ الإفـخارستيّـا. لقد استعـانَ يسوع بهذه ليقـرِّبَ اللّهَ منّا، ويقرِّب ذهنَنا من هذا المشـاركة المتبادلة :

١ . لقد تخلّى اللّهُ عن ألوهيّتـه، والتزم طبيعتَنا وحـياتَنا بكلّ ما فيها. واسم هذا التخلّي «**التجسّد**». به أصبح «اللّه–مـعنا». وبه ساوى نفسَـه بنا، و شاء أن يكون مثلنا، في حـياتنا وآلامنا وضعـفنا وموتنا. والإفخارستيّا مثلها مثل التجسّد. إنّها ذورة التخلّي، وسكن اللّه بيننا.

٢ . لقد احتـاج اللّهُ، ليتقرَّبَ منّا، إلى جـماعة من البشر، إسـمها «**الكنيسة**»، طلب مساعـدتَها ومشاركـتَها في خلاص البـشر. هذا وقد كان باستطاعة اللّه أن يُتمّ عملَه بنفسه، من دون مساعدة أحد؛ ولكنّه لم يفعلْ ؛ بل كلّف «جماعةً» من البشر ليكمّلوا عملَه، فكانت الكنيسة.

٣ . لقد عمل يسوع، في كلٍّ ما عمل، **من أجل الإنسان** وتحريره من الناموس الذي فُرض عليه باسم اللّه. حرّره من شريعة العهد القديم كلّها. وجـاء يعلّم بأنّ اللّهَ «أب»، و«محبّة»، وأنّ اللّه خلق الإنـسانَ حرّا من البـدء، ويجب أن يبـقى حرّا إلى الأبد... لـهذا حكم المتـديّنون عليـه بالموت، لأنّه أرادَ خلاصَ الإنسان قبل مجد اللّه والدفاع عنه.

٤ . لقـد دلّـنا يسـوع على أنّ بـاب الدخـول إلى اللّـه يكون **بالمعموديّة**، التي هي باب العبور من الخطيئة إلى النعمة، ومن الموت إلى الحيـاة. إنّها كـعبـور بني إسرائيل البـحرَ الأحـمر، الذي خلّصـهم من

العبوديّة (١ قور ١٠/١-٢). تجعلنا المعموديّة متّحدين بموت المسيح ودفنه وقيامته[١٠]، في ذروة الاتّحاد والمشاركة.

والتغيير الذي نحصل عليه بها إنّما هو تحوّلٌ جذريّ، وموتٌ للإنسان العتيق، وخلقٌ له على صورة اللّه من جديد [١١]؛ فيصبح هكذا هيكلاً للروح (١ قور ٦/١١ و١٩)، وابناً للآب بالتبنّي (غل ٤/٥-٦)، وأخاً وارثاً مع المسيح في مجده[١٢]؛ مثلها مثل الإفخارستيّا.

بالمعموديّة نحصل على بواكير الميراث السماوي التي نحوز عليها من الآن بفضل هبة الروح (٢ قور ١/٢٢؛ أف ١/١٤). ونصبح للمسيح، شركاء له. بل نصبح وإيّاه واحداً[١٣]، وكذلك مع المعمَّدين أمثالنا في وحدة المسيح ذاتها (غل ٣/٢٨).

٥. لقد شاء يسوع، أخيراً، أن يقدِّسَنا بإشراكنا في جسده ودمه بواسطة **الأكل والشرب**. فحوّل الخبز إلى جسده، والخمر إلى دمه. وبهما صرنا مشارِكِين اللّهَ في ألوهيّته، بطريقة ممتازة. هذا ما يعني أنّنا، بالإفخارستيّا، نستطيع أن نكونَ واللّه واحداً، في طبيعتَين مختلفتَين مشتركتَين : يشاركنا إنسانيَّتَنا ونشاركه ألوهيّتَه. يتّحد بنا فنتّحد به. يعيش مثلنا فنعيش مثله. يعمل عملنا فنعمل عمله. يقدِّسنا فنبادله مصلِّين: «ليتقدّس اسمك» بنا. يهبنا ما له. ويأخذ ما لنا.

---

(١٠) رَاجع : رو ٦/٣-٥؛ قول ٢/١٢.

(١١) رَاجع : غل ٦/١٥؛ رو ٦/٦؛ قول ٣/٩؛ أف ٤/٢٤.

(١٢) رَاجع : رو ٨/٢ و٩ و١٧ و٣٠؛ أف ٢/٦.

(١٣) رَاجع : غل ٣/٢٧؛ رو ١٣/١٤.

في الإفخارستـيّا يصير الإنسانُ من طبيعـة اللّه؛ كما صار اللّهُ، مع المسيح، بالتـجسّد، من طبيـعة الإنسان. بهذا التبـادل، لا اللّه أصبحَ إنساناً من دون ألوهيّـة؛ ولا الإنسان صـار إلهاً من دون إنسانيّـته. بل هي مشاركة حقّة وبامتياز.

وعلينا أن ندركَ أخيراً أنّنا لا نستطيعُ تمجيدَ اللّه وتقديسَ ذواتنا من دون هذه المشاركـة، أي من دون مساعـدة اللّه نفسـه لنا. والفضل، كلّ الفضل، يعود إليه لا إلينا. إنّها نعمةٌ من اللّه لا قوّة في الإنسان. إنّها مبادرة من اللّه لا من الإنسان. ألّله هو الذي انحدر إلى الإنسان أوّلاً، لا الإنسان هو الذي صعد إلى اللّه.

هذه المحطّات الخـمس، ذروتهـا الإفخـارستـيّـا؛ فيـهـا تتحـوّل الطبيعـتان، الإلهيّة والإنسانيّـة، الواحدة إلى الأخرى، فيصيـر اللّهُ حقًّا إنساناً؛ ويصير الإنسانُ حقًّا إلهاً... مع ما تتحمّل هذه الألفاظ من معانٍ أشار إليها يسوع قبـل أوانها : لقد طلب منّا أن نكون كاملين كاللّه، وأن نتشبّهَ به، ونتبعَه، ونحـملَ صليبَه.. وعندما قام من بين الأموات أرسل روحَ القدس ليقدِّسَنا، ويستمرَّ معنا، ويصيِّرَنا خالدِين كاللّه.

هذا حقًّا كفرٌ. ولكنّ اللّهَ ذاتَه شاءَ كفراً.

في إيمان المسيحيّين، وفي عبادتهم اليـوميّة والحياتيّة، في السرّ وفي العلن، تحتلّ الإفـخارستـيّا موقع الـصدارة. لا يعلوها شيء. ولا شيء يتقدّس من دونـها. بل ليس من مسيحيٍّ واحـد يمكنه أن يحصل على القداسـة من دون مشاركة فـعّالة في الإفخـارستيّا. لكأنّ أعـمالَ الإنسان لا تستمدّ قيمتَها الرّوحيّة والخلاصيّة إلاّ من الإفخارستيّا.

والإفخارستيّا تحوِّلُ الإنسانَ في جوهره إلى غير ما هو عليه: فيسوع نفسه، في بدء حياته العلنيّة، بدأ بتحويل طبائع الأشياء: لقد حوّل الماءَ إلى خمر في قانا الجليل. وها هو، في أواخر أيّامه، يحوّل الخبز إلى لحم، والخمر إلى دم... وها هو اليوم أيضاً، وفي كلّ يومٍ، يحوّلُ حياتَنا وأعمالَنا، بواسطة المشاركة في الإفخارستيّا، من حياةٍ بشريّة عاديّة، وأعمالٍ ضعيفة زائلة، إلى حياةٍ إلهيّة، وأعمالٍ مقدَّسة ذاتِ قيمة خلاصيّة.

من دون نعمة التحوّل هذه، لا قيمة لحياتنا ولا لأفعالنا. من دونها، لا عمل نقومُ به نستحقّ عليه أجراً. ولولاها لا نفهم من اللّه شيئاً، ولا نعرف كيف علاقتنا به. ومن دونها أيضاً لا ندركُ محبّة اللّه لنا. من دونها، يبقى اللّهُ سرّا مغلَقاً؛ كائناً بعيداً، صمداً، لا فائدة لنا فيه، ولا صلة بيننا وبينه.

ألإفخارستيّا، أخيراً، هي بذرة الخلود. هي «الزرع الإلهي» فينا. بها نخلد. وهل يخلد كائنٌ ليس فيه زرعٌ إلهيّ؟! لأجسادنا، بالإفخارستيّا، نصيبٌ في الحياة الأبديّة. يقول إيريناوس أسقف ليون: «كيف يمكنهم أن يقولوا إنّ الجسدَ يذهب إلى الفساد، وليس له نصيب في الحياة، في حين أنّه قد اغتذى بجسد الربّ ودمه؟»[١٤]

بالإفخارستيّا نحن نقدّم للّه ما هو للّه. وهذه قمّة ما يرجوه المؤمن من اللّه، وهو أن يخلد بخلوده، ويعيش معه حياةً أبديّة، سعيدةً، لا تزول ولا تبوخ. يُصلّي المؤمن في ذروة صلاته: «وحّدتَ يا ربّ

---

(١٤) إيريناوس (ت ٢٠٠)، **ضدّ الهرطقات**، ٨/٥.

لاهوتَكَ بناسوتِنا، وناسوتَنا بلاهوتك، حياتَك بحياتِنا، وحياتَنا بحياتك. أخذتَ ما لنا، ووهبتَنا ما لك».

ألإفخارستيّا هي «عربون» الحياة الأبديّة، و«الزاد الأخير» الذي نأخذه معنا من هذه الدنيا الفانية، ليؤهّلنا لدخول سعادة اللّه والتنعّم بها. قد لا يوجد في تاريخ المسيحيّة قدّيسٌ واحد استطاع أن يتقدّس من دون مشاركة يوميّة في سرّ الإفخارستيّا. فاللّه الذي خلقنا على شبهه ومثاله، منذ البدء، سوف نعود، بالإفخارستيّا، إلى هذا الشبه والمثال.

***

معجزة المائدة في القرآن

(سورة المائدة ٥/ ١١٠–١٢٠)

من أطرف موضوعات القرآن «معجزة المائدة». طلبها الحواريّون من عيسى؛ وطلبها عيسى، بدوره، من اللّه؛ فنزّلها اللّه عليهم. ولكن ليس من دون شروط، تكاد تكون تهديداً خطيراً لهم، وعذاباً أبديًا، إنْ كفروا بها، من بعد حدوثها. ولكنّهم، إنْ آمنوا، كانت لهم بها «طمأنينة»، و«عيد»، و«آية»، و«رزق»، و«حياة أبديّة». «مائدة القرآن» هذه تكاد تكون الإفخارستيّا، في المسيحيّة.

أوّلاً – معجزات عيسى مقدّمة لمعجزة المائدة

١١٠ . إذْ قَالَ اللّهُ : يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ! اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيكَ، وَعَلَى وَالِدَتكَ، إذْ أيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ. تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ، وَكَهْلاً. وإذْ عَلَّمْتُكَ الكتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوراةَ وَالإنْجِيلَ. وَإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكونُ طَيْراً بإذْنِي. وَتُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ بِإذْنِي. وَإذْ تُخْرِجُ المَوتَى بإذْنِي. وَإذْ كَفَفْتُ بَنِي إسْرَائيلَ عَنكَ، إذْ جِئْتَهُم بالبَيِّنَاتِ.

فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ : إنْ هَذا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

١١١ . وَإذْ أوحَيتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي.

قَالُوا: آمَنَّا. وَاشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُونَ.

يذكر القرآن هنا المعجزات التي صنعها عيسى في حياته :

١ . في قوله : «اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيكَ»، يذكِّر القرآنُ عيسى بمولده العجيب، كآدم، من دون أب، كقوله: «إنَّ مَثَلَ عيسَى عِندَ اللّهِ كمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه مِن تُرابٍ. ثمَّ قالَ له: كُنْ فيكونُ» (٣ / ٥٩)؛

٢ . وفي قوله: «وَعَلَى وَالِدَتِكَ»، أي إنّ النعمة كانت على عيسى وعلى والدته سواء؛ وذلك، كما يقول الرازي، لـ «أنّ كلّ ما حصل للولد من النِّعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأمّ. ولذلك قال في سورة المؤمنون: «وَجَعَلْنَا ابنَ مَريَمَ وأمَّهُ آيَةً» (٢٣ / ٥٠). فجَعَلَهما معاً آيةً واحدةً لشدّة اتّصال كلٍّ واحدٍ منهما بالآخر»[١٥].

ويعلّق ابن كَثير على ذلك أيضاً، أي: «جعلتُكَ برهاناً على براءتها ممّا نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة»[١٦].

وكذلك يقول محمّد حسين فضل اللّه: «من الممكن أن تكون النعمة على والدتِه من حيث إكرامُها بالكرامة الإلهيّة في إظهار قدرة اللّه في خلق عيسى من خلالها، واصطفاءُ اللّه لها، وتطهيرُها، ورعايتُه لها في كلّ حياتها، مع كون الآيات المذكورة في الآية مختصّة بعيسى. ومن الممكن أن تكون المسألة من حيث إنّ النعمة التي تصل إلى الولد هي نعمة على الأمّ أيضاً، لأنّه فرعٌ منها. فما يصل إليه من الكرامة يصل إليها، لأنّ اللّه يكرم الأمَّ بإكرام ولدها»[١٧].

---

(١٥) **فخر الدين الرازي**، الشافعي (ت ٦٠٦/ ١٢٠٩). له: **مفاتيح الغيب**.

(١٦) **ابن كثير** القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤/ ١٣٧٢)، **تفسير القرآن العظيم**.

(١٧) **محمّد حسين فضل اللّه**، **من وحي القرآن**، دار الملاك، بيروت، ٢٥ مجلّداً.

٣. والمعجزة الثالثة تمّت عند بشـارة مريم بعيسى، وقد أيّده اللّه بروح القدس. هذا التـأييد ذكره القـرآن مراراً؛ حتّى لكأنّ عيسى كان، منذ مولده، حتّى مماته، تحت هيمنة «روح القدس». «روح القدس» هذا، اخـتلف في هويّته المفـسِّرون المسلـمون إلى أكـثر من مـعنى؛ ولكنّهم يؤثرون أن يكون الملاك جبريل. ولا نجاريهم في ذلك، لأنَّ تعبير «روح القـدس» إنجيلي مـسيحيّ صـرف؛ ويستـعمله القـرآن في المناسـبات نفسها التي يستعمله فيها الإنجيل[18].

٤. وعندما كان عيسى طفلاً في المهد، كلّم الناسَ في براءة أمّه. وهذه، كما يقول الرازي «خاصّيّة شريفة... ما حصلتْ لأحدٍ من الأنبياء قبله ولا بعده»[19].

٥. وفي قوله: «وَكَـهْلاً» أي: إنَّ عـيسى، الذي سوف يَـنزل قبل اليوم الأخير، رفعه اللّه إليه قـبل أن يَصير كهلاً؛ أو أيضاً معنى ذلك: إنّ عيسى يكلّم الناس عندما يصيرون كهولاً، ويدعوهم إلى اللّه.

٦. علّمه اللّه، وهو لا يزال صغيـراً، «الكِتَابَ»، أي الكتابةَ والخطّ، و«الحِكْمَـةَ»، أي العلومَ النظريّة والـعمليّـة، و«التَّـورَاةَ والإنْجِـيلَ»، أي كتابَي الوحي السابقين.

٧. وعندما كـان صغيراً أيضـاً، يلعبُ مع الأولاد، جَبَل طِيناً بين أصابعه، ونفخَ فيه، فإذا بعصافير، ذات نفوسٍ، تطير في الجوّ.

٨. وكذلك شفى المولود-أعمى بإعطائه البصر.

---

(١٨) رَاجع مقالنا : «روح القدس في الإسلام»، في مكان ما من هذا البحث.

(١٩) رَ: تفسير الرازي على سورة مريم ١٩/ ٢٩-٣٣.

٩ . وشفى الأبرص الذي استعصى على الأطباء شفاؤه.

١٠ . وأقام الموتى وأخرجهم من قبورهم أحياء سالمين.

١١ . ومن المعجزات أيضاً أنّ اللّه منع بني إسرائيل عن النيل من عيسى لمّا همّوا بقتله، فلم يقدروا عليه. لهذا جاء في سورة النساء: «وَمَا قَتَلُوهُ. وَمَا صَلَبُوهُ» (٤/١٥٧).

١٢ . ومن المعجزات المذكورة في سورة آل عمران، أنّ عيسى كان يخبر الناسَ عمّا يدَّخِرون في بيوتهم، وممًّا يأكلون: «وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ ومَا تَدَّخِرُونَ فِي بيوتِكُم» (٣/٤٩).

١٣ . ومن المعجزات أنّ عيسى ألقَى شبَهَه على أحد تلاميذه، فنجا بذلك من القتل؛ ورفعه اللّهُ إليه، وألقى اليهودُ القبضَ على الشبَه وقتلوه.

١٤ . وأخيراً إنّ اللّه رفع عيسى إليه من دون موت. عن رسول اللّه قال: «ينزل عيسى ابنُ مريم فيَقتلُ الدجَّالَ. ثمّ يمكث في الأرض مدّة. ثمّ يموت. ويصلّي عليه المسلمون ويدفنونه». وقال أيضاً: «كيف تهلك أمّةٌ أنا في أوّلها وعيسى في آخرِها!». ومعلوم، كما يقول الطبري: «إنّه لو كان قد أماته اللّه لم يكن بالذي يميته ميتةً أخرى فيجمع عليه ميتَتَين»[٢٠].

هذه المعجزات، وغيرها ممّا يوجد في القرآن متفرّقاً، هنا وهناك، وممّا استنبطه المفسِّرون في تفاسيرهم، قال فيها الكافرون من بني

---

(٢٠) ١. ابن جرير **الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، **جامع البيان في تفسير القرآن**.

إسرائيل: «إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ»؛ إلاّ أنّ اللّهَ أوحى إلى رسل عيسى بأنْ يؤمنوا به بسبب هذه المعجزات. فآمَنوا. وطلبوا من عيسى أن يشهد لإيمانهم هذا أمام اللّه، فشهد على أنّهم من «المسلمين»، أي من أتباع النبيّين السابقين.

هذه المعجزات، على ما يبدو من رواية القرآن في سورة المائدة، تُعتَبر كمقدّمة للمعجزة الكبرى، ألا وهي معجزة تنزيل المائدة. ويبدو أيضاً أنّ كلَّ هذه المعجزات لم تَطْمئِنّ إليها قلوبُ الحواريّين؛ لذا طلبوا معجزةً أعظم، ليتأكّدوا من صدق عيسى، ويكونوا شاهدين عليه وعليها مدى الدهر. والمعجزة، بحسب نصّ القرآن، هي هذه:

ثانياً – معجزة المائدة (٥/١١٢–١١٥)

١١٢ . إذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ : يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ! هلْ يَستَطيعُ ربُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلَينا مائدَةً منَ السَّماءِ؟

قال : اتَّقُوا اللّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

١١٣ . قالوا : نُريدُ أنْ نَأكُلَ مِنْها، وَتَطْمَئِنَّ قُلوبُنا، وَنَعلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنا، وَنَكونَ عليها منَ الشَّاهِدِينَ.

١١٤ . قالَ عيسَى ابنُ مَريَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنا! أنْزِلْ عَلَينا مائدةً من السَّمَاءِ. تكونُ لَنا عِيداً لأوَّلِنا وآخِرِنا، وآيَةً مِنكَ، وَارزُقْنَا وَأنتَ خَيرُ الرَّازِقينَ.

١١٥ . قالَ اللّهُ : إنّي مُنَزِّلُها عَلَيكمْ. فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أحَداً مِنَ العَالَمِينَ.

نقول :

١ . لقد سأل الحـواريّون عيسى: هل يستجـيب ربُّكَ إنْ سألتَه أن ينزِّل عليك مائدةً من السماء، ويُـطيعك في ذلك؟. ألحواريّون، على ما يبدو، لا يشكّون بقدرة اللّه، بل إنّهم لم يعلموا أنّ عـيسى قد صـدقهم، ولا اطمأنّت قلوبهم إلى حقيقة نبوّته. لهذا

٢ . «قالوا: نُريدُ أنْ نَأْكُلَ مِنْها، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا» (آ. ١١٣).

هذا القـول، بحسب القـرطبي، «يحـتمل ثلاثة أوجـه: **أحدها** – تطمـئنُّ إلى أنّ اللّه تعالى بعَـثكَ إلينا نبـيّاً؛ **ألثاني**– تطمـئنّ إلى أنّ اللّه تعالى قد اختارنا أعواناً لك؛ **ألثالث**– تطمئنّ إلى أنّ اللّه تعالى قد أجابنا إلى ما سألْنا»[٢١].

ويقول الرّازي: أجـاب الحواريّون عيـسى، «وقالوا: إنّا لا نطلب هذه المائدة لمجرّد أن تكونَ معجزة؛ بل لمجموع أمورٍ كثيرة: **أحدها** – أنّا نريد أن نأكل منها، فإنّ الجوعَ قـد غلَبنا ولا نجد طعاماً آخر. **وثانيها** – أنّا وإنْ علمنا قـدرة اللّه تعـالى بالدلـيل، ولكنّا، إذا شـاهدنا نزولَ هذه المائدة، ازداد اليقين وقـويت الطمأنينة. **وثالثها** – أنّا وإنْ علمنا بسـائر المعـجـزات صـدقَك، ولكن، إذا شـاهدنـا هذه المعـجـزة، ازداد اليـقين والعرفان وتأكّدتِ الطمأنينة. **ورابعها** – أنّ جميع تلك المـعجزات التي أوردتها كانت مـعجزات أرضيّـة، وهذه معجزة سمـاويّة، وهي أعجب وأعظم. فإذا شاهـدناها كنّا عليها من الشاهدين للّه بكـمال القدرة، ولكَ بالنبوّة، وعند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل.

---

(٢١) أبو عبدالله **القرطبي** (ت ٦٧١/ ١٢٧٢)، **الجامع لأحكام القرآن...**

ويقول محمّد عبده: إنّنا نطلب معجزة المائدة هذه «لأربع فوائد: **إحداها** إنّنا نريد أن نأكل منها، لأنّنا في حاجة إلى الطعام، ولا نجد ما يسدّ حاجتنا. **الثانية**، نريد أن تطمئن قلوبُنا بما نؤمن به من قدرة اللّه بمشاهدة خرقه للعادة... **الثالثة**، أن نعلم هذا النوع من العلم، أي علم المشاهدة، أنّ الحال والشان معك هو أنّك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان، كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات. **الرابعة**، أن نكون من الشاهدين على هذه الآية.. فيؤمن المستعدّ للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً»[٢٢].

هذا ما يؤمن به المسيحيّون، إذ يتناولون الإفخارستيّا غفراناً لخطاياهم، وسعادة لنفوسهم، وطمأنينةً لقلوبهم. ويفعلون ذلك مدى الدهر، وحتّى المجيء الثاني للمسيح: «إذكروا هذا حتّى مجيئي».

٣. «قالَ عيسَى ابنُ مَريَمَ: أللّهُمَّ رَبَّنا! أَنْزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السَّمَاءِ. تَكونُ لَنا عِيداً» (آ. ١١٤).

كلمة «**عيد**»، فريدة في القرآن، ترد هنا في الكلام على معجزة المائدة فقط، ولا ترد في أيٍّ مكانٍ آخر .

يقول الطبري : «معناه: نتّخذ اليومَ الذي نزلتْ فيه عيداً نعظّمه نحن ومَن بعدنا... ومعناه أيضاً: تكون لنا عيداً نعبد ربَّنا في اليوم الذي تنزل فيه، ونصلّي له فيه، كما يعيّد الناسُ في أعيادهم».

ويضيف الرازي: « نزلت يوم الأحد، فاتّخذه النصارى عيداً. والعيد في اللّغة إسم لِمَا عادَ إليكَ في وقتٍ معلوم. واشتقاقه من عاد

(٢٢) **الإمام محمّد عبده** (ت ١٣٢٣/ ١٩٠٥)، **تفسير جزء عمّ**.

يعود. فـأصله هو العَود. فسـمِّي العيـد عيداً، لأنّه يعـود كلّ سنة بفرحٍ جديد». والمعنى نفسه يرد عند البيضاوي، فيقول: «روي أنّها نزلتْ يوم الأحد، فلذلك اتّخذه النصارى عيداً»[٢٣].

ويقول القرطبي: «والعيد واحد الأعياد.. وقال الخليل: ألعيد كلّ يوم يجمع كأنّهم عـادوا إليه. وقال ابن الأنباري: سمّي عـيداً للعود في المَرَح والفَرَح، فهو يوم سـرور الخلق كلّهم: ألا ترى أنّ المسجونين، في ذلك اليوم، لا يطالَبون ولا يعاقَـبون؛ ولا يُصاد الوحش ولا الطيور؛ ولا تُنفذ الصبيان إلى المكاتب.

وقيل: سمّي عيداً لأنّ كلّ إنسـان يعود إلى قدر منزلته: ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم... وقيل: سُمِّي بذلك لأنّه يومٌ شريف تشبيـهاً بالعيد: وهو فحلٌ كريم مشهـور عند العرب، ويُنسَبون إليه، فيقال: إبْلٌ عِيدِيَّةٌ».

وبحـسب محـمّد عـبـده، «تستـعمل كلمـة عـيد بمعنى الفـرح والسرور، وبمعـنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتـمع له الناس في يومٍ أو أيّام معيّنة من السنة للعبادة، أو لشيء آخر من أمور الدنيا».

لا يخفى أنّ «المائدة»، أي الإفـخارستـيّا، هي العـيد الأعظم، في المسيـحيّة؛ بل هو عيـد الأعياد، وكلّ الأعـياد تدور حوله، وتستـمدّ منه معناها وقوّتها. ولا عيد في المسيحيّة إنْ لم يكن له علاقة بالإفخارستيّا. فيـه يلبسـون ثيـابَهم الفاخـرة، وفيه يصلّون لغـفران خطاياهم. وفـيه يفرحون ويبتهجون...

---

(٢٣) البيضاوي (ت ٦٩١/١٢٩١)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**.

٤ . وفي قـوله : «لأوَّلِنا وآخِـرِنا»، أي، كـمـا يقـول الطبـري: «للأحـياء منّا اليـوم ومَن يجيء بعدنا»، إلى الأبد. ويقـول الرازي: «أي نتّخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظّمه نحن وَمَن يأتي بعدنا».

وهو قول شبيـه بما قال يسوع في عيد تأسيس الإفخـارستيّا، بأنّه احتفال يُقام مدى الدهر، وللبشر أجمعين، وبما تعترف به الكنيسة بأنّ الإفخارسـتيّا هي غربون الحـياة الأبديّة؛ وتُقدَّم ذبيحـةً كفّارة عن الأحياء وقرباناً عن الأموات.

٥ . وفي قـوله: «وآيَةً منكَ»، أي، كمـا يقول الطبـري: «علامـة وحـجّة منك يا ربّ علـى عبـادك في وحدانيّـتك وفي صـدقي على أنّي رسول إليهم بما أرسلتني به». ويقول الرازي: «أي: دلالة على توحيدك وصحّة نبوّة رسولك».

وهو، كما قال يســوع: بأنّه لا يستطيع أحدٌ أن يعرف اللّه إلاّ عن طريق معـرفتـه الابن، وعن طريق اتّحاده بالابن، والاعـتراف بصـحّة أقوال الابن، والاقـتداء به، والتشـبّه بأخـلاقه، ومشـاركته إيّاه حـياتَه الإلهيّة.

٦ . وفي قولـه: «وَارْزُقْنَا وأنْتَ خَيـرُ الرَّازِقينَ»، أي كمـا يقول الطبـري: «وأعطنا من عطائك فـإنّك يا ربّ خيـر مَن يعطي وأجـود مَن تفـضّل، لأنّه لا يَدخلُ عطاءَه مَنٌّ ولا نكدٌ». وبحـسب الرازي: «وارزقنا طعاماً نأكله».

وهو مـا يقـوله يســوع: بأنْ لا رزق ولا عـطاء إلاّ من لدن اللّه، موزِّع الأرزاق ومقسّم الخيرات على كلِّ محتاج.

٧. «قَالَ اللَّهُ: إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُمْ» (آ. ١١٥). يقول الرازي: «اختلفوا في أنّه هل نزلتِ المائدة، أم لا؟». والمرجّح عنده، كما عند سائر المسلمين، أنّها نزلتْ. وقد استجابَ عيسى لطلب الحواريّين، كما استجاب اللّهُ لطلب عيسى، لأنّه جوّاد كريم على عباده.

وهو قول يدلّ على غاية الكرم والجود عند اللّه، كما الإفخارستيّا هي: «خبز الحياة... وعينُ الخيرات... وبحرُ الجود». واللّه، بها، هو الجوّاد، الذي وَهَبَنَا (بها) ذاتَه كأشرف زاد... (و) هو الذي يُعطَى، هو الذي يُعطِي، رحمةً وحياه...»[٢٤].

٨. وفي قوله: «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ». هذا تهديد لم نرَ له مثيلاً في القرآن كلّه. «ولنا أن نلاحظ، كما تقول دِنيز ماسّون، مترجمة معاني القرآن إلى الفرنسيّة، بأنّ هذه الصيغة فريدة وقاطعة في القرآن: إنّه اللّه نفسه هو الذي يلفظها ويهدِّد بها»[٢٥].

هذا التهديد يذكّرنا بقول القديس بولس عن الإفخارستيّا: «مَنْ يَأكُلُ ويَشرَبُ، وهُوَ غيرُ مُمَيِّزٍ جسَدَ الربِّ، (أي: غير أهلٍ له)، يأكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ»[٢٦]. وهو أيضاً تعليم الكنيسة والآباء منذ البدء.

---

(٢٤) نشيد يُقال عند الاحتفال بالأفخارستيّا بحسب الطقس السرياني الماروني.

(٢٥) "Il convient de remarquer que cette formule particulièrement solonnelle ne paraît que cette seule fois dans le Coran; c'est Dieu lui-même qui la prononce (cf. une formule atténuée en 3/56); **le Coran**, Introduction, Traduction et Notes, par D.MASSON; Bibliothèque de la Pléade; Ed. Gallimard, Paris, 1967, p. 826, note sur 5/115.

(٢٦) رَ: ١ قور ١١/٢٧-٣٤؛ وبنوع خاصّ آية: ٢٩.

٩. يقـول الطبري: «إنّ القـوم جحـدوا وكفـروا بعدمـا أُنزلتْ عليهم، فيمـا ذُكر لنا، فعُذِّبوا، فيما بَلَغَنَا، بأنْ مُـسِخوا قردة وخنازير... عن عبد اللّه بن عـمرو قال: إنّ أشدّ الناس عذابـاً ثلاثة: ألمنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون».

وينقل ابن كَثِير عن عمّار، قال: «إنّ بني إسـرائيل سألوا عيسى ابنَ مريم مائدةً يكون عليـها طعام يأكلون منه، لا ينفد. قـال: فقيل لهم: فإنّها مُـقيمة لكم ما لم تخـبأوا أو تخونوا أو ترفعوا. فـإنْ فعلتم فإنّي معذّبكـم عذاباً لا أعذّبه أحداً من العـالمين. قال: فما مضى يومـهم حتّى خبأوا ورفعوا وخانوا فعُذِّبوا عذاباً لم يعذّبه أحداً من العالمين»...

يشير هذا الكلام إلى المنّ السـماوي الذي نزل على الإسرائيليِّين وهم في الصحراء، حيث كانوا يستطـعمون فيه كلّ طعم. وهو طعام لم ينفد من عندهم مـا داموا مؤمنين. والمسيح أشار إلى المـشابهة بين المنّ القديم وجسده الذي وهبه مأكلاً للناس في الأفخارستيّا.

ثالثاً – مائدة لا كالموائد

أمّا كـيف حدثت معـجزة المائدة، فـقد ورد في تفاسـير ذلك أنّ عيسـى أنزلها رحمةً للعـالمين. يشكرونها عليها كلّ حين. وهـي سلامة وعافيـة، ذات رائحة طيّبة. إنّها آية ذات عـجب وعبرة. أمّا اليـهود، فلمّا رأوها، أورثهم ذلك كمداً وغمّاً. ورأى الحواريّـون فيها طعاماً لا هو من طعام الدنيا ولا من طعام الجنّة. وخاف عيسى أن يلحقهم بسببها عقابٌ كبير.

عن سَلمان الخير أنَّه قال: لمّا سـأل الحواريّون عيسى ابن مريم المائدةَ، كـرهَ ذلك جـداً. فـقـال: اقنعـوا بما رزقكم اللّه في الأرض. ولا تسـألوا المائـدة من السماء. فـإنّها، إنْ نزلتْ عليكم، كـانت آيةً من ربِّكم. وإنّما هلكتْ ثمـود حين سألوا نبيَّـهم آية فابتلوا بها حـتّى كان بَوارُهم فيها. فأبَوا إلاّ أن يأتيهم بـها. فلذلك «قالوا: نُريدُ أنْ نَأْكُلَ مِنْها. وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا».

فلمّا رأى عيسى أنْ قد أبَوا إلاّ أن يدعـو لهم بها، قام، فألقى عنه الصوفَ، ولـبس الشعر الأسـود، وجبَّـةً وعبـاءةً مِن شعر، ثـمّ توضّـأ واغتـسل ودخل مصـلاّه، فصلّى مـا شاء اللّه. فلـمّا قضى صـلاته... ووضع يده اليـمنى على اليسـرى فوق صدره، وغضّ بصـرَه، وطأطأ رأسَه خـشوعاً، ثم أرسلَ عـينَيه بالبكاء. فـما زالت دموعُـه تسيل على خدَّيه، حتّى ابتلَّتِ الأرضُ حيالَ وجهـه من خشوعه. فلمّا رأى ذلك دعا اللّهَ فقال: «اللّهُمَّ رَبَّنا! أَنْزِلْ عَلَينا مائدةً من السَّماءِ».

فأنزل اللّه عـليهم سفـرةً حمـراء بين غمامـتين: غمامـة فوقـها وغمامة تحتها. وهم ينظرون إليـها في الهواء، منقضّةً من فلكِ السماء، تهوي إلـيهم. وعيـسى يبكي خوفـاً من أجل الشروط التي أخـذها اللّه عليهم فيها أنّه يعذِّبُ مَن يكفُرُ بهـا منهم بعد نزولها عَذاباً لم يعذِّبْه أحداً من العالمين.

وهو يدعو اللّهَ في مكانه، ويقـول: أللّهمَّ اجعلْها رحـمةً لهم. ولا تجعلْها عذابـاً. إلهي! كم من عجيبةٍ سـألتُكَ فـأعطيتني؟ إلهي! إجعلْنا لك شـاكـرين. أللّهمّ! إنّي أعوذ بك أن تكون أنـزلتَها غـضبـاً ورجزاً. إلهي! اجعلها سـلامةً وعافيةً، ولا تجعلها فتنةً ومثلة.

فـمـا زال يدعـو حـتّى استـقـرّتِ السـفـرةُ بين يدَي عـيـسى والحواريِّين، يجدون رائحةً طيّبةً لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط.

وخرّ عـيسـى والحواريّون للّه سـجّداً، شكراً له لِما رزقـهم من حيث لم يحتسِبوا. وأراهم فيه آيةً عظيمةً ذات عجب وعبرة.

وأقبلت اليهودُ ينظرون، فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغمًا. ثمّ انصرفوا بغيظ شديد.

وأقـبل عـيسى والحـواريّون وأصـحـابه حتّى جلـسوا حـول السفرة. فإذا عليـها منديل مغطّى. فقال عيـسى: مَن أجْرَأُنَا على كشْف المنديل عن هذه الـسفـرة؟ وأوثقُنـا بنفـسه، وأحـسَنُـنا بلاءً عند ربّه؟ فليكشف عن هذه الآية حتّى نراها، ونحمـد ربَّنا، ونذكُر باسمه، ونأكل مِن رزقِه الذي رزقنا؟

فقـال الحواريّون: يا روحَ اللّه وكلمتَـه! أنتَ أولانا بذلك، وأحقُّنا بالكشف عنها.

فـقام عـيـسى واستـأنفَ وضـوءاً جديـداً. ثمّ دخل مصـلاّه. فـصلّى.. ثمّ بكى بكاءً طويلاً. ودعـا اللّه أن يأذن له في الكشف عنهـا، ويجعل له ولقومـه فيها بركةً ورزقاً. ثمّ انصـرف وجلس إلى السفرة. وتناول المنديلَ، وقـال: باسم اللّه خيـر الرازقين. وكَشَفَ عن الســفرة. فإذا هو عليها بسـمكة ضخمة مشويّة... ليس في جوفـها شوك. يسيل السمن منها سيلاً ... وخمسة أرغفة...

فقال شمعون رأسُ الحواريّين لعيسى: يا روحَ اللّه وكلمتَه! أمِن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنّة؟ فقال عـيسى: أما آنَ لكم أن تعتبروا

بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تُعاقَبوا في سبب نزول هذه الآية. فقال له شمعون: لا وإله إسرائيل! ما أردتُ بها سؤالاً يا ابن الصدّيقة.

فقال عيسى عليه السلام: ليس شيء ممّا ترون من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنّة. إنّما هو شيء ابتدعه اللّه في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة. فقال له: كنْ فكان أسرعَ من طرفة عين. فكُلوا ممّا سألتم باسم اللّه، واحمدوا عليه ربَّكم يمدّكم منه ويزدكم. فإنّه بديع قادر شاكر.

يعلّق سيّد قطب على الحوار بين عيسى والحواريّين في شأن المائدة، فيقول بأنّ جماعة محمّد كانت أكثر إيماناً واستجابة من جماعة عيسى. يقول: «ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى.. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا (ص) فرق بعيد... إنّهم الحواريون.. آمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم... ومع هذا، فهم، بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقةً جديدة، تطمئنّ بها نفوسهم، ويعلمون منها أنّه صدقهم، ويشهدون به له لمن وراءهم. فأمّا أصحاب محمّد فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم.. لقد آمنتْ قلوبُهم واطمأنّتْ منذ أن خالطتْها بشاشة الإيمان. ولقد صدّقوا رسولَهم، فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلاّ هذا القرآن»[٢٧].

---

(٢٧) سيّد قطب (ت ١٣٨٦/١٩٦٦م)، في ظلال القرآن.

رابعاً – هل كانت المائدةُ لتأليهِ عيسى؟!

١١٦ . وَإذْ قَالَ اللّهُ: يا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ! أأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إلَهَينِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟!

قَالَ: سُبْحَانَكَ! ما يكونُ لي أنْ أقُولَ مَا ليسَ لي بِحَقٍّ. إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فقَدْ عَلِمْتَهُ. تَعلَمُ مَا فِي نفسِي. وَلا أعلَمُ ما فِي نفسِكَ. إنَّكَ أنتَ عَلاَّمُ الغُيوبِ.

١١٧ . مَا قُلتُ لهُمْ إلاَّ مَا أمَرْتَنِي بهِ: أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وربَّكُم. وكنتُ علَيهِمْ شَهيداً مَا دُمتُ فيهِم. فلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أنتَ الرَّقيبَ علَيهِم. وَأنتَ علَى كلِّ شَيءٍ شَهيدٌ.

١١٨ . إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ. وَإنْ تَغْفِرْ لهُمْ فَإنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحكيمُ.

١١٩ . قَالَ اللّهُ: هذا يومُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأنْهارُ، خَالِدينَ فيها أبَداً. رَضِيَ اللّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنهُ. ذلكَ الفَوزُ العَظيمُ

١٢٠ . للّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ ومَا فِيهِنَّ. وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

هذه الآيات (١١٦–١٢٠) لا علاقة لها بمعجزة «المائدة»؛ ولكنّها وُضعتْ مباشرة بعدها، خشية اعتبار عيسى، بسببها، إلهاً. هذا هو مبرّر وجودها هنا. لهذا، سارع اللّه يسأل عيسى: أأنتَ قلتَ للناس، بعد هذه المعجزة العظيمة، بأنّك إله؟! وراح عيسى يبرّئ نفسَه وأمَّه، كعادته، وينفي أن يكون إلهاً. ولكنّ معجزة المائدة جعلتْ الشكوك تحوم حواليه من رسله ومن كلّ جانب.

١ . ولكن، إذا كان هذا القول يصحّ لعيسى، فما شأن أمّه هنا؟ ومتى كان عيسى، في النصرانيّة، أو في المسيحيّة، أو في تاريخ الكنيسة، ومجامعها، وشيعِها، أو في كلٍّ ما يُروى عنه في القرآن، يدعو الناسَ إلى اعتبار أمِّه إلاهة؟!

يعترف الرازي : «إنّ أحداً من النّصارى لم يذهب إلى القول بإلهيّة عيسى ومريم، مع القول بنفي إلهيّة اللّه تعالى. فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أنّ أحداً منهم لم يقلْ به!»

لهذا نقول بأنّ كلمة «وَأمِّي» في غير محلّها، لأنْ لا شأنَ لها في إطار ما سبق من معجزات. إذ هي تخصّ عيسى وحدَه.

لهذا، قد تعني «أمِّي»، هنا «روح القدس». وهو الأرجح لأنّ الإنجيل العبراني، الذي ينقل القرآن عنه، يصرّح بذلك، على لسان عيسى، في قوله: «لقد رفَعَتْنِي أمِّي، روحُ القدس، بشعرةٍ من رأسي»؛ ولأنّ «روح القدس» في الأراميّة مؤنّث، على غير ما هو في العربيّة[٢٨].

٢ . قال الطبري : قال اللّه هذا الكلام لعيسى، حين رفعه إليه في الدنيا. وقال آخرون: قال له ذلك يوم القيامة.. عن مَيسَرة قال: إنّ عيسى أرعدت مفاصلُه وخشي أن يكون قد قال ما قال.. لذلك قال : «سُبحانَكَ! إلخ...»

وقال القرطبي : «اختُلف في وقت هذه المقالة. فقال قتادة وابن جُريج وأكثرُ المفسِّرين: إنّما يقول له هذا يومَ القيامة. وقال السُّدي وقطرُب: قال له ذلك حين رفعه إلى السماء.

---

(٢٨) راجع كتاب **قس ونبيّ**، ص ١٧٩–١٩١.

«واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال، وليس هو باستفهام وإنْ خرج مخرجَ الاستفهام. «فإنْ قيل: فالنصارى لم يتّخذوا مريم إلهاً، فكيف قال ذلك فيهم؟ فقيل: لمّا كان من قولهم إنّها لم تَلِد بشراً وإنّما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنّها لأجل البعضيّة بمثابة مَن ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له».

وقال ابن كثِير : «وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد»

٣ . «قال : سُبْحانَكَ! ما يكونُ لي أنْ أقُولَ ما ليسَ لي بِحَقٍّ»، أي ليس لي أن أقول ذلك لأنّي عبد مخلوق وأُمّي أَمَةٌ لك. فهل يكون للعبد والأَمَة ادّعاء ربوبيّة؟

«إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فقَدْ عَلِمْتَهُ. تَعلَمُ مَا في نفسِي. وَلا أعلَمُ مَا في نفسِكَ. إنّكَ أنتَ عَلاّمُ الغُيوبِ»، أي العالِم بخفيّات الأمور التي لا يطّلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك.

٤ . «مَا قُلتُ لهُمْ إلاّ ما أَمَرْتَني بهِ: أنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي ورَبَّكُم. وكنتُ عليهِمْ شَهيداً»، أي: وكنتُ على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم، «مَا دُمتُ فيهِمْ»، أي: ما دمتُ مقيماً فيهم.

٥ . «فلَمّا تَوَفَّيْتَني»، أي : فلما قبضتني إليكَ.

يقول القرطبي: هذا يدلّ على أنّ اللّه توفّاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشيء؛ لأنّ الأخبار تظاهرتْ برفعه، وأنّه في السماء حيّ، وأنّه ينزل ويقتل الدّجّال.. وإنّما المعنى: فلمّا رفعتني إلى السماء.

قال الحسن: ألوفاة في كتاب اللّه على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: «أللّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوتِها» (٣٩/ ٤٢)، يعني وقتَ انقضاء أجَلِها؛ ووفاة النّوم، قال اللّه تعالى: «وَهُوَ الّذي يَتَوَفّاكُمْ بِاللَّيْلِ» (٦/ ٦٠)، يعني الذي يُنيمكم؛ ووفاة الرَّفْع، قال اللّه تعالى: «يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ» (٣/ ٥٥).

ويقول الأندلسي: هذا يدل على أنّه توفّاه وفاة الرفع، لأنّ الأخبار تضافرت برفعه حيّاً وأنّه في السماء حيّ وأنّه ينزل ويَقتل الدجّال. ويكون معنى «تَوَفَّيْتَنِي»: قبضتني إليك بالرَّفع[٢٩].

ويقول الرازي: والمراد منه، وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: «إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ».

«كنتَ أنتَ الرّقيبَ عليهم»، أي: الحفيظ عليهم دوني، لأنّي إنّما شهدتُ من أعمالهم ما عملوه، وأنا بين أظهرهم. وفي هذا تبيان أنّ اللّه إنّما عرّفه أفعال القوم ومقالتهم بعدما قبضه إليه وتوفّاه..

٦. «وأنتَ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ»، أي: وأنتَ تشهد على كلّ شيء، لأنّه لا يخفى عليك شيء. يقول الرازي: وأنتَ الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم.

٧. «إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ»، أي: مستسلمون لك، لا يمتنعون ممّا أردتَ بهم، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرّاً ولا أمراً تنالهم به. «وإنْ تَغْفِرْ لهُمْ» بهدايتك إيّاهم إلى التوبة منها فتستر عليهم، «فإنَّكَ أنتَ العزيزُ»، في انتقامه ممّن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه،

---

(٢٩) **ابن حيّان الأندلسي** الغرناطي (ت٧٤٥/ ١٣٤٤)، **البحر المحيط**

«الحَكِيمُ» في هدايتـه مَن هدى مِن خلقـه إلى التوبة وتوفـيقـه مَن وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب.

يقول ابن كثير : «هذا الكلام يتضمّن ردّ المشـيئة إلى اللّه. فإنّه الفعّال لما يشاء. الذي لا يُسأل عمّا يَفعل وهم يُسألون. ويتضمّن التبرّي من النصارى الذين كـذّبوا على اللّه ورسوله. وجعلوا للّه ندًا وصـاحبةً وولداً. تعالى اللّه عمّا يقولون. وهذه الآية لها شأنٌ عظيم ونبأ عجيب».

٨. «قالَ اللّه: هذا يومُ يَنـفـعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُـهُمْ»، أي: قال اللّه هذا القول الـنافع، أو هذا الصدق النافع. فـاليوم وقت القـول والصدق النافع. «لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِها الأنْهارُ، خَالِدينَ فيها أَبَداً».

٩. رَضِيَ اللّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عـنه»، أي: رضوا هم عن اللّه في وفائه لهم بما وعدهم على طاعـتهم إيّاه فيما أمـرهم ونهاهم من جزيل ثوابه». وتحت هذا القول «أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها. جعلنا اللّهُ من أهلهـا.«ذَلِكَ» عائد إمّا إلى الجنّة، وإمّـا إلى الرضوان. وكـلاهما «الفَوزُ العَظيمُ» المرغوب فيه.

١٠. « للّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا فِيهِنَّ. وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيءٍ قَديرٌ». «إنّ هذا جواب عن سؤالٍ مقدَّر. كأنّه قيل: مَنْ يُعطيهم ذلك الفوز العظيم؟» فـقيل: الذي له «مُلْكُ السَّـمَوَاتِ وَالأرْضِ ومَـا فِيـهِنَّ». «وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيءٍ قَـديرٌ» ممّا في السـموات وممّا على الأرض، من كـائنات عاقلة وغير عاقلة.

خاتمة

يبدو أنّ الشبه بين مائدة القرآن والإفخارستيّا والمنّ الذي نزل على بني إسرائيل في بريّة سيناء قريبٌ بعضَ الشيء. ولكن، لا يسعنا القول بأنّ الإسلام يعترف بالإفخارستيّا كاعتراف المسيحيّين؛ كما لا يسعنا، أيضاً، التنكّر لهذه المعجزة التي فاقتْ، في رأي القرآن، معجزات عيسى جميعها.

فمعجزة المائدة ليست من جنس سائر المعجزات التي يعترف بها القرآن، ويعدّدها. إنّها ، بحسب ما ينفرد بالقول فيها، «عيد»، و«طمأنينة»، و«طعام» «للأوّلين والآخرين» ومدى الدهر. ومَن ينكرها، أو يكون غير أهل لها، يعدّ اللّه له عذاباتٍ لم يعدّها لأحدٍ من العالمين.

وبالرغم من كلّ هذا، فما أبعد أن تكون معجزة المائدة القرآنيّة كالإفخارستيّا في المسيحيّة : فإنّ مائدة القرآن تبقى معجزة تمّت على يد عيسى، وهي ليست هو؛ فيما الإفخارستيّا هي المسيح نفسه حاضراً فاعلاً حيًا في العالم.

والعجيب أيضاً في المسلمين اليوم أنّهم لا يقيمون لهذه المعجزة المذهلة أيَّ ذكرى، كما يُقيمون الذكرى لتضحية إبراهيم، وللإسراء والمعراج، ولمولد محمّد، ولبعض غزواته وفتوحاته!! وكان الأحرى بهم أن يبحثوا عن سعادتهم وطمأنينة قلوبهم في هذه «المائدة» التي أُعطِيَتْ، بحسب القرآن نفسه، للأوّلِين والآخِرين.

١٢

مريم العذراء

أولاً – إيمان الكنيسة بمريم

تعلّم الكنيسة في شأن مريم العذراء بأنّها حُبِلَ بها بلا دنس، بخلاف ما عليه حال البشر عامّة، وبأنّ ملاكاً بشّرها بولادة يسوع منها من غير رجل، وبأنّها بقيت بتولاً عذراء بعد الولادة كما قبلها، وبأنّها، بسبب ولادتها ابنَ اللّه، هي أمّ اللّه، وبأنّها شاركت ابنَها في فداء البشر، وأنّ شفاعتها عنده لا تُرَدّ... وما إلى ذلك من تعاليم الكنيسة، أوجزَها «التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة»، كما يلي :

١ . **إختيار مريم** : إنّ لأمّ الفادي موقعاً محدَّداً في مخطّط الخلاص، لأنّه، «عندما بلغ ملء الزمن، أرسل اللّه ابنه، مولوداً من امرأة» (غل ٤ / ٤). بهذا، هيّأ له جسداً (رَ: عب ١٠ / ٥) بمساهمةٍ حرّةٍ مِن إحدى خلائقه. ولهذا، فمنذ الأزل، اختار اللّهُ أمًا لابنه، إحدى بنات إسرائيل، فتاةً من ناصرةِ الجليل، «عذراءَ مخطوبةً لرجلٍ اسمه يوسف، من بيت داود، واسم العذراء مريم» (لو ١ /٢٦–٢٧). هكذا شاءَ اللّهُ أن

يسبق تجسّدَ ابنِه قبولٌ حرٌّ مِن قِبَلِ مريم المختارة، بحيث إنّه كما أسهمت امرأةٌ في عمل الموت تُسهم كذلك امرأةٌ في عمل الحياة[1].

٢ . **الحبل بلا دنس** :لكي تكون مريم أمَّ المخلِّص «نفحَها اللّهُ من المواهب بما يتناسبُ ومثّلَ هذه المهمّة العظيمة».. و على مرّ العصور وَعَتِ الكنيسةُ أنّ مريم، «التي غمرتها نعمة اللّه» (رَ: لو ١/٢٨)، قد افتُديتْ منذ حُبِل بها. هذا ما تعترف به عقيدة الحبل بلا دنس، التي أعلنها البابا بيوس التاسع، سنة ١٨٥٤»[2].

٣ . **طاعة مريم** : «... بإذعانِها لكلام اللّه أصبحتْ مريمُ أمًّا ليسوع. وإذ اعتنقت بكلِّ رضى، وبمعزلٍ عن كلِّ عائقِ إثمٍ، الإرادةَ الإلهيّة الخلاصيّة، بذلتْ ذاتَها كلِّيًا لشخص ابنها وعمله، لتخدم سرَّ الفداء، بنعمة اللّه، في رعاية هذا الابن ومعه. قال القديس إيريناوس: «لقد صارت مريّم بطاعتها علّةَ خلاص، لها هي نفسها وللجنس البشريّ كلّه». ويقول كثيرون من الآباء الأقدمين: «إنّ العقدة التي نجمتْ عن معصية حوّاء قد انحلّتْ بطاعة مريم. وما عقدتْه حوّاءُ العذراءُ بعدم إيمانها، حلّتْه العذراءُ مريمُ بإيمانها»[3]. وبمقارنتهم مريمَ بحوّاء، يدعون مريم «أمّ الأحياء»، وكثيراً ما يعلنون: «بحواء كان الموت، وبمريم كانت الحياة»[4].

---

(١) رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني العامّة، **أمّ الفادي**، في ١٩٨٧/٣/٢٥؛ مقدّمة، عدد ١؛ رَاجع أيضاً: التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٨٨.

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٤٩٠-٤٩١.

(٣) القديس إيريناوس، الردّ على الهراطقة ٣، ٢٢، ٤.

(٤) رَاجع دستور عقائدي في الكنيسة، رقم ٥٦؛ التعليم المسيحي، عدد ٤٩٤.

٤ . **أمومة مريم** : مريمُ التي دُعيتْ في الإنجيل «أمّ يسوع»[٥]، نُوديَ بها، بدافع من الروح القدس، ومن قبلِ أن تلدَ ابنَها «أمَّ ربّي» (لو ١/ ٤٣). فهذا الذي حبلتْ به إنساناً بالروح القدس، والذي صار حقًّا ابنَها في الجسد، ليس سوى ابن الآب الأزليّ، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس. والكنيسة تعترف بأنّ مريم هي حقًّا والدة الإله Théotokos Θεοτοκοσ[٦].

٥ . **بتوليّة مريم** : ألروايات الإنجيليّة[٧] ترى في حَبَل العذراء عملاً إلهيًّا يفوق كلَّ إدراكٍ إنسانيٍّ وكلَّ قدرةٍ بشريّة[٨]: «الذي حُبِل به فيها إنّما هو من الروح القدس»، هكذا قال الملاكُ ليوسف في شأن مريم خطيبته (متى ١/ ٢٠). والكنيسة ترى في ذلك إنجازَ الوعد الإلهيّ الذي نطق به النبيُّ أشعيا قائلاً: «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابناً» (أش ٧/ ١٤)، على ما جاء في الترجمة اليونانيّة لـ (متى ١/ ٢٣). والقديس اغناطيوس الأنطاكيّ يُعرب عن هذه العلاقة بين أسرار اللّه في عمله الخلاصي، ويقول: «لقد جهلَ سلطانُ هذا العالم بتوليّةَ مريم وولادتَها، كما جهل موتَ الربّ. ثلاثة أسرارٍ باهرة تمّت في صمت اللّه»[٩].

---

(٥) رَاجع : يو ٢/ ١؛ ١٩/ ٢٥؛ رَ: متى ١٣/ ٥٥.

(٦) رَ : مجمع أفسس، رسالة كيرلّس الإسكندري الثانية إلى نسطوريوس: د ٢٥١؛ رَاجع : التعليم المسيحي، عدد ٥٩٥.

(٧) رَاجع : متى ١/١٨-٢٥؛ لو ١/٢٦-٣٨.

(٨) رَ: القديس يوستينوس، حوار مع تريفون اليهودي ٦٦-٦٧؛ أوريجانوس، ضدّ سلسيوس ١، ٣٢، ٦٩.

(٩) القدّيس اغناطيوس الإنطاكي، (أوائل القرن الثاني)، رسالة إلى الأفسسيّين ١٩/ ١؛ رَ: ١ قور ٢/ ٨؛ ألتعليم المسيحي، عدد ٤٩٧-٤٩٨.

٦ . **مـريم دائمة البـتوليّـة** Aειπαρθενοσ Aïparthénos : جاء في تعليم المجمع: إنّ ميلاد المسيح «لم يُنقصْ بتوليّةَ أمّه، ولكنّه كرّس كمال تلك البتوليّة»[١٠]. وبالرّغم من ذلك، يُعترَض على هذا أحياناً بأنّ الكتاب المقدّس يذكـر إخوةً وأخواتٍ ليـسوع[١١]. والكنيسـة رأتْ دائماً أنّ هذه المقاطع لا تشـير إلى أنّ للعـذراء مريمَ أولاداً آخرين: وهكـذا فيعـقوب ويوسى، «إخوة يسـوع» (متى ١٣/ ٥٥) هم أبناء امـرأةٍ اسمهـا مريم كانت تلميذةً للمسيح (رَ: متى ٢٧/ ٥٦)، أشير إليها بطريقةٍ مُعبِّرة على أنّها «مـريم الأخرى» (متى ٢٨/ ١). فـالكلام كان على أقرباء ليـسوعَ أدْنَين، على طريقةٍ تعبيريّة معهودة في العهد القديم[١٢]؛ فيسوعُ هو ابن مريم الوحيد.

ولكنّ أمومة مـريمَ الرّوحيّة[١٣] تشمل جميعَ الـبشر الذين جاء يسـوعُ يخلّصـهم: «وَلَدت ابنَهـا الذي جـعله اللّه "بكراً مـا بين إخـوةٍ كثيرين" (رو ٨/ ٢٩)، أي مؤمنين تُسهم محبّتُها الأموميّة في ولادتهم وفي تنشئتهم»[١٤].

٧ . **أمومة مريم البتوليّة في تصميم اللّه** : ألأسباب الخفيّة التي لأجلها أراد اللّه أن يولد ابنُه من بتـول تتعلّق بتقبّل مـريم لهذه الرسالة من أجل جميع البشـر. لهذا، فإنّ بتوليّة مريم تُظهـر مبادرة اللّه المطلقة

---

(١٠) دستور عقائدي في الكنيسة، رقم ٥٧؛ رَاجع : التعليم المسيحي، عدد ٤٩٩..

(١١) رَ: مر ٣/ ٣١-٣٥؛ ٦/ ٣؛ ١ قور ٩/ ٥؛ غل ١/ ١٩.

(١٢) رَ: تك ١٣/ ٨؛ ١٤/ ١٦؛ ٢٩/ ١٥؛ إلخ.؛ رَاجع : التعليم المسيحي، عدد ٥٠٠.

(١٣) رَ: يو ١٩/ ٢٦-٢٧؛ رؤ ١٢/ ١٧.

(١٤) دستور عقائدي في الكنيسة، رقم ٦٣؛ رَاجع التعليم المسيحي، عدد ٥٠١.

في التجسّد: فـأبو يسوع الوحيد هو اللّه[١٥]. «والطبيعـة البشريّة التي اتّخذها لم تُبعده قطّ عن الآب.. فهو طبيـعيًا ابنُ الآب بلاهوته، وطبيعيًا ابنُ والدته بناسوته، وهو خصوصاً ابنُ اللّه في طبيعتَيه»[١٦].

يسوع، آدم الجـديد، يفتتح، بالحبَل البـتوليّ به، الولادة الجـديدة لأبناء اللّه بالتـبنّي في الروح القـدس بالإيمان. «كـيف يكون ذلك؟» (لو ١/ ٣٤؛ رَ: يو ٣/ ٩). الاشــتراك في الحـياة الإلهيّـة لا يأتي «من دمٍ، ولا من مشـيئةِ جسـدٍ، ولا من مشيـئة رجلٍ، بل من اللّه» (يو ١/ ١٣). فتقـبُّلُ هذه الحياة بتـوليٌّ، لأنّ الحياةَ بكاملها عطيّـةٌ للإنسان من الروح القدس.. مريمُ بتولٌ لأنّ بتوليّتَها علامةُ إيمانِها.. وإيمانها هو الذي يخوّلها أن تصير أمًّا للمخلِّص[١٧].

ثانياً – مريم تلك «المُنْعَمُ علَيها»

١. نشعـر، في عمقِ أعماقنا، وبسـبب حاجة ملحّـة جدًّا عندنا، بأن يكون لنا، مع مريم العذراء، الأمِّ الحنون، علاقةٌ حـميمةٌ، في حياتنا الآن، وعند ساعة موتنا؛ إذ لولا مـا لمريم من دورٍ في حياتِنا، لامتنع عنّا الخلاص، ولخـسرنا الحياةَ والسـعادة. كان يمكن للّـه أن يختارَ غـيرَ مريم. ولكنّه اختار مريم. وكان يمكن أن يـكون لنا حاجةٌ إلى غير مريم. ولكنّنا الآن نحن نحتاج إلى مريم.

---

(١٥) رَ: لو ٢/٤٨–٤٩.

(١٦) مـجـمع فـريول، (سنة ٧٩٦ أو ٧٩٧)، قـانون الإيمان: د ٦١٩؛ رَاجع : الـتـعليم المسيحي، عدد ٥٠٢–٥٠٣.

(١٧) التعليم المسيحي، عدد ٥٠٤–٥٠٧.

٢ . تلك «المُنعَم عليهـا» من عند الربّ، لن يُنعم علينا الربّ شيـئاً من دونها. تلك التي حمـلت إلينا المخلّص، لن نخلص من دونها. تلك التي آمنتْ وأطاعتْ، جلبتْ علينا نحن الـعاصين بركات اللّه. تلـك التي وقفتْ عند الصليب تشـارك ابنَها الآلام والعذابات، هي هـي التي عوّضتْ عن تلك التي ضيّعتْ علينا النّعمة والسعادة عند أشجار الفردوس.

٣ . «ألمنعم عليها» هذا هو اسمـها، ولَقبها، وصفتهـا، ووضعها، ومكانتها، وفخرها، ودورها، وعـلاقتنا بها. هكذا دعاها الرّسول الإلهي عندما بشّـرها قائلاً: «سـلامٌ، يا منعَماً عليـكِ. ألربُّ معكِ» (لو ١/٢٨). وهكذا تصلّي لها الكنيسة صلاتها الـيوميّة المتّصلة المتداولة على ألسنة البشر، منذ بشارتها بميلاد ابنِها حتّى آخر العالم. لقد أنعم الربّ عليها فخصّها بمكانةٍ فريدة عنده. ولها عنده امتياز لم ينلْه أحد سواها :

أنعم عليها فأصبحتْ «أمّ اللّه»، بريئـة من كلّ خطيئة، معصومة من أيّة شائبـة، مشاركـة الربّ بالخلاص، وضـيعة، «أمَـة الربّ» حتّى «التلاشـي»، لتَـستحقّ من أجل تلاشـيها، الذي يشبـه تلاشي ابنها، أن يكون مصيرُها مصير ابنها، وتنعم معه في المجد بطريقة مميّزة.

أنعم اللّهُ عليـها فـبدّلتْ، مع ابـنها، المواقـيت والمواعيـد. فكانت، بسبب مكانتهـا عنده ودالّتِها على قلبه، تطلب منه ما تشـاء. وكان عليه أن يكرّمها ويحبّها ويصنع لهـا ما تشاء. أكان ذلك في «ساعته»، أو في غير سـاعته[١٨].. وحدَها استطاعتْ أن تتلاعـبَ بعقارب الزمن. وحدَها قدرتْ أن تجعل الزمن في ملئه من الفـرح والسعادة. وحدَها أمرتِ اللّه.

---

(١٨) يوحنّا ٢/٤ عرس قانا الجليل.

وحدها دشّنتْ عمليّة الخـلاص. وحدَها أنسنتِ اللّهَ. وحدَها أعطتْه وهو عاطي الكلّ..

٤ . من دون مريم، لما كـان لهذا الزمن امتلاء. بينهـا وبين دقّات قلب هذا العالم صلة حـميمة. لن يمتلئ قلبُ العـالم لو لم تكن مريم في بداية امتلائه. مـريم، بعد أن أطاعتْ حرّةً، أمستْ هي العـقد الذي يربط أوصال الزمان، بين مـاضيه وحاضره ومسـتقبله، من الأزل إلى الأبد. إنّها هي «ملء الزمن».

لولا هذا الدور الذي وهبه اللّه لمريم لتأخّر علينا الخلاص : «ملء الزمن» هذا يشيـر إلى الحقبة الـتي حدّدها الآب، منذ الأزل، لكي يرسل ابنه. ويشير إلى هذه الآونة السعيدة التي فـيها صار اللّه جسداً وسكن بيننا. ويبـرز البرهة التي كوّن الروح في أحـشاء مريم طـبيعـة المسيح البشـريّة. ويشير إلى المرحلة التي فـيها تناول الخلاصُ الزمنَ نفـسَه، فأضحي زمن خلاص. ويشـير أخيراً إلى انطلاقة مسـيرة الكنيسة في خطاها الأولى الخفيّة.

٥ . مريم هي العلامـة التي نصوّب مسيرتـنا نحوها. هي المثال الذي نضعه أمامنا ونسعى إليـه. هي القدوة التي بها نقتدي. هي المنارة التي بها نهتدي. هي الجوهرةالتي تحوي كنوز الكون.

٦ . مـريم تعلو على كلٍّ صراع أو عـداوة حدثتْ أو تحـدث في العالم. إنّهـا خارج الصراع الدائر بين الخـير والشرّ. إنّهـا بريئة من كلّ مهـاوي التاريـخ ومطبّات البـشر. إنّهـا فوق الحـروب والانقسـامات والتحـزّبات والخصـومات والنزاعـات والتشـتّت والتغـرّب. هي للكلّ ولخلاص الكلّ. هي وسيطة الجمـيع لدى اللّه. لا ترذل أحداً. لكلّ واحدٍ

في حساباتها حساب. إنّها كذلك لأنّها عُصمتْ من خطيئة الجنس البشري. هي كذلك لأنّها استوعبتِ اللّهَ، وحملتْه، وسارتْ معه على دروب الآلام صوب الفداء.

٧ . مريم كانت لغير هذا العالم. لا يشغلها ما في هذا العالم من نسبيّات أو صغائر؛ لأنّ ربّ الكون كلّه كان يستحوذ على كيانها. وكما تمّ سرّ الخلاص في الكنيسة، هكذا هو يتمّ في مريم. إنّها الكنيسة. وكما تمّ «ملء الزمن» في مريم، هكذا هو يتمّ الآن في الكنيسة. كلا مريم والكنيسة تجسّدٌ للربّ، وامتداد لسرّ الخلاص. وفيهما تجلّى الربُّ حاضراً فعّالاً.

٨ . وهل لنا أن نطلب من الربّ حظًّا أعظم من الحظ الذي نلناه بواسطة مريم! حظٌّ نلناه في ساعة الحسم، في اللّحظة الأخيرة من تمام سرّ الخلاص. عندها أعلن الربّ لنا باسم يوحنّا: هذه أمّكم.

٩ . مريم هي إرثنا الإلهي. ولسنا نحتاج من اللّه أكثر من هذا الإرث العظيم. ومع هذا الإرث العظيم أصبحنا نحن «المنعَم علينا» بسببها.

ثالثاً – إعتراضات على بتوليّة مريم

يؤكّد آباء الكنيسة ولادةَ يسوع من عذراء ليثبتوا أنّ يسوع، كآدم، مولودٌ من دون زرْع بشريّ، أي: أعاد اللّهُ به خلْقَ البشريّة من جديد؛ وهو، بذلك، رمز لولادتنا الجديدة في المعموديّة من «الروح»، أي لا «من دم، ولا من مشيئة لحم، ولا من مشيئة إنسان، بل من اللّه» (يو ١/١٣).

إلاّ أنّ اعتراضات عدّة جابهت بتوليّة مريم، وولادةَ المسيح من بتول عذراء؛ استند أصحابها إلى ما يلي:

١ . إنّ الكرازة الرسوليّة الأولى لم تقم على ولادة يسوع وطفولته وما يتعلّق بهما، بل على «أنّ المسيحَ مات من أجل خطايانا، بحسب الكتب، وأنَّه قُبِرَ، وأنَّه أُقيمَ في اليوم الثالث، بحسبِ الكتب، وأنَّه ظَهر لكيفا، ثمّ للاثنَي عشر» (١ قور ١٥/٣-٥). فولادة المسيح من بتول، إذاً، كانت غائبة عن الكرازة الأولى.

٢ . إنّ يسوع، في تجسّده، أخذَ بشريَّتَنا كلّها؛ ولذلك شدّد مجمع خلقيدونيا (سنة ٤٥١) على أنّ المسيح هو «إنسان حقًّا»، يعني أنّه ولد، كسائر الناس، من علاقة طبيعيّة عاديّة. وهذه العلاقة تقضي بألاّ يُهتمّ كثيراً ببتوليّة مريم.

٣ . ثمّ إنّ هناك نظرةً جديدة إلى مفهوم العلاقة الجنسيّة اليوم. وما التشديد، قديماً، على ولادة يسوع من غير علاقة جنسيّة إلاّ من قبيل ازدراء كلّ ما له صلة بالجنس. لهذا، فإنّنا نفهم بتوليّةَ مريم حقيقةً روحيّة، تتلاءم تلاؤماً تامّاً مع الحياة الجنسيّة الكاملة.

رابعاً - ردود على هذه الاعتراضات

١ . نقول: إنّ ولادة يسوع من دون أبٍ بشريّ ليستْ ازدراءً للعلاقة الجنسيّة، ولا احتقاراً للوضع البشريّ المادّي. بل العكس تماماً؛ فالكنيسة لم تدعُ يوماً إلى احتقار «الجسد»، فاللّهُ نفسُه، بحسب تعاليمها، اتّخذ له جسداً من طبيعتنا. وتؤمن بأنّ جسدنا الترابيّ عينه سوف يدخل في المجد.

٢ . ونقول أيضاً : «في بدء حياة يسوع، كما في نهايتها، ثمّة إشارات إلى وضعه البشري: وُلد من امرأة مثلَنا؛ ومات حقًّا، ودُفن في قبر. وثمّة إشارات أيضاً إلى أصله ومصيره الإلهيَّين: لم يولد من أبٍ بشريّ، لأنّ له أباً سماويًّا؛ لم يعرف الفساد، لأنّه أصبح جسداً روحانيًّا حيًّا في اللّه. وكما لم يضعه أحد في أحشاء مريم، كذلك ليس أحدٌ أخرجه من القبر»[١٩]. إنّها آية واحدة في أن يكون حشا بتولٍ فارغاً ثمّ يمتلئ، وقبرٌ ملآنَ ثمّ يفرغ»[٢٠].

٣ . ونقول أخيراً: إنْ أحللنا سرّ الحبل البتولي محلَّه في السرّ المسيحي عامّة، فلن تعود تذهلنا غرابتُه أبداً : إنّ اللّهَ يستخدم العلاقات الجنسيّة بين رجل وامرأة ليخلق كائناً بشريًّا جديداً. إنّه لَتعاون مذهل بين الحبّ الإلهيّ والحبّ الجنسي. إنّه سرّ الخلق بتمامه وكماله. أمّا الحبل بيسوع في النّاصرة في أحشاء مريم فلم يخضع لهذا الناموس، لأنّه لم يكن خلْقَ كائنٍ بشريّ جديد، بل تجسد ابن الآب الأزلي القديم، الذي جاء ليصير واحداً منّا لغاية محدّدة منذ الأزل.

٤ . إلاّ أنّ هذه الهبة المجّانيّة لم تُعطَ لنا من دون مساهمة بشريّة، أو بالحري من دون مساهمة امرأة، هي العذراء مريم، التي كان دورها الأولّ أن تؤمن بهذا السرّ: «طوبى للتي آمنت بما قيل لها من قبل الربّ» (لو ١ / ٤٥). إنّها أولَى طوبَيات الإنجيل. «لو وُلد المسيح من

---

(١٩) B. Sesboüé, *Jésus-Christ dans la Tradition de l'Eglise*, Ed. Desclée, 1982, p. 89

(٢٠) Karl Barth, *Dogmatique: "C'est un même signe qu'un sein vierge trouvé plein et qu'un tombeau plein trouvé vide"*

بشرٍ، لكان واضحاً أنّه يولد من بتول؛ وإلاّ، في حال لم تكن أمّه بتولاً، لكان له أبوان: ألله والإنسان»[٢١].

٥ . ثمّة عهدٌ بين الله والبشريّة لا ينفصم، منذ أنِ اتّخذ ابنُ الله جسدَ بشريّتنا. ويستمرّ ابنُ الله معروفاً بهذا الالتزام معنا التزاماً لا ينفصل. بهذا الالتزام، جعل اللّهُ جسَدَنا مقدَّساً بجسد ابنه. لقد استحققنا، باستحقاقِ يسوع، أن يحصل جسدُنا على مكانةٍ لم يكن باستطاعته أن يحصل عليها من ذات طبيعته.

ثمّ إنّ هذا الالتزام الإلهي لبشريّتنا هو، في الواقع، اتّحاد بين يسوع وطبيعتنا غير منفصل أبداً، حتّى إنّ ابنَ الله اتّحد إلى الأبد بهذه الطبيعة البشريّة؛ وليس هو، من الآن فصاعداً، شيئاً من دونها. وبواسطتها قطع عهداً مع البشريّة كلّها، عهداً لا ينقطع، نحتفل به كلّ مرّة نقوم بتقديس جسد الربّ ودمه.

٦ . عندما بشّرَ الملاكُ مريمَ قالت له: «كيف يكون ذلك، وأنا لا أعرف رجلاً؟» (لو ١ / ٣٤). معنى ذلك واضح: لقد شاءت مريم أن تبقى بتولاً... ومنذ زمن مبكّر جدّاً، أصبحتْ مريم مثال المسيحيّين في البتوليّة، والبتول بامتياز. ومنذ البدء كانت البتوليّةُ مزدهرة في الأوساط المسيحيّة، كما نجد ذلك في رسالة بولس إلى القورنسيّين[٢٢].

ومريم أيضاً مثالٌ لخصبٍ جديد. في التأمّل في سرّها، نجد الله يكافئ الذين تخلّوا عن الأمومة والأبوّة الجسديّة بأضعاف ما تخلّوا

---

(٢١) Tertullien (vers 220), *Ad Marcionem*, 4, 10, 7

(٢٢) رَاجع : ١ قور ٧/٣٧-٣٨.

عنه. بمريم تحقّق صراخ النبيّ أشعيا القائل : «إهتفي أيّتها العاقر التي لم تلدْ، إصرخي فرحاً، أيتّها التي لم تعرف سعادة الولادة، لإنّ بني المهجورة أكثر من بني المتزوّجة. وَسِّعي موضعَ خيمَتِك... طَوِّلي أطنابَكِ وثبِّتي أوتادَكِ، فإنّ نسلَكِ سيملأ كلَّ الجهات، ويعمِّرُ المدنَ الخرِبَة» (أش ٥٤/١-٢).

٧. لم يجعلِ اللّهُ مريمَ تخصُّ أحداً من البشر؛ لأنّه يريد أن يجعلها أمًّا للجميع. لم تكن مريم تخصّ رجلاً واحداً، لذلك فهي تخصّ البشريّة كلها. لئن كانتْ بتوليّة مريم عظيمة فإنّها كذلك لأنّها عاشتْها في حياة عائليّة مع زوج بتول. كلا البتوليّة والزوجيّة في العيلة المقدّسة عطيّة من اللّه.

خاتمة

عندما تمّ ملء الزمن، ولدتْ مريمُ الابنَ من دون أب. وقبل الزمن، ولد الأبُ الابنَ من دون أمّ.

«يسوع هو البكر premier-né : بكر كلّ خليقة (قول ١/١٥)، بكر الراقدين (قو ١/١٨)، بكر إخوة كثيرين (رو ٨/٢٩). والجميع «كنيسة أبكارٍ أُحصِيتْ في السموات أسماؤهم» (عب ١٢/٢٣)... «هم أبكار لأنّهم أبناء العهد الجديد، كما كان إسرائيلُ العهدِ القديم ابنَ اللّهِ البكر (خر ٤/٢٢)، وذلك بفضل تضامنهم ويسوعَ البكر الحيِّ القائم (رو ٨/٢٩، يع ١/١٨)»[٢٣]. فالبكر، إذاً، لا يعني أنّ ليسوع إخوة؛ بل أنّه هو الوحيد الذي استحقَّ ذلك بسبب ابن اللّه الوحيد.

---

(٢٣) إونجليون، تفسير على عب ١٢/٢٣.

« لماذا تبحث هنا، في الإفخارستيّا، عن نظام الطبيعة في تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه؛ فيما يسوع نفسُه وُلد من عذراء، أي خارج نظام الطبيعة المألوف!»[٢٤].

ثمّ أوجز كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة الكلامَ عن مريم في قوله : إنّ «ما تؤمن به العقيدة الكاثوليكيّة بالنسبة إلى مريم يرتكز على ما تؤمن به بالنسبة إلى المسيح، ولكنّ ما تعلّمه في ما يتعلّق بمريم ينير بدوره إيمانَها بالمسيح»[٢٥].

هذه هي مريم في «إيماني»، وإيمان الكنيسة وتعاليمها. إنّها مثالٌ رفيعٌ جدًّا لواحدة من الترابيّين. استحقّتْ بما أهلّها اللّهُ إليه من نِعم؛ وهي خضعتْ واستجابتْ لمشيئة اللّه. فكان بها الباب إلى الخلاص والفداء. وهي بحقّ، كما كتب الحبر الأعظم رسالة عامّة بعنوان «أمّ الفادي».

وبقي أن نبيّن نظرة القرآن إلى مريم. إنّها نظرة ممزوجة بين تعليم الكنيسة الرسمي وتعاليم الكتب المنحولة والأساطير. ويكفي أن نستعرض ذلك لتكون لنا فكرة واضحة عن مريم القرآن والإسلام. وهي فكرة تتراوح بين التقدير والتعظيم وبين الإجحاف التام بحقّها، فكرة تلامس الواقع كما تلامس الخيال. فلننظر :

***

---

(٢٤) Saint Ambroise, *Des mystères*, Coll. Sources chrétiennes, n° 25 bis, Ed. du Cerf, 1961, p. 189

(٢٥) التعليم المسيحي، عدد ٤٨٧.

مريم في القرآن

مريم، بحسب ما جاء عنها في القرآن، هي نذير الربّ قبل أن تولد. إنّها قدّيسة، طاهرة، معصومة، منذ كانت في حشا أمّها. وهي تشبه، في ما كرّمها به، ما جاء فيها في الأناجيل القانونيّة والمنحولة. وما قيل عنها في القرآن ما يلي:

(١) سورة آل عمران (٣/ ٣٥-٣٧ و ٤٢-٤٧) :

٣٥. إذْ قالت امرَأةُ عِمْرَانَ: رَبِّ! إنّي نَذَرتُ لكَ مَا في بَطنِي، مُحَرَّراً. فَتَقَبَّلْ مِنِّي. إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ.

٣٦. فَلَمَّا وَضَعَتْها، قالتْ: رَبِّ! إنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى. -واللَّهُ أعلمُ بما وَضَعَتْ. وليسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى-. وإنّي سَمَّيتُها مَريمَ. وإنّي أُعِيذُها بِكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

٣٧. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّها بقَبولٍ حَسَنٍ. وأنْبَتَها نَباتاً حَسَناً. وكَفَّلَها زَكَريّا. كُلَّما دَخَلَ عَلَيهَا زَكَريّا المِحْرَابَ، وَجَدَ عندَها رِزْقاً. قالَ: يا مَرْيَمُ! أنَّى لكِ هـذا؟! قالتْ: هوَ مِنْ عندِ اللَّهِ. إنّ اللَّهَ يَرزقُ مَن يَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ.

(يكمّل القرآن دعاء زكريّا وطلبَه من الله غلاماً (٣/ ٣٨-٤١) :

٣٨. هنالكَ دَعَا زكريّا ربَّه. قال: ربِّ! هبْ لي من لدُنكَ ذُرِّيَّةً طيِّبَةً. إنّك سميعُ الدُّعاء.

٣٩. فنادتْه الملائكةُ، وهوَ قائمٌ يُصلّي في المحراب: أنّ اللّهَ يُبشِّرُكَ بيحيَى مُصدِّقاً بكلمةٍ من اللّه وسيِّداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحِين.

٤٠. قال: ربِّ! أنَّى يكون لي غلامٌ، وقد بلغني الكِبَرُ وامْرأتي عاقرٌ؟! قال: كذلك اللّهُ يَفعل ما يشاء.

٤١. قال: ربِّ! اجعل لي آيةً. قال: آيتُكَ ألاّ تكلِّمَ النّاسَ ثلاثةَ أيّامٍ إلاّ رَمْزاً. واذكُرْ ربَّكَ كثيراً بالعشيِّ والإبكارِ.

(ثمّ يعود إلى مريم (٣/٤٢-٤٧) :

٤٢. وإذْ قالتِ الملائكةُ: يا مَريمُ! إنّ اللّهَ اصْطَفَاكِ. وطهَّرَكِ. وَاصْطَفَاكِ عَلى نِسَاء العالَمِين.

٤٣. يا مريمُ! اقْنُتِي لِرَبِّكِ. وَاسْجُدي. وَارْكَعي مَع الرَّاكِعين.

٤٤. ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليكَ (يا محمّد). وما كنتَ لديهم (أي شيوخ إسرائيل) إذ يُلقونَ أقلامَهم أيُّهُمْ يكفُلُ مَريمَ. ومَا كُنتَ لديهمْ إذ يَختَصِمونَ.

٤٥. إذْ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ! إنّ اللّهَ يبشّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ، وَجِيهاً في الدّنيا والآخرة. ومن المقرَّبين.

٤٦. ويكلّمُ الناسَ في المهدِ، وكَهْلاً، ومن الصَّالحِين.

٤٧. قالتْ: ربِّ! أنَّى يكونُ لي ولَدٌ! ولمْ يَمْسَسْني بشَرٌ!؟

قال: كذلك اللّهُ يَخلُقُ ما يشاءُ. إذا قضى أمراً، فإنّما يقولُ له كُنْ فيكونُ.

(٢) سورة النساء (٤/١٥٦) :

١٥٦. وبِكُفْرِهِمْ وقَولِهِمْ على مَريمَ بُهتاناً عظيماً.

(٣) سورة المائدة (٥/١٧ و٧٥ و١١٠ و١١٦-١١٧) :

١٧. لقد كَفرَ الّذينَ قالوا إنّ اللّهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريمَ. قلْ: فمَن يَملِكُ من اللّهِ شيئاً، إنْ أرادَ (اللّهُ) أن يُهلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وأمَّه ومَن في الأرض جميعاً.

٧٥. مَا المسيحُ ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وأُمُّهُ صِدّيقَةٌ، كانا يأكلانِ الطَّعامَ.

١١٠. إذ قالَ اللّهُ: يا عيسى ابنَ مريمَ! اذكُرْ نعْمتي عليكَ وعلى والدتِكَ، إذ أيَّدْتُكَ بروحِ القُدُسِ. تُكَلِّمُ الناسَ في المَهدِ، وكهلاً.

١١٦. وإذ قالَ اللّهُ: يا عيسى ابنَ مريمَ! أأنْتَ قلتَ للناسِ اتَّخِذوني وأُمِّيَ إلَهَين مِن دونِ اللّهِ؟!

قال: سُبحانَكَ! ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحقٍّ. إنْ كُنتُ قُلْتُهُ فقد عَلِمتَهُ. تَعْلَمُ ما في نفْسي. ولا أعلمُ ما في نفسِكَ. إنّكَ أنتَ عَلاَّمُ الغُيوبِ.

١١٧. ما قُلتُ لهم إلاّ ما أمَرتَني به: أنِ اعْبُدوا اللّهَ ربِّي وربَّكم.

(٤) سورة مريم (١٩/١٦-٣٦):

١٦. وَاذكُرْ في الكتابِ مريمَ إذِ انتَبَذَتْ من أهلِها مَكاناً شَرقيّا.

١٧. فاتَّخذَتْ من دونهمْ حِجاباً. فأرسَلْنا إليها رُوحَنا. فتَمثَّلَ لها بشَراً سويّا.

١٨. قالتْ: إنِّي أعوذُ بالرَّحمنِ منكَ إنْ كنتَ تَقيّا.

١٩. قالَ: إنّما أنا رَسولُ ربِّكِ لأهَبَ لكِ غلاماً زكيّا.

٢٠. قالتْ: أنَّى يكونُ لي غلامٌ، ولم يَمسَسْني بَشَرٌ. ولم أكُ بغيّا.

٢١. قالَ: كذلكَ قالَ ربُّكِ. هو علَيَّ هَيِّنٌ. ولِنَجعلَه آيةً للناس، ورحمةً منّا. وكانَ أمراً مقضيّا.

٢٢. فَحملَتْهُ فانتَبَذَتْ بهِ مكاناً قَصيّا.

٢٣. فَاجَـاءَها المَخَاضُ إلى جِـذعِ النَّخلةِ. قالتْ: يا لَيـتَني مِتُّ قَبلَ هذا. وكنتُ نَسْـياً مَنسِيّا.

٢٤. فَنَاداها مِنْ تَحتِها: ألاّ تَحزَني. قد جعلَ ربُّكِ تَحتَكِ سَرِيّا.

٢٥. وَهُزِّي إليكِ بجِذعِ النَّخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنيّا.

٢٦. فَكُلي وَاشـرَبي وَقَرِّي عَـيناً. فَإمَّا تَـرَيِنَّ مِنَ البشَـرِ أحداً، فَقـولي: إنِّي نَذَرتُ للرَّحمَنِ صَوماً. فلن أُكلِّمَ اليومَ إنْسيّا.

٢٧. فَأتتْ به قَومَها تَحمِلُه. قالوا: يا مَريمُ! لقد جِئتِ شيئاً فريّا.

٢٨. يا أُختَ هارونَ! ما كان أبوكِ امْرَأ سَوْءٍ. وَمَا كانتْ أمُّكِ بَغيّا.

٢٩. فَأشارتْ إليهِ. قالوا: كيفَ نُكَلِّمُ مَن كانَ في المهدِ صبيّا؟!.

٣٠. قَال: إنِّي عبدُ اللّهِ آتاني الكتابَ، وَجعلَني نبيًا.

٣١. وَجَعَلَني مُبارَكاً أينَ ما كنتُ. وَأوصَاني بالصلوة وَالزَّكوة ما دُمتُ حيًا.

٣٢. وَبَرّاً بوَالِدَتي. ولم يَجعلْني جبَّاراً شقيًا.

٣٣. وَالسلامُ عليَّ يومَ وُلِدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أُبعَثُ حيًا.

٣٤. ذلك عيسَى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الّذي فيه يمترونَ.

٣٥. مَا كان للّهِ أنْ يتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ. سبْحانَه! إذا قَضى أمْراً فَإنّما يَقولُ له كُنْ فَيَكونُ.

٣٦. وَإنَّ اللّهَ ربِّي وربُّكمْ فَاعبُدُوهُ. هذا صِراطٌ مُستقيمٌ.

(٥) سورة الأنبياء (٢١/٩١) :

٩١. وَالتي أحصَنَتْ فَرْجَها، فنَفَخْنا فيها مِن رُوحِنا، وَجعلْناها وَابنَها آيةً للعالِمَين.

(٦) سورة المؤمنون (٢٣/٥٠) :

٥٠. وَجعلْنا ابنَ مَريمَ وَأمَّه آيةً، وَآوَيناهُما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ ومَعين.

(٧) سورة التحريم ٦٦/١٢) :

١٢. وَمريمَ ابنةَ عِمرانَ التي أحْصَنَتْ فَرْجَها، فنَفَخْنا فيه مِن رُوحِنا، وَصَدَّقَتْ بكلماتِ ربِّها وَكُتُبِه. وَكانتْ مِنَ القانِتين.

***

هذا كلُّ ما في القرآن عن مريم. مصادره نصرانيّة. وصورتها فيه صورة امرأةٍ قدّيسة جميلة محبَّبة. لها ما تستحقّ من تكريم وتبجيل. إنّها المرأة الوحيدة التي ذكرها القرآنُ باسمها (٣٤ مرّة)، وقال عنها بأنّ اللّه اختارها وميّزها وطهّرها وأعلاها فوق نساء العالمين... لكأنّه سبق وأعلن "عصمتها" من الخطيئة، وأعلن الحَبَل بها

من غير دنس. وللنّبي في قداستها حديث شهير، حيث يقول: «ما مِن مولودٍ يولَد إلاَّ والشّيطانُ يمَسُّه حين يولَد، فيستهلُّ صارخًا مِن مسِّه إلاَّ مريمُ وابنُها»[٢٦].

ينسب القرآن مريم إلى سلالة هارون. وهي من ذرّيّته، اصطفاها اللّه، كما اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران، وهي آية للعالمين (٣/ ٣٣). حبلتْ بها أمُّها، بعد أن نذرتْها للّه، فقَبِل اللّه نذرَها (٣/ ٣٥). ولمّا ولدتْها سمّتْها مريم، فتقبّلها اللّه بقَبولٍ حسن وأنبتها نباتًا حسنًا (٣/ ٣٦-٣٧).

ولمّا كبرت مريم دخلت الهيكل، واتّخذتْ لها فيه مكانًا صوبَ الشرق، بعيدًا عن الأنظار، وتكفّلها زكريّا، رئيسُ الكهنة آنذاك. ورزقها اللّهُ مِن عنده رزقًا عجائبيًا هو من ثمار الجنّة. واستمرّتْ مريمُ في خلوتها في الصوم والسجود والركوع (٣/ ٤٣)، إلى أن حان وقتُ زواجها (رَ: ١٩/ ١٦-١٧؛ ٣/ ٣٧ و ٤٤).

وفيما هي غارقة في العبادة والصلاة، جاءها «روح القدس»[٢٧]، وتمثّل لها رجلاً (١٩/ ١٧)، فارتعبتْ منه واستعاذتْ باللّه (١٩/ ١٩)، فطمأنها وبشّرها بولد يولد منها، من دون زرع بشر[٢٨]. هي وولدُها يكونان آيةً للعالمين. هو كلمة اللّه، وروح منه، ورحمة، ووجيه في الدنيا وفي الآخرة، من المقرّبين الصالحين (رَ: ١٩/ ٢١؛ ٣/ ٤٥-٤٦).

---

(٢٦) أنظر تفسير البيضاوي على سورة آل عمران ٣/ ٣٦.

(٢٧) يقول المفسّرون المسلمون بأنّه جبريل؛ غير أنّ الحقيقة، كما يشير الإنجيل، هو «روح القدس». راجع مقالنا في روح القدس في الإسلام، في مكان ما من هذا البحث.

(٢٨) سورة مريم ١٩/ ٢٠؛ سورة آل عمران ٣/ ٤٧.

ولمّا حان وقتُ المخاض، انتبذتْ مكانًا بعيداً في البريّة (١٩/٢٢)، عند جذع نخلةٍ يابسة. جلستْ تحتَـها تنتظر مولودَها، وتندب حظَّها، لما سوف تتعـرَّض له من تهم ولوم، وربّما الرّجم بحسب شريعـة اليهود. وتمنّت لو انَّها تموت قبل أن يحـصل لها ذلك (١٩/٢٣). ولكنّها وَلدتْ وتصـبّرتْ وجـاءتْ أهلَها. فلمّـا رأوها قابلوها بالعـتاب وسـوء الظنّ: فقالوا لها: «يا مريم! لقد جئتِ شـيئًا فريًا. يا أختَ هارون! ما كان أبوك امْرأ سوء، وما كانتْ أمُّكِ بغيًا» (١٩/٢٧-٢٨).

ولم يبقَ عند مـريم حيلةٌ سوى الإشـارةِ إلى طفلها ليـرفعَ عنها التُّهم؛ وإلاّ جَـرَتْ عليها أحكام شـريعة موسى في الزنى. وللحـال قام الطفلُ يتكلّم ويُعلن نبوَّته وعلاقتَه باللّه، ويُعلن براءَة أمّه. ويلومُ اليهودُ مريمَ متعجِّـبين قائلين: «كيف نكلِّمُ مَن كانَ في المَهدِ صبيًا؟»؛ فـيجيبهم الطفلُ: «إنّي عبدُ اللّه. آتاني الكـتابَ. وجعلَني نبيًا. وجعلَني مـباركًا أين مـا كنتُ. وأوصاني بالصـلاةِ والزَّكـاةِ ما دمتُ حـيًا. وَ (جـعلني) بَرًا بوالِدتي. ولم يجـعلْني جبّـارًا شقـيًا. والسـلامُ عليّ يومَ وُلِدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أُبعَثُ حيًا» (١٩/ ٢٩-٣٣).

***

غير أنّ مريم، بالرّغم من تكريم المسلمين لها، لا يسعهم الإعتراف بهـا على أنّها «أمّ اللّه»، كـما يعـتـقد بذلك المسـيحـيّون؛ وذلك بسـبب اعـتـقادهـم بأنّ المولودَ منهـا هو ابن اللّه. وهذا الاعـتـقـاد ليسَ إيماناً بألوهيّـة مريم، ولا انتـقـاصاً من ألوهيّـة اللّه.. بل هو واقع حـال، لأنّ المسيحَ، في إيمانِهم، هو إنسـانٌ وإلهٌ معاً. وليست مـريمُ أمَّ جزءٍ منه... وإلاّ كان التجسّدُ «مكراً» إلهيًا.

أمّا المسلمون فـيرفضون أن تكون مريم «أمّ اللّه» رفضـاً قاطعاً؛ وذلك لسـبب بسـيط واضـح، وهو: كـيفَ تكونُ امـرأةٌ مـخلوقـةٌ أُمّـا لخالقِهـا؟! وكيف يختلط اللّهُ في بطن مريم بحالات نجـسة ودنسة، مع ما يرافق ذلك، كمـا في ولادة الإنسان الطبيعيّة، من شـهوات، وحالات نجاسةٍ وقذارةٍ وبولٍ وغائطٍ وما أشبه...

نقول لهؤلاء الرّافضين : إنّ الحيـاةَ كلّها، وليس في بدايتها فقط، هي هكذا، إذا شاءوا. وإذا لم يشاؤوا فهي حيـاةٌ تتعاملُ مع اللّهِ وجميع المقدَّسات والمقدَّسين والقدّيسين... بل، مع قـذارتها، قد يُصبحُ الإنسانُ، هذا المولودُ بالنجـاسـة، نبيّـا، أو وليّـا، أو قدّيسـاً، ينزلُ عليـه الوحيُ، ويصلّي عليه اللّهُ والملائكةُ. وقد يقابلُ اللّهَ مراراً، ويرحلُ إليه في إسراء ومعراج، كما هو حال النبيّ محمّد، في رأيهم.

أمّا في شأن تسمية أمِّ مريم «ابنة عِمران» (٣ / ٣٥) فيقول معظم المفسّـرين المسلمين بأنّها نسبـة إلى «عمران بن مـاثان»، الذي كان في عصر واحد مع زكريّا؛ وقد تزوّج زكـريّا بابنته إيشاع (أي أليصابات) أخت مريم. وكان يحيى وعيسى ابنَي خالة.

وفي شأن نسبة مريم إلى «هارون»، في قوله: «يا أختَ هارون» (١٩ / ٢٨) فعلى أقـوال. منها : يا شبيـهةَ هارونَ في العبـادة والتزهّد. وقيل: هارون هو أخـو موسى وكانت من نسله. وقيل: نسـبة إلى رجل صالح كـان في بني إسـرائيل، أيّام مريم، إسـمه هارون. وقيـل أيضاً: نسبـة إلى رجل فاسق مشـهور بالعهر والفـساد فنُسبتْ إليـه في قبح فـعلها. وقـيل: كـان لمريم أخٌ يُسمّى هارون من صـلحاء بني إسـرائيل فعيِّرتْ به. يقول الرازي: «وهذا هو الأقرب». والاختلاف لا يزال قائماً.

١٣

ألكنيسة

ألكنيسة هي الأساس

١ . يعترف المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في «دستور عقائدي في الكنيسة»، وهو أوّل دستور له، بأنّ كتب الأنبياء مهّدتْ للكنيسة منذ العهد القديم[١]. وفي قراره في «الحركة المسكونيّة»، يقول في الكنيسة «إنّ المسيح يوطّدها في العالم حتّى منتهى الدهر»[٢]. ويقول في قراره في «نشاط الكنيسة الإرسالي» : «إنّ الرّبَّ، الّذي أُعطي كلّ سلطانٍ في السماء وفي الأرض (متى ٢٨/١٨)، أسّسَ كنيستَه كسرٍّ للخلاص»[٣]، أي «ألخلاص لكلّ النّاس»، كما يقول في مرسوم وسائل الإعلام الاجتماعيّة[٤].

---

(١) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ٦.

(٢) قرار مجمعي في الحركة المسكونيّة، عدد ٢.

(٣) قرار في نشاط الكنيسة الإرسالي، عدد ٥.

(٤) مرسوم حول وسائل الإعلام الاجتماعيّة، عدد ٣.

٢. هذا، علمًا بأنّ مقالة «الكنيسة»، في البحوث اللاّهوتيّة العقائدية، هي من أهمّ المقالات إطلاقًا، وأساسٌ لها جميعها. تناولها ويتناولها كلُّ باحثٍ لاهوتيٍّ يريد أن يدخل في سرِّ المسيح. فلكأنّ الكنيسة هي «المسيح–الإله–المتجسِّد–الحاضر–الفاعل–المستمرّ–في–العالم». إنّها مسيرة اللّه والإنسان عبرَ التاريخ. وهي المكان الذي فيه يستمرّ سرُّ المسيح المصلوب والقائم من الموت فاعلاً في خلاص العالم أجمع.

٣. فنظرًا إلى أنّ مفهوم الكنيسة هو مبدأ من المبادئ الأساسيّة في علم اللاّهوت؛ ونظرًا إلى أنّ بداية الخلاف وأساسه وذروته فيما بين المسيحيّة والإسلام تمسّ الكنيسة في جوهرها ودورها؛ ونظرًا إلى أنّ الموقف الإسلامي الصارم والجازم من القضايا المسيحيّة كلّها يتركّز، في ما يتركّز، حول المفهوم الحقيقي لدور الكنيسة... كان لا بدّ من إلقاء ضوء واضح على هذه الكنيسة التي هي من أسس الإيمان المسيحي.

هويّة الكنيسة

٤. منذ البدء، و«قبل إنشاء العالم» (أف ١ / ٤)، أسّس اللّه الكنيسة؛ لأنّه، منذ البدء، دعا الإنسانَ إلى أن يعيشَ في «جماعة». ولمّا وقعتِ الخطيئة، وفرّقتْ ما بين الناس، فرطَ عقدُ «الجماعة»؛ فكان لا بدّ، لجمع شمل أبناء اللّه المشتّتين[٥]، من إعادة الإلفة والمصالحة والوحدة في «جماعةٍ» جديدةٍ واحدةٍ، هي «الكنيسة».

---

(٥) رَاجع: يوحنا ١١/٥٢.

فالـكنيســة، لغةً، هي «الجـماعـة»؛ وأساسـاً، هي البشـريّة التي استـعادتْ وحدتَها ولحـمتَها؛ وفي حـقيقـتها، هي المسيح–الحـاضر–الفـاعل–في–العـالم؛ وفي امـتـدادها، هي كل الشـعـوب في شـعب واحد(٦) وفي غايتها، هي مكان الخلاص.

٥ . ألكنيسة، بالتالي، هي الشكلُ البشري الممتاز الذي يَتجلّى اللّهُ فيه على الأرض. إنّهـا المكان الوحيد الذي يكشـف اللّهُ بنفسِـه عن نفسه للبـشر، ليعـرفوه، ويُحـبّوه، ويطمـئنّوا إلى خلاصـهم. إنّها حـضورُه الفـاعل في العالم. وهي، أخـيراً، جـماعـة البشـر المتمـتّعين بخـلاص المسيح(٧).

ألكنيسة هي المسيح والمسيحيّون معاً

٦ . ألكنيســة هي، أيضاً، ملء قامـة المسيح على مسـتوى الكون كلِّه، من بدايته حـتّى نهايته. هي الخليـقة الجديدة التي تعهّـدها المسيح فأصـبح لها مـخلّصًا ورأسًا وربًّـا. هي الشاهدة على حضـور اللّه في عالَمٍ قلِقٍ مضطرب. هي الكتاب الإلهيّ المفـتوح الذي لم تنتهِ كلماتُه ولا فصولُه. هي الرؤيا التي تطلّ على آفاق جديدة حتى نهاية الدّهر.

٧ . في الكنيـســة، كمـا في المسـيح، يحلّ كـمـالُ الألوهة حلولاً جسديًا منظوراً(٨). أللّه موجود في الكنيـسة بالجسد، حاضـر حضورًا فعّالاً حـقيقيّاً ملمـوسًا. موجودٌ إستناداً إلى قـوله: «إذا اجتمعَ اثنانِ أو

---

(٦) رَاجع : يوحنا ١٠/١٦؛ ١٧/٢٢–٢٣؛ ١٩/٢٠؛ ٢١/١١.

(٧) رَ : ٢/٤٧.

(٨) رَ : ١ قور ٢/٩.

ثلاثةٌ باسمــي كنتُ هنالكَ بينهم» (متى ١٨/ ٢٠). لهـذا فالكنيـسة، أي «الجماعة»، واجبة الوجود لوجـود المسيح وحضوره، لعمله الخلاصي وكمال مهـمّته. من هنا يمكننا القول: إنّ الكنيســة هي المسيح، والمسيح هو الكنيـسـة. بولس عرف ذلك مـنذ لحظة اهتدائـه، أي عندما سـاوى المسيحُ بينه وبين المسيحيّين الّذين كان يَضطهدهم[٩].

٨. «ألمسيحُ "رأسُ الجـسد الذي هو الكنيســة" (قول ١/ ١٨)... المسيحُ والكنيســة هما إذاً "المسيح بكامله" Christus totus. فالكنيسة واحـدة مع المسيح. ولـلقدّيسين إدراكٌ عـمـيق لهذه الـوحدة: "لِنَغْـبِطْ أنفـسَنا، إذاً، ونرفعِ الشكرَ لكوننا صـرنا، لا مسـيـحيّين وحـسبُ، بل المسيحَ نفسَه... تعجَّبوا وابتهجوا، فقد أصبحنا المسيحَ. وهكذا، فيما أنّه الرأسُ ونحن الأعـضاء، فـالإنسـانُ الكامل هُوَ ونحن. ملءُ المسـيح هو الرأسُ والأعــضـــاء. ومــا مـــعنى الـرأس والأعـضـــاء؟ – المســـيح والكنيسة»[١٠].

٩. تجمعُ الكنيسةُ البشريّةَ كلَّها: فهي تتوجّه إلى اليهود، وتنفتح على الأمم[١١]. من طبيـعتـها الدعـوةُ إلى الوحدة بين اليـهود والأمم في «جماعـة واحدة»، أيّ «إنّ الأمم، هم، في المسيح يسوع، شركـاء اليهود في ميـراثه وجسده ووعـده» (أف ٣/ ٤). وفي رسالتـها أيضًا القـيامُ

---

(٩) رسل ٩/ ٤–٥؛ رَاجع: مـتى ١٠/ ٤٠؛ ٢٥/ ٤٠ و٤٥؛ لو ٩/ ٤٨؛ ١٠/ ١٦؛ يو ١٣/ ٢٠. بهذه الآية اختصر لوقا في أعمال الرسل كلَّ مفهوم بولس لكنيسة المسيح».

(١٠) القـديس اغـوسطينوس، في إنجـيل يوحنّا ٢١/ ٨؛ التـعليم المسـيحي، عـدد ٧٩٢ و٧٩٥.

(١١) رَ: رو ١٥/ ١٤.

بمصالحة شعوب العالم قاطبة، ذلك «لأنّ اللّه صالح العالم في المسيح» (٢ قور ٥/ ١٩).

١٠ . شأن الكنيسة أن تقدّم المسيحَ إلى العالم من حيثُ هي، من موقعها في العالم، من نظرتها الخاصّة للأمور، من منطلقاتها ومعطياتها بحسب نموّها وتطوّرها. فهي تواكب العالم؛ ولذلك باستطاعتها، بل من دعوتها، أن تصيّر المسيح متجسِّدًا دائمًا، حاضرًا دائمًا، فاعلاً دائماً، حيًا فيها إلى الأبد. رسالتها، والحالة هذه، أن تعدّ البشر إلى قبوله، أن تشهد له، وتكمّل إنجيلَه، وتحقّق خلاصَه، وتهيّء الكونَ إلى نهايته.

ألكنيسة هي الشكل الأخير للعالم

١١ . إنّ الكنيسة هي المرحلة الأخيرة لهذا العالم. هي الشكل الأخير للبشريّة المطوَّبَة. هي الكلمة الفصل لكلّ وحي. هي الحُكْم الأخير لكلّ شريعة. بل هي ملكوت اللّه على الأرض، وباب الخلاص لكلّ المدعوّين. لا سلطان من دونها، ولا حلّ ولا ربط إلاّ فيها، ولا خلاص خارجًا عنها. وليس من وحي مدرج في كتاب يُشهَد على أصالته وصحّته إن هي لم تدلّ عليه.

١٢ . ومع هذا، ليست الكنيسة، وهي على هذه الأرض، الشكلَ الكامل لملكوت السماء المحقَّق. ألكنيسةُ تسير. ولا تزال تسير. هي شعب-اللّه-في-مسيرته. هي خاضعة لتطوّر التاريخ. هي تناضل وتجاهد ضدّ قوّات الشرّ. تتألّف من أناس، فيهم خطأة وفيهم أبرار. ينبت فيها الزؤان مع الزرع الجيّد... هي ناقصة تسعى نحو الكمال،

الذي تحملُ بذورَه، وإمكانيّةَ الحصول عليه بتمامه. وتبحث باستمرار عن الوسائل الفعّالة للخلاص لتُقدِّمَها لأبنائها. هي، بالنتيجة، صورة المسيح المتجسّد أبداً، المتألّم والمصلوب أبداً، والمنتصر على الشرّ والموت أبداً.

ألكنيسة هي سرّ شعبٍ خاطىءٍ مشتَّت، ولكنّها أعدّت له إمكانيّةَ الخلاص والوحدة. إنّها جماعة «المدعوّين ليكونوا قدّيسين»(١٢)، وليسوا بعدُ قدّيسين. إنّها جماعة تمتلك عربون الخلاص والقيامة، ولكنّها لم تنلهما بعد. إنّها تسير نحو تحقيق ملكوت اللّه، ولكنّها ليست هي الملكوت المرجوّ في الدهر العتيد.

تتعامل الكنيسة مع العالم بكلِّ ما فيه، وكما هو. وُجِدتْ فيه وله. تعمل من أجله. تتعامل مع الخطيئة بكلّ نتائجها. من أجل هذا وُجدتْ. وهي، على مثال ربّها ومعلّمها، تقدّم الغفران، ولا تنبذ أحدًا من الخطأة، وتبحث عن الضالّين، وتحتضن المسترخين، وتهتمّ بالمساكين، وتحبّ كلَّ الّذين لا مكان لهم في هذا العالم. كنيسة المسيح كنيسة الفقراء والخطأة هي، وإلاّ ليست هي شيئًا.

١٣ . «فلكي يُتمّ المسيحُ مشيئةَ الآب أنشأ على الأرض ملكوتَ السموات. فالكنيسة هي «ملكوتُ المسيحِ حاضراً، منذ الآن، على وجهٍ سرّيّ»(١٣). و«الكنيسة هي في المسيح بمثابة السرّ، أي العلامة والأداة

---

(١٢) رو١/٧؛ ١ قور ١/٢.

(١٣) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ٣؛ ألتعليم المسيحي، عدد ٧٦٣.

في الاتّحاد الصميم بالله ووحدة الجنس البشريّ برمّته»[١٤]. غاية الكنيسة الأولى هي أن تكون سرّ الاتّحاد الصميم بين البشر والله. ذلك أنّ الشركة بين البشر تتأصّل في الاتّحاد بالله. والكنيسة هي أيضاً سرُّ وحدة الجنس البشريّ. وفيها ابتدأت هذه الوحدة إذ إنّها تجمع بشراً «من جميع الأمم والأعراق والشعوب واللّغات» (رؤ ٧/ ٩)»[١٥].

ألكنيسة تضمن الخلاص

١٤ . في الكنيسة، كما أشرنا، يكون الخلاصُ، لا بغيرها، أو من دونها، أو خارجًا عنها. هي هي الواسطة إليه. كما هي الواسطة إلى القداسة، وإلى المسيح، وإلى الله. من دونها لا مسيح ولا قداسة ولا توبة ولا خلاص. إنطلاقاً منها، وبواسطتها، يكون خلاص العالم، ويكون الخلاص على مستوى العالم شاملاً كونيًا، إذ لا خلاص فردي منعزل. ألكنيسة، بكونها «جماعة»، تعمل على أن يكون الخلاص جامعاً شاملاً؛ لهذا فهي تطالُ حتى الذين يرفضونها.

١٥ . ألكنيسة تضمن وحدةَ المسيح، ووحدةَ النظرة إليه. وحدها الكنيسة توحّد الرؤية، تدلّ على المسيح الواحد. لولاها لكان لكلٍّ مسيحيٍّ مسيحُه. بل لولاها لأصبح في العالم مسحاء لا حصر لهم ولا عدّ.

١٦ . وحدَها الكنيسة تقرأ الإنجيل وتفهمه وتفسّره وتقدّمه للناس. وليس لأحد سواها أن يقدّم لنا مفهومَه الخاصّ. هي تقرأ

---

(١٤) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ١؛ ألتعليم المسيحي، عدد ٧٧٥.

(١٥) التعليم المسيحي، عدد ٧٧٥.

بإلهامٍ، فتقرّر، وتقدّم لنا صورة المسيح الحقيقيّة، وتعاليمَه الصحيحة. وتعي جميعَ معاني عمله الخلاصيّ.

١٧ . لنذهب أبعد من ذلك، ونقول: في الكنيسة فقط نعرف اللّه، وكيفيّةَ عبادتِه، ووسائلَ الوصول إليه، وتأديةَ المجد اللاّئق به. خارجها لا إله. ألم يقل الربُّ نفسُه: «ما من أحد يعرف الآب إلاّ الإبن، ومَن يشاء الإبن كشْفَه له!!» (متى ١١/٢٧)؛ ألم يقلْ أيضًا: «مَن رآني رأى الآب» (يو ١٤/٩)... يعني أنَّ معرفةَ الآب لا تكون إلاّ بواسطة الإبن، ومعرفةَ الإبن لا يمكن أن تكون خارج الكنيسة، أو من دونها.

ومن هنا نقول أيضاً: إنّ الذين تعمّدوا باسم المسيح، وآمَنوا به، لا يحقّ لهم، بعد ذلك، أن يبحثوا عن اللّه خارجَ السيح، أو مِن وراء ظهرِه، أو مِن دونه، وبالتالي، خارج الكنيسة، أو من دونها.

ونقول أيضًا: إنّه لا يحقّ للمسيحيّين، بعد اليوم، الإدّعاء بمعرفة اللّه معرفةً عقلانيّةً طبيعيّةً فلسفيّةً ببراهينَ وأدلّةٍ وحججٍ لا تفيد شيئاً... إنّ اللّهَ الذي نستدلّ عليه بالعقل المجرّد هو إلهٌ لا علاقة لنا به ولا حياة. ولا يعنينا وجودُه أو عدمُ وجودِه. إلهُ المسيح هو إله المسيحيّين لا سواه. إله المسيح هو أبوه الآب الأزلي، مصدر الألوهة الموجودة في المسيح عينه.

ونقول أخيراً: إنّ العقل البشري، في طبيعته، يعجز عن أن يستدلّ على اللّه، وأن يدركَ المطلق. لذا، عليه أن يسلِّم أمرَه لجماعةٍ بشريّةٍ تتعامل، في طبيعتها، مع المطلق، جماعة تعمل بهديِ الروح. هذه الجماعة هي الكنيسة، الضامنة لصحّة صورة اللّه وجلائها. لولاها

لغـاب وجـهُ اللّه عن الإرض. وعلـى العـقل المحـدود، لا أن يسلّم أمـره للكنيسـة فحسب، بل أن يستسلم لها أيضًا. هذا هو الصِراط المستقيم.

الكنيسة مقدّسة بلا عيب

١٨ .. لقـد قال الربُّ لبطرسَ زعـيمِ الرسل يومـاً : «صخـرٌ أنتَ، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسـتي، وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليها» (متى ١٦/١٨). هـذه الكنيسـة، أحبّهـا المسيح «وضـحّى بنفـسه من أجلها، ليقدّسَـها، ويطهّرَهـا... ويزفَّها إلى نفسه كنيسـةً سَنيّةً لا شائبةَ فيها ولا تغضّن، ولا ما أشبه ذلك، بل مقدَّسة بلا عيب» (أف ٥/٢٥).

لهـذا «يُظهـر المجمعُ (الـفاتيكانـي الثاني)، كـمـا جـاء في تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة، أنّ العقيدة الإيمـانيّة في شأن الكنيسة تتعلّق كلّيًا بالعقـائد المتعلّقـة بالمسيح يسـوع. فليس للكنيسـة نورٌ آخرُ غـيرُ نورِ المسيح. إنّها، على حدٍّ ما جاء في الصورة المحبَّبَة إلى آباء الكنيسة، أشبهُ بالقمر الذي كلُّ نوره انعكاسٌ لنور الشمس»[١٦].

١٩ . هذه الكنيسة هي من تأسيس المسيح نفسه. والمسيح أسّس كنيسةً حـيّةً تواكب الإنسانَ في تطوّره، لا ديناً جامـداً منزَلاً في كتاب؛ كنيسةً تشرّع لهذا العالم الذي تعيشُ فيه، شريعةً تتطوّر بتطوّر العالم، لا شريعـة تتحكّمُ بمصير العـالم وتجمّده عن كلّ تطوّر ورقيّ؛ كنيـسةً ترسمُ للبشـرِ نهجَ خلاص، لا ديناً يصنّفـهم إلى أبرار وأشرار، أو إلى أبناء للّه وأعـداء، ويبرمجـهم على نمط محـدّد؛ كنيسةً تـقرّرُ هي هويّةَ كتابِها، لا ديناً أُنزلَ عليه كتابٌ من عَلُ.

---

(١٦) التعليم المسيحي، عدد ٧٤٨.

٢٠ . ألكنيسة هي موضوعٌ من موضوعات الإيمان. إنّه كموضوع الإيمان بالآب، والابن، والروح القدس فلكأنّ إيمانُ المسيحيّين يقوم، لا على «ثالوث» فحسب، بل على «رابوع». هكذا جاء في قانون الإيمان: «نؤمن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابطِ الكلّ... وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح... وبالروح القدس... وبكنيسةٍ واحدةٍ جامعةٍ مقدّسةٍ..».

موقف المسلمين من الكنيسة

١ . موقف المسلمين من الكنيسة موقف رافض مطلقاً : يرفضون وجودها أصلاً؛ ويرفضون انتسابها إلى المسيح وعلاقتها به؛ ويرفضون أهليَّتها في تعيين كتب الوحي، وفي تحديد العقائد الإيمانيّة، وفي رسمها قواعدَ السلوك والأخلاق والاجتماع، وفي دورها في سنٍّ القوانين، وفي حقّها في إنشاء المؤسَّسات والمنظّمات الدِّينيّة؛ ويرفضون بنوعٍ خاصّ دورَها في خلاصِ الإنسان.

٢ . قد يحترم بعضُ المسلمين الكنيسةَ ورجالاتها، لكونها مؤسّسة إنسانيّة لها شأنها ومكانتها في العالم. أمّا أن يكون لها دور في خلاص البشر، أو أن يكون لها طابع إلهيّ مميَّز، أو أن تكون، كما يقول القديس بولس، «سرًا ظلَّ مكتومًا في اللّه مدى الأزل وقد كُشِفَ الآن عنه» (رو ١٦ / ٢٥)... فهذه أمور لا تعني للمسلمين شيئًا، إذ «هم لا يريدون أن يتجاوزوا، بتصوّرهم للكنيسة، حدودَ الجانب الإنساني، أي لا يريدون أن يروا فيها أكثر من جماعة بشريّة منظّمة، ومكوّنة من أشخاص متَّحدين في العقائد والعبادة»[١٧].

---

(١٧) معجم اللاهوت الكتابي، مادّة: كنيسة.

٣. وفي كل حــال، وعلاوة على كلّ اعــتبــار، ألكنيســةُ، بمعناها اللاّهوتي، لا وجود لهــا في القرآن. واللّفظة نفسُــها، بالرّغم من قِدَمِــها وانتشارِها، لا توجــد فيه. غير أنّ لفظــة «بِيعة» تُوجَد، بصيــغة الجمع، مرّةً واحــدة، في قوله: «ولولا دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْــضَهُمْ بِبَــعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ (للرهبــان)، وَبِيَعٌ (للنّصارى)، وَصَلَوَاتٌ (لليهود)، وَمَــسَاجِدُ (للمسلمين)؛ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا»[١٨]. ولكنّ لفظة «بِيَع» هنا تعني أمكنة للعبادة، مثل «الصوامع والمساجد والصلوات»؛ ولا تعني الكنيسةَ بمفهومها اللاّهوتي المعروف، أي «جماعة المؤمنين بالمسيح»، بعلاماتها المعترَف بهــا في قانون الإيمان، أي: «كنيسة واحــدة، جامعة، مــقدَّسة، رسوليّة».

٤. هذه الكنيسة يجهلها الإســلامُ والمسلمون جَهلاً كاملاً. وحين يتناولونها فــي مجامــعها ورجــالاتها وتعاليــمها ومــؤسَّســاتهــا، فهم يتناولونهــا بالنقْد والطعْــن والتجــريح، بسبب أنّهــا، في رأيهم، تخطّتْ حدودَها، فأنشــأتْ دِينًا، وأقرّتْ كتابًا، ووضعتْ عــقائد، وسنّتْ قوانين، ورسمتْ شــرائع، وفرضتْ قواعــدَ الأخلاق، وحدّدتِ السلوك... يتــبرّأ منها، بنظرهم، المسيحُ والمسيحيّة معًا...

٥. مــفــهوم المســلمين للكنيســة واضــح في مــا كتــبــوه عنهــا. ومآخذهم عــليها تنالُ منها في الصــميم: فسمــاحة مفتي الجــمهوريّة اللّبنانيّة، **الشيخ حــسن خالد**، يعــتقــد بأنّ الكنيســة «عقــدتْ مجــامع واتّخذت من القــرارات ما أضــاف إلى النصــرانيّة مــا لم يكن منها»[١٩].

---

(١٨) سورة الحج ٢٢/ ٤٠؛ الشروحات بين هلالين من تفسير الجلالَين.

(١٩) موقف الإسلام من الوثنيّة واليهوديّة والنصرانيّة، ص ٥٢٦.

ومثلــه يقول **شريـف محمّـد هاشم** بـ «أنّ المسـيحـيـة هي من صنع البشر»[٢٠]، و«أنّ الإيمانَ المسيحي برمّته ما هو إلاّ تدبير بشري»، قامت به الكنيسة[٢١].

ومثلهـما وقَـبلَهمـا قال **إبن قيّـم الجوزيّة** بأنّ «النصـارى تلقّوا أصول دينــهم من أصحــاب المجامِع»[٢٢]. وقبـله قال شيـخ الإسلام، **محمّد بن تيمـيّة**، إنّ الكنيســة بدّلت وحرّفت وغيّـرت في دين المسيح. والدليل من عنوان كتــابه: «ألجوابُ الصحــيح لمن بدّلَ دينَ المسيح»[٢٣]؛ لكأنّ للمســيح، في نظر الشيخ، دينًا جـاء به، وتناولتْه الكنيســة تبديلاً وتزويرًا!

٦. رأيُ المسلمين في الكنيســة، إذاً، واضـح: لقد تخطّت حدودَها، وصنعت مسيحاً كما تشاء، وأسّستْ ديناً سمّتْه النصرانيّة، فقرّرتْ لها كتبَها، وعـقائدَها، وسلوكَها، ومؤسَّساتِها. وعقدتْ مـجامع، حلّلتْ فيها ما حلّلتْ، وحرّمتْ مـا حرّمتْ. لقد قامتْ بدور المسيح نفســه، فعلّمتْ ما ليس لها فيه سلطان.

٧. ودليلُ المسلمين على تخـطّي الكنيســة حدودَها: تعـدّدُ الآراء والتعاليم، حـتّى صارتِ الكنيسةُ الواحـدةُ كنائسَ وطوائفَ ومذاهبَ لا حـصرَ لهـا ولا عدّ. ومـا علّمتــه هذه «الكنائس» مـستـحدَث، لا شــأن للمسيح فيه. في حين أنّ النصرانيّة الصحـيحة والحقيقيّة، بحسب **أبي**

---

(٢٠) ألإسلام والمسيحيّة في الميزان، ص ٢٥٦.

(٢١) ألمرجع نفسه، ص ٢٥٥.

(٢٢) هداية الحيارى، ص ١٦٧.

(٢٣) ألجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، مطبعة المدني بمصر، ١٩٥٩؛ ٣ أجزاء.

حَنيفة، مثـلاً، هي «التي يأخذها المسلمون عن مـحمّد، عن جـبريل، عن اللّه». وما فيها من مستحدثات هو من صنع البشر.

٨. وبسـبب ما قـامتْ به الكنيسـة من تعـاليم مسـتحـدَثة، بات المسلمون لا يميّزون فـيها بين ما جاء به الوحي عمّـا جاء به البشر؛ ولا يعرفون «ديـن المسيح» من «دين الكنيسة». فكم في «دين النـصرانيّة» اليوم، في رأيهم، من تبـديل وتزوير وتحريف!. حتى بات المسيـحيّون كالمشـرِكين في عقيـدتهم؛ وأمسى المسيح إلهًـا وابنًا للّه بدل أن يكون، كما قال فيه القرآن، رسـولَ اللّه ونبيَّه. والكنيسة هي المسؤولة عن هذا التزوير العظيم، على حدّ قول المسلمين كافّة.

٩. ثمّ لا بدّ من أن نشيرَ إلى خطأ شـائع في أبحاث المسلمين عن المسيحـيّة. هذا الخطأ يكمن في المقارنة بين الكنيـسة والإسلام، أي بين الكنيســة، كجماعـة بشريّة تتعامل مع التـاريخ، وبين الإسلام كـ«دين منزَل» من خارج التاريخ. هذه المقارنة لا تجـوز أصلاً؛ لأنّها مقارنة بين سلوك بشري و«تنزيل إلهيّ».

وعلى **الشيخ حسن خالد**، مفـتي الجمهـوريّة اللبنانيّة، أن يُعيد النظر في حـساباته الـتاريخـيّة ، إذ يقـول «بأنّ المسلمين الذين كـانوا يسكنون أوروبا الشرقية قد أبيدوا بفـعل الإضطهاد المسيحي، وأكلتهم نيران الحـقد الأثيم»[٢٤]؛ لأنّه هو نفسـه يقدّم لنا في الصـفحة التـالية، قصّة جماعة من «الأنباط وقـد أُقيموا في الشمس وصُبَّ على رؤوسـهم الزيت! بسبب تخلّفهم عن دفع الجزية»، أي بسـبب كونهم مسيحيّين...

(٢٤) موقف الإسلام من الوثنيّة واليهوديّة والنصرانيّة، ص ٧٧٢.

وقد يكون السيّد **شريف محمّد هاشم** أكثر تناقضــاً من سماحة المفتي. ففي فصل عنوانه: «الإسلام لم يُكرِه أحدًا على اعتناقه»[٢٥]، يبدأ بقــوله: إنّ «تهـمة العنف فــي الإسلام، أو بالأحــرى إكـراه الناس على اعتــناقه، من بين التّــهم التي لاكَهــا أعداءُ الإســلام»... لكنّه، في السطر الأوّل، في الصفحــة الأولى، من كتابه، يقول بالحــرف الواحد: «ألمعارك قد تــوقّفتْ بين الإســلام وأعدائه بفـضلِ انتصــارِ الإسلام العـسكري الحاسم»[٢٦]. ويردّد في الصــفحــة نفـسهــا: «حَسَمَ الإســلامُ الموقفَ لصالحِه علــى الجبهة العسكريّة».

فـ«الحـسم العسكري» لا يعني، فــي ظنّنا، تسامــحًا وتســاهلاً.. وليس هو أيضًا شــريعةً بشريّةً، دعت إليها الحــاجةُ والظروف؛ بل هو سلوكٌ إلــهيٌّ، دعتْ إليـــه آياتُ الكـتــاب المـنزَل. ثمّ إنّنا لا نـظنّ أنّ في «الحسم» لـطفاً وصفـحاً، بل نرى فـيه «عنفًــا وإكراهًا». وكــان العنف شديدًا بمقدار ما كــان الوعد للمنتصرين كبيــرًا... ووعدُهم كان «جنّات تجري من تحتها الأنهار»، و«سكنى القصور ومعانقة الحُور». ذلك لأنّ «الجنّةَ تحت ظلال السيوف»، لا بالزهد والتقشف وأعمال الرحمة.

ومع هذا، وفيما نحن نرفض المقارنة بين سلوك الكنيـسة كجماعة بشريّة، وســلوك المسلمين تطبيــقًا للشــريعة الإلهيّــة المنزَلة، لا نريد أن نفاضل بين مــا صنعه كلّ شعب بالآخر. فـمسلك الإثنين، على قلب اللّه، قبيح؛ إنّما الأكثر قبحاً مَن يلصق باللّه قبحَه ليبرّر عمله.

---

(٢٥) ألإسلام والمسيحيّة في الميزان، ص ٦٠٢.

(٢٦) ألمرجع السابق نفسه، ص ٧.

خاتمة

لقد نجح المسلمون، في ردودهم على المسيحيّة، بوضعِ المسؤوليّة على الكنيسة، أي على بولس الرّسول، وعلى المجامع الكنسيّة المسكونيّة، والبابوات والأساقفة ورجال الكهنوت عامّة. هؤلاء كلّهم، في نظر المسلمين، حرّفوا الإنجيلَ والدِّين، وقالوا بأنْ لا هذه المسيحيّة هي مسيحيّة عيسى، ولا هذه الأناجيل هي إنجيل عيسى الحقيقي. يعني أنّ عيسى بريءٌ من المسيحيّين وأناجيلهم. وهذا يعني أنّ الكنيسة، بالنسبة إلى المسلمين، هي سبب فساد دين عيسى برمّته.

أمّا المسيحيّون فيرون أنّ جمالَ الكنيسة يقوم على أنّها غيرُ مقيَّدة بشريعةٍ جامدة، وكمالَها يقوم أيضاً على أنّها غيرُ متحجِّرة؛ بل هي تتجدّد باستمرار، وتواكبُ الإنسانَ، وتحمل همَّ خلاصه؛ والشرُّ كلّ الشرّ يكمن في جمودٍ فرضه «الكتابُ المنزل». وهذا يعني أنّ الإنسان، مع «الكتاب المنزل»، هو في خطرٍ لا يدانيه خطرٌ آخَر : خطر أن يبقى حيث هو، فيما روحُ اللّه يعمل، والعالم كلّه يتحرّك.

نقول للمسلمين : إنّ الكنيسة تتكوّن، من دون شكّ، من بشرٍ خاطِئين، لا من ملائكة وقدّيسين. إنّها مؤسّسة روحيّة، ولكنّها أيضاً إجتماعيّة. تتطلّع إلى الملكوت، ولكنّها تعيش في هذا العالم. تعمل لما هو خالد، ولكنّها رهينة المكان والزمان. كنيسة فيها أبرار وأشرار، قمح وزؤان، والتمييز بينهما لا يكون إلاّ «في اليوم الأخير» (متى ١٣/ ٤٠-٤٩).

لم يشأ المسيحُ أن يستمرّ حاضراً في العالم إلاّ من خلال رسله،

وفي الكنيسة التي أسّسها، لتشهد له، وتكمّل رسالَته، و«تؤنن» تعاليمَه. هذا يعني أنّ روحَ اللّهِ لا يزال يعمل في العالم، بواسطة الكنيسة.

١٤

ألدين

لم يؤسِّس المسيح، في معتقد المسيحيّة، دينًا اسمه « الدِّين المسيحيّ»؛ ولا رسلُهُ، مِن بعده، أنشأوا مثل هذا الدِّين، على غرار سائر أديان العالم السابقة واللاّحقة؛ ولا الكنيسة اعتبرتْ يوماً المسيحيّةَ بمنزلة سائر الأديان.. ألمسيح أسّس «كنيسةً»، هي الشكل الذي فيه يحيا على الأرض، ويستمر يعمل حتّى منتهى الدهر.

ألمسيحيّة كنيسة لا دين

بين «المسيحيّة» كدِين، و«الكنيسة» كشكلٍ للمسيح الحيّ، الحاضر والفاعل في العالم، فرقٌ في الجوهر والمبدإ والغاية.

«ألدِّين»، في مفهومه وتحديده، مجموعةُ شرائع، يتضمّنها كتابٌ منزَل، تُنظِّم علاقةَ الإنسان بالله، وتحدِّد عقيدته الإيمانيّة، وترسم سلوكَه الأدبي، ونظمَه الاجتماعيّة؛ فيما «الكنيسة»، كما رأينا في الفصل السابق، هي المسيح الحاضر، الفاعل، الحيّ في العالم. هي المكان المميَّز لمعرفة الله معرفةً حقيقيّة. « هي " دعوة " جميع الناس إلى

الخلاص... أرسلها المسيح إلى جميع الأمم لتجعل منهم تلاميذ»[١].

فالمسيح، إذاً، أسّس «كنيسةً» لا «دِينًا»؛ كنيسةً حيّةً، لا دِينًا جامدًا؛ كنيسةً تعمل على خلاص العالم، لا شريعةً تتحكّم بالعالم؛ كنيسةً تضع للعالم نهجًا يسلك بموجبه، لا ديناً أو نهجًا تتديَّن به الكنيسة وينتهجه العالم؛ كنيسةً هي تقرِّر صحّةَ الكتب الموحاة، لا ديناً يعتمد على كتابٍ منزَلٍ يُحدِّد عقائدَ، ويَسنُّ شرائعَ، ويَقوم بحروب مقدّسة، ويُعيِّن سلوكَ البشر.

ثمّ إنّ الدِّين، في حقيقته، مهدَّد دائمًا إمّا بالجمود، وإمّا بالزوال. إمّا يتخطّاه العِلم والإنسان المتطوّر أبداً، وتقفز فوقه الحضارات والمدنيّات والثقافات وتتعدّاه، ويبقى هو حيث هو جامداً ثابتاً... وإمّا يزول حتماً إذا ما حقّق هدفَه، وبلغ كمالَه، ووصل إلى نهايتِه.

ونهاية الأديان جميعِها انتهتْ عند مجيء المسيح المنتظر، أي عندما تحقّقت به الوعود، وأصبح «المنتظَر» حقيقةً تاريخيّة متجسِّدة. لقد «تجسّد» اللّهُ في يسوع المسيح. وانتهت الأديانُ أيضاً عندما « خلق اللّهُ العالَمَ لكي يُشركَه في حياتِه الإلهيّة، إشراكاً يتمّ بدعوة البشر إلى الاجتماع في المسيح. هذه الدعوة إلى الاجتماع هي الكنيسة. الكنيسةُ هي غايةُ كلِّ شيء»[٢].

بتجسُّدِ اللّه في يسوع المسيح، وفي إنشاء الكنيسة، وفي بقائه حيًّا حاضراً في العالَم، وفي تأسيس الإفخارستيّا حيث الربُّ حاضرٌ

حيٌّ، قضت المسيحيّة على مفهوم الدِّين، أي على اليهوديّة، وعلى النّاموس الذي حكم العالم؛ بل قضتْ على كلِّ دينٍ، وعلى كلِّ كتابٍ منزَل، وكلِّ شريعةٍ سماويّة، وكلِّ تعليمٍ جامد، أو عقيدةٍ لا تتزحزح...

ألمسيحيّة شخص والدِّين كتاب

المسيحيّة تتبع «شخصاً» لا «كتاباً»؛ لهذا قضتْ على كلِّ دِين؛ لأنَّ الدِّينَ يعتمد على كتاب، لا على شخص. وكان على اليهوديّة، بعد مجيء المسيحيّة، أن تنهي دورَها؛ وكذلك كان على الإسلام، لو كان بوسعه بلوغَ غايته، أنْ لا يعترفَ بأيِّ دينٍ سواه؛ بل أن يقضي على كلِّ دين؛ فلا يعود، حتّى هو نفسه، يسمَّى كذلك، وإلاّ وقع في ما جاء يحذِّر منه.

هذا المنطق يستند إلى أنّ اللّهَ، بكونه إلهَ الجميع، لا يميّز بين إنسانٍ وإنسان، فيختار هذا ويرذل ذاك؛ يُعطي هذا ويحرم ذاك؛ ينزّل على هذا كتاباً ولا يلتفت إلى ذاك... ألكلُّ خليقته، وهو يشاء خلاصَهم.

لقد جاءتِ المسيحيّة لتصوّب ما أفسدتْه اليهوديّة؛ وكذلك جاء الإسلام، كما يقول المسلمون، لينسخ المسيحيّةَ واليهوديّةَ معاً؛ غير أنّه عاد فسقط في ما حذّر منه.

ألدِّين إرثٌ يهوديٌّ تجهد المسيحيّة في التخلّص منه؛ ولكنّ الإسلامَ عادَ إليه، وفي همّه محاربته. ولكن دون جدوى. بل عاد وسقط في ما حذّر منه.

ألتخلّصُ من الدِّين هدفُ المسيحيّة. هذه المسيحيّة، منذ البدء، تتعامل مع الإنسان من خلال الكنيسة. أمّا الإسلام فيعود إلى اليهوديّة التي حاربها، ليتعامل مع الإنسان ضمن مقولات اليهوديّة.

في الإسلام، جمد الدِّين جموداً أبديًا، لا في «شخصٍ حيٍّ حاضرٍ»؛ بل في «كتاب منزَل» جامدٍ ثابتٍ أبداً. فيه، كما يقول المسلمون، الحقُّ كلُّه، واليقينُ كلُّه؛ عنده الحلُّ لكلّ مشكلة. وفيه العلومُ جميعها، المكتشَف منها وما سوف يُكتشف. والإنسان، والحال هذه، كلا شيء. عليه أن يزولَ وينتهي؛ لأنْ لا إفادة منه ومن بقائه، طالما «الكتاب المنزَل» هو البديل. وفي شرعة الجهاد دليل.

ألإسلام دين كتاب

ألإسلام، في القرآنِ وإيمانِ المسلمين، هو هو الدِّين الوحيد عند اللّه : «إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسْلامُ» (٣/ ١٩)، «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (٣/ ٨٥)، بل «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ؟» (٤/ ١٢٥). وفي نهاية رسالة محمَّد، أعلن اللَّهُ تمامَ دينِ الإسلام فقال: «أليَومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا» (٥/ ٣).

و«الدِّين» في الإسلام، من تأسيسٍ إلهيّ. يقوم على التوحيد. وهو، بحسب تفسير الرازي، لـ (٣/ ١٩)، "الإيمان بالتوحيد المطلق. والقول بأنّ الدِّين عند اللّه الإسلام يقضي أن يكون الدِّينُ المقبولُ عند اللّه ليس إلاّ الإسلام. وفي قوله: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»، يعني: لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان دينًا مقبولاً عند اللّه تعالى".

وفي تفسير البيضاوي للآية نفسها، يقول: "لا دِينَ مرضيٌّ عند اللّه سوى الإسلام. والإسلام هو التوحيد والتدرّع بالشرع الذي جاء به محمّد".

أمّا النَّسَفي، في تفسيره لآية المائدة (٥/٣)، فيعتبر القول «ورَضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِينًا»، ردًا على اليهود والنصارى. والدِّين، عنده، لغةً، هو الجَزاء. ثمّ صار اسمًا للملّة والشريعة. ومعناه: الإنقياد للطاعة والشريعة ".

وكذلك «النصرانيّة»، في قول القرآن والمسلمين، هي أيضًا «دِين». وهي مثل اليهوديّة والإسلام والصابئة. قال: «إنّ الذين آمنوا (أي المسلمين) والذين هَادوا (أي اليهود) والنَّصارى والصَّابئين»[٣]، هؤلاء، إن عملوا صالحًا، فازوا بجنّات النعيم.

وأغرب ما في الأمر اعتبارُ القرآن «الوثنيّةَ» و«المجوسيّةَ» و«الصابئةَ» أدياناً كاليهوديّة والنصرانيّة والإسلام، يجمع اللّهُ بينها، في هذه الدنيا؛ وفي الآخرة يفصلُ بينها تبعًا لأعمال كلٍّ منها. جاء في سورة الحجّ: «إنّ الّذينَ آمَنوا (المسلمين) والّذينَ هادوا (اليهود) والصَّابئِينَ والنَّصارى والمجوسَ والّذينَ أشركوا (الوثنيّين). إنّ اللّهَ يفصل بينهم يوم القيامة» (٢٢/١٧).

يبدو، بحسبما رأينا، أنّ كلّ مَن له صلةٌ باللّه، يكون له «دِين»، أي سبيلٌ إليه. ولكلٍّ دِينِ نَبِيُّه وكتابُه وعقيدتُه وتعاليمُه وشريعتُه وعباداتُه ومناسكُه وشعائرُه ونظرتُه إلى الكون والإنسان والتاريخ... بهذه المجموعة من القضايا، يُسمّي الإسلامُ كلَّ علاقةٍ باللّه «دِينًا» أو «نهجًا» أو «شريعة». إن سار الإنسان بموجبها حصل على ما يرجو.

بهذا المعنى، يكونُ الدِّينُ، في مفهوم المسلمين، متعدِّداً، والإسلامُ

---

(٣) سورة البقرة ٢/٦٢؛ سورة المائدة ٥/٦٩.

خاتمتَـها كلِّهـا. إنَّه تمامُها وكـمالُها، بســبب كمـال الوحي في القرآن، وبسبب أنّ محمّدًا هو خاتم النبيِّين، ولا نبيّ بعدَه...

غيـر أنّ القول بأنّ «الدِّينَ عندَ اللَّهِ الإسلام» هو قـول قد لا يصحّ مع الاعتراف بسائر الأديان. فإمَّـا الإسلام وحدَه، وإمّا القبول بالأديان كافّة. والقولان موجودان في القرآن :

ألقبـول بتعـدّد الأديان واردٌ في قوله:«لا إكـراه في الدين» (٢/٢٥٦)، وفي قوله: «.. ولو شاء اللّه لجعلكم أمّةً واحدة» (٥/٤٨)، وفي قـوله: «..أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حـتّى يكونوا مـؤمنين؟!» (١٠/٩٩)، وفي أقوالٍ أخرى مماثلة كثيرة[٤].

والقبول بمبدأ الإسلام وحدَه واردٌ أيضاً في قوله: «مَن يَبتغِ غيرَ الإســلام دِينًا فلن يُقـبَلَ منه» (٣/٨٥)، وفي مـا رأينا من آياتٍ في بدء الكلام[٥].

ومن البديهي أن يرفضَ المسلمون القـولَ بتعدّدِ الأديان، إستناداً إلى قولهم بمبدإ «الناسخ والمنسـوخ»، الذي هو إلغاء الأديان والشرائع السـابق، واسـتـبـدالهـا بأنسب منه وأكـمل. واسـتناداً أيضًـا إلى أنّ أصحاب الأديان قـد حرّفوا وبدّلوا في الكتب المنزَلة، كاليـهود، أو غالوا وأشركوا وكفروا، كالمسيحيّين... وكلّهم كافر. يرفضـهم الإسلامُ رفضاً صريحاً. ولهذا شَرَّع الجهادَ فريضـةً مقدّسةً لا بدَّ منها، لإحقاق الحقِّ، ونشرِ رايةِ الإسلام، وعلى «ألاّ يبقى في الجزيرة العربيّة إلاّ الإسلام».

---

(٤) أنظر: سورة الروم ٣٠/٢٢؛ سورة الكهف ١٨/٢٩؛ سورة يونس ١٠/١٠٨...

(٥) أنظر: سورة آل عمران ٣/١٩؛ سورة النساء٤/١٢٥؛ سورة المائدة ٥/٣...

خطورة القول بالدِّين

ثمّ، إذا كـان الدِّين يقـوم على ممارسـاتٍ روحـيّـة، من ترويض النفس بالأصوام والإمـاتات والتقشّفات والتـضحيات وأعـمال التوبة، وذلك إمعانًا في التكفـير وطلب الغفران... فالمسيحـيّة، هي أيضاً، تدعو إلى هذه الأعـمال «الدينيّـة»، وتقـوم عليهـا؛ ولكن، لا بدّ من التنبّـه إلى أمور أربعة :

أوّلاً – يُخشى، في مـفهوم المسيـحيّة، أن يصـبح الدِّين، عندما تُنظَّم فيـه الأعمال والعبـادات تنظيمًا قـانونيًا وثابتاً، أن يصـبح ذا بعدٍ سيـاسي إجتماعي؛ فـيقع إذّاك الإلتباس بين مـا هو إيمان وبين ما هو نظمٍ إجتـماعيّة تفـرض نفسهـا، بقوّة هذا التنظيم؛ فيـصبح إذّاك خطراً على الإنسان والمجتمع معاً.

لقـد كـانتِ الكنيـسة، عـبـر تاريخـها، تـتصـارع دائمًـا مع هذا الإلتباس. وهـي تحاول دائماً أن تتخلّص منه. بينمـا الإسـلام يخلط بين ما هو نظم إجتماعيّة وسيـاسيّة وبين ما هو عبادات وممارسات دينيّة. فالمسيحيّة، في هذه الحال، إيمان؛ فيما الإسـلام انتماء.

ثانياً – ويُخشى أيضاً أن يصبح الدِّين، إذا ما تركّزت فيه النّظم الإجتماعيّة والتـشريعات القانونيّة، نظامًا إجتماعيًـا بعيدًا كلَّ البعد عن غاية الإنسان الأسـاسيّة التي هي الحاجة إلى ازدياد النعمـة الإلهيّة في حياته وسلوكه، والعمل على خلاصه النهائيّ.

ألمسيـحيّة تحاول باسـتمرار أن تعـمّق الصلة بين اللّه والإنسان حتى تصبح صلةً عميقةً حميمـةً شخصيّةً داخليةً روحيّةً إيمانيّةً تكتمل

بتحقيقها المَعادي... أمّا الإسلام فيعمل على أن تبقى العلاقة الدينيّة أساسَ كلِّ علاقةٍ إجتماعيّة، وأساس كلّ دستورٍ وقانون وتشريع. فالمسيحيّة، في هذه الحال، عملُ نعمةٍ في الإنسان؛ فيما الإسلام انتماء إجتماعيّ.

«غاية الكنيسة الأولى، كما جاء في تعليم الكنيسة، هي أن تكون سرّ الاتّحاد الصميم بين البشر واللّه. ذلك أنّ الشركة بين البشر تتأصّل في الاتّحاد باللّه. والكنيسة هي أيضاً سرّ وحدة الجنس البشريّ وفيها ابتدأت هذه الوحدة إذ إنّها تجمع بشراً "من جميع الأمم والأعراق والشعوب واللّغات" (رؤ ٧/ ٩)»[٦].

ثالثاً – ويخشى كذلك أن يصبح الدِّين، إذا ما تنظّمت شؤونه، وتعدّدتْ فيه الحركات التقويّة، من تقادمَ وقرابين وأعياد وذبائحَ وولائمَ ووضوءٍ ورقص، وإذا ما أصبح اللّه خاضعًا لمثل هذه الحركات، بحيث يشعر الإنسانُ أنّه يستطيع أن يستخدم اللّهَ ساعةَ يشاء، ويدلّ عليه بإصبعه، ويستعمله لحلولِ مشاكله... قد يصبح الدِّين، بهذه المعطيات قريبًا جدًا من الشعوذة، التي، على ما يبدو، لا يخلو منها دين، لأنّ الشعوذة، كالأسطورة، والوهم، والخرافة، بُعدٌ أساسيّ في الشخصيّة الإنسانيّة.

تحاول المسيحيّة أن تتخلّص من هذه الحركات التقويّة، بحيث أنّ موقف الإنسان من اللّه يجب أن يكونَ انسحاقاً تامًا، وعملاً شخصيًا عميقاً. وذلك من أجل ازدياد النعمة والقداسة فيه، لا من أجل أيّ

---

(٦) التعليم المسيحي، عدد ٧٧٥.

تضامن اجتماعيّ؛ فيما هو في الإسلام، ممارسات خارجيّة تتحكّم بها مذاهب فقهيّة صارمة، لا تترك مجالاً لأيٍّ عبادةٍ تنبع من القلب.

رابعاً – ويخشى أخيرًا، من كثرة التديّن، أن يعتبر الإنسانُ اللّه قريبًا منه إلى حدّ إقامة صلاتٍ حميمة معه، تُنسَف معها كلُّ الحدود، فيجد نفسه ضروريًا بالنسبة إلى اللّه كضرورة اللهّ بالنسبة إلى الإنسان؛ وذلك بسبب أنّهما، معًا، يكوّنان طرفَي الصلة الدِّينيّة... بهذه العلامة يشعر الإنسان وكأنّه كائن يلامس المطلق، أو أنّه لا يعود يرى في تديّنه سوى منفعته وأنانيته على حساب اللّه الذي صيّره هذا التديّن وراء السماء السابعة.

لهذا ترى المسيحيّة علاقتها باللّه من خلال شخصيّة يسوع المسيح المتجسّد في هذا الكون والوسيط الوحيد بين اللّه والإنسان، عملاً بقول يسوع: «لا أحد يعرف الآب إلاّ الابن، ومَن يُريدُ الابنُ أن يكشف له»؛ فيما الإسلام لا يزال يتعامل مع اللّهِ مباشرةً، من خلال كيان اللّه الأنتولوجي، أي من خلال اللّه–في–ذاته. وهذا التعامل فيه ما فيه من الخطورة على اللّه وعلى الإنسان معاً.

الدِّين ليس لقاءً

بهذه العلاقة المميَّزة بين اللّه–المتجسِّد والإنسان تنتفي عن المسيحيّة صفةُ الدِّين، الذي من شأنه أن يُقيم بين اللّه والإنسان حجاباً قد يحلّ محلّ اللّه، مثل كتابٍ منزَل، أو نبيٍّ مرسل، أو ناموسٍ إلهي، أو ملاكِ وحي... هذه جميعها تعتاضُ عن اللّه، وتحلُّ محلَّه، وتأخذُ دورَه؛ ويتعامل الإنسان معها كمع وسائل وحاجاتٍ تسلّيه عن قلقه الوجودي،

من دون أن توليه نعمةً، أو تزيدَه قداسة، أو تؤهّلَه إلى سعادة... معها يُقيم الإنسانُ علاقةَ خوفٍ، لا علاقةَ محبّة.

أمام هذه التسليات الدينيّة، تدعو الكنيسةُ أبناءَها إلى أن يبحثوا عن اللّه، لا حيثُ يريدون هم، بل حيثُ يريد اللّهُ أن يعرِّفنا بذاته عن ذاته. وتعلّم أيضًا أنّ كل ما يلوذ إليه الإنسانُ، من وحيٍ وكتبٍ منزَلة، وأنبياءَ ومرسَلينَ، ومقدَّساتٍ، ومعجزاتٍ، وعلومٍ غيبيّة، وأسرارَ إلهيّة، وحلولٍ لجميع مشاكل البشرية... كلُّها لا توازي أهميّةَ لقائِه الشخصيّ مع اللّه نفسه، بشخصِ يسوع المسيح الإله-المتجسّد.

من هنا كان خوفُ الكنسية من أن تقع في مستويات الأديان، فتوازي نفسَها بها، وتتحاورَ معها، وتعترف بقِيَمها ومعتقداتها. فكلّ ما في هذه الأديان من قِيمٍ وتعاليمَ، بلغتْ ما بلغتْ من سموٍّ، لا تعدو أن تكون درجةً واحدةً من سلّم القداسة التي نتسلّقه بنعمة يسوع المسيح الإله-المتجسِّد . هذا يعني أنْ لا قداسةَ لنا ممكنة إلاّ بعلاقتنا بيسوع المسيح الإله-المتجسِّد وحدَه، وبروحه القدّوس الذي يهبنا إيّاه. وهذا لا يكون خارج الكنيسة.

وما في المسيحيّة من مظاهر الدِّين، كالطقوس والأعياد والممارسات والتنظيمات والعبادات والمعتقدات... لا يكوِّن جوهرَ المسيحيّة إطلاقًا. والخطر الكبير على المسيحيّة يكمن في أن نجعلها في هذا المستوى؛ ونتخلّى عن جوهر علاقتها بالمسيح الإله-المتجسِّد من أجل قداسة العالم كلِّه وخلاص البشر جميعاً.

ألمسيحيّة إذًا، تتعالى على الأديان جميعِها. وتتجاوزها بطريقة قاطعة. بل هي تبتلعها مع كلِّ ما فيها، حتّى لا يعودَ لها، خارجًا عنها،

أيُّ ذكرٍ أو أثر. هذا يعني أنّ المسيحيّة هي الشكل الأخير والفريد لكلّ علاقة بين اللّه والإنسان؛ وأنّها هي الديانة المَعَادِيّة بامتياز؛ وهي المهتمّة كلَّ الاهتمام بخلاص الإنسان وسعادته؛ وهي المعنيّة برقيّ البشريّة وكمالها. وهي تتعامل مع البشر على هذا الأساس. وكلُّ ما في الأرض وما عليها تصيّره المسيحيّةُ وسيلةً فعّالةً من وسائل خلاصِ البشر وسعادتهم.

***

إنّ هذا المفهوم الحقيقي للدِّين عرفه بعضُ المسلمين؛ ولكنّهم اعتبروه مأخذًا على المسيحيّة، فيما هو، في رأي المسيحيّين، عينُ الصواب، وإنِ اقتضى له بعض التصويب.

يقول السيد هاشم مثلاً، في معرض انتقاده: ألمسيحيّة هي «الديانة الوحيدة التي وُلدتْ بالتقسيط، وعلى مراحل، والديانة الوحيدة التي نشأتْ وتطوّرتْ، بغيابِ صاحبِها الذي سُجّلتْ باسمه، فيما هو، في الحقيقة، لا يعرفها، وأكثر الظنّ أنّه لم يتقصّد إيجادَها، على الأقلّ أن تكون كما هي»[٧].

بعض هذا الكلام صحيح : ألمسيحيّة نشأت وتطوّرت ونمت عبر التاريخ وعلى مراحل. وصحيح أيضاً: أنّ المسيح لم يسجّل في دوائر السلطات الرومانيّة أو اليهوديّة دينًا أو حزبًا سمّاه باسمه؛ لأنّ المقصود في المسيحيّة هو المسيح نفسه، لا ما سجّله في دوائر الحكومة.

---

(٧) شريف محمّد هاشم، الإسلام والمسيحيّة في الميزان، ص ١٦٥.

أمّا ما يقتضي له التصويب فهو قوله: إنّ الكنيسة، التي أسّسها المسيح، «لم يتقصَّد إيجادَها... كما هي». هذا غير صحيح، لأنّ الكنيسة أسّسها المسيح من بشرٍ عاديِّين، «تضمّ في حضنها الخطأة. هي، في آنٍ واحد، مقدَّسة ومفتقرة دائماً إلى التطهير، ولا تني عاكفةً على التوبة والتجدّد»[٨]. جميع أعضاء الكنيسة، بما فيهم من خَدَمةٍ مرسومين، يجب أن يعرفوا أنَّهم خطأة[٩]. في الجميع زؤانُ الخطيئة يخالطُ بذورَ الإنجيل الصالحة إلى آخر الأزمان[١٠]. فالكنيسة تضمّ إذن خطأةً شَمَلهم خلاصُ المسيح، ولكنّهم أبداً في طريق القداسة»[١١].

وصحيح قوله أيضاً: إنّ «صورة المسيح بدأتْ تأخذ شكلاً ما في أذهان النّاس، كشخصيّةٍ غيرِ عاديّة، ليس بسبب ما قدّمه للبشريّة من تعاليم وشرائع، وإنما بسبب ما تخيّله هؤلاء، عمّا تحمّله عنهم من آلام الصلب. فلم تخلّدِ المسيحَ وصاياه، وإنما آلامُ صلبه. ولولا الصليب والآلام لما كان المسيح ولا المسيحيّة»[١٢].

هذا صحيح. وإنّما يقتضي له بعض التصويب، وهو أنّ المسلمين، كاليهود، يفهمون العلاقة بين اللّه والإنسان علاقةَ شرائع وتعاليم وعقائد نزلت من السماء في كتاب منزل بواسطة ملاك الوحي، أو أُرسلتْ على يدِ نبيٍّ رسول... وهذا ما لا تقوله المسيحيّةُ ولا تقوم عليه

---

(٨) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ٨؛ رَ: قرار في الحركة المسكونيّة، عدد ٣؛ ٦.

(٩) رَ: ١ يو ١/٨-١٠.

(١٠) رَ: متى ١٣/ ٢٤-٣٠.

(١١) التعليم المسيحي، عدد ٨٢٧؛ رَ: ٨٢١.

(١٢) شريف محمّد هاشم، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

إطلاقًا. ألمسيحيّة تقـوم على ما جاء به المسيح من خلاصٍ للإنسان. هذا الخلاص تمّ في سـرٍّ واحدٍ يبتـدئ بالتجسّـد وينتهي بالموت والقيـامة، ويمرّ عبر تعاليمه وأعماله وسيـرة حياته كلّها. ونقول أكثر: حتّى لو لم يصلنا من تعاليم المسيح شيء لما كان ينقصنا من الخلاص شيء.

ويأخذ السيد هاشم أيضًـا على المسيحيّة بأنّ ما فـيها من تعاليم ووصايا نطق بها المسـيح قبل صلبه، ويقول: «لا يمكن اعـتبارها (هذه التعاليم) شرائع وقوانين وأحكامًـا محدَّدة واضحة يمكن أن تكون حلاً لمشاكل المجـتمعـاتِ والإنسانيّة. بل كـانت عبارة عن وصـايا لها طابع خلقي مـسلكي طوباوي، نقلهـا عنه بعضُ تلامـذته، أو في الحـقـيقـة، نُسبت إليه، أو إليهم»[١٣].

هذا صحـيح أيضاً : ألمسـيح لم يسنّ قوانينَ وشـرائع، ولم يقدّم للبـشريّة حلولاً لمشـاكلها، ولم يضعْ أنظمـةً لضبْطِ حـرّيتهـا، أو حتّى فلتانها... ومَن ذا الذي قـال للمسلمين، ولبعض المسيـحيّين، بأنّ المسيح جاء من أجل هذا؟ مَن ذا الذي قال لهم بأنّ المسيح هو مصلحٌ إجتماعيٌّ، أو زعيمٌ شعبيٌّ، أو قـائدٌ بطل، أو قاضٍ يحكم بين الناس، أو حَكَمٌ يقسّم الأرزاق، أو سيِّدٌ يسـودُ العباد؟! مَن ذا الذي قال لهم بـأنّ المسيح جاء، كمـا يقول اليهود، ليـستعـيدَ الحكم من أيدي الرّومانيّين ليـردَّه إليهم، ويحكم العالم إلى مدى الدهر؟!

ألسيّـد هاشم، ومعـه المسلمون عامّـةً، أصاب في مـا قال، ولكنّه أخطأ في مـا نوى. والصـواب الذي يجـب أن يفـهمـه المسـيـحـيّـون

(١٣) شريف محمّد هاشم، المرجع نفسه، ص ١٦٧.

والمسلمون على السواء، هو أنّ المسيحيّة ليستْ ديناً؛ فيما الإسلام دين. وكذلك اليهوديّة، والماركسيّة، والإشتراكيّة... بل كلّ الأحزاب السياسيّة والاجتماعيّة يمكن أن تكون أدياناً بكلِّ معنى الكلمة.

خاتمة

نقول أخيراً : إنّ القول بأنّ اللّهَ أنشأ ديناً لهؤلاء أو لأولئك من البشر، هو قولٌ فيه امتهانٌ لسيادة اللّه على العالم، أكثر ممّا فيه تمجيد وتكريم وعبادة. إنّها لإهانةٌ كبرى في حقِّ اللّه حصْرُ محبّته في جماعةٍ محدَّدة، فيما البشر كلّهم أبناؤه، ويعنيه خلاصُهم جميعهم. فالقول بالدِّين نفيٌ للّه. ونفي الدِّين نعمةٌ من اللّه. والمسيحيّة من كلِّ دِين براء.

ما من شكٍّ بأنَّ الأديان كلَّها طرقٌ يبحث فيها الإنسانُ عن اللّه. أمّا في المسيحيّة فاللّهُ هو الذي يبحث عن الإنسان. وهذا هو الفرق الحاصل بين المسيحيّة والأديان جميعها. وهو فرْقٌ كبيرٌ جدًّا، إلى درجة أنَّ المسيحيّة لا تدخل في سياقها؛ ولكنّها أيضاً تعترف بما فيها من نور: «ألكنيسة الكاثوليكيّة لا ترفض شيئاً ممّا هو حقّ ومقدّس في هذه الأديان. إنّها تحترم بصدقٍ أساليبَ العمل والحياة، والقواعد والمعتقدات، مهما اختلفت عمّا هو عندها، وتعتبر أنّ فيها نوراً من الحقيقة التي تنير جميع البشر»[١٤].

ألكنيسة لا تفرض على أحد، ولا ترفض أحداً، ولا تساوم مع أحد. إنّها تحاور الجميع، وتعمل على خلاص الجميع، وتقدّم لهم ما به تؤمن؛ لأنّهم أبناؤها وتشاء سعادتهم بأيِّ ثمن.

---

(١٤) بيان في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحيّة، عد ٢.

١٥

الإنسان

إستنادًا إلى مفهومنا للّه، وإلى علاقتنا به -وهما مختَلف فيهما بالعمق في ما بين المسيحيّة والإسلام، كما رأينا سابقاً- نجد الإختلاف إيّاه في مفهومِ المسيحيّة والإسلام للإنسان ككائنٍ بشريّ، في أبعاده الإنسانيّة كلِّها، في علاقته باللّه وتصوّره له، في سلوكه، وممارساته، وأخلاقه، وصفاته، وقيمه وأبعاده الروحيّة والاجتماعيّة كلّها.

١ . في تعاليم الكنيسة الأساسيّة : «يجب أن يؤول كلُّ شيء على هذه الأرض إلى الإنسان باعتبارِه مرجعَ كلِّ شيءٍ وذروتَه»[1]. وللتأكّد من ذلك، يكفينا أن نعرفَ أنّ اللّهَ، في صميم عقيدة الكنيسة، خلق الإنسانَ، وشاءَ خلاصَه، منذ أنْ خلَقَه، فصار يوحي بتعاليمه وبالطرق التي يتّجه بها إليه، حتّى صار هو نفسه إنسانًا من أجل تأليه الإنسان.

يكفي الإنسانَ كرامةٌ أن يصير اللّهُ، في المفهوم المسيحيّ، هو نفسُه، إنساناً. في مثلِ هذه النظرة، تصبح الأنتروبولوجيا، العلمُ

(١) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، ١٢/١

الخاصُّ بالإنسان، لا تنفصل عن الكريستولوجيا، العلمِ الخاصِّ بالمسيح. ويصبح، بالتالي، انتسابُ الإنسانِ إلى اللّه أكثرَ من انتسابه إلى آدم. ويصبح المسيح نفسُه، لا آدم، هو المثال الكامل للإنسان.

٢. وفي تعليم الكنيسة أيضًا : بواسطة المسيح، لا بغيره، ينفتح الإنسان على اللّه، ويُقيم معه حوارًا دائماً، أساسُه المحبّة المتبادلة التي تجعل من الإنسان شريكًا للّه في ألوهيّته وفي ملكه. وعملُ الروح القدس ليس غيرَ ذلك؛ فهو الذي يصيّرُ الإنسانَ مقدَّساً يشارك اللّهَ في ألوهيّته، حتّى أصبح المسيحيُّ لا يَخشى «الشِّرْكَ» في ما حصل عليه من اللّه بواسطة يسوع المسيح.

٣. بداية الخلاف بين الإسلام والمسيحيّة، في موضوع الإنسان، هو أنّ المسيحيّة تعتبر الإنسانَ « وحده المدعوّ إلى المشاركة في حياة اللّه بالمعرفة والمحبّة. لقد خُلق لهذه الغاية. وهذا هو سبب كرامته الرئيسيّ »[٢]. وتذهب المسيحيّة إلى القول، بلسان الذهبيّ الفم، بأنّ اللّه « لم يوفّر ابنَه الوحيد نفسَه في سبيله. وإنّ اللّهَ ما انفكَّ يسعى السعيَ كلَّه لكي يرقَى بالإنسان إليه ويُجلسَه إلى يمينه »[٣].

هذا يعني، كما جاء في كلام المجمع الفاتيكاني الثاني، «أنَّ سرَّ الإنسان لا يفسِّره تفسيراً حقيقيًا إلاَّ سرُّ الكلمة المتجسِّد»[٤]. لهذا، فإنّ «الشخص البشريّ بكامله مُعَدٌّ لأن يصبح، في جسد المسيح، هيكلَ

---

(٢) التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٣٥٦.

(٣) القدّيس يوحنا الذهبي الفم، عظات في التكوين ٢، ١.

(٤) دستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم، (ك ع) ٢٢، ١.

الروح»[٥]. «فلا يجوز للإنسان، إذاً، أن يحتقرَ الحياةَ الجسديَّة؛ بل عليه أن يعامل جسدَه بالإحسان والإكرام، لأنَّه خليقةُ اللّه ومُعَدٌّ للقيامة في اليوم الأخير»[٦]. هذا وإنّ «نفسَه قادرةٌ على أن تُرَقَّى مجّاناً إلى الشركة مع اللّه»[٧].

وهكذا، فإنّ المسيحيّين قد أصبحوا حقًّا «أبناءَ اللّه» (١ يو ٣/ ١)[٨]، و«شركاء في الطبيعة الإلهيّة» (٢ بط ١/ ٤).

ويختصر تعليم الكنيسة الكلامَ في غاية الإنسان القصوى، وهي «التي يدعونا اللّهُ إليها، أي الملكوت، ورؤية اللّه، والمشاركة في الطبيعة الإلهيّة، والحياة الأبديّة، والبنوّة، والراحة في اللّه»[٩].

٤ . ثمّ إنّ انفتاح الإنسان على اللّه يؤدِّي حتمًا إلى انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان، إلى درجةٍ أنْ يصبحَ فيها هذا الانفتاح بُعدًا أساسيًا لطبيعة الإنسان. هذا البعد هو ما يسمّى، في المسيحيّة، «المحبّة»، أي محبة الإنسان لأخيه التي تعادل محبتَه للهّ، بل هي تتقدّم محبّة اللّه في الأوّليّة، لا في الأولويّة؛ ومحبّة اللّه تتأسّس عليها.

هذا يعني أنّ خلاصَ الإنسان يبتدئ بمحبّة الإنسان لأخيه، لا بمحبّته للّه: ألإنسان أوّلاً ثمَّ اللّه، لأنّ الإنسانَ هو الوسيلة إلى اللّه. والوسيلةُ، عادةً، تكونُ، من حيث الزمن، قبلَ الغاية.

---

(٥) رَ: ١ قور ٦/ ١٩–٢٠؛ ١٥/ ٤٤–٤٥؛ التعليم المسيحي، عدد ٣٦٤.

(٦) دستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم، (ك ع) ١٤، ١.

(٧) رَ: بيوس ١٢ً، «الجنس البشريّ»، ١٩٥٠: د ٣٨٩١.

(٨) رَ: يو ١/ ١٢.

(٩) التعليم المسيحي، عدد ١٧٢٦.

٥ . عن هذه الأوَّليّة، علّم يسوع وقال: «إنْ جئتَ تُقرِّبُ علَى المذبحِ قربانَكَ، وذكرتَ لأخيكَ شَيئاً عليكَ، فَدَعْ هنالكَ قربانَكَ، وبادِرْ فصَالِحْ **أوّلاً** أخاك. ثمَّ عُدْ وقرِّبْ قربَانَك» (متى ٥/٢٣-٢٤).

هذا التعليم فريدٌ، بل غريبٌ عن منطق أديان أهلِ الأرضِ كافَّة: أترك القربانَ والمذبحَ والهيكلَ واللّهَ نفسَه... واذهبْ إلى أخيكَ، **أوّلاً**. صالحْهُ. أحبَّهُ. إغفِرْ لهُ. تُبْ إليهِ. سامحْهُ.... ثمّ تعالَيا معاً إلى اللّه. وعندما تجتمعان معاً يكون اللّه معكما[١٠]. هذا يعني أنّ درجات الخلاص تبتدئ، أوّلاً، بمحبّة الإنسان لأخيه الإنسان، ثمّ بمحبّته للّه الذي هو في أعلى درجات السلَّم.

٦ . حياة يسوع، وتعاليمُه، وأعمالُه، وصلْبُه، وموتُه، كلُّها تعلّم ذلك وتؤكّده : مَن من البشر يلتمس من اللّه أن يغفر له، وهو لا يغفر لأخيه؟! إنّ اللّهَ لن يغفر له[١١]. ومَن يكون صادقاً إنْ قال إنّه يُحبّ اللّهَ وهو يبغض أخاه: «إنْ قال أحدٌ: إنّي أحِبُّ اللّه، وهو يُبغض أخاه، كان كذَّاباً. فمَن لا يُحِبُّ أخاه الذي يراه، لا يَسَعُه أنْ يُحبَّ اللَّهَ الذي لا يراه» (١ يو ٤/٢٠).

وأي صلاةٍ أعظم من هذه التي علّمناها يسوع، وطلب منّا أن نطلب من اللّه أبينا قائلين له: «وَاعْفُ عَنّا ذُنوبَنا عَفْوَنا عَمَّن أذنَبَ إلينا». فالمعادلة واضحة: «إنْ تَغْفِروا للنّاس زَلاّتِهِم يَغْفِرْ لكم أبوكم السّماوي. وإنْ لمْ تغْفِروا للنّاس فأبوكم لن يَغْفِرَ لكم» (متى ٦/١٢ و١٥).

---

(١٠) «فما اجتمَعَ اثنانِ أو ثلاثةٌ باسمي إلاّ وكنتُ هنالِكَ بينَهم» متى ١٨/٢٠.

(١١) أنظر مثل العبد القاسي في متى ١٨/٢٣-٣٥.

وأيضــاً : «مَن يقولُ إنّه في النّور، وهو يُبـغض أخَاه، فــهو حــتّى الآنَ في الظلمة... وفي الظلمة يَسير» (١ يو ٢/ ٩-١١).

«هذه هي البُشرى: أن يُحبَّ بعضُنا بعـضاً... نحن نعلم أنّا انتقلْنا من الموت إلى الحياة، لأنّا نُحبُّ الإخوة. مَن لا يُحبُّ يمكُثُ في الموت. كلُّ مَن يُبغِض أخاه يكون قاتلاً. وتَعلمون أنّ كلَّ قاتلٍ لا حياةَ أبديّةً له ثابتةً فيه. بهذا عرفنا المحبّة: أنّ المـسيحَ جادَ بالنفس في سبيلنا، ونحن أيضاً علينا أن نجودَ بالنفس في سبيل الإخوة» (١ يو ٣/ ١١-١٦).

«أللّه محبّـة، ومَن يثبُتُ في المحبّة يَثْبُتُ في اللّه، واللّهُ يثـبتُ فيه... نحنُ نُحبُّ، لأنّه هو أحبّنا **أوّلاً**» (١ يو ٤/ ٧-٢١).

والذين يرثون المـلكوت هؤلاء هم الذين قـال لـهم يسـوع: «لأنّي جُعْتُ فـأَطْعَمْتُمُـونِي، وعَطِشتُ فسَقَـيتُمُونِـي، واغْتَرَبْتُ فآوَيتُـمُونِي، وعَرِيتُ فكَسَوتُمُونِي، ومَرِضْتُ فعُدْتُمُونِي، وسُجِنْتُ فزُرْتُمُونِي».

ويســألُه الأبرار : «مـتى رَأيناكَ، يا ربُّ، جـائعـاً فـأطعـمناك، أو عطشـانَ فـسقيناك؟ ومتى رأيناكَ غـريباً فآوَينَاك، أو عَـارياً فكَسَوناك؟ ومتى رأيناكَ مـريضاً، أو سجـيناً، فزرناك؟». فيُـجيبـهم : «ألحقَّ أقولُ لكم: كلّمــا صنَعـتُم هذا إلى أحـدِ إخـوتي الأصـــغَـرِينَ هؤلاء فـإليَّ صنعتموه».

أمّا الذين يـذهبون إلى عذابٍ أبديّ فـهؤلاء هم الذين لم يَـصنعوا شيئاً من هذا إلى أحدِ الأصغَرِين (متى ٢٥/ ٣١-٤٦).

هذه التعـاليم الرفيـعة رافـقها تصــرّفٌ أرفع : لقد «كـان يسوع يجوبُ الجليلَ كلَّه... ويَشفي الشعبَ من كلِّ مرضٍ ووهْنٍ... وشفى كلَّ

عليلٍ جِيء به إليه، كلَّ أنواع المرضى والموجوعين: ممسوسين، ومصروعين، ومفلوجين»[١٢].

٧. ليس يسوعُ شيئاً إنْ لمْ يكنْ ذاك الوسيط الوحيد بين اللّه والإنسان: لقد جاء يسوع **يُخلِّص** الإنسانَ، لا من الشيطان والخطيئة فحسب، بل من إلهِ الأنبياء والرسل والأديان والشرائع والكتب المنزلة. لم يكن في همّ يسوع أن يكون مع فئةٍ من البشر على حساب فئة أخرى، ولا مع إنسانٍ على حساب آخر، لأنّ البشرَ كلَّهم خلْقُه وملْكُه وموضوعُ عنايتِه ومحبّتِه.

كان همُّ يسوع وعملُه في أن يحرّر البشرَ كلَّ البشر. فهو للأبرار والأشرار سواء، للأصحّاء والمرضى، لليهود والأمم، للأحرار والعبيد، للرجال والنساء... ألكلُّ مدعوٌّ إلى وليمته.

لقد ظلمَ الإنسانُ أخاه، وأبغضه، وقتله إرضاءً للّه. في حين أنَّ اللّهَ سألَ قايينَ يوماً: «مَاذا صَنعتَ بأخيك.. إنّ صوتَ دماءِ أخيكَ صارخٌ إليّ مِن الأرض» (تك ٤/٩-١٦).

ولا يزال الأمرُ هكذا بين البشر، إلى أن كان يسوع الذي جاء من عند اللّه ليقول لنا على لسان رسوله يوحنّا: «ألله مَحبّة». «مَن يُحِبُّ هُوَ مِنَ اللّه». «بَادِرْ وصَالِحْ أخَاكَ أوّلاً»... فبسبب هذه الأقوال وهذه المواقف، نعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ يسوع وحدَه جاءَ من عند اللّه. وهو كذلك بسبب ما احتمل من أجل الإنسان. وما العذاب والآلام والصلب والموت والنزول إلى الجحيم إلاّ عناوين لمقولة «الإنسان أوّلاً».

---

(١٢) متى ٤/٢٣-٢٤؛ مرقس ١/٣٩؛ لوقا ٤/٤٤؛ ٦/١٧-١٨.

٨. هذه كلّها تشير إلى أنّ الخلاصَ يكمن في محبّةِ الإنسان لأخيه. فلكأنّ الإنسانَ الآخَر، في المسيحيّة، هو سرّ ثامنٌ يُضاف إلى الأسرار السبعة، التي تولي النعمةَ مباشرةً، أي من دون أهليّةٍ من معطيها أو قابلها. محبّة «الآخَر»، والعملُ من أجله، ضمانةُ الخلاص.

إنّ المسيحيّة تعلّم بوضوح أنّ يسوع المسيح الإله المتجسّد جاء يخلّص الإنسانَ، لا ممّا ارتكب آدم من خطيئة أصليّة مزعومة؛ بل من ظلمِ أخيه الإنسان. جاءَ يُعيد إليه حرّيّتَه التي سلبها منه الناموسُ والأديانُ والكتبُ المنزلة باسم اللّه. والمسلوبُ باسمِ اللّه لا يُعيده إلاّ اللّه.

٩. بالتجسّد، أصبح ارتباطُ الإنسان باللّه أُفُقيًا، أي مع الإنسان المُخلَّص، بدل أن يكون مع اللّه، عاموديًا. فلنبحث، في المسيحيّة، عن اللّه، بين البشر، لا في السموات، ولا في الكتب المنزلة، ولا في الشرائع المنسوبة ظلماً وخطأً إليه. بمحبّة الإنسان لأخيه الإنسان، تكون كرامةُ الإنسان في عمقها، ويكون اللّه نفسُه حاضراً. أليس قولُ المسيح يكفي للتعبير عن هذا، عندما أعلن: «ما اجتمَعَ اثنانِ أو ثلاثةٌ باسمي إلاّ وكنتُ هنالِكَ بينَهم»؟ (متى ١٨/ ٢٠).

١٠. ألإنسان، في المفهوم المسيحي، وفي أيٍّ موقعٍ إيمانيٍّ أو اجتماعيٍّ كان، يستحقُّ من أخيه الإنسان أن يتجلّى له، ويُحبَّه، كما هو: أي أن يعطيه الحقيقةَ كاملةً، وبمحبّة، وكأنّها حقٌّ له. كلُّ إنسانٍ يستحقّ أن نعمل من أجله، من أجل مساعدته، ومن أجل تحقيق ذاته؛ أن نسعى وإيّاه في البحث عن الحقيقة وفي تحقيق الحرّيّة. يستحقّ أن نساويَه بأنفسنا، أن نعامله كأنفسنا، أن نضحّي في سبيله، أن نوفّر له الخير، أن نعمل من أجل سعادته وخلاصه.

١١ . ألإنسان، في المفهوم المسيحي، مـهما حاولنا إدراكَ أعماقه، يبقى سرّاً مصوناً. فهو كيان بلا حدود، حضور بلا قيود، طاقة هادرة، إنفتـاح دائم، حوارٌ مسـتمرّ، حـرّيّة مطلقة، شـخصٌ مسـتقلّ بفرادته، يستحقّ كلَّ تضحيةٍ في سـبيل نموِّه ورقيِّه. ولأجل غناه العميق هذا، لا نستطيع أن نقف منه مـوقفًا نهائيًا، قاطعًـا. لا يمكننا أن نحكم عليه، أو أن ندينه، أو أن نعلّبه، ونوضّبـه، ونصنّفه، ونسوّقه كسلعـة لها وزنُها وحدُّها وثمنُها ومنفعتُها...

١٢ . هذه النظرة العـاليـة للإنسـان جـعلتِ الكنيـسـةَ تعلّم « أنّ الإنسانَ هو الذي يجب أن يُخَلَّص، والجماعةَ البشريّة هي التي يجب أن تُجدَّد »[١٣]. وتعلّم أيضًا « أنّ للإنسان دعوةً سامـية، وأنّ زرعًا إلهيًا قد وُضع فيه... والكنيسة تريد تعاونًا صادقًا لتأسيس أُخوَّةٍ شاملة »[١٤].

ثمّ تطرح الكنيسـةُ الصوتَ عاليًا، وإلى كل إنسـان، باسم المجمع، قائلة: «يبتغي المجمع أن يتوجّـه إلى الجميع كي يُلقي الأضواء على سرّ الإنسان، ويسـاعد الجنس البـشري على إيجـاد الحلّ لمشاكل عـصرنا الكبرى»[١٥]. ويحدّد المجـمع «ما تفكّر الكنيـسة في الإنسـان؟ وما هي التوجيهات الواجب اقتراحها من أجل بناء المجتمع المعاصر؟ وأي معنى نهـائي نعطي نشـاط الإنسـان في الكـون؟ إنّ هذه الأسـئلة تـتطلّب جوابًا»[١٦].

---

(١٣) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، ٣.

(١٤) المرجع نفسه، ٣.

(١٥) المرجع نفسه، ١٠.

(١٦) المرجع نفسه، ١١/٣.

وليس من احترام أعظم من موقف الكنيسة التي «تعلن بكل صراحة أنّ على البشر أجمعين، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين، أن ينكبّوا على بناء هذا العالم في العدل، هذا العالم الذي يَحيون فيه معًا. ولن يتمّ ذلك حقًا إلاّ بالحوار الصريح الحكيم. فالكنيسة تأسف إذًا للتمييز في المعاملة بين مؤمنين وغير مؤمنين، تقوم به بعضُ السلطات المدنيّة بطريقة ظالمة، محتقرةٍ حقوق الإنسان الإنسانيّة»[١٧].

هذا الاهتمام الشامل بالإنسان، وبكلّ إنسان، هو من العلامات المميزة لكنيسة المسيح التي تعتبر كلَّ إنسان مستحقًا الخلاص، إذ هي تعتبر نفسها مسؤولة عن خلاص البشريّة كلّها، من بدئها حتى نهايتها، لأنّ المسيح هو مخلّص العالم كلّه.

١٣ . ولمن يتساءل عن خلاصِ غير المؤمنين بالمسيح، تعلمّ الكنيسة، إنطلاقاً من احترامها الكبير للإنسان، كخليقة للّه، غاية هذا الكون؛ فتقول بعباراتٍ صريحة: إنّ الخلاصَ «لا يَصحُّ فقطْ في الّذينَ يُؤمنونَ بالمسيح، ولكنْ في كلِّ النّاسِ ذوي الإرادةِ الصالحة، الّذينَ تَعملُ النِّعْمةُ في قلوبِهمْ بطريقةٍ خفيّة. فإذا كانَ المسيحُ ماتَ عن الجميع[١٨]، وإذا كانتْ دعوةُ الإنسانِ الأخيرة هي حقًا واحدة للجميع، أي أنّها دعوة إلهيّة، علينا إذًا أن نتمسّكَ بأنّ الروحَ القدس يقدّم للجميع الإمكانيّةَ للإشتراكِ في سرِّ الفصح بطريقةٍ يعرفُها اللّهُ وحدَه»[١٩].

---

(١٧) المرجع نفسه، ٢١/٦.

(١٨) ر: رو ٨/٣٢.

(١٩) ك ع، ٢٢/٥.

لا إنسان، مهما كان بعيداً عن اللّه، يستطيع أن ينغلق على عمل الروح. ومع هذا، فإنَّ كرامة الإنسان، في تعليم الكنيسة، لا تقتصرُ على خلاصه وسعادته المَعَادِيِّين فحسب، بل «يزداد الشعورُ بكرامة الإنسان السامية التي تفوق كلَّ شيء، والتي لا تُمَسُّ حقوقُها وواجباتُها الشاملة. فمن ثمّ، كما تعلّم الكنيسة، يجب أن يُوَفَّرَ للإنسان كلّ ما يحتاجُه ليعيش حياةً إنسانيّةً حقّة. مثلاً: الغذاء والكساء والمسكن، والحقّ في اختيار الحياة التي يريد اختيارًا حرّاً، والحقّ في أن يؤسّس عائلة ويربّيها، والحقّ في العمل، والصيت، والاحترام، والاطلاع الوافي، والحقّ في أن يتصرّف حسبَ قاعدةِ ضميره الصحيحة، والحقّ في المحافظة على حياته الخاصّة، وفي حرّيّة عادلة حتى في القضايا الدينيّة»[٢٠].

«... وللبلوغ إلى هذا المستوى يجب العمل على تجديد الذهنيات والبدء بتبديلات إجتماعيّة واسعة»[٢١].

١٤ . ثمّ إنّ اللّهَ، لمحبّته، كلّفَ الإنسانَ بأنْ يضع هو نفسُه شريعةَ سلوكه. فاللّهُ، على ما تعلّم الكنيسة، «لم يشأْ أن يحتفظ لنفسه بممارسةِ كلِّ السلطات. فهو يُعطي كلَّ خليقةٍ الوظائف التي يمكنها أن تمارسَها بحسب إمكانات طبيعتها الخاصّة. ونمط الحكم هذا يجب أن يُقتدَى به في الحياة الاجتماعيّة. وتصرُّف اللّه في حُكم العالم، الذي يُظهر الكثيرَ من المراعاة للحرّيّة البشريّة، يجب أن يُلهم حكمة مَن

---

(٢٠) المرجع نفسه. ٢٦/ ٢.

(٢١) المرجع نفسه، ٢٦/ ٣.

يحكمون الجماعات البشريّة. فعليهم أن يتصرَّفوا كمُعتَمَدين للعناية الإلهيّة»[٢٢].

هذا تعليم رائع، لأنَّ الشريعة، في مفهوم الكنيسة، بدل أن تكونَ من وضعٍ إلهيّ، فإنّها «قاعدةُ سلوكٍ تضعها السلطةُ الصالحة لأجل الخير العام... و(لكن) كلّ شريعة تجد في الشريعة الأزليّة حقيقتها الأولى والقصوى. والشريعة يُعلنها ويُنشئها العقل كمشاركةٍ في عناية اللّه الحيّ خالق الجميع وفاديهم. «إنّ تَوجُّه العقل هذا هو ما يُسمَّى بالشريعة»[٢٣].

«... وبما أنَّه (أي الإنسان) اختُصَّ بالعقل، وكان قادراً على الفهم والتمييز، فهو ينظِّمُ سلوكَه مستعيناً بالحرّيّة والعقل، خاضعاً لمن سلّمه كلَّ شيء»[٢٤].

***

١٥ . هذه النظرة المسيحيّة للإنسان، وهذه الكرامة العظمى التي توليها الكنيسة للجنس البشري، مهما كانت اتّجاهاته الدينيّة والإجتماعيّة... ليست هي نفسها في الإسلام.

كرامة الإنسان، في الإسلام، تأتي من موقعه الديني: ألإنسان يكون ذا كرامةٍ إذا كان مسلماً، عضواً في «الأمّة الأسلاميّة»؛ وهو

(٢٢) التعليم المسيحي، عدد ١٨٨٤.

(٢٣) لاون ١٣ "، «الحرّيّة بامتياز»: أعمال لاون ١٣ "، ٨، ٢١٨؛ مستشهداً بتوما الأكويني، خ ل ١–٢، ٩٠، ١؛ التعليم المسيحي، عدد ١٩٥١.

(٢٤) ترتوليان، ضد مرقيانوس ٢، ٤، ٥.

«ضدّ» الأمّة إن لم يكن مسلمًا، وعدوٌّ اللّهِ والإسلام. إنّه إنسانٌ منقوصُ الكرامة إن كان لا يزال بعدُ بعيدًا عن الإسلام. وإذا أصرّ على عدم إيمانه بالإسلام، وأعلنَ عداوتَه للّه، فهو كافرٌ، أو مشركٌ، ودمُه حلال. وإذا ما تعدّى الإنسانُ المسلمُ على الشريعة، فللّهِ عليه حدود، يطبّقها المسؤولون في الدّين باسم اللّه. وفي عمليّة التطبيق هذه، يُظنُّ بأنّ المسؤولين هم المنزعجون لا اللّه. فاللّهُ، في الإسلام، أشدُّ ظلماً على الإنسان من الإنسان نفسه.

ومن الطبيعي، والحال هذه، ألاّ يوافقَ المسلمون على تصرّف يسوع مع المرأة الزانية : «أتاه الكتبةُ والفرّيسيّون بامرأةٍ دُهِمَتْ تَزني، وأقاموها في الوَسْطِ، وقالوا: أيّها المعلّم! دُهِمَتْ هذه المرأةُ في زِنًى مَشهودٍ، وتوراةُ موسى تَقضي علينا برَجْمِ أمثالِها، فما تقولُ أنتَ؟ قالوا هذا شَرَكاً له، وباباً ليَشكوه. فأكَبَّ هو يَخُطُّ بإصبعِه في التراب. وألحُّوا يَسألون، فانتصبَ وقال لهم: مَنْ مِنْكُمْ بلا خَطِيئَةٍ فَلْيَرْجُمْها بأَوَّلِ حَجَر.

«ثُمَّ أكبَّ، وعادَ يَخطُّ في التراب. ولدى سماعهم كلامَه هذا، انصَرَفوا واحِداً في إثْرِ واحد، شُيوخُهم أسْبَقُهم. لم يبقَ سوى يسوعَ. وبقيتِ المرأةُ في الوَسْطِ، فانتصبَ يسوعُ وقال: أينَ هم، أيّتها المرأة؟ أمَا دانَكِ أحَدٌ؟. قالت: وما دانَني أحَدٌ، سيِّدي. قال يسوع: ولا أنَا أَدين. رُوحي، ولا تَعُودي تَخْطَئِين» (يو ٨/٣-١١).

هذه المرأة الزانية، في الشريعة الإسلاميّة، كما في الشريعة اليهوديّة، تستحقُّ الرَّجم حتّى الموت. أمّا في المسيحيَّة، فكما قال أغوسطينوس، مختصراً هذا المشهد: «لم يبقَ سوى اثنتَين: مسكينةٌ

ورحـمة». أمّـا في الإسـلام فـ«لا مسكـينة ولا رحمـة»، بل قـيِّمـون يحكمون باسم اللّه، ويطبّقون شريعةَ اللّه، شريعةً يبدو تطبيقُها واجباً، ولو كان الإنسان نفسُه ضحيّةً.

هذه الحادثة تمثّلُ موقف المسيحيّة الرحـيمة بالإنسان، مهما كان هذا الإنسان؛ وموقف الإسلام القيّم على الشريعـة، مهما كانت النتائج والضحـايا. فلكأنّ الإنسانَ، في المسيـحيّة، كـما رأينا في رأس الكلام، يمرّ قـبـلَ اللّه، أو هو الواسطة إلى الـلّه؛ وفي الإسـلام، يمرّ اللّـهُ قـبلَ الإنسان، في تطبيق حدود اللّه، لأنّ الشريعة أولى من الإنسان.

من هنا، تبدو لنا شريعـة «الجهاد» في الإسلام مقدَّسـة وواجبة، وركناً من أركـان الدِّين[٢٥]، وذات خطورةٍ جـسـيـمـة على الإنسـان وحرّيّتـه: فالمسلم المـرتدّ عن إسلامه يُـقتَل. وكذلك مَـن أهان الإسلام، وسبّ النبيّ، ورفض القرآن، وشـكّ باللّه، ورفض موقعـه المعيّن له من قِبَل الـشريعة... تُجـرَى عليه أحكام اللّـه، بلا رحمة: «ألزَّانِيَـةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كلَّ وَاحِدٍ منهُمَا مَائَةَ جَلْدَة. وَلا تَأْخُذْكُمْ بهمَا رأفَةٌ في دينِ اللَّهِ، إنْ كُنتُم تُؤمِنُونَ بِالـلَّهِ واليَومِ الآخِـرِ. ولَيَـشْـهَـدْ عَـذَابَهُمَـا طَائفَـةٌ مِنَ المؤمِنِين»[٢٦]... كلٌّ ذلك في سبيل اللّه، وفي سبيل دين اللّه.

أضف إلى ذلك نـظرية «الدَّارَين»: دار السلم ودار الحـرب. ومـا بينهما «هدنة موقّتة». فإمّا تكون في سلام مع المسلمين، وإمّا تكون في حرب. إنْ خضعتَ لـلشريعة الإسلاميّة كنت في أمـان الإسلام وذمّته،

---

(٢٥) هذا عند بعض الفرق الإسلاميّة.

(٢٦) سورة النّور ٢٤/٢.

وإنْ لمْ تخضعْ كنتَ في حرب معه مستمرّة. إن كنتَ قويًا فدارُ هدنة، وإن كنتَ ضعيفًا فقد آن أوانُ الخضوع لشريعة الإسلام.

باختصار. إن كرامةَ الإنسانِ في الإسلام تأتي من موقعه الديني، ومن تطبيقه لأحكام الشريعة. أمّا كرامة الإنسان في المسيحيّة فمن كونه هيكلاً مقدّسًا للروح القدس، ناله بواسطة التجسّد الإلهي. و«الناس بأجمعهم مدعوّون إلى غاية واحدة هي اللّه نفسه. وهناك بعض الشّبَه بين وحدة الأقانيم الإلهيّة والأُخوَّة التي يجب على الناس أن يُقيموها في ما بينهم، في الحقيقة والمحبّة[٢٧]. فمحبّة القريب لا تنفصل عن محبّة اللّه»[٢٨].

١٦ . ويجب أن نشير، في ختام الكلام، إلى أنَّ الإنسانَ، في المسيحيّة، كائنٌ إجتماعيّ، وليس فرداً منعزلاً. بُعدُه الاجتماعيّ جزء من شخصيّته وطبيعته، وحتّى مصيره. هكذا خلقه اللّه. وهكذا تقول الكنيسة في تعاليمها: «يحتاج الشخص البشريّ إلى الحياة الاجتماعيّة. وهي بالنسبة إليه ليست شيئاً مضافاً، وإنّما من مقتضيات طبيعته. فالإنسان، بالتواصل مع إخوته، وتبادل الخدمات والحوار، يُنمّي قواه ويلبّي هكذا دعوتَه»[٢٩] التي دعاه إليها اللّهُ منذ أن خلقه في الفردوس.

لقد خلقَه اللّه، منذ البدء، ذكراً وأنثى، متساويَين، ومسؤولَين عن مستقبل البشريّة كلّها: فـ «الرّجل يكتشف في المرأة "أنا" آخر، من

---

(٢٧) رَ: ك ع ٢٤.

(٢٨) التعليم المسيحي، عدد ١٨٧٨.

(٢٩) رَ: ك ع ٢٥؛ التعليم المسيحي، عدد ١٨٧٩

البشريّة نفسها»[٣٠]. و«الرّجل والمرأة صُنعا "الواحد للآخر"، لا أنّ اللّه صنعهما "نصفَين" و"غيرَ كاملين"؛ إنّه خلقهما لشركةِ شخصَين يستطيع فيها كلٌّ واحد أن يكونَ "عوناً" للآخر، لأنَّهما، في الوقت نفسه، متساويان، لكونهما شخصَين ("عظمٌ من عظامي") ومتكاملَين، لكونهما ذكراً وأنثى»[٣١].

«وفي الزواج يجمعهما اللّهُ بحيث، وهما "جسدٌ واحد" (تك ٢/ ٢٤)، يستطيعان أن يُعطيا الحياةَ البشريّة: "أنموا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ١/ ٢٨). والرجل والمرأة، زوجَين ووالِدَين، عندما يُعطيان نسلَهما الحياةَ البشريّة يُسهمان إسهاماً فريداً في عمل الخالق»[٣٢].

«الرجل والمرأة مدعوّان، في تصميم اللّه، "لإخضاع الأرض" (تك ١/ ٢٨، على أنّهما "وكلاء" اللّه. وهذه السيطرة يجب أن لا تكون تسلُّطاً تعسُّفيّا وهدَّاماً. فالرجل والمرأة مدعوّان، على صورة الخالق الذي "يحبّ جميع الكائنات" (حك ١١/ ٢٥)، إلى الاشتراك في "العناية الإلهيّة" تجاه جميع المخلوقات. من هنا مسؤوليّتُهما عن العالم الذي عهد اللّهُ فيه إليهما»[٣٣].

١٧ . هذه النظرة إلى الإنسان، وإلى المرأة، بنوعٍ خاصّ، ليست هي نفسُها في الإسلام، بالرّغم من استناد الإسلام إلى روايةِ التوراة

---

(٣٠) التعليم المسيحي، عدد ٣٧١.

(٣١) رَ: ك م، ٧؛ التعليم المسيحي، عدد٣٧٢ .

(٣٢) رَ: ك ع ٥٠، ١؛ التعليم المسيحي، عدد ٣٧٢.

(٣٣) التعليم المسيحي، عدد ٣٧٣ .

في خلق الإنسان[٣٤]. نظرةُ الإسلام رهينةُ البيئة التي نشأ فيها؛ وهي بيئة عربيّة بدويّة بدائيّة عشائريّة؛ حيثُ مكانة المرأة فيها أحطُّ من مكانة الرجل: ألمرأة تساوي، في الوراثة والشهادة، مثلاً، نصفَ الرّجل[٣٥]؛ وفي الزواج، ربعَه[٣٦]، إذ يحقّ له من النساء أن يجمع أربعاً في الوقت نفسه؛ كما يحقّ له وحدَه الطلاق[٣٧]، و«إنْ طَلَّقها فلا تَحلُّ له مِن بعدُ حتّى تنكحَ زوجاً غيره»[٣٨]... إلخ.

***

١٨ . للإنسان في المسيحيّة كرامة لا يُضحَّى بها. بل كلُّ شيء يُضحَّى من أجلها. هذه الكرامة تستحقُّ له أن يحيا حياةَ اللّه ويشاركَه طبيعتَه ومجده. لهذا، فإنّ المسيحيّة لا تني تعلّم وتشهد بأنّ اللّهَ ضحّى بألوهيّته ومجده من أجل الإنسان؛ فيما غير المسيحيّة يعمل على أن يُضحَّى بالإنسان من أجل أن يبقى اللّهُ كبيراً متعالياً واحداً أحداً...

١٩ . وتعلّم المسيحيّة أيضاً بأنّ محبّةَ الإنسان للإنسان تعادل محبّةَ الإنسانِ للّه. بل هما محبّة واحدة في جوهرهما وغايتهما. لا يسع أحداً أن يقول بأنّه يحبّ اللّه ولا يحبّ أخاه. هذه هي صلاة المسيحي

---

(٣٤) «يا أيُّها النَّاس! اتَّقُوا رَبَّكم الذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحدةٍ (آدم)، وَخَلَقَ مِنها زوجَها (حوّاء من ضلع من أضلاعه اليسرى) وَبَثَّ (فرّق ونشر) مِنْهما (أي من آدم وحوّاء) رجَالاً كثيراً ونِساء (كثيرة. وَاتَّقُوا اللّهَ الذي تسَّاءَلون بِه (فيما بينكم)» (٤/ ١).

(٣٥) «يُوصيكُمُ اللّهُ في أولادِكمْ للذَّكرِ مِثْلُ حظِّ الأُنثَيَين» (سورة النساء ٤/ ١١).

(٣٦) «فَانْكِحوا ما طابَ لكم مِنَ النساءِ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ» (س. النساء ٤/ ٣).

(٣٧) «وإذا طلّقتم النساء... لا جناح عليكم إنْ طلّقتُم النساء» (٢/ ٢٣٢ و٢٣٦).

(٣٨) سورة البقرة ٢/ ٢٣٠.

اليوميّة، وقد لا يكون له صلاة غيرها: «عَفَونا عَن إخوتنا فاعفُ يا ربُّ عنَّا».

٢٠ . دور الكنيسة إذاً هو أن تواكب الإنسانَ في تطوّره. توجّهه. تعتني به. تساير خطواته. تقدّم له الوسائلَ لخلاصه. ولا تستطيع أن ترذلَ أحداً، وإلاّ كانت تناقض ذاتها، وتعمل ضدّ مشيئة مؤسّسها وربّها. ألإنسان هو هدفها وغايتها ومحطّ آمالها وعملها في الكون.

١٦

ألحرّيّة

١ . ألشروعُ في معالجةِ موضوعِ الحرّيّة مغامرة. ومحاولةُ تحديدها عملٌ متناقضٌ بحدٍّ ذاته. وكذلك إحصاءُ مواقف الناس منها، وتعيينُ مواقعهم فيها، هما من المستحيلات العقليّة : فيومَ يجدُ الإنسانُ للحرّيّة تعريفاً، ويعيّن لها حدوداً، ويُحصي مواقفَ الناس منها، ومواقعَهم فيها، يكون قد قضى عليها، ولم تعد حرّيّة. وقد تسمّى كلّ شيء ما عدا حرّيّة.

٢ . وكم في موضوع الحرّيّة من مستوياتٍ وأبعادٍ ومعانٍ، لا يسعنا أن نعالجَها كلَّها، ولا أن نستقصي بعداً واحداً من أبعادها. لهذا كان لا بدّ لنا من أن نحصر بحثَنا، فنعالج الحرّيّةَ الإنسانيَّةَ في مبدإها فقط، لا في أبعادها ومظاهرها. أي إنّنا ننظر إلى الإنسانِ كائناً خلقه اللّهُ حرًّا، منذ أن خلقه. يعني أنّ بوسع الإنسان أن يقف بإزاء اللّه نفسه، قابلاً و رافضاً على السواء.

٣ .هذا الإنسان المحدود بإزاء اللّه غير المحدود؛ والإنسان الضعيف بإزاء اللّهِ الكلّيّ القدرة؛ والإنسان المرهون بزمان ومكان

ومـادّة بإزاء إلهٍ هو خـارج الزمـان والمكـان والمادّة... كـيف يكون هذا الإنسان حـرًّا بإزاء مَن خلقَه، ويـعتني به، ويحـفظه، ويدبّره، ويُميـته ويُقيمه ساعةَ يشاء؟! ومع هذا، يبقى باستطاعة هذا الكائن الضعيف أن يقف في وجه اللّه، ويقول له: نعم و لا.

٤ . لقد « خلق اللّهُ الإنسان عاقلاً، ومـنحه كرامة شخصٍ يمتلك المبادرة، وله السيطرة على أفعالـه. " ترك اللّهُ الإنسان في يد اختياره " (سي ١٥ / ١٤)، " فيـتمكّن من أن يبحث هو بذاته عن خالقـه، حتّى إذا التصق به يبلغ بحرّيّته كمـالَه مليئاً وسعيداً " »[1]... هذا يعني أنَّ اللّهَ لم يفـرض على الإنسـانِ وجـودَه، ولا أيَّ برهانٍ على وجـوده؛ بل تركـه «يبحث هو بذاته عن خالقه». وعلى هذا المفـهوم الواضـح، تتوقّف نتائج جسيمة، نعيّن بعضَ ما يجب علينا تعيينُه. فنقول :

٥ . إنّ الحرّيّـة التي نتكلّم عليهـا الآن هي حريّة الإنســان بإزاء اللّه ذاتِه؛ لأنّ المشكلة الأساسـيّة للحرّيّة الحـقيقـيّة هي، في الواقع، مع اللّه، أي: في التـعامل مع اللّه، هو الذي يعلمُ الغـيب، ويعرفُ مـستـقبلَ الأحـداث؛ ولكنّه أعطى الإنسـانَ إمكانيّـةَ التفـلّتِ من قيـود النوامـيس الطبيعـيّة، وإمكانيّةَ الخروج من حدود المكان والزمان، وتحـدّي المصير المجهول، والتحرّر من ضغوطات «المطلق» وهيمنته وسيادته الكلّيّة على البشر...

٦ . هذا يعني أنَّ حرّيّةَ الإنســان إنّما تظهر في مـوقف الإنسان من نظام الكون والنوامـيس الطبيعـيّة التي يخـضع لها الإنسـانُ حكماً

(١) ك ع ١٧؛ التعليم المسيحيّ، عدد ١٧٣٠.

ومن ذاتٍ طبيعته؛ وفي موقف الإنسان من الشرائع السماويّة المنزَلة عليه من فوق، في كتابٍ منزَل، والمنضبطة في دينٍ ينسب إلى اللّه.

ألموقف الأوّل يخضع له البشر جميعاً؛ والموقف الثاني هو موقف اليهود والمسلمين الذين يخضعون لشريعةٍ إلهيّةٍ منزَلةٍ عليهم من فوق. أمّا المسيحيّون، مع خضوعهم لنظام الكون، فهم لا يخضعون لأيّةِ شريعةٍ نازلةٍ عليهم من فوق؛ ولا لأيّ قانون وضعيٍّ يحكمهم حكماً مؤبّداً. فهم، حقّاً، محرّرون من ضغوطات «المطلق» عليهم.

بهذا تعلّم الكنيسة فتقول: « لم يشإِ اللّهُ أن يحتفظ لنفسه بممارسة كلّ السلطات. فهو يُعطي كلَّ خليقةٍ الوظائف التي يمكنها أن تمارسَها بحسب إمكانات طبيعتها الخاصّة. ونمط الحكم هذا يجب أن يُقتدَى به في الحياة الاجتماعيّة. وتصرُّف اللّه في حُكم العالم، الذي يُظهر الكثيرَ من المراعاة للحرّيّة البشريّة، يجب أن يُلهم حكمة مَن يحكمون الجماعات البشريّة. فعليهم أن يتصرّفوا كمُعتَمَدين للعناية الإلهيّة»[٢].

هذا كلام رائع جدًا. وهو يعني أيضاً أنّ الإنسانَ، في المعتقد المسيحي، يخضعُ لشريعةٍ بشريّةٍ وضعيّةٍ متحرِّكةٍ موقّتة. ولا يمكن أن يرهنَ حرّيَّتَه لشريعةٍ إلهيّةٍ منزَلةٍ عليه من فوق، ولا تعيرُ لمتغيّراتِ الزمان بالاً. في ظنّنا أنّه قد يأتي يومٌ يتحرّر فيه الإنسانُ من شرائعَ وضعيّةٍ كثيرة، بسببِ متغيّرات الزمان؛ ولكنْ، لن يكونَ يومٌ يستطيع الإنسانُ أن يتحرّرَ فيه من شرائعَ منزَلةٍ عليه من فوق.

---

(٢) ألتعليم المسيحي، عدد ١٨٨٤.

فـأوّل طعنةٍ للإنســان في حرّيّـته تأتيـه، إذاً، من تصـوّرِه اللّهَ مشتـرِعًا، واضِعَ قوانينَ أزليّةٍ ثابـتة، مُدرَجَةٍ في «كتـابٍ منزَل»، ضمن أطر «دينٍ سـماويّ»، بواسطة «نبيّ»، كـحقـائق جاهزة لا يدَ للإنــسان فيهـا ولا رأي.. والضمير المغروز في كلّ إنســان، بالرغم من أنّه صوت اللّه الخفيّ، فهو يخضـع، في أكثر ما يخضـع، الى ثقافة الإنسان ووعيه وتربيته والمجتمع الذي يعيش فيه.

***

٧ . في مفهوم الحـرّيّة، كما تقدّم ذكرها، نجد اخـتلافاً جوهريًا بين المسيحيّة والإسلام؛ إختـلافاً يعود، في أساسه، إلى مدى تدخّل اللّه في حياة الإنسان، بعد أن خلقَ اللّـهُ هذا الإنسان حرًا، حرًا حتّى من اللّهِ نفسه، أي غـير خاضعٍ لشريعـةٍ نازلةٍ عليه من فوق؛ لأنّ الحـرّيّة، كما تعلّم الكنيسة، « هي القدرة، المتـأصّلة في العقل والإرادة، على الفعل أو عدمه، على فعل هذا أو ذاك، وعلى القيـام هكذا، من تلقاء الذات، بأفعالٍ صـادرةٍ عن رَويَّة. وبالإرادة الحرّة يُسيِّر كلٌّ واحدٍ نفسَه»[٣].

٨ . هذا يعني أنّ حـريّةَ المسلم، وكـذلك اليـهـودي، هي حـريّة مرتهنة بشريعةٍ إلهيّةٍ منزَلةٍ عليه من فـوق؛ فيما حريّة المسيحي منوطة بوضعـِه البشـريِّ الخاضعِ لمتغـيّرات هذا الكون، ولا يمكن أن تجـمِّدَه شريعـةٌ إلهيّـةٌ منزَلةٌ عليه من فـوق؛ كما لا يمكن أن تُملى عـليه أحكامٌ مُطلَقةٌ، جاهزةٌ، معدَّةٌ سلَفاً، ومقرّرةٌ مسبَقاً، آتيةٌ عليه من خارج الزمان الذي يعيش فيه.

---

(٣) التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٧٣١.

٩ . في الإسلام، إذاً، هذا التصوّر: لقد أنزل اللّهُ على الإنسان شريعةً من فوق، صيّرها في «كتابٍ منزَل»، لا يخضع لمتغيّراتِ الكون؛ وجمّدها في «حرفٍ» معجَزٍ لا يأتي بمثلِه أحد. وبسبب هذا «الإنزال» العجيب، تبدو حرّيّةُ الإنسان مقيّدةً بأحكام جامدةٍ ثابتة بأزليّة اللّه وثباته.

١٠ . وشعورُ الإنسانِ المسلم بأنّ اللّه يُقيِّد حرّيّتَه بأحكامه «المنزَلة» هو شعور يلّفه الكثير من اليأس الكياني. كانت إحدى نتائجه العمليّة الإيمان بـ «القضاء والقدَر» والاستسلام لمشيئة اللّه. وهي مسألة إيمانيّة مفروضة على المسلمين كعقيدة من عقائد الإيمان، وركن أساسيّ من أركان الدين.

١١ . ومن نتائج ذلك أيضًا أنّ المسلم، بسبب تلك الشريعة «المنزَلة»، لا يرى بدًا من «الجهاد» وقتالِ أيِّ إنسانٍ لا يسير بموجَب هذه الشريعة «المنزَلة». على الإنسان المسلم أن يقاتلَ كلَّ إنسانٍ غيرِ مسلم، من أجل اللّه ودينِ اللّه، وقد يُسبَى غيرُ المسلم، ويُقهَر، وتُؤسَر حرّيّته، ويُلزَم بدفع الجزيةَ صاغرًا... فيذهبُ غيرُ المسلم هكذا ضحيّةَ اللّهِ ودينِ اللّه وشريعة اللّه.

والسببُ منطقيٌّ، وهو أنّ المطلق، مبدئيًا وفي مفهوم الإسلام، أَولَى من النِّسبي. أي إنَّ محبّة اللّه أَولَى من محبّةِ الإنسان. أمّا في المسيحيّة، فالعكس هو الصحيح، أي إنَّ محبّةَ الإنسان، كلِّ إنسانٍ، وأيِّ إنسانٍ، ولو كان خصمًا، هي الأُولَى، بل هي الدليل على محبّة اللّه. «فَمَن لا يُحِبُّ أخاهُ الذي يَراهُ، لا يَسَعُهُ أنْ يُحِبَّ اللّهَ الذي لا يَراه. بل هو كاذب» (١ يو ٤/ ٢٠).

١٢ . هذه الحريّة، بهـذا المستوى المبـدأيّ، هي التي تميّز المسلم عن المسيـحي في العمق، وفي كلٍّ شيء. وقد لا يهـمّنا البحثُ فيـها في غير هذا المستوى؛ لأنّنا، في غير هذا المسـتوى، نرانا نعالج النتائج؛ فيما نحن نريد النظر، كما أسلَفنا القول، في المبدإ وفي المنطلق الأساسيّ لها.

١٣ . وفي هذا المستوى عينه نأخذ توجّـهَنا، في مفهوم الحرّيّة في المسيـحيّة، من نصٍّ مجـمعي غنيٍّ جدًا. يقول المجـمع : « إنّ الحرّيّةَ الحقيقيّةَ هي في الإنسان علامَةٌ مميَّزَةٌ عن صورةِ اللّهِ فيه؛ لأنَّ اللّهَ أراد أنْ "يتركَه لمشورتِه الخاصّة" (سي ١٥ / ١٤)، حتّى يتمكّن **بذاته** من أن **يبحثَ** عن خـالقه، ويلتـحقَ به بحـرّيّة، **ويبلغَ** هكذا إلى تمام **سعـادتِه** الكاملة»[٤].

معنى ذلك أنّ الإنسانَ كائنٌ حرٌ، خلقَه اللّه كذلك. حرّيته من اللّه. وبمقدار ما يحـقّق حرّيّته بمقدار ذلك «يحقّق صورةَ اللّه فـيه»، ويحقّق بالتالي شـخصيّتَـه وكرامتَه؛ ويكون، بهـذه «العلامة الميَّـزَة»، إنسانًا تتحقّق فـيه إنسانيّتُه كـاملةً، ويسعى بحرّيّته هذه باحـثاً عن اللّهِ حتّى «يبلغَ إلى تمام سعادته».

١٤ . وقد تكمن العلامة الكبرى لحرّيّة الإنسان، بإزاء اللّه، في أنّ اللّه أراد أن يتـرك الإنسانَ **لذاته**، حتى يتـمكّنَ بذاته، من **البحث** عن اللّه ذاته. نفـهم من هذا الـكلام أنّ اللّه لم يفـرضْ على الإنسـان دليـلاً واحداً على وجودِه، حفظًا منه على حـريّةِ الإنسان، وذلك أيضًا حتى لا يكون الإنسـانُ أسـيرَ هذا الدليل، فيفـقد بعضَ حرّيّتـه. فـ «البحث عن

---

(٤) دستور راعوي حول الكنيسة في عالم اليوم، عدد ١٧.

اللّه»، كما يعلّم المجمع، هو رائد الحرّيّة المسيحيّة الحقّة. وعلى هذا المستوى اللاّهوتي الغني تعالَج مسألة الحريّة المسيحيّة[٥].

١٥ . وبهذا المستوى أيضًا تكاد الحريّة، بمفهومها المسيحي، أنْ تكونَ مطلَقة، بخلاف ما هي عليه سائر الصفات الإنسانيّة من محدوديّة. وتبدو «مطلقيّتُها» أيضًا بكونها تضع الإنسانَ بإزاء المطلَقِ نفسه، وجهًا لوجه: بها يستطيع الإنسانُ أن يقول للّه نعم و لا. وبها يكون مع اللّه و ضدّه. وبها يعترف بوجود اللّه و بعدمه. وبها يقرّر مصيره بيده، نحو السعادة أم نحو الهلاك. وبها يبحث عن الحقيقة المطلقة، وكم في البحثِ مِن شكٍّ وقَلَقٍ وارتيابٍ واضطرابٍ! فلكأنّ الاطمئنان الوجودي ليست من معطيات المسيحيّة في هذا الدهر.

١٦ . وفي مفهوم المسيحيين أيضاً، أنّ اللّه نفسه يسعى إلى رفع القيود عن الإنسان، شأنه شأن المربّي الحكيم مع ربيبه. وذلك بمقدار ما يرى في الإنسان الذي يتولّى تربيتَه نموًا وتطوّراً. وقد لا يسعى الإنسان، إذا ما تُرك إلى ذاته، نظرًا إلى محدوديّته، إلى مثل تلك الحريّة التي يعطيه اللّهُ إيّاها. ففي مجال اكتساب الحريّة، يبدو اللّهُ أكثرَ سخاءً من الإنسان نفسه على نفسه؛ إذ قد يسيء الإنسانُ المحدودُ إلى حريّته، فيبحثُ عنها بين التفاهات والأمور الزائلة؛ بينما هي، كما شاءَها

---

(٥) ما يقال عن المعجزة بكونها تدخّل اللّه مباشرة في أسباب الأحداث، ليس ملزماً للإيمان. فالمعجزة آية يصنعها اللّه على يد قدّيس لغاية ما. وهي تساند الإيمان وتقويه... وليست سببًا له. أي هي لا تعطي الذين لا يؤمنون إيمانًا. مع المعجزة يبقى الإنسان حُرًا... والكنيسة لا تفرض على أحد بأن يصدّق المعجزة... تبقى حريّة الإنسان بإزائها من دون مسّ.

اللّهُ منذ البدء، عنوانُ كرامة الإنسان في طموحه نحو «المطلق».

١٧ . هذا الترابط بين حريّة الإنسان ومشيئة اللّه، نراه في مذكّرة مجمع العقيدة والإيمان، وقد جاء فيها: «لا تُلغى أبدًا مقدرةُ الإنسان على تحقيق ذاته من خلال تبعيَّته للَّه. ألإلحادُ وحدَه يعتقد بقيام تعارضٍ حتميٍّ بين سببيّةِ الحرّيّة الإلهيّة وسببيّةِ الحرّيّة الإنسانيّة. كما لو كان إثباتُ اللّه يعني نفيَ الإنسان، أو كما لو كانت مداخلتُه تعالى في التاريخ تُعطِّل مساعي الإنسان. في الحقيقة، لا تَستمدُّ الحرّيّةُ البشريّةُ معناها وقوامَها إلاّ من اللّه وبالنسبة إليه»[٦].

١٨ . هذا يعني أنّ الإيمانَ باللّه يزيد الحرَّ حرّيّةً، لأنّ مَن يسعى إلى الكمال، باتّباع اللّه الكلّي الكمال، لا بدّ من أن يسعى إلى تخطّي ذاته وواقعه. هذا السعي ذاته إلى الكمال والمطلق هو نفسه الحرّيّة. فلا نبحث عن الحرّيّة في غير هذا السعي. هذا مجالها، ومداها، ومجدها، وكمالها. وكلّما أوسعنا للّه في حياتنا مكاناً كنّا أحراراً أكثر فأكثر. فنحن بالإيمان أحرار. أمّا الملحد فمرتهنٌ. وهو، في الحقيقة، لا يسعى إلى شيء.

١٩ . وثمّة ميزة أخرى للحريّة، في المفهوم المسيحي، نجدها في دعوة المسيح والمسيحيّة إلى التحرّر من الشريعة الإلهيّة المنزَلة من فوق، التي بها يستطيع الإنسانُ، انتصاراً على ضعفه وعجزه، أن يحكمَ ويَقضي ويجاهد ويقاتل كلَّ مَن لا يخضع لهذه الشريعة الإلهيّة المنزَلة من فوق.

---

(٦) مجمع العقيدة والإيمان، الحرية المسيحيّة والتحرر، عدد ٢٩.

يقول تعليم الكنيسة : «طالما لم تلتصق الحرّيّة نهائيًا بخيرها الأقصى الذي هو اللّه، فهي تنطوي على إمكان **الاختيار بين الخير والشرّ**. وبالتالي إمكان النموّ في الكمال، أو الخَوَر والخطأ. وهي من خصائص الأفعال البشريّة حقًّا، فتصبح مصدر مدحٍ أو ذمٍّ، ثوابٍ أو عقاب. (و) كلّما فعل الإنسانُ خيراً ازداد حرّيّةً. وليس من حرّيّة حقيقيّة إلاّ في خدمة الخير والعدالة. واختيار المعصية والشرّ هو شططٌ في الحرّيّة يعود إلى عبوديّة الخطيئة»[٧].

٢٠ . ففي نظامِ العهدِ الجديد، «و بفضل تضحيةِ المسيح، أُبطِلَتْ فرائضُ العبادة التي نصَّ عليها العهد القديم. ووعتِ الكنيسةُ الرسوليّةُ، بصفتها ملكوت اللّه المفتتح على الأرض، بأنها لم تَعُدْ مُلزَمَةً بالشرائع التي كانتْ تنظّم الحياةَ الاجتماعيّةَ والسياسيّة لشعبِ اللّه. وفهمتِ الجماعةُ المسيحيّةُ أنّ الشرائع وأعمالَ سلطاتِ الشعوب المختلفة، حتّى إنْ كانتْ شرعيّةً وجديرةً بالطاعة لها، لم يعدْ جائزًا لها أبدًا، بما أنّها صادرة عن هذه السلطات، أن تدّعي الصفة المقدَّسة؛ لأنّ العديد من الشرائع والأنظمة يبدو على ضوء الإنجيلِ موسومًا بطابع الخطيئةِ يواصل تأثيرها التعسّفي داخل المجتمع»[٨].

٢١ . هذه الميزة الرائعة للحريّة المسيحيّة تضعنا، بإزاء اللّه، أمام شرَّين، يجب تحاشيهما مهما كانت النتائج : شرٌّ يأتي من شعور الإنسان بأنّ اللّه يقيّده بشريعةٍ أزليّةٍ أبديّة؛ وشرٌّ يشعر الإنسان فيه بثقلِ اللّه عليه، فيسير، تجنّباً لهذا الثقل، باتّجاه إنكار اللّه إنكارًا تامّاً،

---

(٧) رَ : رو ٦/ ١٧؛ التعليم المسيحي، عدد ١٧٣٢–١٧٣٣.

(٨) المرجع نفسه، عدد ٥٤.

وذلك سعـيًا وراء تحقـيق ذاته من اللّه ومن قيـوده، التي لا تتغـيّر ولا تتبدّل مهما طرأ على مسيرة الكون من تغيّرات وتبدّلات.

٢٢ . في هذين الشرَّين، يـتحتّم على الإنسـان رفْضُ كلِّ سالبِ حرّيّتِـه، حتى ولو كـان السالبُ اللّهَ نفسَه. وإذا كان اللّهُ هـو السالب، حقّـا، توجّب على الإنسان الإلحادُ والإنكار؛ وذلك كنتـيجة لعـمليّة هذا السلب الإلهيّ. وهذا، في ظنِّنا، فرضٌ واجب على كلّ إنسان.

٢٣ . عظمـةُ الإنسان تكمن في هـذه الحريّة. مـتى فقـدها فقـدَ إنسانيّته. ومـتى فقد إنسانيّته، فلا اللّه الذي يَعـبد، ولا كلٌّ ما في الدنيا من سعادة، يوازي مـا فَقَد. ويوم يعترف الإنسانُ بوجـود اللّه، ويتأكد من سلبِ اللّه حرّيّتَـه، فلن يبقى أمامه، في الحـقيقة، إلاّ الإنتـحار، الذي هو نتيجـةٌ حتميّة لاستلاب حـرّيّته، التي قضتْ عليها شرائـع فوقانيّة وُضعتْ باسم اللّه، وليس بإمكان أحدٍ أن يزحزحها عن كاهله.

٢٤ . ثمّة مـيزة أيضًـا للحرّيّة، وهي أنّ الإنسـانَ الذي يَخشى على حريّته من اللّه، يَخشى عليها أيضًا من المخلوقات التي يُضفي عليها صفاتٍ من صفـاتِ اللّه : « في الحقيقة، يقول مجـمع الإيمان والعقيدة، عندما ينسبُ الإنسـانُ إلى المخلوقاتِ قيمـةَ المطلق، يفقدُ معنى كـينونَته المخلوقة، لزعمـهِ العثورَ على محـورِه ووَحدتهِ في ذاته. إنّ الحبَّ الذاتي غيرَ المنظّم وجهٌ آخَرُ لازدراء اللّه. لذلك لا يريد الإنسانُ الاعتمادَ إلاّ على ذاته، طامعًا بتحقيقِ ذاته، ومكتفيًا بحلوله الذاتيّة»[٩].

٢٥ . هذا يعني أنّ الإنسـانَ لا يسـعـه أن يجد حـرّيّتَـه في أيِّ إنسـانٍ، أو أي مخـلوقٍ، دون المطلق والكلّيِّ الكمـال. مِثـالُ الحـرّيّة هو

(٩) المرجع نفسه، عدد ٤٠.

المطلقُ وكلّيُّ الكمال. ولا يرضى أن يكون دون ذلك. لهذا، فالمؤمن باللّه إيماناً حقيقيًا هو أكثر حرّيّةً من سواه. ولهذا أيضاً يقتضي لهذا الإنسان المؤمن الحرّ أن يجرّد اللّهَ من كلٍّ ما يُنسَبُ إليه من قيودٍ للحرّيّة، من سنّ قوانين، وفرض شرائع، وكتبٍ منزَلة، وبعث رسل وأنبياء، وصنع معجزات تخربط نظام الكون.

٢٦ . يقول تعليم الكنيسة : «لا يمكن إكراهُ أحدٍ على اعتناق الإيمان على رُغمه. ففعل الإيمان من طبيعته ذاتها ذو طابع إراديّ»(١٠). «واللّه يدعو الإنسانَ لخدمته في الروح وفي الحقّ؛ وإنْ ألزمتْ هذه الدّعوةُ الإنسانَ ضميريًا فهي لا تُكرهه»(١١)... ألمسيح دعا إلى الإيمان وإلى الهداية، ولكنّه لم يعمد فيهما إلى الإكراه قطّ. «لقد شهد للحقيقة، ولكنّه لم يشأ فرضها على خصومه بالقوّة. وملكوته يمتدّ بالمحبّة التي يجذب بها إليه جميعَ البشر عند ارتفاعه على الصليب»(١٢). «الإيمان فعلٌ إنسانيٌّ واعٍ وحرّ يتّفق وكرامة الشخص البشريّ»(١٣).

٢٧ . وأيضاً ميزة أخرى تتحلّى بها الحرّيّة، وهي أنّها عدوّة حبِّ الذات. فالإنسان الذي يحبُّ ذاتَه، ويؤثر شخصَه على سواه، ولا يهتمّ إلاّ بنفسه، ويرى كلَّ شيء من خلالِ عينَيه، ويطلق أحكامَه إنطلاقاً من مفاهيمه، ويسنّ لنفسه قوانينَ وشرائع يسيّر العالم بموجبها... هذا الإنسان هو عدوّ لدود للحرّيّة.

---

(١٠) بيان في الحرّيّة الدينيّة (ح د) ١٠؛ رَ: الحقّ القانوني اللاتيني، ق ٢/٤٧٨.

(١١) ح د، عدد ١١.

(١٢) ح د، عدد ١١.

(١٣) التعليم المسيحي، عدد ١٨٠.

هذا يعني أنّ الحرّيّة لا يمكنها أن تتقوقع وتتزمّت، ولا يسعها أن تنحصر ضمن حدودٍ وقيود. إنّها تكون عامّةً شاملةً منطلقةً خارجة عن كلّ ما يحدّها ويحدّدها. لهذا تعلّم الكنيسة أنّه «من الخطإ الادّعاء أنّ "الإنسان الحائز الحرّيّة يكتفي بذاته إذ تكون غايته ابتغاء مصلحته الذاتيّة في التمتّع بالخيرات الأرضيّة"»(١٤). وتقول أيضاً إنّ من جملة شروط الحرّيّة أنّها «تعلّم إنكار الذات، والحكم السليم، والسيطرة على الذات، وهي الشروط الضروريّة لكلّ حرّيّةٍ حقيقيّة»(١٥).

٢٨ . وهذا يعني أيضاً، في المفهوم المسيحيّ، أنّ الإنسان لا يكون حرًّا إنْ كان وحدَه يتمتّع بالحرّيّة. ألمجتمع البشري يكون حرًّا كلّه، أو لا يكون أحدٌ فيه حرًّا. كلّ ضغطٍ على إنسانٍ واحدٍ هو ضغط على المجتمع كلّه. ألحرّيّة كالحياة: تكون حيًا فيكون العالم كلّه حيًا بك ومن أجلك؛ وتكون حرًّا فيكون العالم كلّه حرًّا بك ومن أجلك. فلكأنّ الحرّيّة فضيلة الجنس البشري كلّه؛ فيما سائر الفضائل يتمتّع بها كلّ شخصٍ بمفرده. لهذا تعلّم الكنيسة: «تُمارَس الحرّيّة في العلائق بين الكائنات البشريّة»(١٦).

٢٩ . والكنيسة تعمل على أنْ يكون أهل الأرض جميعهم أحراراً، أو لا تكون كنيسةٌ ولا مسيحيّة أبداً. على هذا، فإنّ المسيحيّة لا يمكنها أن تفرضَ نفسَها على أيّ إنسان. إنْ فعلتْ ألغتْ نفسَها، وكانت عدوّة ذاتها. لهذا فهي لا تستطيع أن تصنّف البشر إلى أصنافٍ

---

(١٤) مجمع العقيدة والإيمان، «حرّيّة الضمير»، ١٣؛ التعليم المسيحي، عدد ١٧٤٠.

(١٥) التعليم المسيحي، عدد ٢٢٢٣.

(١٦) التعليم المسيحي، عدد ١٧٣٨.

وأجناسٍ وألوان، وتأخذ موقفاً من كلّ صنفٍ وجنسٍ ولون. فهي لا تقول بأنّ لها موقفاً من المؤمنين، وموقفاً من المشركين، وآخر من الكافرين، ورابعاً من أهل الكتاب، وخامساً من أصحاب المذاهب... وإنْ فعلتْ كانت ضدّ معلّمها ومؤسّسها الذي علّم بأنّ «اللّه يشرق شمسَه على الأخيار والأشرار»؛ وأنّه جاء، لا من أجل الأبرار فحسب، بل، وبنوعٍ خاصّ، من أجل الخطأة والضالّين والمحتاجين؛ وأنّ المحبّة تكون للأصدقاء كما للأعداء، وإلاّ لا تكون...

٣٠ . وثمّة أيضاً نقول: تتميّز الحريّة المسيحيّة بالتزامِ الإنسان الحياةَ الاجتماعيّة. فاللّه، كما يقول مجمع العقيدة، «لم يخلق الإنسانَ كائنًا متوحّدًا، بل شاءه كائنًا إجتماعيًا. لذلك ليستِ الحياةُ الاجتماعيّة خارجيّةً عن الإنسان الذي لا يستطيع أن ينمو ويحقّق دعوته إلاّ من خلال العلاقة مع الآخَرين... وعليه أن يمارس حريّته المسؤولة داخل هذه الجماعات المتنوّعة، مثل العائليّة والمهنيّة والسياسيّة... ففي الدائرة الاجتماعيّة تعبّر الحرّيّة عن ذاتها، وتتحقّق في الأعمال والهيكليّات والمؤسّسات التي بواسطتها ينظّم الناس حياتهم المشتركة... وإذا كان تفتّح الشخصيّة الحرّة واجبًا على كلّ شخص، وحقّاً له، فمن واجب المجتمع أيضًا أن يدعم هذا التفتّح لا أن يعيقه»[١٧].

٣١ . هذا يعني أنّ الحرّيّة المسيحيّة لا تكون كاملة إلاّ بميزتها الاجتماعيّة. هذا البعد الاجتماعي هو لها بعدٌ جوهريّ بمقابل بعدِها الفردي. فـ «لا حرّيّة إنسانيّة من دون مشاركة في الحرّيّة»[١٨].

(١٧) مجمع العقيدة والإيمان، عدد ٣٢.

(١٨) المرجع نفسه، عدد ٢٩

٣٢ . ثمّ نريد أن نشيرَ إلى فارقٍ أساسيٍّ آخَر في موضوع الحريّة فيما بين المسيحيّة والإسلام : في ممارسة الحرّيّة يصطدم المسيحي بحرّيّاتِ الآخَرين، لا باللّه. أمّا في الإسلام فيصطدم المسلم باللّه. لهذا نقول مرّة أخرى : إنّ الكنيسة، في المفهوم المسيحي للحرّيّة، هي التي تحدّ من إمكانيّة حصول هذا الإصطدام بين البشر. أمّا في الإسلام فالحكَم هو «الكتاب المنزل»، أي الشريعة السماويّة الأزليّة، يعني : اللّه نفسه.

الإنسان الحرّ، في المسيحيّة، حفاظًا على حريّته، يترك غيره يمارس حرّيّته بأوسع نطاق ممكن. بهذا تنمو الحريّة الإنسانيّة الحقّة، ويتنعّم الجميع بـ «حريّة أبناء اللّه» (رو ٨/ ١٥)، وذلك في العمل على خلاصهم من الناموس وأحكامه، من الخطيئة وتقاطعها مع إرادة اللّه، ومن الموت وسلطانه المبيد.

٣٣ . وأخيراً نقول: إنّ اللّهَ، في المفهوم المسيحي، تجسّد. ثمّ تألّم. وصُلب. ومات من أجل فداء الإنسان في حرّيّته، لا من خطيئة أبوينا الأوّلَين المزعومة، بل من الناموس الذي قيّد الإنسانَ به رجالُ النّاموس. فالفداء والخلاص كانا لنا، لا من خطيئة آدم، بل من الناموس المنزَل علينا من فوق. وليس إلاّ اللّه هو الذي يسعه القيام بعمل الفداء هذا. فبموت المسيح استعيدت حرّيتنا من سلبها الإلهيّ. ولا يزال المسلمون ينتظرون مَن يخلّصهم من تلك الشريعة المنزلة عليهم من فوق، في كتابٍ سلبَ حرّيتنا من دون أن يكون بإمكانه أن يُصلب.

١٧

ألحقيقة

في إيمان المسيحيّين، إنّ اللّهَ ليس في العبّ والجيب حتّى يعرفَه الإنسانُ معرفةً كاملة؛ أو حـتّى يتقاتل الناسُ بسببه ومن أجله. إنّ اللّهَ غيرُ خـاضـعٍ لعقلِ أحدٍ من الناس مهمـا كان عبقريًـا. لقد شاءَ اللّهُ، لكي يَسلَمَ من البشر، ومن احتكار أحدٍ له، أن يبقى سرًا غامضاً لا يُدرَك. إنَّه هو «الآخر» على الإطلاق، نبـحثُ عنه باستـمرار. ومع هذا، يبقى بعـيدَ المنال والإدراك.

هكذا هو شأننا مع الـحقيقـة، وموقفنا منهـا. والحقيقـة المطلقة والكاملة هي اللّهُ نفـسُـه. ألله هو الحقّ والحقـيـقة. وكلّ حقّ يسـتمـدّ حقيـقتَه منه. ولا يسع إنساناً أن يعـرفَ عمق هذه الحقيـقة، إلاَّ بإحدى طريقتَين: إمّا بوحيٍ من الـلّه مباشر؛ وإمّا بصـراع الفكر البشريّ الذي يَخرج مـن تناقضٍ إلى تناقضٍ حتّى يصل إلى شـبه–حـقيـقة. وهذا لا يكون إلاّ في نهاية الدهر. ألأُولى نعمة من اللّه مجّانيّة؛ والثانية من خلْق اللّه في جبلّة الإنسان الحرّ أبداً.

والإنسان، بحسب تعليم الكنيسة، لن يجد الحقيقة كاملةً إلاّ في اللّه : «تطلُّبُ اللّهِ رَغبةٌ منقوشةٌ في قلبِ الإنسان، لأنّ الإنسانَ خليقةٌ من اللّه وللّه؛ واللّه يجتذبُ الإنسانَ إليه اجتذاباً متواصلاً، والإنسانُ لن يجد الحقيقةَ والسعادة اللّتين يسعى إليهما دائماً إلاّ في اللّه: "إنّ في دعوة الإنسان هذه إلى الاتصال باللّه لأسمى مظهر من مظاهر الكرامة البشريّة. ودعوة اللّه هذه التي يوجّهها إلى الإنسان ليقيم معه حواراً تبدأ مع بدء الوجود البشريّ... والإنسان لا يحيا حياة كاملة بحسب الحقّ إلاّ إذا اعترف اعترافاً حرًا بهذه المحبّة وسلّم أمره لخالقه "»[١].

١ . ألوحي مرحلة من مراحل تجلّي اللّه الذي شاء أن يكشف للبشر عن بعض ذاته. وكم من مراحلَ لا تزال غامضةً، علينا أن نقطعها باتّجاهه!! واللّه لم يشأ أنْ يحرق هذه المراحل ليُوصلنا إليه وإلى الحقيقة من دون عناء واستحقاق وصراع مرير مع الشرّ. ثمّ إنّ الوحيَ ليس تدميراً لنظام الكون الذي شاءه اللّه؛ بل هو من صميم مشيئة اللّه في خلق هذا الكون وخلاصه؛ وهو متدرّج متطوّر، يرقى وينمو برقيّ البشر ونموّهم.

٢ . وكذلك الصراع الفكري فهو خيرُ وسيلةٍ تُعتمد في البحث عن الحقيقة والكشف عنها. هذان البحث والكشف عن الحقيقة لا يكونان إلاّ في حوارٍ منفتحٍ، وجدلٍ فكري، وصراعٍ وجوديّ... لهذا، فخصم المسيحيّة ليس ذاك الذي يناقض ويعارض، بل الذي يرفض وينغلق على ذاته، معتبراً الحقَّ كلَّ الحقِّ ملكه وفي قبضة يدَيه.

---

(١) دستور راعوي في الكنيسة في عالم اليوم، (ك ع)، عدد ١٩؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٧.

لو قَبِلَ المتديِّنون مقولاتِ خصومِهم، لانجلتِ الحقيقةُ أضعافَ ما هي عليه معهم، وبزمنٍ قصيرٍ جدًّا! ولكنّ اطمئنانَ المتديِّنين وانغلاقَهم على الآخرين سببان مهمّان للتخلّف عن إدراك اللّه والحقيقة. والحقيقةُ، بين شرِّ الاطمئنان وشرّ الانغلاق، هي الخاسرُ الأكبر.

٣ . لو شاء اللّهُ أن يخلق كلَّ إنسانٍ مثل كلِّ إنسان، لكان البشرُ أرقاماً متشابهة؛ ولكان اللّهُ فقيراً في خلْقه، إذ أوجد كائناتٍ تتشابه ولا تتكامل... والحال إنّ اختلافَ البشر، الذي يصلُ بهم أحياناً إلى التناقض والصراع، هو دليلٌ على غنى اللّه في خلقه، وهو السبيل الأجدى لاكتشاف الحقيقة؛ إذ إنّ الحقيقةَ لا تنكشفُ لأحدٍ إلاّ بالنقاش والجدال والحوار والصراع والتناقض... وعلى الإنسان، والحالُ هذه، أن يقبلَ الآخرين كيفما كانوا، وأن يتركَ لهم حرّيّةَ التعبير عن مضامين فكرهم، والاعتراضَ على ما يحلو لهم الاعتراضُ عليه...

٤ . إنّ المسيحيّة تقول بـ «**البحث عن الحقيقة**»، لا بامتلاكها، أو بالحصول عليها، أو الوصول إليها. وهذا البحثُ، أيضاً، يجب ألاّ يكون فرديًا، بل بالاتّحاد مع سائر النّاس، وبعملٍ جماعيٍّ؛ لأنّ الإنسانَ الفردَ لن يصل إلى شيء. لهذا كانت الجماعة، أي «الكنيسة»، رائدةَ الحقيقة، إستناداً إلى قول الربّ : «إذَا اجتَمعَ اثنَان باسمِي أكُون الثالثَ بينَهما».

٥ . قال المجمع الفاتيكاني الثاني : «على المسيحيّين، أمانةً لضميرهم، أن يَبحَثوا باتِّحَادٍ مَع سائرِ الناسِ عنِ الحقيقة»[2]. ويشدّد

---

(٢) دستور راعوي في الكنيسة في عالم اليوم، عدد ١٦ .

على هذا «البحث الجماعي»، ويدعو الناس، إذا ما عرفوا الحقيقة، أن يعتنقوها. وهو واجب يتناول الضمير. كما يشدّد على أنّ الحقيقةَ هي التي تفرض نفسَها بنفسها، وبقوّتها الذاتيّة، لا بقوّة قائلها، ولا بالسيف والعنف والإكراه. قال : «على كلّ الناس أن يبحثوا عن الحقيقة، ويعتنقوها إذا ما عرفوها، ويحافظوا عليها لا سيّما تلك التي تتعلّق باللّه وبكنيسته»[٣].

٦ . وكذلك يعلن المجمع المقدّس أنّ هذا الواجب يتناول الضميرَ ويلزمه، وأنّ الحقيقة لا تفرض نفسها إلاّ بقوّتها الذاتيّة التي تلج العقل بذات القوّة والعذوبة»[٤].

٧ . ثمّ يشدّد المجمع مرّةً أخرى على أنّ جميع الناس مدفوعون إلى «البحث عن الحقيقة» دفعاً، لأنّهم أحرار. ولا يمكن لأحدٍ أن يضغط عليهم. فهم بها محصَّنون بالإيمان، لا بالاستعدادات الشخصيّة فحسب. قال : «إنّ جميع الناس، بمقتضى كرامتهم، وبما أنّهم أشخاص، أي متزيّنون بالعقل والإرادة الحرّة، وبالتالي بالمسؤوليّة الشخصيّة، مدفوعون بطبيعتهم ذاتها إلى البحث عن الحقيقة، وملزَمون به أدبيًا، تلك الحقيقة التي تتناول الديانة أوّلاً. فعليهم أن يعتنقوها حالما يعرفونها، وينظّموا حياتهم كلَّها وفقاً لمقتضياتها.

«ولا يتمكّن الناس من تتميم هذا الإلزام بطريقة تتناسب مع طبيعتهم الذاتيّة إنْ لمْ يتمتّعوا بالحصانة ضدّ أيٍّ ضغطٍ خارجيّ،

(٣) بيان في الحرّيّة الدينيّة، عدد ١ .

(٤) المرجع السابق نفسه، عدد ١.

علاوة على الحريّة السيكولوجيّـة. فالحقّ في الحرّيّة الدينيّة مبنيٌّ على طبيعة الإنسان نفسها، لا على استعدادات الشخص الذاتيّة»[٥]...

٨. وفي العقيدة المسيحيّة، إنّ اللّه أشرك الإنسانَ في حياته الإلهيّة الأزليّة الثابتة، لكي يستطيع الإنسان، كما يقول المجمع، «أن يتعرّف أكثر فأكثر إلى الحقيقة الثابتة، وذلك بتدبيرٍ ارتضتْ به العناية الإلهيّة»[٦]. فمعرفة الحقيقة، إذاً، ممكنة، وهي ممّا شاءَه اللّه نفسُه للإنسان. ولكن، يكمّل المجمع لتوِّه، بأنّ معرفة الحقيقة هذه لا تكون من دون «البحث عنها»، في كلّ الأمور، وحتّى في الأمور الدينيّة الموحاة. يقول: «فمن واجب كلِّ فردٍ، ومن حقِّه، بالتالي، أن يبحث عن الحقيقة في الأمور الدينيّة، ويستعمل الوسائل المناسبة»[٧].

٩. ولكن، كما يقول المجمع أيضاً، يجب «التفتيش عن الحقيقة»، بطرق تناسب كرامة الشخص البشري، وتناسب أوضاع المجتمع الذي يعيش فيه. أي إنّ الحقيقة يُبحث عنها بحرّيّة تامّة، من دون إكراهٍ، أو ضغط من أحد؛ ويُبحث عنها بعد تعليمٍ وتربيةٍ وتبادلِ وانفتاحٍ وحوارٍ ومحبّةٍ وتعاونٍ وقبولٍ لرأي الآخرين. وإذا ما توصّل أحدٌ، بعد أبحاثه، إلى نتيجة، فعليه ألاّ يفرض عليهم شيئاً ممّا وصل إليه؛ بل عليه أن يُضيف إلى أبحاثه عن الحقيقة طريقةَ إقناع الآخرين بها؛ وإلاّ فهي لا تزال ناقصة؛ ولا تستحقّ أنْ تُدعى حقيقة. قال المجمع:

---

(٥) المرجع السابق نفسه، عدد ٢ .

(٦) المرجع السابق نفسه، عدد ٣ .

(٧) المرجع السابق نفسه، عدد ٣ .

«يجب التفتيش عن الحقيقة بطريقةٍ تتناسب وكرامة الشخص البشري وطبيعته الاجتماعيّة. أي ببحثٍ حرٍّ عن طريق التعليم، أو التربية والتبادل والحوار. فبهذه الطرق يعرض بعضُهم على الآخرين الحقيقة التي وجدوها، أو يظنّون أنّهم وجدوها، لكي يتعاونوا معاً في التفتيش عنها. وبعد أن تُعرف الحقيقة يجب أن تُعتنق بثبات وعن اقتناع شخصيّ»[٨].

١٠ . هذا البعد الجماعي للبحث عن الحقيقة هو من مقوّمات الحقيقة نفسها. وحتّى «الحقيقة الموحاة» لا تنعزل عن المجتمع والمكان والزمان الذي تُعطَى فيه. لهذا، كما يقول المجمع : «فمن واجب البحث اللاّهوتي أن يتعمّق في الحقيقة الموحاة دون أن ينعزل عن العصر، وذلك لتمهيد الطريق أمام المثقّفين في مختلف فروع المعرفة فيفقهوا عقيدة إيمانهم بطريقة فضلى»[٩].

وكم هو رائع كلام المجمع في قوله بأنّ هذه «الحقيقة الموحاة» إنّما تُعطَى بحسب الفنون الأدبيّة والصور المختلفة التي يألفها النّاس. فلا حقيقة موحاة بلغة جامدة، ميتة، منعزلة، خارجة عن التاريخ والعصر والبيئة والمجتمع. يقول: «لتوضيح نيّة الكتّاب القدّيسين، يجب مِن بين ما يجب اعتباره، اعتبار الفنون الأدبيّة أيضاً. فالحقيقة تُعرَض وتفسَّر بصورة مختلفة في نصوص تاريخيّة متنوّعة، أو نصوص نبويّة، أو شعريّة، أو في غيرها من أنواع التعبير»[١٠].

---

(٨) المرجع السابق نفسه، عدد ٣ .

(٩) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ٦٢ .

(١٠) دستور عقائدي في الوحي الإلهي، عدد ١٢.

١١ . ومَن يظنّ أنّه يمتلك الحقيقة، ولا يمتلكها سواه، فلا يعني ذلك أنّ سواه غير جدير بالمحبّة والاحترام. إنّ مَن يخالفنا لا يعني أنّه ليس عنده حقيقة تقنعه ويعمل من أجلها. وهذا على كل صعيد، حتّى على الصعيد الديني. قال المجمع : «يجب أن يمتدّ أيضاً احترامُنا وحبُّنا إلى كلّ الذين يفكّرون ويعملون بطريقةٍ مغايرةٍ لنا، إنْ في القضايا الاجتماعيّة، وإنْ في القضايا السياسيّة أو الدينيّة. وبقدر ما نجتهد في تفهّم نظريّاتهم تفهّماً داخلياً مطبوعاً بالحبّ والتودّد، يسهل حينئذٍ الحوار معهم»[١١].

إنّ الاختلاف بين المسيحيّين وسواهم، يجب ألاّ يقودَهم إلى قطع العلاقة في ما بينهم؛ ولا إلى أن يقفوا منهم موقف اللاّمبالاة. يقول المجمع: «أجل، إنّ هذا الحبّ وهذا التودّد يجب ألاّ يقودانا أبداً إلى اللاّمبالاة في ما يتعلّق بالحقّ والخير»[١٢]؛ بل بالأحرى يجب أن يقودانا إلى محبّة الجميع، وإلى تبشيرهم بما يحمل إليهم الخير والخلاص.

١٢ . ومع هذا، يبقى الجميع دون الحقيقة؛ لأنّ الحقيقةَ، هنا، هي خلاصهم بالمحبّة، لا إرضاء عقولهم إرضاءً علميًا مقنعاً. فللمحبّة دور تلعبه أعظم من دور الحقيقة نفسها. لهذا نقول: إنّ حقيقة المحبّة تسمو بما لا يُحدّ على محبّةِ الحقيقة. ولهذا قال المجمع : «إنّ الحبّ نفسه هو الذي يدفع بتلاميذ المسيح ليبشّروا جميع الناس بالحقيقة التي تحمل الخلاص»[١٣]. أجل، «الحقيقة التي تحمل الخلاص».

---

(١١) دستور راعوي في الكنيسة في عالم اليوم، عدد ٢٨ .

(١٢) المرجع السابق نفسه، عدد ٢٨ .

(١٣) المرجع السابق نفسه، عدد ٢٨ .

١٣ . ألحوار يجب أن يوجّهنا صوب الحقيقة؛ ولكن بفطنة ومحبّة وحكمة بما يناسب أوضاعَ الشعوب الثقافيّة والحضاريّة والتربويّة والمستوى الديني والعلمي لهم. وبذلك تكشف حقائقَ جديدة وطرقاً جديدة لها. قال المجمع : «إنّ الكنيسة تفيد أيضاً من خبرة الأجيال الماضية، وتَقَدُّمِ العلوم، وما تحويه الثقافات المختلفة من ثروات خفيّة تسمو بمعرفة الإنسان ذاته معرفة أعمق، وتشقّ للحقيقة طرقاً جديدة»[١٤].

هذا الحوار لا تستثني الكنيسةُ منه أحداً. ولكن لن يكون حوارٌ على حساب الحقيقة، ولا على حساب الإنسان، إطلاقاً. تراعي الكنيسة في كلِّ حوار الأمرَين معاً : الإنسان والحقيقة، أي إنّها تراعي الفطنة والحكمة في قول الحقيقة. يقول المجمع : «رغبتنا في الحوار لا تستثني منه أحداً شرط أن يوجّهه حبُّ الحقيقة فقط، وأن يُرفَق بالفطنة المقتضاة. لا نستثني أولئك الذين يقدرون القيم الإنسانيّة السامية دون أن يعرفوا خالقها، ولا أولئك الذين يقاومون الكنيسة ويضطهدونها بشتّى الطرق»[١٥].

١٤ . هذا الحوار، لكي يكون فاعلاً ومفيداً، يقتضي للكنيسة أن تذهب هي بنفسها، أي بواسطة الأساقفة أنفسهم، إلى الآخرين، ويُقيموا معهم حواراً خلاصيًا، أي بتواضعٍ ورفقٍ ومحبّةٍ وفطنةٍ وحكمةٍ وثقة. لهذا يقول المجمع : «لمّا كان من واجب الكنيسة أن تقيم حواراً مع المجتمع البشري الذي تعيش فيه، فعلى الأساقفة، قبل

(١٤) ألمرجع السابق نفسه، عدد ٤٤ .

(١٥) ألمرجع السابق نفسه، عدد ٩٢ .

غيرهم، أن يذهبوا إلى الناس ليُنشئوا، أو ينشّطوا، الحوارَ معهم. وإذا شئنا أنْ يكون، في هذا الحوار الخلاصي، وحدةٌ للحقيقة والمحبّة، للعقل والقلب، وجب أن يمتاز بوضوح في التعبير، وفي الوقت نفسه بالتواضع والرفق، بفطنة لائقة تقترن بثقة من شأنها أن تعزّز الصداقة وأن توحّد النفوس»[١٦].

١٥ . هذه هي الحقيقة التي تعمل لها الكنيسة. إنّها، باختصار: «حقيقة المحبّة» لا «محبّة الحقيقة». فالحقيقة لا تغري المسيحيّين بمقدار ما تغريهم محبّة الآخرين. فالكنيسة أنشأها الربُّ من أجل الدفاع عن حرّيّات البشر، وحقوقهم، والعمل على خلاصهم؛ لا من أجل الدفاع عن العلم والمعارف والحقائق العلميّة أو الماورائيّة أو غيرها...

جاء في تعليم الكنيسة: «خيرُ الآخرين وسلامتُهم، واحترامُ الحياة الخاصّة، والخيرُ العامّ، هي أسبابٌ كافية للصمت عمّا يجب أن لا يُعلم، أو لاستعمال كلام متحفِّظ. وواجبُ تجنّب المعثرة يوصي مراراً كثيرة بتحفُّظ دقيق. وليس من إلزامٍ لأحد بكشف الحقيقة لمن ليس له حقٌّ معرفتها»[١٧].

***

١٦ . مفهوم الحقيقة في الإسلام غير هذا الذي في المسيحيّة. صحيح أنّ لفظة «الحقّ» ترد في القرآن ٢٢٧ مرّة؛ وكذلك تعابير مثل:

---

(١٦) قرار في مهمّة الأساقفة الراعويّة، عدد ١٣ .

(١٧) رَ: سي ٢٧/١٦؛ أم ٢٥/٩–١٠؛ التعليم المسيحي، عدد ٢٤٨٩.

«يَحِقُّ الحَقَّ»[١٨]، و«حَقَّ القولُ»[١٩]، «ويَحِقُّ القَولُ» (٣٦/ ٧٠)؛ و«حَقَّتْ كلمةُ ربِّك»[٢٠]؛ «وَلا تُلبِسُوا الحَقَّ بالباطل» (٢/ ٤٢)؛ «وَتَكتُمُوا الحَقَّ» (٢/ ٤٢). و«إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ»[٢١]؛ و«إنّ اللّهَ هو الحَقّ»[٢٢].. و«الملكُ الحَقّ»[٢٣]، وهو «اللّه ربّكم الحقّ» (١٠/ ٤٢)؛ و«يهدي للحقّ» (١٠/ ٣٥). والإسلام هو «دين الحقّ»[٢٤]؛ والكتب المنزلة منزلةٌ بالحقّ[٢٥].

١٧ . و«الحقّ» هنا هو صفة لا إسم؛ صفة للّه، ولوعد اللّه، ودينه، وخلقه[٢٦]، وكلماته، وآياته[٢٧]، ورسله... أمّا لفظة «الحقيقة»، بمعنى مطابقة الفكر على الواقع، فلا توجد في القرآن. كما لا توجد كقيمة روحيّة، أو خلقيّة. إنّما هي، في القرآن، ضد «المجاز»؛ أي إنّ المعنى الحقيقي غير المعنى المجازي. ألمعنى الحقيقي هو المعنى

---

(١٨) رَ: سورة الأنفال ٨/٧ و٨؛ سورة يونس ١٠/ ٨٢؛ سورة الشورى ٤٢/ ٢٤. ويترجمها بلاشير بـ Réaliser la Vérité ؛ أمّا دنيز ماسّون فتترجمها بـ Faire apparaître la Vérité .

(١٩) رَ: ١٧/ ١٦؛ ٢٨/ ٦٣؛ ٣٢/ ١٣؛ ٣٦/ ٧ و٧٠؛ ٣٧/ ٣١؛ ٤١/ ٢٥؛ ٤٦/ ١٨...

(٢٠) ١٠/ ٣٣ و٩٦؛ ٤٠/ ٦: La Parole de ton Seigneur s'est ainsi réalisée

(٢١) ١٠/ ٥٥؛ ١٨/ ٢١ و٩٨؛ ٢١/ ٩٧؛ ٢٨/ ١٣؛ ٣٠/ ٦٠؛ ٣١/ ٩ و٣٣؛ ٣٥/ ٥؛ ٤٠/ ٥٥ و٧٧؛ ٤٥/ ٣٢؛ ٤٦/ ١٧؛ ٤/ ١٢٢؛ ٩/ ١١١؛ ١١/ ٤٥ و٦٥؛ ١٤/ ٢٢؛ ١٦/ ٣٨

(٢٢) ٢٢/ ٦ و٦٢؛ ٢٤/ ٢٥؛ ٣١/ ٣٠...

(٢٣) ٢٠/ ١١٤؛ ٢٣/ ١١٦...

(٢٤) ٩/ ٢٩ و٣٣؛ ٤٨/ ٢٨؛ ٦١/ ٩؛ رَ: ٢٤/ ٢٥...

(٢٥) ٢/ ١٧٦ و٢١٣؛ ٣/ ٣؛ ٤/ ١٠٥؛ ٥/ ٤٨؛ ٦/ ١١٤؛ ١٧/ ١٠٥؛ ٣٤/ ٦؛ ٣٥/ ٣١؛ ٣٩/ ٢ و٤١؛ ٤٢/ ١٧؛ ٤٧/ ٢...

(٢٦) ٦/ ٧٣؛ ١٤/ ١٩؛ ١٥/ ٨٥؛ ١٦/ ٣؛ ٢٩/ ٤٤؛ ٣٠/ ٨؛ ٣٩/ ٥؛ ٤٤/ ٣٩؛ ٤٥/ ٢٢؛ ٤٦/ ٣؛ ٦٤/ ٣...

(٢٧) ٢/ ٢٥٢؛ ٣/ ١٠٨؛ ٤٥/ ٦...

الأساسي، الباطني، الواضح؛ فيما المعنى المجازي هو المعنى الظاهر، المتشابه، الذي يجب أن «يُأوَّل»، أي يُعاد إلى معناه الأوّل والأساسي، ليُعرَف معناه الحقيقي.

***

١٨ . إنّ ما يعنينا هنا، في مفهومنا للحقيقة، بالمقارنة مع الحقيقة في مفهومها المسيحي، هو أنّ الإسلام، الذي يعتبر اللّهَ حقًا، والكتبَ المنزلة حقًا، لا يهادن في ذلك، أي لا يترك مجالاً لحرّيّة الآخرين. لذلك، فهو يصنّف الناسَ بالنسبة إلى ما عنده من «حقّ»؛ بل يقاتلهم من أجل ما يملك من «حقّ»، من دون أي اعتبارٍ للاختلاف الطبيعي بين طبائع البشر وحضاراتهم ومجتمعاتهم.

١٩ . والاختلاف الكبير بين المسيحيّة والإسلام في هذا المقام نعبّر عنه بما يلي : ألمسيحيّة تناضل من أجل حقيقة المحبّة، ومن أجل حرّيّة الإنسان وكرامته اللّتَين هما أجلّ من الحقيقة نفسها؛ بل أولَى من كلِّ حقيقةٍ، علميّةً كانت أم دينيّة؛ فيما الإسلام يقاتل من أجل الحقّ الذي يجده في كلام اللّه، وكتابه، ودينه، وشريعته؛ لا من أجل محبّةِ الإنسان وحرّيّته.

لقد قال أفلاطون عن أستاذه سقراط قولَه الشهير: ألحقّ صديقي، وسقراط صديقي؛ والحقّ عندي أكثر صداقة. والمسيحيّة تقول: ألحقيقة غاية؛ والمحبّة غاية؛ ولكنّ المحبّة أولى. والإسلام يقول: ألله حقّ؛ والإنسان حقّ؛ ولكنّ اللّه يعلو.

٢٠ . لا بأس بهذا الكلام على الصعيدين الوجودي والخُلقي؛ ولكنّه ليس صحيحاً على صعيدَي المحبّة والخلاص. والمسيح، في النتيجة، مات، لا من أجل اللّه والحقيقة العلميّة أو الدِّينيّة؛ بل «من أجلنا نحن البشر». وعلى المسيحيّ، أيضاً، « أن يجعل حياتَه منسجمةً مع فريضةِ المحبّةِ الأخويّة الإنجيليّة. وهذه تقتضي في الحالات الواقعيّة أن ينظرَ الإنسان في كشف الحقيقة لطالبها: هل ينبغي ذلك أو لا»[٢٨].

٢١ . هذه القاعدة، تعبّر عنها الكنيسة في قولها: «على كلّ واحدٍ أن يتقيَّدَ بالتحفُّظ الصحيح في شأن حياة الناس الخاصّة. والمسؤولون عن الإبلاغ مُلزَمون بالمحافظة على نسبةٍ صحيحةٍ بين مقتضيات الخير العامّ واحترام الحقوق الخاصّة. وتدخُّلُ الإعلام في الحياة الخاصّة للأشخاص العاملين في المجال السياسيّ أو العام يستدعي الحكمَ عليه بمقدار ما يُسيء إلى خصوصيّة حياتهم وإلى حرّيّتهم»[٢٩].

---

(٢٨) التعليم المسيحي، عدد ٢٤٨٨.

(٢٩) المرجع نفسه، عدد ٢٤٩٢ .

١٨

ألخطيئة

١ . ألإنسان يخطأ، وخطيئته شرٌّ، يصنعه ضدّ اللّه مباشرة، لكون اللّه هو الخير المطلق؛ وضدّ الشركة الإنسانيّة والتضامن الأخويّ. ألخطيئة، في المسيحيّة، أمرٌ واقع. لقد جاء المسيح ليخلّصَ البشر جميعَهم لأنَّهم خطأة. وكلام القديس يوحنا في ذلك واضح : «إذَا زَعَمْنا أنَّنَا بِلا خَطِيئَةٍ خَدَعْنا أنفُسَنا، ولمْ نكُنْ علَى الحقِّ... وإذَا زَعَمْنا أَنَّنا لمْ نَخطَأْ جَعَلْنَاهُ (أي المسيحَ) كَاذِبًا، ولمْ يكُنْ كلامُهُ فِينا» (١ يو ١/ ٨ و١٠).

٢ . لا يستطيع الإنسانُ أن ينكر واقع الخطيئة الذي يعيش فيه. ولا يمكنه أن يقول عن نفسه بأنّه بارّ طالما باستطاعته أن يخطأ كلَّ حين، أي باستطاعته دائمًا أن يختار بين اللّه وبين غير اللّه، بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين النور والظلمة. ويستطيع أيضاً أن يعمل لنفسه على حساب غيره من إخوته البشر؛ فيُفسد بذلك كلَّ محبّةٍ وتضامنٍ معهم.

٣ . في حريّة الإختيار هذه تكمن الخطيئة : لقد خلق اللهُ الإنسانَ كائنًا حرّاً؛ وأحبّه جدًا. وكثيرًا ما استعمل الإنسان حرّيّته هذه ليتحرّر من اللّه نفسه، ويقف ضدّ محبّته له... وفي الواقع، وقف الإنسان بوجه اللّه منذ البدء، أي منذ أن خُلِقَ حرًا.. لهذا فإنّ «الخطيئة الأولى معصيةٌ وثورةٌ على اللّه، بإرادةِ أن نصير "كآلهة" (تك ٣/ ٥)، نعرفُ ونحدِّدُ الخيرَ والشرَّ، (من دون الرجوع إلى اللّه). وهكذا فهي "محبّةُ الذات حتّى احتقار اللّه"»[1]. ولهذا أيضاً فسوف يكون الخلاص بطاعةِ يسوع وخضوعه لمشيئة اللّه أبيه.

٤ . ويُضاف إلى تحديد الخطيئة هذا معنى آخر، هو أيضاً من مفهومها الأساسي، ألا وهو أنّها «إجحافٌ بالمحبّة الحقيقيّة للّه والقريب، بسبب تعلّقٍ أثيمٍ ببعض الخيور. إنّها تجرح طبيعة الإنسان وتُؤْذي التضامنَ البشريّ»[2]. فالإساءة إلى الشركة بين البشر، إذاً، بعدٌ جوهريٌّ للخطيئة. لهذا، فإنّ كلّ نقصٍ في محبّة القريب هو نقص في محبّة اللّه. ومحبّة اللّه ومحبّة القريب صنوان لا ينفصلان. تلك لا تكون من دون هذه؛ ولا هذه تكون من دون تلك.

٥ . من هنا نقول إنّ الخطيئة، في المفهوم المسيحيّ، هي ضدّ الخلاص، أي ضدّ إرادة اللّه في خلاص الإنسان، أيِّ إنسان. فالنعمة هي نعمة بسبب محبّة اللّه الخلاصيّة هذه. والخطيئة هي خطيئة بسبب رفضنا لهذه المحبّة الخلاصيّة. والسعادة، كما الهلاك، يكونان كذلك بسبب موقفنا، القابل أو الرافض، من إرادة اللّه الخلاصيّة الشاملة.

---

(١) القديس أغوسطينوس، مدينة اللّه ١٤، ٢٨؛ التعليم المسيحي للكنيسة، عدد ١٨٥٠.

(٢) التعليم المسيحيّ، عدد ١٨٤٩.

٦. ولفهمٍ أعمق لسرِّ الخطيئة، نقول: إنّ الخطيئة، في معناها المسيحي، هي ضدّ محبة اللّه في خلاص الإنسان؛ أي هي رفض للخلاص الذي حقّقه اللّه بالمسيح. هذا يعني أنّ الخطيئة ليست هي ضدّ ذاتِ اللّهِ، ولا ضدّ الشريعة، ولا ضدّ ذات الإنسان؛ وليست أيضاً ضلالاً عن الحقّ، ولا خطأً علمِيًا، أو نقصاً في الصفات، أو انحرافاً في الأخلاق، أو نجاسةً في البدن... بل هي عملٌ ضدّ إرادة اللّه في خلاص كلّ إنسان.

وكما يقول تعليم الكنيسة: من دون الوحي، «لا تمكن معرفة الخطيئة معرفةً واضحة، فنكون معرَّضين لتفسيرها على أنّها نقصٌ في النموِّ فقط، ضعفٌ نفسيّ، ضلالٌ، نتيجةٌ حتميّةٌ لبنيةٍ إجتماعيّةٍ غيرِ ملائمة إلخ. ففي معرفة قصد اللّه بالنسبة إلى الإنسان فقط تُفهم الخطيئة على أنّها سوءُ استعمالٍ للحرّيّة التي يمنحها اللّه للأشخاص المخلوقين، لكي يتمكّنوا من محبّته ومن محبّة بعضهم البعض»[٣]. ألخطيئة، في معناها المسيحي الأساسيّ، إذاً، هي حالة رفضٍ لمحبّة اللّه لنا، ولمشيئته الخلاصيّة الشاملة.

٧. ولوضوح أكثر، نقول :

ألخطيئة، في مفهومها الطبيعيّ، تعني نجاسةً، أي معاطاة الإنسان مع أشياءَ نجسة بذاتها، أو تُحدِّد الشريعةُ نجاستَها؛

والخطيئة، في مفهومها الفلسفي، تعني ضلالاً وخطأ؛ أي، إنها نتيجة جهلٍ لحقيقة الأشياء، أو اعوجاج في المنطق؛

---

(٣) التعليم المسيحي، عدد ٣٨٧.

والخطيئة، في المفهوم اليهودي، هي عصيانُ الناموس الذي وحدَه يقرّر برَّ الإنسان وسعادتَه، أو هلاكه أيضاً؛

وفي الإسلام، ألخطيئة هي نتيجة مخالفة خارجيّة للشريعة. تقرّرها محكمةُ شهودٍ خارجيّة، لا محكمة الضمير الباطني.

٨. ألخطيئة في المسيحيّة، إذًا، هي نتيجة وعي الإنسان لأهميّة الخلاص الذي شاءه اللّه. لكأنّ الخلاص هو المَرآة الجليّة التي عليها تظهر الخطيئة بكلِّ عريِها. ولولا هذا الخلاص لما كان لنا أن نعرف لا سرَّ النعمة ولا سرَّ الخطيئة. وبمقدار ما نعي سرّ الخلاص بمقدار ذلك نعي أهميّة النعمة والخطيئة على السواء، ونقدرهما حقّ قدرهما.

٩. من هنا يشدّد المسيحيّون في القول : نحن نعرف المسيح ونتّبعه لأنّه هو «المخلّص». ومَن ينكره فهو ينكره بسبب ذلك. وتكون الخطيئة، عندئذٍ، في موقف الإنسان الرافض للمسيح المخلّص. وليس من خطيئة خارج ذلك.

هذا يعني : أنّ الخطيئة ليست طعنةً بحقّ عظمةِ اللّه الأزليّة؛

ولا هي مخالفة لناموس أو لشريعة؛

ولا هي نتيجة ضعفٍ بشري؛

ولا هي حياد عن عادة خيّرة اكتسبناها؛

ولا هي زلّة قدم في طريق معوجّة؛

ولا هي عصيان لإرادة تريد خيرَنا؛

ولا هي ارتباك في الضمير؛

ولا هي ضلال في العقل والمنطق؛

ولا هي انحراف خلقي أو أدبي؛

ولا هي خطأ علمي؛

ولا هي نجاسة لأشياء طاهرة؛

ولا هي شذوذ في الطبع البشريّ؛

ولا هي شرّ في الحياة الاجتماعيّة؛

ولا هي فساد في الكون...

١٠. ألخطيئة هي رفض لإرادة اللّه المخلِّصة، هي رفض للّه الذي «تجسَّد من أجل خلاصنا». لهذا نولي قولَ يسوعَ المعنى الحقيقي لمفهوم الخطيئة عندما قال: «لَوْ لَمْ آتِ وأُكَلِّمْهُمْ لَمَا كَانَتْ عَلَيهِمْ خَطِيئَةٌ» (يو ١٥/ ٢٢). مجيء اللّه، إذاً، أي تجسّده في يسوع المسيح، هو الذي قرّر وجود الخطيئة. ومَن لا يعترف بتجسّد اللّه لا يعرف خطيئة.

١١. ألمسيحُ، بكونه مخلِّصَنا، هو المعنيُّ مباشرةً بالخطيئة؛ أي المسيح بكونه إلهاً وإنساناً، أو إلهاً متأنِّساً، أحبَّ الإنسانَ حتى التخلّي عن ذاته الإلهيّة، هو الذي تزعجه الخطيئة.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنّ الخطيئةَ لا تطالُ «اللّهَ-في-ذاته»؛ بل تطالُ «اللّهَ-الذي-مَعنا»، أي «اللّهَ-مخلِّصَنا»، أي «اللّهَ-الإنسان»؛ أو أيضاً لكأنّ الخطيئةَ تطالُ الإنسانَ الذي خلّصه اللّهُ المتأنّس أكثر ممّا تطال اللّهَ-في-ذاته. ألخطيئة تكمن في بغض الإنسان، أيِّ إنسان، في الحقد، في الكذب عليه، وسرقته، والتعدّي على كرامته وحرّيّته، وتشكيكه... أي في تحييده عن طريق الخلاص، وفي صدِّه عن بلوغ القداسة، ومنع الروح عنه.

١٢ . تعاليم المسيح في هذا المجال واضحة جدًا، بل جلّ تعاليمه تدور في هذا المجال: ألإنسانُ الذي جاء اللّهُ من أجله، هو الذي نخطأ في حقِّه، وتنالُ الخطيئة منه. وقد عبّر يسوع عن ذلك في إنجيله خيرَ تعبير: «إنْ جئتَ تُقرِّبُ علَى المذبحِ قربانَكَ، وذكرتَ لأخيكَ علَيكَ شيئاً، فدعْ هنالكَ قربانَكَ، وبادرْ فصالِحْ **أوّلاً** أخاك. ثمّ عُدْ وَقَرّبْ قربانَك» (متى ٥/٢٣-٢٤). هذا يعني: أترك اللهَ، والقربانَ، والمذبحَ، والكنيسةَ، والصلاةَ، والمقدَّسات جميعَها، واذهبْ إلى أخيكَ وصالحْه **أوّلاً**. فإنّ مصالحةَ الإنسانِ ومحبّتَه تتقدّمان على كلّ شيء.

والصلاة التي علّمناها يسوع : «إغفرْ لنا ذنوبَنا كما نحن نَغفرِ لمن خَطِئ إلينا»؛ وقوله : «إنْ تَغفِروا للنّاسِ زلاّتِهم يَغفِرْ لكم أبوكُمُ السماويّ، وإنْ لمْ تَغفِرُوا للنّاسِ فأبُوكم لن يَغفِرَ لكم» (٦/١٢ و١٤-١٥). هي أساس في المفهوم الحقيقي للخطيئة. إنَّ غفراننا لإخوتنا يتقدّم على غفران اللّه لنا. ففي هذه المرّة فقط، تأتي المبادرة من الإنسان لا من اللّه. لهذا، نؤثر، مع شرّاح «إوَنْجِلْيُونْ» ترجمةً تضع غفرانَنا قبل غفران اللّه، فقالوا : «عفَونَا فَاعْفُ عنّا».

١٣ . وكم ساوى المسيحُ نفسَه بالفقراء والضعفاء! وكم فضّل المرذولين والخطأة على المدعوِّين والبررة! وكم عادل بين محبّة اللّه ومحبّة القريب! وكم وقف بوجه الفرّيسيّين الذين كانوا يقدِّمون الشريعة على الإنسان! وكم طعنَ بقدسيّةِ السبتِ والختانِ والناموسِ ليهتمّ بقدسيّةِ الإنسان وحرّيّته وكرامتِه!.. لكأنّ الخطيئةَ هي خطيئة ضدّ خلاص الإنسان؛ لا ضدّ اللّه والشريعة. وهذا أيضاً من مميّزات المسيحيّة ومفارقاتها مع الإسلام.

١٤. فإذا كانت الخطيئة ضدّ الخلاص، أي ضدّ إرادة اللّه الخلاصيّة؛ وإذا كان الإنسان هو هدف خلاص اللّه؛ فالخطيئة إذًا تكون خطيئة عندما تقف ضدّ الخلاص، الخلاص الشخصي وخلاص الآخرين على السواء، أي عندما تكون ضد محبّة الذات الحقيقيّة ومحبّة الآخرين أيضاً.

هذا يعنى أيضاً أنْ لا خلاص لنا من دون الآخرين، الّذين، نحن وهم، نؤلِّفُ «جماعة»، معها وبها نخلص. هذه «الجماعة»، هي «الكنيسة»، التي أنشأها المسيح لتكمّلَ عملَه الخلاصيّ. في هذه الكنيسة نجد الضمانة على أنّنا نسيرُ حقًا باتّجاه مشيئة اللّه الخلاصيّة.

١٥. لهذا نقول: إذا كانت الخطيئةُ تنالُ من محبّة اللّه، ومن مشيئته الخلاصيّة، فهي أيضًا تنالُ، في الوقت عينه، من قداسة الكنيسة حيث وديعة الخلاص. ألخطيئةُ، إذاً، تطالُ الكنيسة، أي الجماعة. ومهما كانت الخطيئة فرديّة أو سرّيّة، فمفعولها يطالُ الكنيسةَ والجماعةَ بأسرها. وتوبةُ إنسانٍ واحد في الجماعة تقوّي توبة كلّ فرْدٍ فيها. وقداسةُ كلِّ واحدٍ تفعل في تقديسِ الجماعة كلِّها.

لهذا قال المجمع : «أولئكَ الذين يتقدَّمون من سرِّ التوبة يتقبّلون فيه من رحمة اللّه غفراناً عن الإساءة التي ألحقوها به، ويتصالحون، في الوقتِ عينِه، مع الكنيسة التي جرحوها بخطيئتهم، والتي تدأب على توبتهم بالمحبّة، والمثل، والصلاة»[٤].

---

(٤) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ١١ .

ويشدّد المجمع على واجب أن تكون الكنيسة مقدَّسَة، وأن يكون المسؤولون فيها قدِّيسين، لكي يسعهم مساعدة الخطأة على التوبة. يقول: «ولقد سلّم (يسوع) تلاميذَه سلطةً، لكي يستأصلوا سلطانَ الخطيئة منهم بالكفر بالذات وبقداسة الحياة»(٥).

١٦ . من هنا نقول : إذا كانت الخطيئةُ تمسُّ قداسةَ الكنيسة، فهذا يعني أنّ للكنيسةِ حقَّ التصرّف بالخطيئة وبالخاطئ نفسه. أي هي التي تعيّن كيفيّة التوبةِ عن الخطيئة، وتحدّد عقابَ الخاطئ. ذلك، لأنّ الكنيسة، نظرًا إلى قداستها، هي التي أصيبتْ بالخطيئة أكثر من الخاطئ نفسه؛ لأنّها هي التي تملك وديعةَ الخلاص؛ وهي التي تعرف وتقرّر كيفيّةَ الحصول عليه؛ ولأنّها، أخيراً، تكمّل عمل المسيح في تقديس الإنسان ومدّه بأنواع الهبات والنعم.

لهذا، فالكنيسة هي التي تحضن الخطأة، وتفرض الكفّارة عليهم؛ وهي التي تحكم على الخطيئة؛ وهي التي تعوّض عمّا لا يستطيع أيّ خاطئ تائب أن يعوّضه إن هو تُرِكَ لفردانيّته. لهذا، على الكنيسة أن تتطهّر وتتجدّد لتقوم بمهمّتها الخلاصيّة هذه. قال المجمع : «فإنّ الكنيسةَ في حضنِها الخطأة، إذاً هي قدّوسة. وعليها أن تتطهّر دوماً، جادّةً باستمرارٍ إلى التوبة والتجدّد»(٦).

من هنا نقول مع المجمع بأنّه لا يسع أحداً أن يخلص من الخطيئة إلاّ بمساعدة الكنيسة، وبنعمة المسيح المخلِّص : «ما من أحدٍ يُعتَق من

---

(٥) رَ: رو ٦/ ١٢؛ المرجع السابق نفسه، عدد ٣٦ .

(٦) المرجع السابق نفسه، عدد ٨ .

الخطيئة بنفسه وبقواه الذاتيّة، ويُرفع إلى فوق ما هو عليه، ما من أحدٍ يتحرّر تحرّراً كاملاً من ضعفه، أو عزلته، أو استعباده؛ بل جميعهم بحاجة إلى المسيح المثال والمعلّم والمحرِّر والمخلِّص والمحيي»[7].

***

١٧ . في القرآن نجد تعابير الخطيئة ومشتقاتها (٢٢ مرّة)، والإثم ومشتقّاته (٤٨ مرّة)، والذنب ومشتقّاته (٤٠ مرّة)، والسَّيِّئة ومشتقاتها (٥٨ مرّة)، والمعصية ومشتقّاتها (٣٢ مرّة)... معظم هذه الألفاظ يعني الأفعالَ الشرّيرة الموجّهة نحو اللّه. وهي تمسُّ ذات اللّه، وبنوع خاصّ، وحدانيَّتَه.

١٨ . باستطاعة اللّه أن يغفر خطايا البشر كلَّها، ما عدا واحدة : «إنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلكَ لِمَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً» (٤/١١٦). أمّا غير الشرْك، أي غير الخطيئة التي تنال من وحدانيّة اللّه، فتُغفر بسهولة، لأنّها لا تؤدّي إلى الهلاك الأبدي؛ إذ هي «أخطاء» لا «خطايا»؛ أخطاء تنالُ من شريعةٍ، تمسّ قدسيّة الكتاب، ومقام النبيّ، وحرمةَ الدين. فمَن لم يؤمن بقدسيّة القرآن يُقتل، وكذلك مَن يسبّ محمّداً، ومن يرتدّ عن الإسلام، ومَن كفر باللّه وأشرك، ومن أنكر وحدانيّتَه... أمّا مَن يقف ضد محبّة أخيه الإنسان، وضد خلاصه فلا خطيئة عليه...

١٩ . إلاّ أنّنا نقول : لو كان إنسانٌ مشرِكاً فهذا يعني أنّه ليس مسلماً، وبالتالي ليس عليه، لا خطيئة الشرك ولا أيّة خطيئة أخرى. أمّا

---

(٧) قرار مجمعي في نشاط الكنيسة الإرسالي، عدد ٨ .

إذا كان الإنسانُ مسلماً وعليه خطايا، مهما كانت، فهو، بالنتيجة، مسلم، أي، لا تُحسَب عليه خطيئة، لا خطيئة الشرك ولا أيّة خطيئة أخرى.

فالمسلم، إذاً، طالما هو مسلم، لا يمكنه أن يكون مشركاً، ولا أن يرتكب خطيئةَ الشرك. ولكن عليه واجب إنهاء الشرْك عن وجه الأرض، كما عليه أن يقضي على المشركين أينما وُجدوا. عليه أن يقاتلهم كافّةً، قاتَلوه أو لم يقاتِلوه. والقرآن مليءٌ بالدعوة إلى قتال المشركين الذين سيكون مصيرهم جهنّم لا محالة. قال: ««فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» (٩/ ٥)[٨].

٢٠ . والحقّ يقال إنّه لا مفهوم واضح للخطيئة في الإسلام. بل لسنا نعرف ضدّ مَن تكون الخطيئة؟

أهي ضدّ ذات اللّه؟! ولكنّ اللّهَ كائنٌ متعالٍ، بعيدٌ، صمدٌ، لا تمسُّه خطيئة، ولا تناله إساءة؛ كما لا يتعاطف مع محبّة أحد. فهو لا يُحِبُّ ولا يُحَبّ، لئلاً يكون متفاعلاً ومنفعلاً بمن يُحبّ وبمن يُحبّه.

أهي ضدّ وحي اللّه؟! ولكنّ المسلم يكفيه من الوحي إيمانُه

(٨) قال أيضاً : «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» (٩/ ٣٦)؛ «أنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» (٩/ ٣)؛ و«مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالذين آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» (٩/ ١١٣)؛ «إنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ. فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» (٩/ ٢٨)؛ «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ»(٤/ ١١٦)؛ وأيضاً: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، الظَّانِّينَ باللَّه ظَنَّ السَّوْءِ. عَلَيهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ. وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِمْ. وَلَعَنَهُمْ. وَأعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ. وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (٤٨/ ٦).
وهم، بالنتيجة، في نار جهنّم : «إنَّ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. خَالِدِينَ فِيهَا. أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ» (٩٨/ ٦)...

بوحدانيّة اللّه، والشهادة بـ «أن لا إله إلاّ الله»!.. ألمسلم الحقيقي هو الذي يعلن الشهادتَين. ولا يحتاج لكي يكون مسلماً إلى أكثر من ذلك. وما سائر أركان الدين، كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ إلاّ للتقوى. إنْ أهملها لن يكون كافراً، أو ناقص الإيمان؛ بل يكون ناقصَ الإسلام.

أهي ضد الخلاص؟! ولكنَّ مقولة الخلاص لا وجود لها في الإسلام إطلاقاً. والقرآن لم يأتِ بالخلاص؛ ولا محمّد أيضاً. والإسلام لم يعمل في الإنسان من الباطن. لم يساعده على الانتصار على نتائج الخطيئة، أي على الموت والهلاك والآلام.

أهي ضد الإنسان؟! ولكنّ الشريعة، بحسب منطق القرآن، أولى من الإنسان، لأنّ شريعة السنّ بالسنّ هي الشريعة؛ ولأنّ الجهاد في سبيل اللّه هو عملٌ مقدّس؛ ولأنّ حقَّ اللّه أبدى من حقٍّ الإنسان؛ ولأنّ حرّيّةَ الإنسان وكرامته رهنٌ بالشريعة؛ ولأنّ تدبُّرَ القرآن أعظم من الاهتمام بالإنسان!..

٢١ . ثمّة، أيضاً، غائبٌ أكبر في الإسلام هو «الضمير». هذه الكلمة لا وجود لها، لا في معناها ولا في لفظها، لا تصريحًا ولا تلميحًا. والذي يحكم على أعمال الإنسان، هو الشريعة النابعة من الحدود التي رسمها القرآن، وبتعبير آخر هو حَكَمٌ خارجيٌّ، لا حَكَمٌ داخلي؛ أي هي «عيون الآخرين» التي تربك مسيرة المسلم، لا «عين الضمير» التي تدلّ على براءة الإنسان أو عدم براءته. فالمقولة المسيحيّة بأن «لا خطيئة إلاّ من قِبَل الضمير» ليست من مقولات الإسلام إطلاقاً.

***

٢٢ . ينتج من ذلك أنّ الفرق بين المسيحيّة والإسلام، في موضوع الخطيئة، هوالفرق الحاصل بين أن يكون اللّه في الإسلام بعيدًا، صمدًا، إلى أقصى حدود البعد والصمديّة، أو أن يكون في المسيحية متجسّداً، مخلِّصًا، قد «تخلّى عن ذاته» حبًّا بالإنسان إلى أقصى حدود الحبّ والبذل.

٢٣ . خطيئة المسلم، في نتيجة الأمر، هي إثمٌ ضدّ اللّهِ بكونه خالِقاً ومشترعاً؛ فيما هي، في المسيحيّة، إثمٌ ضدّ اللّه بكونه مخلِّصاً ومحبًّا.

خطيئة المسلم ذنب ضدّ شريعة اللّه؛ فيما هي، في المسيحيّة، إثمٌ ضدّ مشيئة اللّه في خلاص الإنسان.

خطيئة المسلم لا تنال من قداسة الإنسان؛ فيما هي، في المسيحيّة، لا تُحسَب خطيئة إلاّ لأنّها تنال من قداسة الإنسان.

فالقتل والسرقة والكذب، مَثَلاً، لا تُحسَب خطايا إنْ هي كانت للقضاء على «أعداء اللّه»، أو لإضعاف قوّتهم؛ فيما هي، في المسيحيّة، شرٌّ كبيرٌ وإثمٌ عظيمٌ بحدِّ ذاتها، لأنّها تنال من الإنسان، أيِّ إنسان.

١٩

القداسة

مقدّمة

١ . عندما يعتنق إنسانٌ الحياةَ المسيحيّة، يكون في خلفيّة اعتناقه توقٌ إلى تقديس نفسه، ومن خلالها، يعمل على تقديس العالم، وعلى ازدياد الخير فيه. من دون هذا التوق لا معنىً للحياة المسيحيّة. ولا أحد مدعوٌّ إلى التزام مسيرتِها الصعبة، ولا إلى معتقداتها العصيّة على العقل. والقداسةُ، في كلِّ حالٍ، دعوة كلِّ مسيحيٍّ مؤمن ولو كان إنساناً عاديًا.

٢ . هذه الدّعوة، بالرّغم من كونها عامّة، لا يبلغها إلاّ الذين وضعوا اللّهَ نصب أعينهم، وقصدوه كغاية قصوى لهم في حياتهم. فاللّه هو الهدف الوحيد، والمبتغَى الأخير، والقمّة العالية التي يسعى إليها كلّ إنسانٍ سعياً حثيثاً متواصلاً. ولئن كان في الحياة العاديّة من عوائق للقداسة، فلا شيء، مع عملِ الرّوح القدس، يحول دونها، أو يقف في وجهها، أو يُعيقها عمّا تصبو فيه.

٣ . لقد باتتِ القداسة، مع قدّيسي الكنيسة الذين نعرف سيرتهم، في متناول يدنا وعقلنا وقلبنا وطموحنا. بتنا نرغبها، نتوق إليها، نعمل لها، ونتجرّأ على الغوص في سرّها. وبتنا، في الحقيقة، نعرف ماذا تعني لنا بعضُ تعاليم المسيحيّة والإنجيل، ونعرف ما معنى التشبّه بالمسيح، والاقتداء به، واتّباعه، والحياة معه وفيه، والاتّحاد به، وتناوله، ومشاركته في ألوهيّته، والموت من أجله.

٤ . أصبحنا نعرف مقصودَ الكتاب المقدّس في وصف اللّه بالقدّوس، ونعرف أيضاً معنى تلك الصلاة التي علّمناها يسوع: «ليتقدّسِ اسمُكَ»[١]، ومعنى «الرّوح القدس»، الذي «مِنْ دُونِهِ لا قَدَاسَة»[٢]، و تسمية المسيحيّين الأوّلين بـ «قدّيسين»[٣]، وإعلان الكنيسة قداسة كثيرين من أبنائها.

٥ . هذه «القداسة لن يُعايِنَ الربَّ أحدٌ بدونِها»[٤]. إنّها مشيئة اللّه الذي «ما دعانا إلى نجاسة، بل إلى قداسة»[٥]؛ لهذا صلّى يسوع إلى أبيه ليقدِّسَ الذين جاء من أجلهم: «قدِّسْهم في الحقّ.. إنّي أتقدَّسُ مِن أجْلِهم لكي يتقَدَّسوا هم أيضاً في الحقِّ»[٦]؛ وقال الربّ: «قدّوسٌ أنا الربُّ مُقَدِّسُكُم»[٧]؛ وأكدّ ذلك بولس: «لكنَّكم قُدِّسْتُم»[٨].

---

(١) متّى ٦/ ٩؛ لوقا ١١/ ٢.

(٢) روما ١٥/ ١٦؛ ٢ تسالونيكي ٢/ ١٣.

(٣) ١ قورنتس ١/ ٢.

(٤) عبرانيّين ١٢/ ١٤.

(٥) ١ تسالونيكي ٤/ ٣-٧.

(٦) يوحنا ١٧/ ١٧-١٩.

(٧) أحبار ٢١/ ٨ و١٥ و٢٣؛ ٢٢/ ٩ و٣٢.

٦. ومع هذا، نسأل؟ هل يكون بوسع مسيحيٍّ أن يتقدّس حيث هو؟ في عمله اليوميّ؟ في وظيفته العاديّة؟ في عيلته؟ وحياته الزوجيّة؟ هل بوسعه أن يتقدّسَ وهو في خضمّ هذا العالم؟ في معترك الحياة؟ في الحروب وميادين القتال؟ في معاطاة السياسة والتحزّبات؟ في أعمال التجارة والمال؟ فهل من قداسةٍ خارج المحبسة؟ أو الدير؟ أو الحياة الرّهبانيّة؟

٧. هذه القداسة، على اختلاف طرقها، تكون في الكنيسة، من دون شكّ؛ ولكن، أيّ كنيسة؟ ألكاثوليكيّة؟ أم الأورتوذوكسيّة؟ أم البروتستنتيّة؟ وهل من قداسةٍ خارج الكنيسة؟ أقداسةٌ في اليهوديّة؟ والإسلام؟ والدرزيّة؟ والنّصَيريّة؟ والبوذيّة؟.. وهل من أناسٍ غير مسيحيّين ظهرتْ عليهم سيمات القداسة؟

٨. هل من نصوصٍ مقدّسة» في غير المسيحيّة؟ هل من «قرابين مقدّسة»؟ و«ذبائح مقدّسة»؟ و«أحجار مقدّسة»؟ و«أمكنة مقدّسة»؟.. أهي «مقدّسة» لأنّها هي التي تُقدِّس؟ أم لأنّها تتقدَّس بقداسة مَن يقدِّسها؟

٩. هذه أسئلةٌ شائكةٌ ومهمّةٌ، وجدنا البحثَ فيها ضرورةً ملحّة، لأنّه يطال الإنسانَ في أعمق أعماق حياتِه وأعماله وسلوكه وأخلاقه. فيها يكاد يلامس اللّهَ في أجمل صفاته وأكملها؛ وبها يدقُّ على الوترِ الحسّاس في كلِّ دِين ومذهب.

---

(٨) ١ قورنتس ٦/ ١١.

١٠ . إنّ غايةَ الإنســان وكمالَه أن يُصــبح مع مَن يحبُّه ويصــبو إليه كـائنًا واحداً. واللّه هو غاية الإنــسان وكماله. يـعمل على أنْ يكونَ الإنسانُ، كلُّ إنســانٍ، معه، مـتّحِداً به إتّــحاداً كلّيًا وتامًــا. والإنسان، لا يحـقّق ذلك إلاّ عندمـا يعـمل على تقـديس نفـســه؛ لأنّ القـداســة، في جوهرها، هي أن تجعـل من اللّه والإنسان كياناً واحداً. فـلكأنّ القداسة هي الوسيلة إلى تحقـيق الإنسان غايتَه، وكمــالَه، واتّحاده الكلّيّ والتّامّ باللّه.

١١ . هذا ما تعلّمه المسيحيّة بوضــوح، ويعرفه المسيحيّ معرفةً جيِّدة، وقد لا يعــرفه غير المسيحيّ؛ لأنّ المسيــحيّ، وحدَه، يعرف معنى الشراكة مع اللّه، ومعنى الوَحدة معه، والاتّحاد به، والحياة فيه، والموت من أجله... لهذا، كان على القداســة، لكي تتحقّق، أن تنطلق من منطلقات واضحة، وأن تتميّز بمميّزاتٍ صريحة.

أوّلاً – منطلقات القداسة

١ . على المســيــحي، وهو في هذا العــالَم، عــالَمِ النســبيّــات، أن يتعــاملَ مع المطلق مباشرة. فــهو لا يرتاح إذا سلَّم نفسَــه لأيٍّ مخلوقٍ، نبيّاً كان أم رسولاً، أم ملاكاً، أم قدِّيسًــا، أم قائداً، أم زعيماً، أم شبه إله! وحدَه اللّه هو ذاك المطلق الذي يصــبو الإنسان إليه ويطمــئنّ. غير اللّه، ممّا هو في الأرض أم فــوق الأرض، لا يُشــبع عقلَه النــافذَ أبداً باتّجــاه المطلق. هذا يعني أنّ المســيحيّ، في تحــديده، هو الساعي أبداً إلى تــأليه نفسه. وهو لا يريد غيرَ اللّه ليتعامل معه.

٢ . ولئن تعامل المسيحي مع النسبيّات فهو يبتغي من خلال ذلك رفْعَها إلى مستوى المطلق. والمسيحيّ، بتعامله مع المطلق، فلكي يرفع النسبيّاتِ كلَّها إليه؛ وهكذا يسعه، والحال هذه، إلى أن يروحن المادّة، ويمدّ الزمن نحو الأبد، ويرفع كلَّ ما تلمسُ يداه، و يقدِّسَ الخبزَ والخمر، ويباركَ الماءَ والزّيت، ويكرّسَ الأرضَ للّه، ويعمِّد الإنسانَ، وينذره للربّ نذراً مؤبّداً. فالمسيحيّ الذي يعيش في الزمان والمكان، بتعامله مع المطلق، يتخطّى الزمان والمكان أبداً.

٣ . على المسيحي، وهو يرفع النسبيَّ إلى مستوى المطلق، ألاّ يعتبرَ النسبيَّ مطلقاً، ويحلَّه محلّ المطلق. إنّها خطورة وقع فيها الأنبياء ومؤسِّسو الأديان. فالإنسان، في أي موقعٍ كان، هو أعظم من كلّ نسبيّ. إنّه أعظم مِن كلٍّ ما سواه. إنّه القيمة–الأهمّ. لا يسعه أن يسلِّم زمامَ أمرِه إلى أيّةِ شريعة سماويّة، أو إلى أيّ كتابٍ مُنزل، أو أيٍّ ملاكٍ أو نبيٍّ أو زعيم... وحدَه المسيحيّ، بتعامله مع المطلق، هو مرجعيّة نفسه. ومَن يودّ الرجوع إلى دينٍ أو شريعةٍ أو نبوّة... يتخلّى عن ذاته.

٤ . هذا المطلق، إنِ استمرّ في أبراجه العليّة، وبقي «بعيداً»، «متعالياً».. لا يمكن للمسيحيّ أن يتعاملَ معه... فلا بدّ لهذا المطلق أن يَسقط قليلاً من عليائه، أن «يتأنسن»، و«يتلاشى»، و«يتخلّى» و«يمّحي»؛ أو : أن «يموت». أجل، يموت. فالمطلق الذي لا يموت يبقى بعيداً، غريباً، لا يشارِك ولا يُحِبّ. لا يطيق أحداً. يخافُ من كلّ أحد من أن ينالَ من مطلقيّته شيئاً. وبهذا فهو لا يتمتّع بصفات المطلق.

٥ . ألأشياء النسبيّة كلّها، في تعاملها مع المسيحيّة، يشعّ فيها نورٌ من المطلق: ألتراب، ألماء، الزيت، الصّورة، الأشخاص... كلّها

تكرّسها المسيحيّة، وتباركها، وتقدّسها، وترفعها، وتجعلها أيقونات مقدّسة: ألتراب الذي داسه القديس شربل، والشجرة التي استظلّها، والكرم الذي اشتغله... والثيات التي لبسها... كلها أصبحتْ معه وتحت يديه، مقدَّسةً، تقدِّس مَن يستخدمها.

٦. ألإنسان، في المسيحيّة، أعظم ما في عالَم النسبيّات، من دون شكّ. إنِ انفتحتَ عليه، وأحببتَه، تكون ابتدأتَ تنفتح على المطلق وتسلك إليه؛ ذاك لأنّ المحبّةَ والانفتاحَ والحوارَ طرُقٌ أكيدةٌ إلى المطلق. بسببها، أشرق اللّهُ على العالم وتجلّى فيه. لهذا، ليس في المسيحيّة إلاّ شريعة المحبّة، محبّةِ الإنسان الذي نراه، أبدى من محبّة اللّه الذي لا نراه.

٧. أيُّ إنسان كان، خصماً أم صديقاً، شرّيراً أم خيّراً، مؤمناً أم كافراً، هو للمسيحيّ أخٌ، يستحقُّ محبّتَه. يستحقّ أن يصلّي له، ويشركَه في خيراته الزمنيّة والرّوحيّة. وهو، عنده، أولَى من القربان والمذبح، وحقُّه عليه أعظم من حقِّ اللّه نفسه. ألم يقل يسوع: إنّ الإنسان أعظم من السبت؟! تخرقُ المسيحيّةُ جدرانَ الشريعة الإلهيّة المنزلة خرقاً متواصلاً، إذا ما كان الإنسان هو المقصود.

٨. ألمسيح لم يأتِ ليُعيدَ للناموس مكانَه، فللناموسِ موساهُ وأنبياؤه. إنّما جاء ليعيد للإنسان، المسحوقِ بالناموس، مكانَه. لقد صلبَ يسوعُ الناموسَ معه، وأراحَنا منه ومن القيِّمين عليه. لهذا كان القيّمون على النّاموس حرباً ضارية على يسوع. لقد تعقّبوه حتى الموت؛ لأنّهم كانوا يؤثرون الناموسَ والحرفَ والسبتَ والختانَ على الإنسان. لقد جاء يسوع، حقّاً، من أجل أن يُحرِّرَ الإنسانَ، لا من خطيئة آدم، بل من النّاموس وزبانيته.

٩ . ومن أغرب الأمـور وأعجـبهـا أن يكون الإنسانُ الضـعيف، المريض، المرذول، المسكين، الفـقير، اليـتيم، المُضطَهَـد... هو محطّ حنان اللّه وشفـقته.. لكأنّ يسوع لم يقـرأ من العهد القديم، وأوّل مـا قرأ، إلاّ قول آشـعيا: «روحُ الربِّ عـليَّ، فقد مَـسَحَني لأُبَشِّرَ المـسَاكين، وأُطلقَ الأسْـرَى. وأحـرِّرَ المقـــهـورين»[٩]. فلكأنّ اللّــهَ لا يشعّ إلاّ في وجـوه الضعـفاء والمقهـورين، ولا يُعرَف إلاّ بهم. وليس من مدعـوٍّ إلى مائدته إلاّهم. ألم يقل: «كلّ ما فعلتموه بهؤلاء المساكين فبي فعلتموه»[١٠]؟!

١٠ . بعض الأديان تحـصر تعـاملها مـع المطلق في جمـاعاتهـا الخاصّة. إنّها، في الحقيقـة، شرّيرة بحقِّ اللّهِ والإنسان والحقيقة. هذه الأديان تقول بأنّ جماعتها «شعبٌ مختار»، أو «جماعة سرّيّة لا خلاص إلاّ فيـها»، أو «خيـر أمّة أخرجت للناس». كـيف تكون هذه الأديان على عـلاقةٍ مع المطلق، وهي تـرفض الانفتـاحَ على الآخـرين، ومحـبّتّــهم، والحوارَ معهم؛ وتصنّف البشــر إلى مؤمنين وكافرين وملحدين وأبناء ذمّة؛ فيما اللّهُ نفـسُه «يَطلُعُ بشمسِهِ على أشرارٍ وأخيار، ويَـهمي بغيثِهِ على أبرارٍ وفُجّار»[١١]؟!

١١ . ألإنغـلاق على المطلق هو الخطـيئـة؛ والانفـتـاح عليـه هو القداسـة. ألخطيئة، في حقيقتهـا، عملٌ محصورٌ في النّسبيّ، حالةُ اكتفاء به، لا يطلّ من خلاله عـلى شيء. و بسبب انحصـارها واكتفـائها هذا، تعمل في السرّ والانغلاق؛ وتعيش في «تقيّة»، و«باطنيّة»، وتفعل فعلَها

(٩) لوقا ٤/١٨.
(١٠) متى ٢٥/٤٠.
(١١) متّى ٥/٤٥.

في الظلمــة، بعيـدةً عن النور والوضوح. لا يعـرف صاحـبُهـا الصدق والصراحــة. تحمل، في طبيعــتها، الخجل والحـياء. أمّا القداســة فعلى السطوح تكون، تعمل في الشمس ومن أجل خير الجميع.

١٢ . تعـاملُ المســيحيّـة مع المطلق يوضـح صورةَ الخطيـئـة. وانفتاحُ المطلقِ على النسبيّ يظهر أيضاً جسامةَ الخطيئة؛ إذ «حيث تكثر الخطيئة تفيض النّعمة». على نور المطلق تُعرف ظلمة النسبيّ. وبالنسبة إلى المطلق تُعرَف الخطيئة: «لو لمْ آتِ وأكلّمــهم لما كانت عليهم خطيئة.. ولو لمْ آتِ فـيـهم أعـمالاً لـمْ يأتِ مثـلَها أحـدٌ سـواي، لما كـان عليـهم خطيئة»[١٢]. فالخطيئة، إذاً، هي رفضٌ لكلام يسوع، ولعمله الخلاصي. فلكأنْ لا خطيئة إلاّ في المسيحيّة.

١٣ . تجلّي المطلق في المســيحـيّـة كان فــي يسوع المســيح. إنّه «صورة اللّه غـير المنظورة»؛ لكأنّ مَن لا يســوع له، لا صـورة عنده عن اللّه. لا عجب، فصورة اللّه عند غير المسيحيّين ممنوعة ومحرَّمة، بل هي امتــهانٌ لكمال الـلّه. هكذا هو حال اليهــوديّة، حيث «لا إله غـيري. ومَن مِثلي؟»[١٣]، وهكذا هو حال الإسلام، حـيث اللّهُ «ليس كمثله شيء»[١٤]. للمسيحـيّة عن اللّه صورةٌ، لم تعرفْها إلاّ في يســوع حيث يلتقي المطلق والنسبي؛ وحيث يسوع هو الوسيط الوحيد بين اللّه والإنسان.

١٤ . مبدأ القداسة في المسيـحيّة، أن يكون يسوع لها كلَّ شيء. هذا يعني أنْ لا قـداسةَ إنْ لمْ يتّـحدِ الإنسانُ بيـسوع، ويشـترك مـعه،

---

(١٢) يوحنا ١٥/٢٢-٢٤.

(١٣) أشعيا ٤٤/٦-٧.

(١٤) سورة الشّورى ٤٢/١١.

ويحيـا فيه، ويقـتدي به، ويسير عـلى خطاه، ويثبت فيـه، ويتّكل عليه، ويموت من أجله. فلو انّ القـديسَ شـربل، مـثلاً، عـاش دهراً يصـوم ويصلّي ويتقشّف، ولم يكن يسوعُ نصبَ عينَيه، لما حظي ببصيص نورٍ من أنوار القداسـة. هذا يعني أيضاً: أنّ القـداسة لن تكون بدون المرور بيسوع، الصورة المنظورة لصورةِ اللّه غير المنظورة.

١٥ . إلاّ أنّ هذا الاتّحـاد بين الانسـان ويسـوع لا يُؤَمَّنُ إطلاقـاً خارج نطاق «الجمـاعة»، أي «الكنيسة»، التي لهـا القدرة والسلطة على تصـويب خطوات الإنسان الفـرد. فلكأنّ الكنيسـة هي مكان القـداسة؛ لأنّهـا هي الوحيـدة المكلّفـة في فتح حـوار مبـاشـر مع المطلق. فلو انّ القديس شربل، أيضاً، مع صومه وصلاته وتقشّفه ومحبّته ليسوع، لم ينتمِ إلى الكنيسة التي لها أن تضبط الشطحات الفرديّة، لما رأى من نور القداسة بصيصاً واحداً.

١٦ . ثمّ إنّ الاتّحـاد بالمسـيح، والانتـماء إلـى الكنيسـة، قـد لا يفعـلان فعلَهـما إنْ لم يكن هـناك عاملٌ آخر يـقدِّس ويروحن ويسـمو بالإنسـان وأعمـاله الخـيِّرة إلى فـوق. هذا العـامل الفعّـال هو «الرّوح القـدس»، ينبوع كلّ قـداسة وحـركة وحـياة. لولا هذا «الرّوح» لَتكبّـرَ الإنسان وتجبّر، ورأى نفسَه أنّه هو مرجعيّة نفسِه، ولَسقط بالتالي في مهاوي الجحـيم. كلّ قداسةٍ هي من الروح القدس، لا من الأعمـال مهما سمتْ. هـذه من دون الروح، سببٌ لكلِّ كـبرياء، وقد تؤدّي إلـى الهلاك بدل القداسة والخلاص.

***

ثانياً – مميّزات القداسة

١. لا بدّ لطالب القداسة من أن يتعالَى عن الأرضيّات ويتفرّغ للّه ليتّحد به اتّحاداً كاملاً ونهائيّاً. لا قداسة إنْ بقي همّ الأرضيّات والنسبيّات موجوداً. ولا قداسة أيضاً إن بقي الإنسانُ يتلهّى برغائب نفسه وجسده وغرائزه الطبيعيّة، حتّى وإنْ كانتْ خيّرة وجائزة وضروريّة. كلّ ذلك في سبيل ألاّ يبقى نصب عينيه إلاّ «الضروريّ الأوحد».

٢. إلاّ أنّ ابتعادَ الإنسان عن العالَم لا يعني هرباً منه أو كرهاً له. بل هو، في الحقيقة، حبٌّ له وعملٌ لخلاصه وقداسته. معنى ذلك، أنّ القديس لا يهرب من الناس كرهاً لهم، بل من أجلهم، أي من أجل أن يرفعهم معه نحو اللّه، وإنْ هو بقي حيث هم لا يستطيع أن ينتشلهم من حيث هم إلى حيث هو. فالغريقُ لا يخلّص غريقاً، ولا الأعمى يقود أعمى.

٣. ثمّ إن القديس، إن بقي يعيش بين النّاس العاديّين فهو، لا يفيدهم؛ بل يُزعجهم، ويُتعبهم، ويُربك ضمائرهم، ويؤنّب سلوكهم بمجرّد حضوره فيهم. وهذا نقصٌ كبيرٌ في محبّته لهم. لهذا فهو يبتعد عنهم، محبّةً لهم، وراحةً لضميرهم. للقداسة هالة روحيّة لا يسع العاديّين تحمّلها. إنّها كالنور الباهر تُعمي البصائر الضعيفة.

٤. ألقديسُ لا يترك الناسَ ليتقدّس أكثر، أو ليُؤثرَ نفسَه عليهم. بل يرحل عنهم لكي يحبّهم أكثر، ويعمل لخلاصهم، ويساعدهم على أن يتقدّسوا. إنّهم في قلبه ووجدانه وصلاته اليوميّة. فالابتعاد عن الناس

محبّة لهم هي القاعدة الأساسيّة لكلّ طالب قداسة. إنّه يُزعجهم، حقًّا، إنْ بقي بين ظهرانيهم؛ وهم يؤخّرون قداستَه إنْ بقي بينهم.

٥. من مميّزات القدّيسين أنّهم يعملون على محاصرة الشرّ، ويلاحقونه حيث يتأكّدون وجودَه. والمكان الذي يتأكّدون فيه وجودَه هو في نفوسهم. لهذا، فالقدّيس هو مَن يهتمّ، أوّلاً وآخِراً، في محاربة الشرّ الذي فيه. وكلّ طالبِ قداسة يترك العالَم ليبتعد عن الشرّ الذي يظنّه فيه، لن ينالَ القداسة ولن يذوقَ طعمَها، ولن يكونَ اللّهُ نصيبَه.

٦. عندما يتقدّس طالبُ القداسة، يتأكّد أنّه إنّما غلبَ الشرَّ في مكان ما من العالم، وانتصرَ عليه؛ وبالتالي، يتأكّد أنّه زاد الخيرَ والقداسةَ في العالم. وهذا يكفي. ويكفي أيضاً البرهان على أنّ القدّيس هو خير مَن يُساهم في إطفاء نار الحروب من العالم، وفي جلب السلام إلى الشعوب، وفي التفتيش عن اللّه والبحث المستمرّ عنه.

٧. عندما يتقدّس إنسانٌ يُقدّس معه الخليقةَ كلَّها : يقدّس الأرض التي كان يحرثها، والثياب التي كان يلبسها، والأشجار التي كان يستظلّها، والأغراض التي كان يستعملها، والأحجار التي كان يحملها وينقلها... كلّها أصبحت مقدّسةً، مكرّسةً. وأمستْ وسائلَ لقداسةِ كلِّ مَن يستخدمها... فالقداسة تتخطّى الحدودَ بين المادّة والرّوح،، بين النسبي والمطلق، بين الأرض والسماء...

٨. ألقداسة عملٌ شخصيٌّ، باطنيٌّ، صادقٌ، صريحٌ، متواصل. لا يكون قدّيسٌ مَن يُعطي اليومَ حصّةً لنفسه، وغداً حصّةً للّه. «مَن ليس معي فهو ضدّي». على طالب القداسة أن يكون في كلّ وقتٍ للّه ومع اللّه، وأن يكون صادقاً أميناً إلى آخر حدود الصدق والأمانة. وقد يكون

القـديسُ الوحـيد عـلى هذه الأرض لا يعـرف الغشّ والخداع. حـيـاتُه صفحة ناصعة البياض، نقيّة طاهرة تظهر عليها كلّ شائبة.

٩ . في القداسة لا حـدود يضعها الإنسانُ أمامَه ليـصل إليها. لا وقوف في سلوك طريقهـا. لا اكتفاء. لا راحة. لا اسـترخاء. لا هدنة. لا تعب. وحتّى الموت، ذاك الحاجز العظيم، يتخطّاه القـدّيسون، إذ غالباً ما تبقى أجسـامُهم عصيّةً عليه، وكـأنّهم ما عرفوا فيـه حدوداً فاصلةً بين حياتهم هنا وحيـاتهم هناك. ألقداسةُ طريقٌ ملتهبة لا وقوف فـيها. إنّها عابرة الوجود إلى اللاّمتناهي.

١٠ . ليس كالقـداسة ما يميّز إنسـاناً عن آخر. بل هي تنمّي هذه الفرادة، وتـظهرها. لسنا نجـدُ قدّيساً مـثلَ آخر. لكلٍّ واحـدٍ من طلاّب القداسة فرادتُه. كلّ واحد يتعامل مع المطلق بحـسب شخصيّته المميّزة. وإذا شاء أحدُنا أن يكونَ فريداً مميَّزاً في العـالم وعن سائر البشر، عليه أن يسلك طريقَ القـداسـة. هذه، وحـدَها، تقـفـز فوقَ الأمـور العـاديّة والمألوفة وتتحدّاها.

١١ . لا تحديد لـلقداسة، لأنّـها حرّيّة. والحـرّيّة، كمـا رأينا في فصلٍ سابق، لا تُحَـدَّد. ومتى حُدِّدتْ، فَقَـدتْ معناها، وبطلتْ أن تكون حرّيّة. هكذا هي القـداسة، حرّيّة إلى أقصى الحـدود؛ محبّةٌ خـارقةٌ كلّ الوجود؛ تتشوّق إلى المطلق، فتنـسف الحواجز والسدود؛ ترغب التأمّل في ما لا يُحـدّ أو في ما لا ينالُه أيّ إنـسانٍ عاديّ. وهل مع اللاّمـتناهي حدود؟! وحدَه المطلق تقف عنده.

١٢ . تبـقى القـداسـة واحـدةً، مـهـمـا تنوّعتْ وتعـدّدتْ طرق الوصول إليـها. وذلك بسبب وَحـدة الغاية. والغايـة هي الاتّحاد الكامل

بالله. وهذا لا يكون إلاّ عن طريق يسوع المسيح، والاقتداء به، والحياة فيه، ومن أجله، والاشتراك الكلّي والفعلي بحياته، والتشبّه به، والتخلّق بأخلاقه، والموت معه في حمل صليبه وآلامه مساهمةً معه في افتداء العالم وخلاصه.

١٣ . والاتّحاد بيسوع المسيح لن يكون خارج الكنيسة التي هي المكان الوحيد الذي تحصل فيه القداسة. خارج الكنيسة لا قداسة. من دون الكنيسة لا قداسة. ألكنيسة هي البعد الجماعي للإنسان الفرد. والإنسان، لوحده، لا يسعه أن يعرف مِن يسوع شيئًا. أو هو يصنع مِن يسوع شخصاً يناسبه هو، وليس هو ذاك الربّ الذي تجسّد ومات وقام من أجل البشر جميعاً .

١٤ . يبقى اتّحاد آخر بيسوع، لولاه لن تكون قداسة، وهو الاتّحاد بواسطة المشاركة في جسده ودمه، من خلال سرّ الخبز والخمر، في الإفخارستيّا، مائدة الشكران. هذا السرّ العظيم، لولاه، لما كانت قداسة، ولا كان ليسوع حضورٌ فاعلٌ في العمق فينا. الإشتراك بهذا السرّ يصيّرنا مع يسوع واحداً. وهذه هي القداسة في جوهرها، في منطلقها ومبتغاها.

١٥ . أمّا الفاعلُ الذي يصيّر كلَّ شيء مُقدَّساً فهو روح القدس. هذا الروح هو الذي يصيّرنا قدّيسين. به نصبح مسيحيّين. به ننال الغفران والمصالحة. به نعرف الله. به نبلغ الكمال... لولا روح القدس، لما كانت أعمالنا تفيدُ شيئاً. فلكأنّ القداسة هي عمل الرّوح فينا، وليست نتيجة أعمالِ برٍّ نقوم بها. روح القدس هو الذي يقدّس أعمالَنا لتصير مقدّسة، وهو الذي يمنحنا طاقةَ الخلود لنكون خالدين مع الله.

١٦ . «أسرارُ» المسيحيّة التي تؤهّلنا إلى القداسة هي «مقدَّسات» و«مقدِّسات»؛ وليستْ أسراراً بالمعنى اللّغويّ لها، أي معميات وألغازاً. إنّها تؤهِّلنا للاتّحاد في سرِّ الابن المتجسِّد في الكون. إنّها تولينا نعمةً فوق نعمة، من غير استحقاق منّا. وتُعدّنا لمصالحةٍ حقيقيّة مع اللّه والكون حيث فاقتْ خطيئتُنا مقدرتَنا على التكفير عنها. لهذا كان تدخّلُ اللّه وتجسّده. وكلّ تدخّلٍ إلهيّ في العالم، خارجٍ عن يسوع، بات بلا فائدة.

***

أمّا في الإسلام فليس ثمّة أيٌّ معنى للقداسة. والقرآن لا يدعو إليها. وهو لا يعرفها. وليست شرطاً من شروط الخلاص والحياة مع اللّه. ليس الإسلام دينَ قداسة، ولا يصنع قدّيسين. وهو، بما فيه من قِيمٍ وأخلاق وفضائل، لا يقدِّس أحداً.

ولكن، وفيما نحن لا ننكر إمكانيّة القداسة عند بعض المسلمين، فذلك لأنّهم إنّما يتقدّسون بيسوع المسيح. وإذا ما نالوا خلاصاً فذلك بيسوع المسيح الذي كان الوسيط الوحيد بين اللّه والعالم. فالمسلمون يتقدّسون بيسوع المسيح، لا بمعطيات الدين الإسلامي نفسه.

خاتمة

من خلال ما تقدّم، نتجرّأ على القول بأن لا قداسة إلاّ في المسيحيّة، ولا مسيحيّة من دون كنيسة، ولا كنيسة من دون إفخارستيّا، ولا إفخارستيّا من دون عمل روح القدس، وروح القدس لا

يعمل من دوننا، ونحن مهما عملنا نبقى دون الشرّ الطاغي في عالمٍ ينحدر باستمرارٍ بسبب خياره الحرّ. وجاء يسوع، لا ليقضي على حرّيتنا، بل ليساعدَها على القيام من منحدَرٍ خطير، وضعَتْنا فيه أديانُ الأرض والسماء، والشرائع المنزلَة علينا من فوق.

فلكأنّ القداسة هي عمليّة تحريرٍ كاملٍ شاملٍ من الناموس والأنبياء والعهد القديم والأديان والشرائع والكهنة ورؤساء الكهنة والفرّيسيّين ورجالِ كلّ دينٍ ومذهب، ممّن يرومون قداسة السبت على حساب قداسة الإنسان، ويبتغون الذبيحة بدل الرحمة، والختان بدل المعموديّة بالروح، والرجم بدل الرأفة والمغفرة..

ألقداسة حرّيّة مطلقة : هزيلةٌ جدًّا خطيئةُ أبوَينا الأوّلَين، بمقابل قهرِ الناموس لنا ودفاعه العنيف عن اللّه. إنّ بوادر خلاصنا ابتدأتْ، عندما أخذ يسوع من العهد القديم وقرأ: جِئتُ «لأبَشِّرَ المَساكين، وأُنادي بإطلاقِ الأسرى، وأحرِّرَ المَقهُورِين..»(١٥). وعندما قرّر المواجهة التي عبّر عنها بقوله: «سَمعتم ما قِيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم»(١٦)، ابتدأ يسير باتّجاه الصليب.

وإذا كان «جبلُ سيناء» جبلَ الشريعة القديمة؛ فإنّ ثمّة ثلاثة أجبُلٍ أطلق منها يسوع شرعةَ الملكوت الجديد: جبل «الطوبَيات الثماني»(١٧)، وجبل التجلّي(١٨)، والجبل الذي أرسل منه تلاميذه لكي

---

(١٥) لوقا ٤/١٨.
(١٦) متّى ٥/٢١-٢٢؛ ٢٧-٢٨؛ ٣١-٣٢؛ ٣٣-٣٤؛ ٣٨-٣٩؛ ٤٣-٤٤
(١٧) متّى ٥/٣-١٢.
(١٨) متى ١٧/١.

يتلمذوا جـميع الأمم[١٩]. والأجبل الثـلاثة هذه هي نقيض جـبل سيناء. هذا كان للعبوديّة، وتلك كانت للحرّيّة والقداسة والسعي المتواصل نحو المطلق والضروريّ الأوحد.

---

(١٩) متى ٨/١٦-٢٠.

٢٠

ألموت

أوّلاً – لغز الموت

١. ألإنسـان يموت حقّـاً، ويفنى كلُّه. لا يبـور منه جـزء، إسمـه «الجسد»؛ ولا يخلد فيه جزء، إسمه «النفس». ليس في الإنسان «نفسٌ» عصيّـةٌ على الموت، وليس فيه «جسـدٌ» خاضِعاً وحدَه لـلفساد من دون سواه. كلُّ الإنسان خاضـعٌ لسنّة الموت. وكلّ الإنسان عند الموت ينتهي. فلا جـزء يخون آخر. ولا الموت يُجلُّ جـزءًا فيُخلِّده، أو يسـتهتـر بجزءٍ فيُـفسده. ألموتُ ليس انفـصالاً بين نفسٍ وجسـد. إنّما هو فشل الحـياة برمّتِها.

٢. «أمام الموت يبلغ لغـزُ الوضـع البشري ذروتَه»[1]. ألموت فشل الحياة كلّها، وسـقوط الإنسان في لجّة الفراغ. به تنقطع نَسَـمةُ الحياة، وينكسر كلُّ كـيان قائم. يضـع المـوتُ حدًا لكلّ عملٍ وفكرٍ وهمٍّ وحـركةٍ

(١) ك ع ، عدد ١٨؛ التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ١٠٠٦.

وحياةٍ ووجود. إنّه «خاتمة الحياة الأرضيّة. حياتُنا تقاس بالزَّمَن، الذي في مداه تتغيّر وتشيخ. وكما عند كلّ الكائنات الحيّة على الأرض، يبدو الموت انتهاء الحياة الطبيعي. هذا الوجه من الموت يسم حياتنا بطابع ملحّ: فعندما نتذكّر أنّنا مائتون، نتذكّر أيضاً أنّه ليس لنا سوى وقت محدود لتحقيق حياتنا»[٢].

٣ . ينزع الموتُ عن الحياة كلَّ معنى لها. به تضمحلّ. وتتلاشى. وتفنى. ثمّ تنتهي، وينتهي فيها كلُّ شيء. به تَفي ما عليها، وتستوفي ما لها. لذلك، فالموت «وفاتها»، أي نهايتها وتمامها. وليس بعد هذا التمام شيءٌ آخر تتمّ به، أو «تفي» به ما عليها.

٤ . نولَد نحن! ولِمَ نحنُ! ولِمَ نحنُ كما نحن؟ نحنُ صنيعةُ مَن؟ مَن مِن والدَينا شاءنا هكذا، بهذا الشكل والحجم من العرض والطول؟ بهذه الهيئة والصّورة؟ بهذا العقل والوجدان والأخلاق؟... لقد جئنا الحياةَ من دون توقّع. مفاجأةً. صدفةً... ونموتُ أيضاً من دون توقّع للساعة التي نموت فيها، ولا لكيفيّة موتنا. جئنا مِن لا شيء، من المجهول؛ ونرحل إلى لا شيء، إلى المجهول. من عدمِ الوجود بالتأكيد إلى حيث نجهل بالتأكيد. ابتدأنا في وقتٍ معيّن، وننتهي في وقتٍ معيّن. ولكن لا تعيين للقبل ولا للبعد.

٥ . جئنا من دون هدفٍ منّا. لم نرسم نحن أهدافَنا، ولا خططنا، ولا وسائلنا؛ ونموت كذلك من دون تحقيقِ ما كنّا نرغب تحقيقه. لقد فشلنا، ليس بسبب أنّ الموت يتعقّبنا؛ بل بسبب أنّنا لم نحقّق الحياةَ التي

---

(٢) التعليم المسيحي، عدد ١٠٠٧.

كنّا نرغبها. نرحل بالرّغم من إرادتنا؛ بل كـرهاً منّا. لا نملك، لا حيثيّات البداية، ولا مبـرّرات النهاية. وبسبب الموت، ذاك الفشل الأكـبر، فشلتِ الحياةُ أيضاً. فالموت فشل، والحياة كذلك.

٦ . ذاك الكائن العظيم الذي اسـتطاع أن يتحكّم بنا قـبل مجـيئنا، هو نفسه يـتحكّم بحياتنا، وينهـيها ساعة يشـاء، وكيفمـا يشاء، وبهذا الشكل المأساويّ الكئيب المكروه. إنّه كائنٌ موجود قبلَنا، وسيبقى بعدنا. إنّه ذو صلاحيّات وقدرات مطلقة. إنّه كائنٌ قبل البدايات وبعد النّهايات. كائنٌ مُطلَق، إسمه: اللّه.

٧ . ولهذا يحقّ لنا أن نفترض : إذا كـان الموتُ شرًا مطلقاً، فالذي شـاءه هكذا هو أيضـاً كـائن مطلق، من دون شكّ. أي: هو اللّه نفـسـه، الحيُّ المطلق. فاللّه موجود لأنّ الموت موجـود، أي لأنّ الحياة موجودة. وليس في الكون كائنٌ يستطيع أن يوجِد الموتَ غيرُ اللّه، أي غير الحياة. والذي أوجد الموت، ذاك الشـرّ المطلق، يجب أن يكون، في حقيـقة الأمر، ربَّ الكون والحياة، وسيّدَ الـكائنات جميعها، بدايتَها ونهـايتَها، مبدأها وغايتَها، أي اللّه نفســه، الكائن المطلق، القادر على كلِّ شـيء، على إيجاد الحياة وعلى استيفائها. إنّه هو الذي يَتَوَفَّاها.

٨ . ولكن، إذا كانت الوفـاةُ بيد اللّه الذي يستردّ حـياتَنا وحدَه لا سواه، ولا أحد مـعه؛ وإذا كان اللّهُ، في جـوهره، خيراً محضـاً، فلا بدَّ، والحال هذه، من أن يكون الموتُ أيضـاً خيراً. والخـيرُ فيـه أنّه يحرِّرنا، بضربةٍ واحدةٍ، من تـناقص الحياة وزوالها شيـئاً فشيـئاً. يحرّرنا من الضـعف الملازم لطبـيـعـتنا، ومن الأمـراض التي تـأكلنا، والآلام التي تدمِّرنا؛ ويحرِّر أيضاً سوانا منّا، ويحرّرنا بدورنا من سـوانا.

٩ . صحيح أنّ الموت ينـزع منّا حرِّيَّتنا الشخصيّة، إلاّ أنّه يفسح المجالَ لحرّيّة الآخرين بطريقة فائقة. والحرّيّة الحقيقيّة هي التي تعطي للآخرين مجالاتٍ لحياة أفضل، وإمكانيّاتٍ لرقيٍّ مستمرّ:

لنتصوّر الأنبياءَ، مثلاً، مستمرِّين معنا بشرائعهم المنزلَة علينا من فوق، فكيف تكون حياتنا، وبأي تعاسة تكون؟! إنّ الموتَ للأنبياء رحمةٌ لنا. في موتهم عنّا خيرٌ لنا. وشرّ الأنبياء مَن استمرَّ بيننا بما فرضه علينا، وقيَّد به حرِّيَّتنا. نحن نموتُ، ونضحِّي بالحياة من أجل سوانا، فلمَ لا يضحّي هؤلاء الأنبياء بحياتهم من أجلنا، ويتركوننا وشأننا، هم الذين أوهمونا بأنّهم ناجَوا السماء من أجلنا؟! وحدَه يسوع الناصريّ مات، وذلك محبّةً لنا، وليهبنا حياةً وافرةً وحرّيّةً كاملةً. لهذا، فهو ليس من طينتهم؛ ولا يمكنه أن يكون من طينتهم.

١٠ . صحيح أنّ الموتَ يدمِّرُنا كلِّيًا، ويقضي على كلّ إمكانيّةٍ لتحقيق أيِّ شيء نريده. وهو عدوُّنا الألدّ. ولكن صحيح أيضاً أنّ الحياةَ لن تكتمل من دونه. بهذا فهو الدليل على الحياة، والعلامة على اكتمالها. ولهذا، فهو، بمقدار ما يكون شرًا وفشلاً، بمقدار ذلك يكون دليلاً على الخير والكمال. هو شرٌّ مطلق، لذا فهو دليل على الخير المطلق. إنّه آخر عدوٍّ لنا يتلاشى، حتّى يبقى اللّهُ كلاً للكلّ. ولكأنّه يسهّل السبيلَ إلى اللّه ليكون كلِّيَّ القدرة والكمال والخير. وإذا شئتَ أيضاً إنّه دليل على وجود اللّه وسيادته المطلقة.

١١ . إنّ معظم أحداث التاريخ المحفورة في ذاكرة الإنسان هي أحداث مأساويّة: حروب وثورات، وزلازل وبراكين وفياضانات، وكوارث في الجوّ والبرّ والبحر... ومعظم الذين قضَوا فيها رحلوا قبل

النضــوج. هذا، بالإضــافة إلى أنّ الإنســان، بالرّغم من رقــيِّــه، يرتكب جرائم تفوق مآسي الطبيعة شرًّا.

واللّهُ الذي يُميتنا ويحــدِّد أطراف حياتنا –وهو حقٌّ له– ليس أظلمَ من الإنسان على أخيه الإنسان. وإذا كــان مصيرُ الظالم والمظلوم سواء أمام الموت، فلِمَ الظلم إذاً، وهو شرٌّ كــالموت ذاته؟! وشرّ ما في هذا الشرّ قتلُ الإنسان أخاه من أجل الحياة. والحــياة ذاتها تسعى نحو الموت؛ بل لا تكتمل إلاّ بالموت.

١٢ . قد نقبل من اللّه موتَنا. فهذا حقُّــه في استيفاء حياتنا. ولكن لن يقــبل أحدٌ منّا مــوتَه على يدِ إنســانٍ قــاتلٍ نصّب ذاته مكانَ اللّه، أو بمشيئة شرِّيرٍ يظنّ نفسَه يجاهد في سبيل اللّه ويدافع عنه بأيَّةِ وسيلة. إنَّ مشــيئةَ اللّه في موتنا تكــون في إكمال حيــاتنا، أي في "وفاتنا"، لا في "قتْــلنا"؛ فيمــا قتْل الإنســان لنا هو الموت المأساويّ الذي يــقضــي علينا قبل "وفاتنا".

١٣ . عــرف الإنسانُ فــي حيــاته نشــوةَ التطوّر والنَّجــاح. ولمس تفوّقَه على جميع الكائنات. وتميّز عنهم بالمعرفة، وبوعيه لذاته. وبلغ ما بلغ من الاكتشافات والعلوم والتطوّر. ووفَّــر للبشريّة السعادة والفرح والطمأنينة بما صنع... ولكن، هل بوسع إنســانٍ، في ما توصّل إليه، أن ينسى وضعَه الزائل، السائر إلــى الموت حتماً، وفي كلّ لحظةٍ تزول من أيّامه؟ وإذا ما توصّل إلى تمديد أيّامِــه بعضَ الشيء، في ما يكتشف من أدوية وعلاجــات، فهل سيظنّ بأنّه ســيقضي يومــاً على الموت؟! يحلم الإنسانُ بحــياةٍ طويلة، ويأمل ذلك؛ ويرجو أن تتــحقّق أحلامــه وآماله؛ ولكنَّ الحقيقةَ والواقع تكذِّبان الأحلامَ والآمال.

١٤ . مهما صنع الإنسان في تأخيرِ موعدِ الساعة الأخيرة؛ يبقى ثمّة ساعةٌ أخيرة؛ لأنّ الإنسانَ يحمل في طبيعته المتناقضات : له أوّل وله آخِر. يولد ويموت. يسعد ويشقى. يتقدّم ويتقهقر. يميل إلى الخير كما يميل إلى الشرّ. ونجاحُه يبقى نجاحاً على شيء، وليس على كلِّ شيء. لهذا لا بدّ من نهايةٍ لكلِّ شيء.

١٥ . أمام هاجس الموت ومفاجآته، كثيرون يلتجئون إلى المخدِّرات، والنسيان، والاستسلام، والنشوة، والانشغال، وحتّى إلى الانتحار... لعلّهم يَقبلون المفاجأة! أو يُبعِدونها عنهم، أو يتسلّون عنها في اللَّعب واللّهو وضياع الوقت... ولكن، عند العودة إلى الذات، يرون المأساةَ تكبر، والشرَّ يعظم، والموتُ لا يغرب عن وعيهم ووجدانهم.

١٦ . إنّنا في دوارٍ بين موتٍ وحياة. فإلامَ نحن راحلون؟ إلى دوارٍ مستمرٍّ، أم إلى موتٍ هو نهاية كلِّ شيء؟ أإلى خلودٍ فيه نكون نحن كما نحن إلى مدى الدهر، أم إلى أدوارٍ وأكوارٍ نتناسخ فيها من حال إلى حال؟ أإلى وضعٍ واحدٍ متساوٍ لا تبدّلَ فيه ولا حركة، أم إلى تطوّرٍ مستمرٍّ من حال إلى حال إلى مدى الأبد؟! إنّ الموتَ سرٌّ عظيمٌ أمام سرٍّ أعظم، ننفتح به على سرٍّ مُغلَق.

١٧ . إنّ قوّةَ الحياة التي فينا ليست من طبيعتنا ولا من صنعنا. «هو الذي هو»، الكائنُ المُطلَق، الكلِّيُّ القدرة، ألكامل الوحيد، الذي صنع الموت، هو الذي صنع الحياةَ... ولكنّه لم يُغلِّبْ شيئاً على شيء : لا الموت يحقُّ له أن يقضي على الحياة؛ ولا الحياة تستمرُّ وكأنَّها سيِّدةُ ذاتها. ألكلُّ يعتدي على الكلّ؛ ولسنا نعرف شيئاً ينتصر نهائيًا على شيء؛ بل صانع الأشياء جميعها هو المتسلِّط على مصائر الجميع.

ثانياً – الموت اعتداء على الله والكائنات

١. ذُكِر الموت في البيبليا مع خلْقِ الإنسان. في بدء الخلق، وقد كان «حسناً»[٣]، كان الموتُ طبيعيًا، ولكنّه لم يكنْ مأساةً. لم تسيطر عليه مأساة النهاية؛ بل فرح البداية. فهو لم يكن نهايةَ حياة، بل بداية حياة. لقد كان الموت حتماً، ولم يكن مُخيفاً. واللّهُ، عندما وضع حدوداً لكلِّ كائنٍ، لم يكن في صراعٍ مع أحد؛ ولم يكن غضبانَ على أحد؛ والإنسان لم يكن يعرف عن الموت سوى أنّه حدَثٌ طبيعيٌّ، ومدخلٌ لوجودٍ آخَر، وبابٌ لحياةٍ جديدة. ألحياةُ، في البيبليا، تلد الحياة. والموتُ أيضاً كان يُعِدُّ لحياةٍ أفضل

٢. وَحدَه اللّهُ أوجدَ الحياةَ بكلمةٍ منه، ووضعَ لكلِّ جنسٍ فيها قانونَ البقاء على نمطٍ محدَّد : فالسمك يلد السمك، والطيرُ الطيرَ، والدبَّاباتُ الدبَّاباتِ، والأشجارُ الأشجارَ، والإنسانُ الإنسانَ. والسمكُ يحيا في البحار، والطيرُ في الأجواء، والحيوانات على اليابسة... وكلُّ شيءٍ يُعطي ثمارَه الخاصّة به. قوانين البقاء والاستمراريّة، ومنطق الوجود والحياة والموت هو إيّاه منذ اليوم الأوّل حتّى اليوم السابع، وإلى نهاية الدهر.

٣. ولكن، مع هذا النظام الدقيق، يوجد صراعٌ عنيفٌ بين المخلوقات. هذا الصراع هو الذي يطوِّر الأجناس، ويحسِّن الأنواع، ويدفع بالكائنات جميعها إلى الرقيّ والكمال، ويرفع الخليقةَ كلَّها نحو صانعها. فلكأنّ الموت هو نتيجة صراع حيواتٍ عديدة؛ أو أيضاً لكأنّ

---

(٣) رَ: تك ١/ ٤ و١٠ و١٢ و١٨ و٢١ و٢٥.

الحياة الفضلى لا تكون إلاّ بالقضاء على الحياة الدون. تلك **تأكُلُ** هذه. **والأكْل** مستمرٌ منذ اليوم الأوّل حتّى اليوم السابع، وإلى آخرِ الدهر.

٤ . من شأن الأجناس أن يعيش بعضُها بقرب بعض: ألجماد بقرب النبات؛ والنبات بقرب الحيوان، والحيوان بقرب الإنسان. والكلّ مع الكلّ. ولكن لا حياة لأيٍّ جنسٍ إلاّ بالقضاء على جنسٍ دونه، أو أضعف منه: فالنبات يعيش من التربة وعناصرها؛ والحيوان يعيش من النباتات على أنواعها؛ والإنسان يعيش من الكلّ وبالقضاء على الكلّ. فلكأنّ حياةَ الإنسان لا تكون إلاّ بـ «**أكْلِ**» الكلّ. هكذا كان منذ اليوم الأوّل حتّى اليوم السابع، وإلى آخر الدهر.

٥ . ألموتُ، في هذه الحال، لن يكون نتيجة عجزٍ وضعفٍ ومرض؛ بل نتيجة صراعات بين كائنات تَأْكُلُ بعضها بعضاً. لقد دعا اللّه الإنسان وجعله في جنّة عدْن؛ وأمره قائلاً: «مِنْ جميع أشجارِ الجنّةِ تَأْكُلُ، وأمّا شجرةُ معرفةِ الخيرِ والشرِّ فلا تَأْكُلْ منها. فإنّك يومَ تَأْكُلُ منها تموتُ موتاً» (تك ٢/١٦-١٧).

٦ . بين الأكْل والموت إلفة: لا حياة من دون أكْل، ولا موت أيضاً من دون أكْل. ألحياة النابعة من الأكْل نعمة: «مِنْ جميع أشجارِ الجنّةِ تَأْكُلُ»؛ والموت الناتج من الأكل شريعة: «أمّا شجرةُ معرفةِ الخيرِ والشرِّ فلا تَأْكُلْ منها. فإنّك يومَ تَأْكُلُ منها تموتُ موتاً».

كانتْ نعمةٌ عندما وضع اللّهُ الإنسانَ في الفردوس يأكلُ من كلِّ شيء؛ يفلح ويحرس من دون عناء؛ يتغذّى ويعيش من دون أمراض؛ يرتاح وينام من دون شقاء... وكانتْ شريعةٌ عندما وضع اللّه للإنسان حدوداً ، ومنعه من أكْلِ كلّ شيء، لكي لا يقضي على كلّ شيء.

٧ . في أكْل كلِّ شيء قضاءٌ على الحياة؛ وفي الامتناع عن أكْلِ بعض الشيء حياة... ولولا هذه الشريعة في الحدِّ من الأكْل لانفسد نظام الكون. والآن نعرف أهمّيّة هذه الشريعة بعدما «لوّث» الإنسانُ الأرضَ والجوَّ والبحرَ، وقضى على البيئة التي خلقها اللّه، لو لم يرسمِ اللّهُ للإنسان حدودَ أكْلِ كلِّ شيء.

٨ . كان بوسع اللّه أن يخلق الإنسان من دون أكْل، أن يخلقه يتغذّى من النّور، أو من الهواء، أو من الماء، أو من النَّظر، أو من الروائح الطَّيِّبة الشذا.. ولكنّه خلقه كائناً أكولاً، يحيا من أكْله، أي: يصنع حياتَه من أكْلِ غيرِه.. ولكن، لا يستطيع الإنسانُ أن يأكل كلَّ شيء؛ لهذا فهو يتميَّز بأكْله وباختيار أنواع أكْله، وكيفيّة أكْله، عن الكائنات كلّها، كما يتميّز عنها أيضاً بوعيه وعقله. والإنسان فريدٌ بينها في وضعِه حدًّا لغريزة الأكْل عنده.

٩ . وهكذا، فالإنسان، بما يتميّز به، يُخضع نفسَه لنفسِه، يراقب نفسَه. فالحدّ من أكْل كلِّ شيء يُجمِّل صورَتَه وحياتَه، ويَحمي صحّة جسده، ويُعطيه حياةً أفضل. إنَّه، بالنتيجة، كائن خاضع لشريعة المنع مِن أكْل كلّ شيء. وبسبب شريعة المنع هذه، يلوحُ لنا أنّ له مستقبلاً مميَّزاً، وحياةً مختلفةً. فلكأنّه بسبب الحدّ من الأكْل له حياة أخرى.

١٠ . خلق اللّه السماءَ والأرض وما فيهما، «ورأى اللّه أنّ ذلك حَسَن»[٤]؛ بل «حسَنٌ جدًّا» (تك ١/ ٣١). وما كان حسناً جدًّا كان حياة؛ أي: ما خلقَ اللّهُ كان للحياة. فمِنْ أينَ جاءَ الموتُ إذاً؟

---

(٤) رَ: تك ١/ ٤ و١٠ و١٢ و١٨ و٢١ و٢٥.

لقد سمح اللّه للإنسان بأن يأكلَ من جميع شجر الجنّة، إلاّ من شجرة معرفة الخير والشرّ، لأنّه، كما قال لآدم: «يومَ تأكل منها تموت موتاً» (تك ٢/١٧). هذا يعني أنّ معرفة الخير والشرّ حقٌّ للّه يحتفظ به لنفسِه. ولكنّ الإنسانَ تعدّى على حقِّ اللّه، فشاء أن يحكم هو في ما هو خير وفي ما هو شرّ، وشاء أن يحيى، ويستقلَّ بحياته بموجب حكمه. كأنّه يريد أن يكون هو مرجعاً لذاته، ويحكم ذاتَه بذاته. ويكون هو سيّد نفسه، فلكأنّه هو الذي خلق نفسَه، فينكر بالتالي سيادةَ اللّه عليه.

١١ . فالموتُ، كما يظهر في رواية الخلق، هو نتيجة الاعتداء على حقِّ اللّه. لقد كان في تصميم اللّهِ، الذي خلقَ الإنسانَ بمحبّته، أن يبادلَه الإنسانُ هذه المحبّة؛ إلاّ أنَّ الإنسان آثرَ نفسَه على اللّه، وأحبَّ الكائنات والتنعّم بها أكثر من اللّه؛ فاختلّتِ العلاقة بين الإنسان واللّه والكائنات.

١٢ . إنّ الإنسان يستطيع، بحبِّه للّه، أن يُحبَّ حبّاً لامتناهياً؛ بينما حبّه لنفسه هو حبٌّ محدود. وبين هذين الحبَّين دخل الخللُ في العالم، وسادَ الموت. فلكأنّ الموتَ حدث نتيجةَ العبور من محبّة اللّه اللاّمحدودة إلى محبة الذات المحدودة. إنّه حصْر كلِّ شيءٍ في الذّات والتعدّي على سيادة اللّه. إنّه القضاء على ما خلقه اللّهُ فينا من قدرةٍ على الحبِّ، ومن مقدرةٍ على السيطرة على الذات والكائنات كلّها.

١٣ . بهذا المعنى، ليس الموت قصاصاً أنزله اللّهُ بنا لمعصيةٍ اقترفناها؛ بل هو نتيجة إرادةٍ ذاتيّةٍ شاءت الاستقلالَ عن اللّه، وبالتالي قطْعَ كلِّ علاقةٍ مباشرة حيّةٍ مع اللّه. وكذلك أيضاً هو نتيجة اكتفاءٍ بحبٍّ محدودٍ لذاتنا وللكائنات، بدل السعي الدائم نحو الكمال والانفتاح الكلّيّ على اللّه والكون.

ثالثاً – الموت سرّ محبّة ولقاء

١ . ألموتُ في المسيحيّة لا يُدرَك سرُّه، إلاّ في كـونه محبّة متبادَلة بين يسوع المسيح والله أبيـه، وفي الوقت نفسه، محبّتـهما لكلِّ إنسان. بهذا فـقط، يصبح الموتُ علامـةَ محبّـةِ الله لنا، وحدثَ خـلاصٍ شامل. وبهـذا أيضـاً يكون الموتُ باباً للقـاء حـمـيم مع الله، وخـاتمة لكلِّ قلقٍ وجـوديٍّ في هذه الدنيـا : «إنّ يسـوع، ابن الله، قـد خـضـع هو أيضـاً للمـوت، الذي هو خـاصٌّ بالوضـع البـشـريّ. ولكنّـه، وعلى الرغم من جزعه إزاءَه (مر ١٤/٣٣-٣٤؛ عب ٥/٧)، قَبِلَه في فعل استسلامٍ كلّيٍّ وحرٍّ لمشيئة أبيه. إنّ طاعة يسوع قد حوّلتْ لعنةَ الموت إلى بركة»[٥].

٢ . ألمسيحُ لم يُنكِر الموتَ؛ ولم يقف منه موقف اللاّمبالاة: فلا هو موقف الأبطال، ولا أيضـاً موقف الجبناء. لقـد كان يسوعُ يعـرف سرَّ الموتِ؛ ومع هذا، سار نحوه. كـان يعرف ما فيـه من مأساةٍ وظلمٍ، ومع هذا ولجَ بابَه، ودقَّ أعـتـابَه، وارتمى في ظلمـاته. وبهذا، أضـفى عليـه معناه الأسـاسي والعميق، ألا وهو مـعنى المحبّة والحـياة في قلب الله. فالموتُ حياةٌ في قلب الله، شراكة في الخلود.

٣ . مع المسيح نستطيع أن نقول إنّ الموتَ هو محبّةُ الله لنا؛ أو هو باب مـحبّـة الله لنا؛ أو أيضاً ألوسـيلة إلى لقـائنا مع الله؛ أو هو أخيـراً تواصلٌ بين الله وبيننا. فالموت في معناه المسـيحي هو موتٌ في يسوع المسيح: «ليقوم الإنسان مع المسـيح، عليه أن يموت مع المسيح، عليه أن "يتغرّب عن الجسد ليستوطن عند الربّ" (٢ قور ٥/٨)»[٦].

---

(٥) رَ: رو ٥/١٩-٢١؛ التعليم المسيحي، عدد ١٠٠٩.

(٦) التعليم المسيحي، عدد ١٠٠٥.

٤ . بالمسيح، وبالمسيح فقط، أصبح الموتُ التعبيرَ الأصحَّ والأبلغ لمحبَّةِ اللّهِ لنا. بالموتِ انفتح أمامنا بابُ حوارٍ مستمرٍّ بيننا وبين اللّه. لقد أصبح الموتُ، الذي هو فناء عن الذّات، لقاءً مع اللّه وحياة: « "الحياة لي هي المسيح، والموتُ لي ربح" (في ١/ ٢١). "وما أصدق هذا القول: إنْ نحن متنا معه، فسنحيا معه" (٢ تي ٢/ ١١). هنا تكمن جدّة الموت المسيحي الأساسيّة. "إنّه أفضل لي أن أموتَ في المسيح يسوع من أن أملكَ على أقاصي الأرض. هو الذي ألتمسه، مَن مات لأجلنا؛ هو الذي أريده، مَن قام لأجلنا. ولادتي تقترب (...)، دعوني أحصل على النور الصافي؛ ومتى بلغت إلى هناك، أصير إنساناً" »[٧].

٥ . « في الموت يدعو اللّهُ الإنسانَ إليه. لذلك يستطيع المسيحي أن يشعر إزاء الموت برغبةٍ مماثلة لرغبة القدّيس بولس: "أرغب في الانطلاق فأكون مع المسيح" (في ١/ ٢٣)؛ ويستطيع أن يحوّل موتَه إلى فعل طاعة ومحبّة، على مثال المسيح (لو ٢٣/ ٤٦): "إنّ رغبتي الأرضيّة قد صُلِبت، (...) إنّ بين أضلعي ينبوع ماء حيّ يهدر في داخلي قائلاً: تعالَ إلى الآب"[٨]. "أريد أن أرى اللّه، ولكي أراه يجب أن أموت"[٩]. "إنّي لا أموت، بل أدخل الحياة" »[١٠].

٦ . لقد حوّل المسيحُ الموتَ إلى سرٍّ مقدّسٍ sacrement . إنّه الحدث الإلهيّ الأعظم في حياتنا. حدثٌ لا يستطيعه إلاّ اللّه؛ لأنّنا

---

(٧) إغناطيوس الأنطاكي، إلى الرومانيّين، ٦، ١–٢؛ التعليم المسيحي، عدد ١٠١٠.

(٨) القديس اغناطيوس الأنطاكي، إلى الرومانيّين، ٧، ٢.

(٩) القديسة تيريزيا الطفل يسوع، الأناشيد ٧.

(١٠) تيريزيا الطفل يسوع، رسالة ١٨٩٧/٦/٩؛ التعليم المسيحي، عدد ١٠١١.

بولوجنا فيه نواجه اللّه، ونكون معه، ونشترك في حياته، ونعيش فيه حياةً لا شائبة فيها. وهذه الحياة مع اللّه لا تكون إلاّ إذا شاءَها اللّهُ نفسه. لهذا، فالموتُ هو سرٌّ مشيئة اللّه فينا. إنّه سرٌّ مقدّس، لأنّه من صنع اللّه، ومقدِّس أيضاً، لأنَّه يقدِّسُ مَن يَلج بابَه ولو بغير إرادته.

٧. ألموت هو المناسبة الفريدة التي فيها نقول كلمة واحدة فقط للّه، كلمة لا التباس فيها ولا سلبيّة، كلمة: «نَعَمْ»، كلّيّة شاملة كاملة نهائيّة، لا ظلّ فيها لأيٍّ «لا». ألموت هو الـ «نَعَم» المطلقة، الإستجابة الكاملة، الطاعة العمياء التي لا رائحةَ عصيانٍ فيها. هذه الـ «نَعَم» لا نقولها بالشفاه واللّسان؛ بل بالكيان كلّه. لا شيء فينا يبقى ليقول «لا». كلُّ شيءٍ في كياننا يقول «نَعَم»: «نَعم. آمين» (رؤ ١/ ٧)، «نَعم. يقول الرّوح» (رؤ ١٤/ ١٣)، «نَعم. أيّها الآب» (متى ١١/ ٢٦)[١١]، «نَعم. إنّي آتي عاجلاً» (رؤ ٢٢/ ٢٠). بالموت، وليسَ قبله، أصبح اللّهُ للإنسان إلهاً حقًّا.

٨. «الموتُ هو للإنسان نهايةُ رحلتِه على الأرض، نهايةُ زمنِ النعمة والرأفة الذي يقدّمه له اللّه ليحقِّقَ حياتَه الأرضيّة وفاقاً للقصد الإلهيّ، ويقرِّرَ مصيرَه الأخير. ومتى انسلخ "مجرى حياتِنا الأرضيّة الوحيد"[١٢]، لن نعود مرّة أخرى إلى حياة الأرض. "فالناس لا يموتون إلاّ مرَّةً واحدة" (عب ٩/ ٢٧). لا "تقمّص" بعد الموت»[١٣].

---

(١١) رَ: لوقا ١٠/ ٢١.

(١٢) دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ٤٨.

(١٣) التعليم المسيحي، عدد ١٠١٣.

٩ . قبل الموت، كنّا لا نزال نعـرج بين أن نكون للمسيح أو لغـيره. بالموت تشبّهنا بالمسيح تشبّهاً كامـلاً. لقد أصبحنا معه وفيه ومن أجله. هنا ذروةُ التشـابه المستـمرّ أبداً. به يتمّ كلّ شيء على أكـمل وجه. وبه يستردُّ اللّهُ حقوقَه كاملةً، «يستوفيها». وكأنّ الإنسانَ، بالموتِ، «يوفي» ديونَه التي كـردسـها عـليه طوال حـيـاته. فـالموتُ هو حـقًا «وَفَـاة»، و«استيفاء» لهذه الديون، أو لهذه الحياة التي هي، من أوّلها إلى آخرها، دَينٌ للّه عندنا.

١٠ . لقد مات المـسيح عن عمرٍ لا عـجز فيه ولا ضعف. لـقد كان موته كامـلاً عن حياةٍ كاملة تتـمتّع بكلّ قواها، موتٌ لم ينتـهِ فيه شيءٌ قبل أوانه. كلّه، بكامل قـواه، وريعان شبابه قَبلَ الموت. إنّه موتُ قويٍّ قدير. لقد كـان موتُه على الصليب، منذ بدء حياته، نصب عـينَيه. سعى إليهِ، لا بكونه قَدَراً، بل لأنّه حبٌّ طافح.

١١ . لم يمتِ المسيحُ من أجل أيِّ شيء، إلاّ من أجلِ حبّه للإنسان. يعني أنّه لم يمتْ من أجل أيّةِ قيمةٍ، أو أيِّ مبـدإٍ، أو عقيدةٍ، أو شريعةٍ، أو حـقيـقةٍ، أو مـشروعٍ، أو دِين... إنّه مـات، لا دفـاعاً عن أبيـه، بل حبّـا للإنسان. أي: من أجل تحـريرِه من نواميس سمـاويّة، وضعَتْـها أديانٌ باسم اللّه، تلك التي ساهمت في تقييد حرّيّة الإنسان.

١٢ . منذ مـوت المسـيح لن يـكون في الأرض حـدثٌ أعظم؛ لأنّه موتٌ نموذجيٌّ لِميـتات البشر كلّهم. مـوتٌ حقيقيٌّ من أجل غـايةٍ واحدةٍ هي ذروة الغايات : من أجل الإنسان، ومن أجل كلِّ إنسان، وأيِّ إنسان، من أجل محـبّته وتحريره من كتـبٍ وأديان ومعتقدات وشـرائع دُمغت باسم اللّه؛ ولا أحد يستطيع أنّ يخلِّصَ الإنسان منها إلاّ اللّه نفسه.

١٣. فالموت، بمعناه المسيحيّ، هو حياةٌ من أجل الإنسان. والحياة، بمعناها المسيحيّ، هي موتٌ من أجل الإنسان. من هنا كان إيمان المسيحيّين بأنّ ابن اللّه جاء ليبطلَ النبوءات والنواميس جميعها، ويعيد للإنسان حرّيَّتَه من كلّ شريعةٍ حُكمتْه باسم اللّه، ومن كلّ عائقٍ يحول بينه وبين محبّة اللّه له. ومن هنا كان موت المسيح من أجلنا فداءً وخلاصاً وحياةً أبديّة في اللّه.

١٤. بالرّغم من أنّ الموت الجسدي يبقى حقيقة قاسية على كلّ إنسان، فإنّ المسيح، بموته، حاول أن يهوّن علينا هذه القساوة. لقد مات مثلنا، وتضامناً معنا. وما كان باستطاعته، بعد تجسّده، إلاّ أن يموتَ مثلنا. وبالتالي، ما كان باستطاعته، بعد موته، إلاّ أن يُجسِّدَ موتَنا فيه، أي يُعطينا، بموته، حياتَه الإلهيّة الخالدة.

١٥. وبالرغم من الإيمان بالقيامة، فإنّ حتميّةَ الموت لا تزال قائمة، وقساوتَه باقية، ومرارتَه مرفوضة. أمّا ما تغيّر، بالقيامةِ، هو، كما جاء في قول بولس: «إنْ نُؤمِنْ أنّ يسوعَ مَاتَ وقَام، نُؤمِنْ أيضاً أنّ اللّهَ سَيُقيمُ الرَّاقدِينَ بيسوعَ مع يَسوع» (١ تس ٤/ ١٤).

١٦. في إنجيل يوحنا يقول لنا يسوع أيضاً: «لا تضطرِبْ قُلوبُكم! آمِنوا باللّه، وآمِنُوا بي. في بيت أبي منازلُ كثيرة، وإلاّ لَقُلتُه لكم. أنَا ذاهبٌ لأُعِدَّ لكم مَكاناً. وإذا مَا ذهبتُ، وأعددتُ، عُدْتُ واستَصحَبْتُكم، لتكونوا أنتم أيضاً حيثُ أنا أكون. تَعلمون الطريقَ إلى حيثُ أنا ذاهب. قال توما: لا نَعلمُ إلى أينَ تذهب، يا ربّ، فكيف يسَعُنا أن نعلمَ الطريق؟ قال يسوع: أنا الطريق، والحقُّ، والحياة. لا سبيلَ لأحدٍ إلى الآبِ إلاّ بي» (يو ١٤/ ١-٦).

١٧ . منذ يوم عمادنا ابتدأنا نسير مع المسيح نحو الموت. وعن هذا يقول بولس: «نحن الذينَ عُمِّدنا في المسيح يسوع، في موته عُمِّدنا. إذاً فقد دُفِنَّا معه في الموت، بالمعموديّة... فإذا صرنا وإيّاه واحداً على شِبْهِ موته، نكونُ أيضاً على شِبْهِ قيامتِه» (رو ٦/٣-٥). بسبب عمادنا، إذاً، نشترك في موت يسوع. وموتُنا ليس، في النتيجة، إلاّ استكمالاً حقيقيًا لعمادنا.

١٨ . في مناسبات عديدة يحذّرنا الكتاب من التعلّق بالأرضيّات: «إنّ الوقتَ قصير. وعليه فَلْيكنِ الّذين لهم نساء كأنّهم لا نساءَ لهم. والّذين يَبكون كأنّهم لا يَبكون. والّذين يَفرحون كأنّهم لا يَفرحون. والّذين يَبتاعون كأنّهم لا يَملكون. والّذين يُفيدونَ من العالَم كأنّهم لا يُفيدون. لأنّ شكل هذا العالم زائل» (١ قور ٧/٢٩-٣١).

لهذا، يجب ألاّ نكدّس خيرات زائلة: «لا تَكنِزوا لكم كُنوزاً في الأرض.. بل اكنِزوا لكم كنوزاً في السّماء» (متى ٦/١٩-٢٠). فمن يمرّن نفسه، منذ الآن، على أن يتخلّى عن أشياء هذا العالم، يُصبح قديراً على أن يتخلّى عن نفسه في الموت.. ولنعلم أنّ ما لنا من خيراتٍ ليس ملكنا، بل هو ملْك اللّه وضعه باستعمالنا.

١٩ . علينا أن نتخلّى عن ذواتنا تماماً مثل يسوع الذي، «أخلَى ذاتَه، مُتَّخِذاً صورةَ عبْدٍ، وصارَ مُطيعاً حتّى الموتِ، الموتِ على صَليب. فلذلك رفعَه اللّهُ جِدًا، ووهبَه الاسمَ الذي يَعلُو كلَّ اسمٍ، لكي تَجثُوَ باسمِ يسوعَ كلُّ رُكبةٍ مَن في السماء وعلى الأرضِ وتحتَ الأرض، ويعترفَ كلُّ إنسانٍ أنَّ يسوعَ المسيحَ هو الربُّ لمجدِ اللّهِ الآب» (في ٢/٥-١١). ألتخلّي هذا هو باب الموت، ذاك التخلّي الكبير والشامل.

٢٠ . نستطيع أن نتخلّى عن ذواتنا بما نستعدّ له من مواجهة حقيقيّة للموت المحتّم: نستعدّ لموتنا بمعرفتنا بأنّ لنا بدايةً ونهاية؛ بشكرنا للّه على وجودنا من لا شيء؛ باستعدادنا للموت برجاء الحياة؛ بافتقادنا المرضى؛ بالصلاة من أجل المتوفَّين؛ بالطلب من اللّه موتاً صالحاً؛ بأخذنا الزاد اللاّزم للرحيل؛ وبسماعنا يسوعَ يقول: «إنّ حبّةَ الحِنطَة، إنْ لمْ تَقَعْ في الأرضِ وتَمُتْ، تبقى واحدةً، وإنْ هي ماتتْ صارتْ حبّات..» (يو ١٢/ ٢٤-٢٥).

٢١ . نستعدّ للموت عندما نكتشف دائماً دورةَ الحياة والموت هذه، في الزرع والحصاد الدائمَين. بهذا نخلق فينا رجاءً بعد رجاء؛ فكلّ شتاءٍ يعقبه ربيع، وفي كلّ صحراء واحة خضراء، ولكلّ خروجٍ أرضُ ميعاد، ولكلّ جلاء عودة.

٢٢ . ألمسيح هو الذي يقود البشريّة إلى اجتياز أبواب الموت ليُدخلها في حياةٍ جديدةٍ مع اللّه. لا دليل لنا على أنّ لنا حياةً خالدة بعد الموت من دون المسيح. بالمسيح وحدَه، لا بقوّةٍ ذاتيّةٍ فينا، نستطيع اجتياز عتبات الموت: لا نفْسٌ ولا روح، لا عنصرٌ عصيٌّ على الزوال، لا نسْخٌ ولا تقمّص، يؤهّلنا لحياةٍ ثانيةٍ. وحدَه المسيح المائت والمنتصر على الموت يُميتنا ويُقيمنا.

٢٣ . ألروحُ القدس، روحُ اللّه، الذي فينا هو الذي يُقيمنا ويؤهّلنا لحياة أبديّة. قال بولس: «مَا مِن أحدٍ يَحيا لنفسهِ. ومَا مِن أحدٍ يموتُ لنفسهِ. فإنْ نحيَ فللربِّ نحيا. وإنْ نَمُتْ فللربِّ نموت. إذاً فإنْ نحيَ وإنْ نمتْ فنحنُ للربّ. فلذلك مات المسيحُ وعادَ حيًّا، ليكونَ ربَّ الأحياء والأموات» (رو ١٤/٧-٩).

٢٤ . واللّه، بسبب حبِّه لنا، صار مـثلَنا؛ وبسبب حبّه لنا مات عنّا ومن أجلنا. وبحبّـه أيضاً لم يتركنا للمـوت. به «ابتَلَعَ النَّصرُ الموتَ» (١ قور ١٥/ ٥٤)؛ لأنّ «الحـبَّ قويٌّ كالموت» (نـشيد ٨/ ٦). ألحبُّ يـحوّل الكائنات كلَّهـا من شكلٍ إلى شكلٍ، ومن نوعٍ إلـى نوع، ومن حيـاة إلى حياة. فمَن يعرف حبَّ اللّه لنا يستطيع أن يستقبل الموت كبذارٍ للحياة.

٢٥ . ألموت ظاهرة طبيـعيّة مـحتَّمة؛ ولكـنّه ليس نهاية كلِّ شيء. فهو، بسـبب شرّه الكبير، سـوف يعالجه اللّهُ بطريقةٍ مـذهلة : «كما في آدمَ يموتُ الجـميع، سـيحيـا الجمـيع في المسيـح» (١ قور ١٥/ ٢٢)؛ «وكما لَبِسنا صورةَ الترابيِّ، سَـنلبَسُ أيضاً صورةَ السّماوي» (١ قور ١٥/ ٤٩)؛ «وإذا كـانَ روحُ الذي أقامَ يـسوعَ من بين الأمـواتِ سـاكناً فيكم، فالّذي أقامَ المسيحَ من بين الأمـوات، يُحيي أيضاً أجسادَكم المائتةَ بروحه السّاكنِ فيكم» (رو ٨/ ١١).

٢٦ . لن نعـرفَ اليومَ أبداً كـيف تكون القيـامة، ولا كـيف يكون بوسع الجسـد أن يقوم ولا كيف يكون ممجَّـداً. ألإيمانُ يعطينا التأكـيد فقـط، ولا يقدِّم لنا الدليل. ولكن مـا يجب أن نعرف هو أنّ الـقيامـة لن تكونَ باستعـادة الجثّة الميتة البـالية، بل هي استكمال للحيـاة الناقصة التي عشنـاها لتصبحَ في ملئـها. والملء لن يكون ترقـيعاً ولـملمةَ عظامٍ باليـة. إنّه حيـاة جديدة، مُـسـتكمَلة، لا نعلم كيـف هي؛ ولكنّنا نعلم أنّ حبّاتِ الحنطة ليستْ هي مثل الحـبّة–الأم، وليست من دونها. والحبّة– الأمّ لو لم تمت لما كانت منهـا حبّات؛ ولو مـاتتْ كلّيًا لما كان منهـا أيضاً حبّات. لقـد تحوّلت تحوّلاً كاملاً شـاملاً. وثمّة مثلٌ آخـر: جسدنا، عند السبعين، ليس هو ذاته كما كان في العاشرة؛ ولكنّه ليس هو من دونه.

٢٧ . كلّ مرّة ننتصر على ذاتنا ونعمل أعمالَ محبّة، ننفتح على الرّوح الذي من دونه لا حياة. هذا الرّوح هو الذي أقام يسوع من الموت، سيُقيمنا نحن أيضاً مثله... ألرّوح، روح يسوع، هو الذي يعطينا قوّةَ القيامة، وليس ما فينا من نفسٍ عصيَّةٍ على الموت. هذه لا توجد إلاَّ في كتب الفلاسفة.

٢٨ . إنّنا لم نختبر الموتَ في ذاتنا؛ بل نختبره في الآخرين؛ واختبارنا له ناقص جدًا. نحن، أمام موت الآخرين، لسنا إلاّ شهود عِيان. نحن أمام موتنا في حالةِ ذعرٍ دائم، إلى أن نغيب عن الحياة التي عجزنا عن اكتشاف سرِّها.

***

وأخيراً نقول :

١ . بالمسيح، لم يعد موتُنا موتاً طبيعيًا، بل أصبح موتاً من أجل القيامة، لحياةٍ جديدة. لم يعد موتُنا موتاً بشريًا، بل أصبح موتاً مع اللّه، موتاً إلهيًا. إنّنا لا نستطيع أن نموتَ من دون يسوع المسيح، ولا أن نحيا من دونه. يسوع هو الألف والياء، الأوّل والأخير. إنّه باكورة المائتين موتاً إلهيًا؛ وباكورة الأحياء في اللّه.

٢ . فالّذين تعمّدوا بالمسيح، وأكلوا جسَده وشربوا دمَه، وعاشوا معه، واتّحدوا به، وعملوا بروحِه.. هؤلاء لا يموتون إلاّ بموتِ المسيح. ولا يقومون أيضاً إلاّ بقيامة المسيح. لا انفصال للمسيحيّ عن المسيح. هذا هو سرّ حياته وموته وقيامته. ولا شيء في إيمان المسيحيّين يُضاهي شراكة الإنسان في طبيعة اللّه.

«بنعمة المعموديّة "باسم الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨/ ١٩)، نحنُ مدعوّون إلى الاشتراك في حياة الثالوث السعيدة، ههنا في ظلمة الإيمان، وهنالك بعد الموت في النّور الأزليّ»[١٤].

٣ . ألذين يؤمنون بالمسيح القائم من الموت مدعوّون للقيامة معه، لا بسبب استحقاقاتهم الخاصّة، بل بمحبّة اللّه لهم محبّةً لامتناهية. بهذا، لن يكون موتُهم نهايةَ حياتهم المسيحيّة، بل هو حدَث عابر. إنّه «فصح» أي «عبور» من حياة أرضيّة، معرّضة للفساد، إلى حياة أبديّة لا فساد فيها. إنّه الحياة الحقّة.

٤ . لقد طرد اللّهُ الإنسانَ من الفردوس، وأبعده عن «شجرة الحياة»، شفَقةً ومحبّةً، وذلك، حتّى لا يستمرّ الإنسان عاصياً، والخطيئة قائمة، والشرّ من دون علاج. ألطرد من الفردوس والموت كانا من أجل التكفير عن خطيئةٍ كان يُخشى أن تستمرّ عصياناً أبديًا. لذا قال بولس: «كما في آدمَ يموتُ الجميع، في المسيح سيَحيا الجميع» (١ قور ١٥/ ٢٢).

ودعوة الجميع إلى الحياة مع المسيح تعني تدمير الموت تدميراً كاملاً: «آخر عدوٍّ يُبطَل هو الموت» (١ قور ١٥/ ٢٦)، «والموتُ لا يكونُ من بعدُ» (رؤ ٢١/ ٤).

***

(١٤) التعليم المسيحي، عدد ٢٦٥.

الموت في الإسلام

١ . في إجماع المسلمين أنّ الموت ليس عـقاباً على خطيئة اقتـرفها أبوانا الأوّلان آدم وحوّاء؛ بـل هو من اللّه. مثله مـثل الحياة. وهـو حالة طبيعيّة، مثلـه مثل أي شـيء في الوجود : جاء في القرآن : «وَاللّهُ خَلَقَكُمْ (ولم تكونوا شيئاً). ثمّ يَتَوَفَّاكُمْ (عند انقضاء آجالكم)» (١٦/ ٧٠)، أي إنّ اللّه هو الذي خلقَ الموتَ كـما خلق الحـياة. وكـذلك جاء في الـقرآن: «أللّهُ الذِي خَلَقَكُم. ثمّ رَزَقَكُمْ. ثمّ يُمِيتُكُمْ. ثمّ يُحْـيِيكُمْ. هَل مِنْ شُرَكائِكُمْ (أي ممّن أشـركتم باللّه) مَنْ يَفْـعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيءٍ؟ (لا). سُـبْحَـانَه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (به)» (٣٠/ ٤٠). يعني أنّ الخلق والرزق والموت والحياة كلّها من اللّه وحده، لا من سواه.

٢ . ثمّ إنّ اللّه، الذي خلق آدم وزوجـته، أسكنهمـا الجنّة، يأكلان من ثمارها، ولكنّه منعهما من أن يقربا من «شجرة الخلد» (٢٠/ ١٢٠)، لئلاّ يكونا من الخالِدِين (٧/ ١٩-٢٠)؛ لكأنّ المعصـية كانت مانعاً لآدم من الخلود الذي هو للّه وحدَه دون سواه. أمّا مـا دون الخلود فهو شأن طبيعيّ. أيّ إنّ الموتَ حالة طبيعيّة لكلّ مخلوق حيّ؛ أمّا الخلود فلا.

٣ . ألإنسان والحيوان والنبات والجماد والجنّ والملائكة، وكلّ ما في السموات وعلـى الأرض وما بينهما، يموت حتـماً : «كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَـهُ. لَهُ الحُكْمُ وإلَيـهِ تُرْجَعُونَ» (٢٨/ ٨٨). «كُـلُّ مَنْ عَلَيهـا فانٍ. وَيَبْـقَى وجهُ رَبِّكَ» (٥٥/ ٢٦-٢٧)، أي إنّ الموت عـامّ شـاملٌ الكائنات كلّها. وحده اللّه لا يناله موتٌ ولا فناء.

٤ . يَنهَى الإسلامُ المسلمين عن تمنّي الموت لأنفـسهم. فالموت من اللّه، كما الحـياة. وهو يتصرّف بهـما معاً : عن أنَس بن مـالك قال: قال

رسول اللّه: «لا يتمنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نَزلَ به. فإنْ كان لا بدَّ مُتمنِّياً فليقلْ: ألَلّهمّ أحْيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي»[١٥]. ورُوي عن سهْل بن عبد اللّه التّسْتُري أنّه قال: «لا يتمنّى أحدُكم الموتَ إلاّ ثلاثة: رجلٌ جاهل بما بعد الموت، ورجلٌ يفرّ من أقدار اللّه تعالى عليه، ورجل مشتاقٌ محبٌّ للقاء اللّه عزّ وجلّ».

٥ . ومع هذا، ولئن كان لا يحقّ للمسلم تمنّي الموت، فإنّه يتوجب عليه أن يذكره دائماً ويستعدّ له. ولئن كان الموت مصيبة عظمى، فإنّ أعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلّة التفكّر فيه. وإنّ فيه لعبرة لمن اعتبر. عن أبي هُريرة قال: قال رسول اللّه: «أكثروا ذكرَ هاذمِ اللّذّات». قلنا: يا رسول اللّه! وما هاذم اللّذّات؟ قال: «الموت». وعن أنَس قال: قال رسول اللّه: أكثروا ذكرَ الموت. فإنّه يمحّص الذنوب، ويزهد في الدنيا».

٦ . ولكي يستمرّ المسلم في تذكّر الموت والآخرة، فلا بدّ له من زيارة القبور، والتأمّل بمن رحل من إخوانه، والزهد بالدنيا وبما فيها : عن ابن مسعود أنّ رسول اللّه قال: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور. فزوروها. فإنّها تزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّرُ الآخرةَ». وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أصحابه: «أذكروا الموتَ الذي لا بدّ منه. واسمعوا قول اللّه تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموتِ»[١٦]، وقوله عزّ وجلّ: «كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَانٍ»

---

(١٥) ألأحاديث النبويّة مأخوذة، في معظمها، من كتاب أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السّقا، جزءان في مجلّد واحد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ٣٦٠ + ٤٦٠ ص.

(١٦) سورة آل عمران ٣/ ١٨٥؛ ٢١/ ٣٥؛ ٢٩/ ٥٧.

(٢٥/٢٦)، وقوله عزّ وجلّ: «فَكَيفَ إِذَا تَوفَّتْهُمُ المَلائكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» (٤٧/٢٧). فقد بلغني أنّهم يُضرَبون بسياطٍ من نار. وقال جلّ ذكره: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوتِ الّذِي وُكِّلَ بِكُمْ. ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (٣٢/١١).

٧. عند الساعات الأخيرة من الحياة، لا بدّ من الاستعداد المباشر. والموتُ يبعث رسلاً بعد رسلٍ، قبل مجيئه : روي أن مَلَك الموت دخل على داود. فقال: مَن أنتَ؟ فقال: مَن لا يهابُ الملوكَ ولا تُمنع منه القصور، ولا يقبل الرِّشا. قال: فإذاً أنتَ مَلَكُ الموت! قال: نعم. قال: أتيتَني ولم أستعدّ بعد. قال: يا داود! أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات. قال: أما كان لكَ في هؤلاء عبرة لتستعدّ؟ ومن نُذُر الموت الحمّى. وفيها قال رسول اللّه : «ألحمّى نذيرُ الموت»، أي تُشعر بقدومه وتُنذر بمجيئه. ومن النّذر أيضاً الشّيب. قال رسول اللّه : «مَن شابَ شيبةً في الإسلام كانتْ له نوراً يومَ القيامة». وقال أيضاً : «إنّ اللّهَ لَيستحيي أن يعذّب ذا شيبةٍ».

٨. والموت نفسُه يكفي لأن يكون كفّارةً للمؤمنين: عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه: «ألموتُ كفّارةٌ لكلِّ مسلمٍ». وفي الخبر المأثور يقول اللّه تعالى: «إنّي لا أُخرج أحداً من الدنيا، وأنا أريدُ أن أرحمَه، حتّى أُوفيَه بكلِّ خطيئةٍ كان عملها: سقماً في جسده، ومصيبةً في أهله وولدِه، وضيقاً في معاشِه، وإقتاراً في رزقِه.. فإنْ بقي عليه شيءٌ شددتُ عليه الموتَ، حتّى يُفضيَ إليَّ كيومِ ولدتْه أمُّه». وهذا بخلاف مَن لا يحبّه اللّه ولا يرضاه.

***

وفي الختام نقول :

إنّ مواجهة الإنسان، كلّ إنسان، للموت رهيبة مخيفة. أكان مؤمناً أو كافراً، مسلماً أو غير مسلم. وموتُ حبيبٍ أو صديق فاجعةٌ تعصرُ قلبَ الأهل والأصدقاء عصراً. إنّه حالةٌ، بالرّغم من شموليّتها ومؤالفتها، لن يعتاد عليها أحد. إنّها رحلة إلى غير رجعة، وداع لا وداع بعده، فناءٌ لا يظهر بأنّ بعدَه أيُّ أثرٍ لأي نوعٍ لأيٍّ بقاء.

ومهما عظم إيمان المؤمنين، يبقى الموتُ مصيراً مجهولاً. ومهما كانت لامبالاة الكافرين والملحدين كبيرة تبقى حقيقة الموت أكبر من أي لامبالاة. فلا إيمان المؤمنين يعطيهم رجاءً أكيداً لمن لا يزال في هذه الفانية؛ ولا عدم الإيمان بحياة خالدة يطمئنُ الملائتين بأنّهم سائرون حتماً إلى الفناء.

وضْع الإنسان إزاء الموت وضع كائن يسير نحو الموت حتماً، ولكنّه لا يعرف عن ما يسير إليه شيئاً. ساعة الحقيقة هي ساعة الموت. إنّها الحقيقة الكبرى. وبعدها سرّ كبير. بل هو السرّ الأكبر. يحلّ المسيحيّون لغزه بربط الموت والحياة بيسوع المسيح وعمله الخلاصي. أمّا المسلمون، مهما طمأنهم القرآن بوجود حياة ثانية، فسيبقون يواجهون المصيرَ وحدهم.

والإنسان، إذا ما واجه الموتَ وحدَه، لا رجاء عنده بشيء. بل يلفّه اليأس من كلّ ناح. وحدَه يسوع المسيح أمات الموتَ بالموت. وانتصر عليه لكي يعطي الإنسان إمكانيّة هذا النصر العظيم.

٢١

المعاد

١ . إنّ إيمانَ المسيحيّين بالقيامة والخلود والحياة الثانيّة لا يستند إطلاقاً إلى القول بوجودِ نفسٍ خالدةٍ بذاتها. إنّ وجودَ نفسٍ، تموت أو لا تموت، ليس من المسيحيّة في شيء. ولئن كان للإنسان من قيامةٍ فإنّها إنّما تكونُ **بِسَبَبِ** قيامةِ المسيحِ يسوعَ وعملِ الرّوح القدس، لا بسببِ وجودِ عنصرٍ عصيٍّ على الموت. هذا يعني أنَّ قيامةَ الإنسان مرتبطةٌ إرتباطًا عضويًا وجوهريًا بقيامة يسوع المسيح : «وَإذا كانَ رُوحُ الذي أقامَ يسوعَ مِن بينِ الأمواتِ ساكناً فيكُم، فالّذي أقَامَ المسيحَ مِن بينِ الأموات، يُحيِي أيضاً أجسادَكم المائتةَ بروحِهِ الساكنِ فيكُم» (رو ٨/ ١١).

٢ . قيامةُ يسوع المسيح، إذاً، هي البرهان على قيامة الإنسان؛ أو أيضاً: هي علّةُ قيامة الإنسان. أي: لولا قيامة المسيح لما كان للإنسان قيامة، حتّى ولو كان بين حناياه ألف ألف نفس ونفس : «إنْ كانَ المسيحُ يُنادَى به أنَّه أُقيمَ مِن بينِ الأموات، فكيفَ يَقولُ بعضٌ منكم أنْ لا قيامةَ لأموات؟ فإنْ كانَ لا قيامةَ لأموات، فَوَلا المسيحُ أُقيم. وإنْ كان المسيحُ

ما أُقيم، فباطلٌ تبشيرُنا وباطلٌ إيمانُكم... إنْ كُنّا نَرجو المسيحَ في هذه الحياةِ وحَسْبُ، فنحنُ أشقَى الناسِ أجمَعين. والحالُ، إنَّ المسيحَ أُقيم مِن بينِ الأموات. إنّه باكورةُ الرّاقدين... كما في آدم يموتُ الجميع، في المسيح سيحيا الجميع. كلّ واحد في رتبته» (١ قور ١٥/١٢-٢١).

قيامةُ الأموات، إذاً، نتيجةٌ حتميّةٌ لقيامة الرّب يسوع المسيح. والصلة بين القيامتَين جوهرٌ لا عرَض. هو اللّه الذي يُقيمنا بقوّته ونعمته، لا بسببِ وجودِ نفسٍ فينا خالدة : «فاللّهُ أقامَ الرّبَّ وسَيُقيمُنا بقوّتِه» (١ قور ٦/ ١٤).

***

٣ . «كيفَ يقومُ الأمواتُ؟ وفِي أيِّ جسَدٍ يَعودون؟» (١ قور ١٥/ ٣٥). لمْ يشهد العالم جسداً غيرَ فانٍ. كلُّ جسد يفسد وينحلّ، وتتحوّل موادُّه إلى أجسادٍ أخرى. ولا يعود له أيُّ كيان؛ وبالتالي، «لا يَستطيعُ لحمٌ ودمٌ أن يَرِثَ ملكوتَ اللّه، ولا الفسادُ أن يرثَ عدمَ الفساد» (١ قور١٥/ ٥٠). أي: لا يستطيع الإنسانُ الترابي أن يستمرّ إلى الأبد من دون تدخّل من اللّه.

٤ . لهذا، فالذي يقوم هو نوعٌ آخَر، أو له حالٌ أُخرَى من الوجود. ولنا أن نتمثّلَ ذلك بحبَّةِ حِنطة. هذه الحبّة، إنْ ماتتْ كلّيًا لا يكون منها حَبّات؛ وإنْ بقيتْ كما هي لا يكون منها أيضاً حبّات. والحبّاتُ الجديدة ليستْ هي الحَبّةُ-الأمّ؛ وليستْ هي أيضاً من دون الحَبّةِ-الأمّ. ليست هي مثل الحبّة-الأمّ؛ ولا هي أيضاً مغايِرَةٌ عن الحبّة-الأمّ تغايراً جوهريًا. إنّها وجودٌ آخَر بالتمام؛ لكنّه يستند إلى الوجود الأوّل بالتمام... هكذا هي الحياة الثانيّة: ليست هي الحياة

الطبيعيّة الأولى أبداً، وليستْ هي أيضاً من دون الحياة الطبيعيّة الأولى إطلاقاً.

وجسدُ الإنسان، عندما يُصبح في سنّ الشيخوخة، ليس هو نفسه عندما كان في سنّ الطفولة؛ ولا هو أيضاً جاء من دون الجسد الأوّل. إنّه هو، ولكن بتحوّلٍ وتجدُّدٍ كاملَين. والفضل في ذلك يعود، لا إلى قوّةٍ كامنةٍ فيه؛ بل إلى أغذيةٍ وعواملَ خارجةٍ عنه... هكذا هي الحياة الثانية: ليست هي الأولى، ولا هي من دونها. إنّها تحوّل وتجدّد كاملان. والفضل في ذلك يعود، لا إلى قوّة كامنة فيها؛ بل إلى قوّة «روحِ الربّ» الذي أتقن صنعها. فهو الذي حوّلها وقدَّسها وجدّدها.

٥ . وقلنا إنّ الحياةَ الطبيعيّة لا تحمل في ذاتها قوّةَ التحوّل والتجدَّد، تماماً كحبّة الحنطة التي، إن لم يتهيّأْ لها الماءُ والتربةُ والمناخُ ومختلفُ أنواعِ الأغذية والأسمدة، لا يمكنها، بذاتها، أن تُعطي حبّاتٍ جديدة. هكذا نقول بالنسبة إلى الحياة الثانيّة: «روح الربّ» هو صانع هذا التحوّل والتجدّد: ألرّب هو الذي يبدّل جسدَنا المائت ويُحييه بروحِه الساكنِ فينا[1]. هو الذي «يغيّرُ جسدَ ضَعَتِنا فيَجعلُه على صورةِ جسدِ مجدِه بعملِ قدرتِه» (في ٣/ ٢١).

٦ . لهذا، فالحياة الأبديّة إنّما هي للّذين يؤمنون بالربِّ. أمّا الذين لا يؤمنون بالربِّ فلا حياةَ أبديّة لهم: «مَن لهُ الإبنُ لهُ الحياةُ. ومَن ليسَ لهُ ابنُ اللّهِ ليستْ لهُ الحياة» (١ يو ٥/ ١٢). «المؤمنُ بالابنِ ينالُ حياةً أبديّة. وغيرُ المؤمن بالابن لن يرى حياة» (يو ٣/ ٣٦).

---

(١) رَ: روما ٨/ ١١.

فالقيامة قيامةٌ إلى الحياة في الابن. والذي لا يحيا في الابن لا حياةَ له أبداً. ذلك يعني أنّ «المؤمنين بالابن» وحدَهم ينعمون بالقيامة والحياة.

٧. ولكنّ الذين سبقوا مجيء الابن، والذين أتوا بعده ولم يتعرّفوا إليه، والذين لم يبالوا به، والذين رفضوه... هؤلاء، إنْ عملوا بشريعة ضميرهم، لن يكون اللّهُ بأظلم منهم على أنفسهم؛ بل سيكون بهم رحيماً، وسيقيمهم لأنّهم أبناؤه. وقيامتهم، أيضاً، ليست وقفاً على قوّتهم، بل على قوّة ذاك «الروح» الذي يعمل فيهم سرًا.

٨. ثمّ إنّ الحياةَ الأبديّة هي للّذين يُحبُّون. «ألمحبّة أقوى من الموت» (نش ٨/٦). «ومَن لا يُحِبُّ يمكثُ في الموت» (١ يو ٣/١٤). ومن يُحِبّ ينتقل من الموت إلى الحياة. إلاّ أنّ في المحبّة تدرُّجاً: فالذي يُحبّ أكثر ينعم بسعادةٍ أكبر، والذي يُحبّ أقلّ يسعد أقلّ. والتدرّجُ في المحبّة هو نتيجة وعي الإنسان، وتضحياته، وخدَمَاته، والتزامه، وسلوكه، وبالتالي، عمل «روح الربّ» فيه... وقد عبّر يسوع عن ذلك في قوله: «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤/٢).

٩. لهذا نقول: إنّ مَن نسمّيهم «أبراراً وأشراراً»، و«مخلَّصين وهالكين»، و«سعداء ومعذَّبين»، ليسوا إلاّ في «منازل»، ومراتب، وحالاتٍ تتدرّج فيها المحبّة من حال القربى من اللّه حتّى الاشتعال – وهو حال القدّيسين–، إلى حال الابتعاد عنه حتى آخِرِ« منزلٍ» عند آخِرِ كائنٍ مغلَقٍ على الحبّ، حيثُ النورُ باهت، والوجودُ صامت، والحبُّ فاتر، والسعادة على حسب استطاعة قابليها، وبمقدار مستحقّيها.

١٠. «ألمقرَّبون» من مصدر النور والحياة والمحبّة والسعادة، يَنعمون بمحبّة وسعادة كاملتَين؛ و«البعيدون» القابعون في الظلام هم

أيضًـا يَسعـدون في منازل تخصّ اللّهَ أيضاً، ولكن بحـسب مقـدورهم على الحبِّ ورؤيةِ الـنور والبـهـاء. وإلاّ لَكان في ملكـوتِ اللّه منازل لا تخصّـه، ولا تخضع لسلطانه، بل تدلّ على قساوة قـلبه؛ فيما هـو كما عرّفنا عليـه يسوع: "أب" و"محبّة"، يتّـصف بجميع صفـات الرحمة والحنان.

١١ . أمّا «اليوم الآخِر» فهو، في الحـقيقة، يومُ تجديدٍ شامل[2]، لا يوم خرابٍ وتدمير. ذلك لأنّ الخليقة كلَّهـا تجدّدتْ بالتجسّد، ونعمتْ بالفـداء، وحصلتْ على الخـلاص، واستـحـقّتِ «المصالحـة مع اللّه في المسيح» (٢ قور ٥/١٨)، وتقدّست بعـمل روح القدس. ولِمَ يُخرِّبُ اللّهُ مـا خلقَ، إذا كان بإمكانه تجـديدُ كلِّ ما خـلق. فالخليـقةُ تنتظر بفـارغ الصبر تجلّي أبناء اللّه، لِتُعتَقَ مِن الفساد، وتشاركَهم الحريّةَ والمجد[3].

١٢ . هذا «التجديد الشـامل» ستحصل عليـه الخليقة المادّيّة من خلال جسـد الإنسان الممجَّد، وذلك كـما حصلتْ على العـقاب والعذاب بسبب خطيئة الإنسان. والخليقة كلُّها، خـيِّرةً كانتْ أم شرّيرةً، ستسير في موكب الرّب الظافر[4]. وما ستحصل عليه من تجديدٍ سيبقى جديداً باستمرار. ولن يكون شيءٌ قديماً فيما بعد.

١٣ . أمّا «الدينونة الخاصّة» فهي التـي يقف فيها الإنسانُ، عند وفاة أجله، لينالِ من الربّ جزاءَ عملِه : فالّذين انفتحوا على المحبّة يَهبهم

---

(٢) أعمال الرسل ٣/ ٢١: «

(٣) روما ٨/١٨-١٩: «أرى أنّ آلامَ الوقـت الحاضرِ لا تُقـاسُ بالمجد الذي سـوف يُعلَنُ فينا. فإنّ الخليقةَ لَتَتَوَقَّعُ وتَنتظرُ إعلانَ أبناءِ اللّه..».

(٤) ٢ قور ٢/ ١٤.

الربُّ القربى منه والحياة، والّذين انغلقوا على المحبّة يعاملهم بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ هُوَ وَبِحَسَبِ فُتُورِهِمْ هُمْ. ومن كان يحتاج إلى تبريرٍ فسوف يدخل في «مطهر» يصفّيه ممّا تبقّى عليه من معاصٍ وآثام.

١٤ . وأمّا «الدينونة العامّة» فهي المحطّة الأخيرة التي تُنهي مسيرةَ الشرّ في العالم، ويتصالحُ الكلُّ مع اللّه في المسيح، ويُصبحُ اللّهُ كلاً في الكلِّ، ويحصلُ التفاعلُ والتكاملُ بين الخليقة والإنسان : إنّ العالم المادّي الذي خُلِقَ مِن أجل الإنسان سيُشارك الإنسانَ في مصيره النِّهائي. بعد هذه الدينونة الشاملة، لن تحصل ولادات جديدة في الكون. والجديد سيكون هذا العالم كلّه. وما هو قديم سيتجدّد ويتمجّد هو نفسه باستمرار.

١٥. كلُّ ما في الوجود سيصير، في نهاية الرحلة، خَاضعاً لسلطان الربّ وداخلاً في ملكوته. ولا شيء يمكنه أن يبقى خارجَ هذا السلطان وهذا المَلكوت؛ وذلك لكي لا يكونَ للشرِّ مع اللّهِ نصيب. ولن تبقى حرّيّة الإنسانِ الممجّد، آنذاك، عنوانَ مجده وكرامته. هذه الحرّيّة استحقّتْ له ما استحقّتْ؛ أمّا في نهاية الوجود فلن يكون بإمكانها أن تستحقَّ له شيئاً. لهذا فهي لن تبقى.

١٦. أمّا «السماء» فهي منزل من منازل اللّه. وكذلك «جهنّم» أيضاً منزل من منازل اللّه. ولئن كانتِ الأُولَى حالَ المقرَّبين من اللّه، فإنّ الثانية حالُ البعيدين. هؤلاء، كأولئك، يمجّدون اللّه ويسبّحونه حيث هم، وكلُّ فريقٍ يَسعد حيث هو بمقدار ما يستطيع ويستحقّ.

***

مَعاد المسلمين

١ . عن **اليوم الأخير** يقول القرآن إنّ «السّاعة» الأخيرة من هذا العالم «سَتَأتِي بَغْتَةً»[٥]، و«تَجِيءُ كلَمْحِ البَصَر»[٦]. فيها تتبدّل مظاهر الكون : «تنشق السماء»[٧]، وتُطوى كطيٍّ السجلّ للكتب (٢١/ ١٠٤). وتتكوّر الشمس (٨١/ ١)، ويُخسف القمر (٧٥/ ٨)، ويُجمع بينهما (٧٥/ ٩)، بعد أنْ كانا لا يجتمعان ولا يلتقيان (٣٦/ ٤٠)، وتنكدر النجوم (٨١/ ٢)، وتنتثر الكواكب (٨٢/ ٢)، وتُفجّر البحار وتسجّر[٨].

في ذلك اليوم ترتجفُ الارض (٧٣/ ١٤)، وتزلزِل زلزالَها (٩٩/ ١)، وتمتدّ جبالُها سهولاً (٨٤/ ٣)، وتدك دكّةً واحدة (٦٩/ ١٤)، وتشقق سراعاً (٥٠/ ٤٤)، وتصبح هباءً منثوراً (٢٥/ ٢٣). ويحدث برق ورعد ومخاوف عظيمة[٩]. ويكون جوع عظيم (٨٨/ ٧).ثمّ يُنقر في الناقور (٧٤/ ٨)، ويُنفخ في الصور (٧٣/ ٦). وتسمع صيحة تهتزّ لها الأرضُ وترتجف فرائص البشر[١٠]. و«تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعتْ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها» (٢٢/ ٢)، و«يجعل

(٥) أنظر: ٦/ ٣١ ؛ ٧/ ١٨٧؛ ١٢/ ١٠٧ ؛ ٢١/ ٤٠ ، ٢٢/ ٥٥ ؛ ٢٩/ ٥٣.
(٦) ٤٣/ ٦٦؛ ٤٧/ ١٨.
(٧) أنظر: ٨٤/ ١؛ ٢٥/ ٢٥؛ ٥٥/ ٣٧؛ ٦٩/ ١٦.
(٨) أنظر: ٨١/ ٦ ؛ ٥٢/ ٦؛ ٨٢/ ٣.
(٩) سورة النور ٢٤/ ٤٣؛ البقرة ٢/ ٢٠؛ الروم ٣٠/ ٢٤.
(١٠) أنظر: ٥٠/ ٤٢؛ ١١/ ٦٧ و٩٤؛ ١٥/ ٧٣ و٨٣؛ ٢٣/ ٤١؛ ٢٩/ ٤٠؛ ٣٦/ ٢٩ و٤٩ و٥٣؛ ٥٤/ ٣١؛ ٧٩/ ٦-٩؛ ٧٠/ ٤٤؛ ٨٢/ ٤؛ ٥٤/ ٧...

الولدان شيباً (١٧/٧٣)؛ و«يفرّ المرء من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه» (٣٤/٨٠).

في اليوم الأخير هذا، لا شيء يفيد الإنسان سوى أعماله الخيّرة: «للّذينَ استَجَابوا لربِّهم الحُسنَى، والّذينَ لم يَستَجيبوا لَه لَو أنَّ لهم مَا في الأرضِ جميعاً، وَمِثْلَه مَعَهُ لافْتَدَوا بِه. أولئكَ لهم سوءُ الحِساب وَمَأواهم جهنّمُ. وبِئسَ المِهَادُ» (١٨/١٣). إنّه «يوم لا ينفع مال ولا بنون» (٨٨/٢٦). ومنهم من اعتبر كثرة الأموال والأولاد تنجّيهم فافتخروا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً. ومَا نَحن بمُعَذَّبِين» (٣٤/ ٣٥)؛ ولكنّهم معذّبون، هم وأولادهم.

في نهاية ذلك اليوم المشهود تحدث القيامة العامة ويبتدئ الحساب العسير، ويحضر الناس أمام اللّه الديّان العادل، كلٌّ يحمل أعماله في كتاب، وتوزَن بميزان العدل، فيذهب الأبرارُ إلى اليمين والأشرارُ إلى الشمال. يحضر الناس أمام اللّه «أشتاتاً» (٦/٩٤). ويكون الفصل بين الأبرار أصحاب اليمين (٥٦/٨و٣٨) والأشرار أصحاب الشمال (٥٦/٩و١٠)، ويخيّم على الجميع صمتٌ رهيب (٢/ ١٠٧)، ويبتدئ الحساب (٨٤/٨)، وتُكشف الأعمال والخفيّات[11]، بحسب كتابِ الأعمال، الخاصّ بكلّ إنسان[12]. وتوزن الأعمال: «فمن ثقلتْ موازينُه فهو في عيشةٍ راضية. وأمّا مَن خفّتْ موازينه فأمّه هاوية ... نار حاميّة» (١٠١/٦-١١)، أي ستحضنه نار جهنّم

(١١) سورة الحاقة ٦٩/١٨؛ سورة الكهف ١٨/٤٦.

(١٢) ٧٨/٢٩؛ ٨٢/١٠-١٢؛ ٣٦/١١؛ ٢١/٩٤...

٢ . **جهنّم المسلمين** : ترد لفظ «جهنّم» في القرآن ٧٧ مرّة، وألفاظ أخرى تعنيها، أو تشير إليها، مثل «الجحيم»: ٢٦ مرّة، و«سعير»: ١٦ مرّة، و«نار»: ما يقارب ١٢٠ مرّة، و«سَقَر»: ٤ مرّات... وكذلك يشبّه القرآنُ جهنّمَ بـ «الحطمة» (١٠٤/ ٤-٥)، و«اللّظى» (٧٠/ ١٥)، و«عذاب الحريق» (٨٥/ ١٠)، و«الهاوية» (١٠١/ ٩)، و«الحفرة» (٣/ ١٠٣)..

والهالكون في جهنّم هم : «الّذِينَ يكتمُونَ مَا أنْزَلْنا مِن البيّنات والهدى ... أولئكَ يَلعنُهم اللّه» (٢/ ١٥٩)؛ و«الّذِينَ يَنْقضُونَ عَهْدَ اللّهِ بَعْدَ ميثاقه.. أولئكَ هُمُ الخَاسِرُون» (٢/ ٢٧)؛ و«الذين يكتبون الكتاب بأيديهم... فويل لهم ممّا كتبت أيديهم» (٢/ ٧٩؛ ر: ١٣/ ٢٥)؛ و«الّذين يؤذون اللّهَ ورسولَه لعنهم اللّهُ في الدنيا والآخرة» (٣٣/ ٥٧)؛ و«الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنةُ اللّهِ على الظالمين. الّذين يصدّون عن سبيل اللّه... هم كافرون» (١١/ ١٨)؛ و«مَن يقتل مؤمناً متعمِّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها» (٤/ ٩٣). وغير ذلك من ذنوب يذكرها القرآن مراراً وتكراراً، مثل: الشرك، والكفر، والقتل، والزِّنى، والتخلّف عن الجهاد، وقذف المحْصَنات، وغيرها..

يشير القرآن إلى كثرة الهالكين في جهنّم، وإلى دخول الناس إليها أفواجاً : «ونسوق المجرمين إلى جهنم ورِدْاً (أي مشاة عطشى)» (١٩/ ٨٦)، أو «وَسِيقَ الّذين كَفَروا إلى جَهَنّمَ زُمَراً (أي جماعات متفرّقة)» (٣٩/ ٧١). وجهنم مليئة بالنّاس والجنّ سواء بسواء: «لأمْلأنّ جَهَنّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعِينَ» (٣٢/ ١٣). وجهنّمُ لا تشبع، على رحابتها، من كثرة الواردين إليها: «يَومَ نَقُولُ لِجَهَنَّم:

هَلِ امْتَلأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟» (٥٠/ ٣٠). ويُخشَى، لكثرة الهالكين في جهنّم القرآن، أن يكونَ كلُّ البشرِ يَرِدُهَا، ولو لِلَحْظَةٍ وجيزة. يقول: «.. وَإِنْ مِنْكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا. كانَ على ربِّكَ حَتْماً مَقضِيّاً» (١٩/ ٧١).

نيرانُ جهنّم شديدة ومتنوّعة، تحيط بالكافرين من كلِّ جهّة، إذ «يَغْشَاهُمُ العَذابُ مِن فَوقِهِم ومِن تحتِ أرْجُلِهِم» (٢/ ٥٤-٥٥)؛ وتطلع النّار على أفئدتهم وتطبق عليهم (١٠٤/٦-٩)؛ ينامون على النّار ويلتحفون النّار (٧/ ٤١). إنَّهم «فِي سَمُومٍ (ريح حارّة)، وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ (دخان شديد أسود)» (٥٦/ ٤٢-٤٣).

وتتصف عذابات جهنم بما يكون على أعناق الهالكين فيها من قيود وسلاسل وأغلال يُسحبون بها[١٣].

وكذلك تتّصف بما يكون لهم من مأكلٍ خاصّ بهم، مرّ المذاق، لا ينفع، وهو من شجرةٍ خاصّة بجهنّم إسمها «شجرة الزَّقُّوم»، وهي من أخبث الشجر المرّ بمنطقة تهامة. يقول: «إنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ طعامُ الأثيمِ، كَالمُهْلِ يَغْلِي في البُطُونِ كَغَلْيِ الحَميم» (٤٤/ ٤٣-٤٦)؛ «إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طَلْعُهَا كأنّهُ رؤوس الشّياطين»[١٤]. ومن مآكل الجحيم أيضاً الشوك الذي لا ينفع في سَدّ حاجة: «ليسَ لهم طعامٌ إلاّ من ضَريع (نوع من الشوك) لا يُسْمِنُ ولا يُغنِي مِن جُوع» (٨٨/ ٦-٧)، «طعَاماً ذا غُصّة» (٧٣/ ١٣).

---

(١٣) أنظر: ٣٦/ ٨؛ ٤٠/ ٧١-٧٢؛ ٧٦/ ٤؛ ٧٣/ ١٢؛ ٦٩/ ٣٠-٣٢.

(١٤) سورة الصافّات ٣٧/ ٦٤-٦٥؛ سورة الواقعة ٥٦/ ٥٢-٥٥.

أمّا الشراب فهو من «حَميم»، أي من ماء يحرق الأمعاء ويقطّعها تقطيعاً: «الّذين كَفَرُوا لهم (في جهنّم) شَرابٌ من حميم»[١٥]، ولقد «سُقوا ماءً حميماً فتقطّع أمعاءَهم»[١٦]. ويشربون أيضاً غَسَّاقاً، وهو القَيح والدم: «لا يذوقون فيها بَرداً ولا شَراباً، إلاَّ حَميماً وَغَسَّاقاً»[١٧]؛ ويشربون «الصديد» أيضاً جرعةً جرعة، فيضرّ حتّى الموت، ولكنّه لا يميت: «مِن وَرائِهِ جهنّم، وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسيغُهُ (يزدرده)، ويَأتيهِ الموتُ من كلِّ مكان، وَمَا هو بمَيِّتٍ. ومِنْ وَرائه عذَابٌ غليظٌ» (١٤/ ١٦-١٧).

٣ . **ملائكة الجحيم** : أمّا الملائكة الذين يَلعبون دوراً في موت الإنسان وهلاكه فللقرآن فيهم أقوال كثيرة. فهو يتكلّم على «ملاك الموت»: «يتوفّاكم مَلاكُ المَوتِ الذي وُكِّل بكم. ثمّ إلى ربِّكم ترجعون» (٣٢/ ١١). واسمُه «مَالِك» (٤٣/ ٧٧)، خازن النّار وحارسها؛ وهو، في التقاليد النّصرانيّة والإسلاميّة، «عزرائيل» و«عزازيل» الذي يقبض نفوسَ البشر عند دنوِّ أجَلِها.

«مَلاكُ الموت» هذا، بحسب نبوءة دانيال، يشقّ الإنسانَ شَطرَين[١٨]. ولكن، ليس له على المؤمنين من اليهود حافظي التوراة أيّ سلطان[١٩]. وتتمّ عمليّته كالآتي: «عندما يتركُ الإنسانُ هذا العالَم، يَظهر

---

(١٥) سورة يونس ١٠/ ٤؛ سورة الأنعام ٦/ ٧٠.

(١٦) سورة محمّد ٤٧/ ١٥؛ سورة الواقعة ٥٦/ ٥٤.

(١٧) سورة النّبأ ٧٨/ ٢٤؛ سورة ص ٣٨/ ٥٧.

(١٨) دانيال ١٣/ ٥٥ و٥٩.

(١٩) Le Talmud, ‘Abodah zarah 20 b, 5 a; Beresit 6,7.

عليه ملاكُ الموت ليـنزع منه نفسَـه: فـإنْ كان بارًا تُنـزَع بلُطفٍ، كما تُسحَب الشعرة من اللَّبن؛ وإنْ كان شرِّيراً تُنزَع كما تخرج المياهُ الدافقة من مخرجٍ ضيِّق»[٢٠]. ويعبّر القرآن عن هذه الصورة بقوله: «النَّازِعاتُ نَزْعاً، والنَّاشِطاتُ نَشْطاً» (٧٩/ ١-٢)، أي بحسب الجلالَين: «الملائكة تنزِع أرواحَ الكفّار نَزعاً بشدّة. والملائكةُ تنشط أرواحَ المؤمنين، أي تسلُّها برفق»[٢١].

وعندما تنتهي مهمّة «ملاك الموت»، يحضر إلى جانب الميت ملاكان آخران: «هاروت وماروت» (٢/ ١٠٢): واحدٌ عن شَماله وآخَر عن يمينه. ويسير كلُّ واحدٍ منهما بالميت في الطريق الذي يستحقّ: «إذ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عنِ اليَمينِ وعن الشِّمَال قَعِيدٌ (أي قاعِدان)» (٥٠/ ١٧).

وإذا ما تقرّر مصيره وكان من الهالكين، يحضر لديه بأمرِ اللّه مَلاكان آخران: «سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» (٥٠/ ٢١) ليُلقيانِه في جهنَّم: «أَلْقِيَا في جهنَّمَ كُلَّ كَفّارٍ عَنيدٍ... أَلْقِيَاهُ فِي العَذابِ الشَّديدِ» (٥٠/ ٢٤و٢٦).

وعندما يوصِلاه إلى أبوابِ الجحيم تتكفّلُ به ملائكةٌ أشرار «يَضرِبُون وُجوهَهُم وأدْبَارَهم» (٤٧/ ٢٧). هؤلاء يبلغ عددهم، بحسب القرآن، تسعةَ عَشَر، يُسمّون «زَبانِية» (٩٦/ ١٨)، وهم «ملائكة غِلاظٌ شداد» (٦٦/ ٦)، «أصحاب النّار» (٧٤/ ٣١)، و«خَزَنَة» الجحيم: «كلَّمَا أُلْقِيَ فيها فَوجٌ سَألَهم خَزَنتُها: أَلَمْ يأتِكُمْ نذير؟» (٦٧/ ٨).

---

(٢٠) Midras Tehillim 52 a; Ps. XL, 7; 51, B..

(٢١) تفسير الجلالين على سورة النّازعات ٧٩/ ١-٢.

٤ . **المطهر** ؟ لا يجزم القرآن في ما إذا كانتْ عذابات جهنّم أبديّة أم لها نهاية؟ ونحن نجد فيه الرأيين : يؤيّد أبديَّتَها قولُه : «مَن يَعصَى اللَّهَ ورسُولَه فإنَّ له نارَ جهنَّم خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً» (٢٣/٧٢)[٢٢]. ويؤيّد نهايتَها آياتٌ تُنيطُ الهلاكَ بمشيئةِ اللّه الحرّة. قال : «فَأَمَّا الذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ، لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيق، خَالِدِينَ فِيها مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ، إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ. إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» (١١/١٠٦-١٠٧)؛ وقال أيضاً : «أَلنَّارُ مَثْواكُم خَالِدِين فِيها، إلاَّ مَا شَاءَ اللّه» (٦/١٢٨). كلّ شيء إذاً، حتّى أبديَّة جهنَّم أو نهايتها، متعلّقٌ بحكم اللّه، ومشيئته الحرّة، وتصرُّفه المطلق بملكِه، لأنَّ اللّه «يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (٢٢/١٤)، و«يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» (٥/١)، و«فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ»[٢٣]، و «لا يُسْأَل عمّا يَفعل وهم يُسألون» (٢١/٢٣).

إذا كان القرآن يعترف فعلاً بنهاية عذابات جهنّم فيكون معنى ذلك أنّه يعترف، بطريقةٍ أو بأخرى، بما يُسمَّى عند مسيحيّين بـ «المطهر». هذا المطهر يقوم على أنْ يكفِّر الإنسانُ، أو يكمّل كفّارتَه عن خطاياه قبل أن يدخل الجَنَّة، في مكانٍ ما، أو حالةٍ ما، بعد الموت...

ويبدو أنَّ المتأخِّرين من المسلمين فهِموا ذلك فهماً صريحاً، وقالوا بهذه النظريّة، وأسندوا قولهم إلى بعض المحدِّثين عن النبيّ الذي قال : «يَدْخُلُ أهْلُ الجَنَّة الجَنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ. ثمَّ يقول: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ في قلبِه مِثقَالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمان. فَيَخْرُجُونَ مِنها، وقد

---

(٢٢) ٧٢/٢٣؛ رَ: ٢/٣٩ و٨١ و٢١٧ ؛ ٣/١٦٦؛ ٧/٣٦؛ ١٠/٢٧ ؛ ١٣/٥؛ ٣٣/٦٥؛ ٥٨/١٧.

(٢٣) سورة البروج ٨٥/١٦؛ سورة هود ١١/١٠٧.

اسْوَدُّوا، فَيُلْقَونَ في نهرِ الحياة»[٢٤]. وعن أَنَس بن مالك عن النبيّ قال: «يَخرُجُ مِن النَّارِ مَن قَال لا إلَهَ إلاَّ اللَّه، وفي قلبِه وَزنُ شُعَيرةٍ مِن خيرٍ. ويَخرُجُ من النَّارِ مَن قال لا إلَهَ إلاَّ اللَّه، وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ مِن خَير. ويَخرُجُ من النَّار مَن قال لا إلَهَ إلاَّ اللَّه، وفي قلبه وزنُ ذَرَّةٍ من خَير»[٢٥].

وربّما يكون الدليل الأهمّ على هذه النظريّة ما جاء في القرآن عن «الأعراف»، و«أصحاب الأعراف»، و«حجاب الأعراف». قال: «وَبَينَهُمَا (أي بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النّار) حِجَابٌ. وَعَلى الأعْرَافِ رِجَالٌ يُعرَفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُم. وَنَادَوا أصحابَ الجَنَّة: أنْ سَلامٌ عَليكُمْ. لَمْ يَدْخُلُوهَا (أي لم يدخل أصحابُ الأعراف الجنّة) وَهُمْ يَطْمَعُونَ (في دخولها). وَإذَا صُرِفَتْ أبْصَارُهُم (أي أصحابِ الجنَّة) تَلْقَاءَ (أي جهة) أصْحابِ النَّارِ، قَالُوا: رَبَّنَا! لا تَجْعَلْنَا (في النّار) مَعَ القَومِ الظَّالِمِين. وَنَادَى أصْحَابُ الأعْرَافِ رِجَالاً (من أصحاب النَّار) يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ. قَالُوا: مَا أغْنَى عَنْكُمْ (من النار) جَمْعُكُم (المال)، وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (أي استكباركم عن الإيمان» (٧/٤٦-٤٨). «حجاب الأعراف» هذا هو سُورٌ يفصلُ بين الجنّة والنار؛

واختلف المفسِّرون المسلمون في تعيين «أصحاب الأعراف» على اثنَي عشر قولاً... والحقيقة إنّنا لا نعرف إذا كانوا من «أصحاب الجنّة» أم من «أصحاب النَّار». يبدو أنَّهم بَين بَين، وأنّهم ما زالوا على الجسر يعبرون، لم يَصلوا بعدُ، ولم تتحدَّدْ هويَّتُهم، لكنّهم يعرفون بعضَهم بعضاً، ويحذّرون بعضَهم بعضاً بألاَّ يعبرَ أحدٌ من دون نور: «يَومَ

---

(٢٤) صحيح البخاري في الإيمان ص ١٢.

(٢٥) المرجع نفسه، في الإيمان ص ١٧-١٨.

يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ للَّذِينَ آمَنُوا: أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِن نُورِكُم. قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكم، فَالتمِسُوا نُوراً. فَضُرِبَ بَينَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (٥٧/ ١٣)[٢٦].

و«أصحاب الأعراف» هؤلاء هم «قوم موقوفون بين الجنّة والنّار. قالوا: لنا ذنوب جلّت، وحسنات قلّت. فالسيّئات منعتْنا دخولَ الجنّة، والحسنات منعتْنا دخولَ النار. وأنشدوا:

نَحنُ قومٌ لنا ذُنوبٌ كِبارُ ... منعَتْنا من الوصولِ إليهِ
تركتْنا مُذَبذَبِينَ حَيارى ... أمسكَتْنا مِنَ القدوم عليهِ»

عن أبي سعيد الخدري قال: «بلغني أنّ الجسر أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف»..

٥ . **جنّة المسلمين** : ألجنّةَ في القرآن **مكانٌ مرتفع** عن الأرض، فيه يتّكئ الصدّيقون «في جَنَّةٍ عَالِيةٍ»[٢٧]، حيث يرون الهالكين تحتَهم وهم فوق على قِمم الجبال (٧/ ٤٤-٥٠)[٢٨]. **ومساحة** الجنّة لا تحدّ: «عرضُها كعرض السماء والأرض»[٢٩]. لها طبقات ودرجات. وفي كلِّ

(٢٦) كلام قريب من مثل العذارى العشر في متّى ٢٥/ ١-١٣.

(٢٧) أنظر القرآن : ٦٩/ ٢٢؛ ٨٨/ ١٠. سوف نضع مراجع الآيات القرآنيّة ضمن النّص؛ إلاّ إذا كانت أكثر من مرجع ننزله إلى حقل الحواشي؛ ولا يُؤخَذ علينا ذكر السور بأرقامها لا بأسمائها، وذلك تخفيفاً على النصّ. أمّا كلّ استشهاد بغير القرآن فسيكون أيضاً في حقل الحواشي.

(٢٨) يدور الكلام على حديث رجال الأعراف حيث هم في أعلى الجنّة مع أصحاب النّار في قعر الجحيم.

(٢٩) القرآن : ٥٧/ ٢١؛ ٣/ ١٣٣.

درجة غرفٌ ومنازل كثيرة لكلّ أصناف المختارين. يقول القرآن: «الّذينَ اتَّقوا ربَّهم لهُم غرَفٌ مِن فَوقِها، وغرفٌ مبنيّةٌ تجري مِن تَحتها الأنهار» (٣٩/ ٢٠).

والسعادة القصوى في جنّة القرآن تقوم على رؤية اللّه ومعرفته ورضوانه. ذلك هو فوز الأبرارِ العظيم: يقول القرآن : «لهم جنّاتٌ رَضِيَ اللَّهُ عنهم ورَضُوا عنه. ذلك الفوز العظيم» (٥/ ١١٩)[٣٠]. وسعادة الدنيا، بمقابل سعادة الآخرة، ليست سوى بهجة عابرة وخادعة: «وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» (٥٧/ ٢٠). هذه السعادة تقوم على الفرح والسلام الدائمَين، حيث الأبرار فيها لا يسمعون أيَّة كلمة كاذبة أو باطلة، بل سلاماً وأماناً: «لا يَسمَعونَ فيها لَغْواً ولا تَأثِيماً، إلاَّ قِيلاً: سَلاماً سَلاماً» (٥٦/ ٢٥).

من أطايب الجنّة أن لا شمس فيها حارقة ولا برد قارس، بل ظلال: «ظِلّ ممدود» (٥٦/ ٣٠)، دائم (١٣/ ٣٥). «هم وأزواجهم في ظلال» (٣٦/ ٥٦)، «في ظلال وعيون» (٧٧/ ٤١)؛ جنّة «دانيةٌ عليهم ظلالُها» (٧٦/ ١٤). «لا يَرَونَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً» (٧٦/ ١٣)، أي: لا حرّا ولا بَرْداً.

يصفُ القرآنُ **خيرات الجنّة الدنيويّة والحسّيّة** كما يلي: إنّ للأبرار «جنّات تجري من تحتها الأنهار»[٣١]، و«عيون ماء»[٣٢]، وأنهار

---

(٣٠) القرآن : ٩/ ٢١ و ٧٢ و ١٠٠ ؛ ٥٨/ ٢٢ ؛ ٩٨/ ٨ .

(٣١) ترد هذه الصيغة حوالي خمسين مرّة، أنظر مثلاً : ٢/ ٢٥؛ ٣/ ١٥ و١٣٦ و١٩٥ و١٩٨؛ ٤/ ٣ و٥٧ و١٢٢؛ ٥/ ١٢ و٨٥ و١١٩؛ ٧/ ٤٣ ؛ ٩/ ٧٢ و٨٩ و١٠٠؛ ١٠/ ٩؛ ١٣/ ٣٥؛ ١٤/ ٢٣ ؛ ١٦/ ٣١ ؛ ١٨/ ٣١؛ ٢٠/ ٧٦؛ ٢٢/ ١٤ و٢٣؛ ٢٥/ ١٠؛

أربعة: من ماء، ولبن، وخمر، وعسل مصفّى. يقول: «فيها أنهارٌ من مَاءٍ غيرِ آسِنٍ. وأنهارٌ من لبنٍ لم يتَغيَّرْ طَعْمُهُ، وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشَّارِبينَ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى» (٤٧/ ١٥).

وتقوم سعادة الجنّة على **مآكل شهيّة دائمة** من الفواكه والثَّمَرات: «أُكُلُها دَائِمٌ» (١٣/ ٣٥)، من «فواكه كثيرة» يشتهونها[٣٣]. يتخيّرون منها ما يطيب لهم (٥٦/ ٢٠). «فيها مِن كلِّ الثَّمَرَات» (٤٧/ ١٥)، يدنيها اللّهُ من أيدي الأبرار ليسهل عليهم قطافها وأكلها، أي «ينالها القائم والقاعد والمضطجع»، كما في تفسير الجلالين لآية: «قطوفها دانية» (٦٩/ ٢٣). هذه الجنّة قد «ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذلِيلاً» (٧٦/ ١٤). وقال ابن عبّاس: «إذا همَّ (أحدٌ) أن يتناولَ مِن ثمارِها، تدلّتْ له أغصَانُها حتّى يتناولَ منها مَا يُريد». وأخصّ فواكه الجنّة : ألأعناب (٧٨/ ٣٢)، والنَّخل والرمَّان (٥٥/ ٦٨)، وكذلك لحم الطير[٣٤]؛ لكأنَّ الجنَّة وليمةٌ مبسوطة أمام الأبرار، حيث الأكل دائم (١٣/ ٣٥).

أمّا **مشروب** الجنّة المفضّل فهو الخمرة من دون منازع. تُشرَب في «أكواب» و«كؤوس» و«أباريق» و«صحاف من ذهب» و«آنية من فضّة»[٣٩]. يشربونها كأساً من مَعين بَيضاء لذّة للشاربين، لا تغتال

٢٩/ ٥٨ ؛ ٤٧/ ١٢؛ ٤٨/ ٥ و١٧؛ ٥٧/ ٢٣؛ ٥٨/ ٢٢؛ ٦١/ ١٢؛ ٦٤/ ٩؛ ٦٥/ ١١؛ ٦٦/ ٨ ؛ ٨٥/ ١١؛ ٩٨/ ٧...

(٣٢) ترد هذه العيون حوالي عشر مرات : ١٥/ ٤٥؛ ٤٤/ ٥٢ ؛ ٥١/ ١٥...

(٣٣) القرآن : ٤٣/ ٧٣ ؛ ٣٨/ ٥١؛ ٧٧/ ٤٢ ؛ ٥٢/ ٢٢.

(٣٤) القرآن : ٥٦/ ٢١ ؛ ٥٢/ ٢٢.

(٣٩) القرآن : ٤٣/ ٧١؛ ٧٦/ ١٥؛ ٧٨/ ٣٤ ؛ ٧٦/ ١٧...

عقلاً، ولا تُنتج إثمـاً، "بخلاف خمر الدنيا فإنّها كـريهة عند الشرب"، كمـا جاء في تفسيـر الجلالَين. يقول القـرآن: «يُطافُ عَليهِم بكَأسٍ من مَعينٍ بَيضَاءَ لذَّةٍ للشَّاربينَ. لا فِيها غَولٌ (أي ما به يُغتال العقل)، ولا هُم عَنها يُنْزَفُونَ (أي يسكرون)»[٤٠]. ويقول أيضاً: «يَتنازعون فـيها كأساً لا لَغوٌ فيها ولا تأثيم» (٢٣/٥٢). إنّها خمـرة طيّبة من «رَحيقٍ مَخْتُوم» (٢٥/٨٣)، أي: "خمـر خالصة من الدنس، مـختوم علـى إنائها لا يفكّ ختـمه إلاّ هـم"، أي الأبرار. إنّهـا شراب طهـور (٢١/٧٦)، مـزاجـه الزنجـبيل والكافـور (١٧/٧٦). إنّها طـيّبـة حلال، بعـدما كـانت على الأرض سببَ كلِّ إثمٍ محرَّمةً على المؤمنين.

يسـتـريح الأبرار في جـنّة القـرآن على «**سـرر مـرفــوعـة**» و«مصفـوفة»[٤١] متـقابلين بعضـهـم تجاه بعض (٣٧/٤٤). لكلّ منهم غرفة يَلقَـون فيها تحيـة وسلاماً (٢٥/٧٥)، وغرف مـبنيّة تجري من تحتـها الأنهار (٣٩/٢٠). هم فـيها آمنون (٣٤/٧٤)، يـجلسون على الأرائك (١٨/٣١)، مع أزواجهم (٣٦/٥٦). وهم ينظرون منهـا نضرة النعـيم (٨٣/٢٣). ينـبـسطون على «فـرش مـرفـوعـة» (٥٦/٣٤). يلبسون ثيـاباً نضرة خضراء من سندس واستـبرق وحرير. ويحلّون بأساور من ذهب ولؤلؤ[٤٢]، ويتّكِئـون على «رَفْرَفٍ خُضْـرٍ وَعَبْـقَرِيٍّ حِسَانٍ» (٥٥/٧٦) أي «أوسـدة خضـراء وطنافس جـميلة»، بحـسب تفسير الجلالين.

---

(٤٠) القرآن: ٣٧/٤٥–٤٧؛ ٥٦/١٨.

(٤١) القرآن: ٨٨/١٣؛ ٥٢/٢٠.

(٤٢) القرآن: ١٨/٣١؛ ٤٤/٥٣؛ ٧٦/٢١؛ ٢٢/٢٣؛ ٣٥/٣٣.

وما يزيد في بهجة الجنّة القرآنية وجمالها الفتّان وملذّاتها العارمة **حوريّات** خلقهنّ اللّه خصيصاً للأبرار: «أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً، عُرُبًا (أي متودِّدات عاشقات أزواجهنّ)، أَتْرَاباً (أي: مستويات على سنٍّ واحدة: ثلاث وثلاثين سنة، لا يكبرن عن ذلك أبداً)» (٥٦ / ٣٥-٣٧).

«يَطُوفُ عَلَيهِمْ (أي على أبرار الجنّة) وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (أي على سنٍّ واحدة، لا يتغيّرون ولا يموتون)، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (أي تحسبهم في حسنهم وكثرتهم وبياض وجوههم كاللؤلؤ المبدَّد، المنتثر هنا وهناك)»[٤٣]. ويقول أيضاً:«وَيَطُوفُ عَلَيهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (أي مَصون في الصَّدَف)» (٥٢ / ٢٤)[٤٤]...

رغبات الإنسان، مهما اشتدّت هنا، تبقى ناقصة وقاصرة بالنسبة إلى ما ستكون عليه، هناك، في الجنّة الموعودة. ألنقص، هنا، برهان على الكمال، هناك. وزوال اللّذة، هنا، يحرّك الرغبة في الحصول عليها بكمالها ودوامها، هناك. عن هذا عبّر الغزالي، وهو يتكلّم على لذّة الجماع العابرة، كمقدِّمة لتلك اللّذة الدائمة والكاملة في الجنّة؛ قال: " وإحدى لذّاتِ الدنيا الرغبة في دوامها في الجنّة ليكون باعثاً على عبادة اللّه.. فإنّ هذه اللّذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرّك الرغبة في اللّذة الكاملة بلذة الدوام فيستحثّ على العبادة الموصلة إليها "[٤٥].

---

(٤٣) ٧٦/ ١٩؛ أنظر أيضاً : ٥٦/ ١٧.

(٤٤) أنظر كتابَ «رغبات النّفس والجسد»، رقم ١٣ من سلسلة الحقيقة الصعبة؛ ص ٢٧٠-٢٧٦ حيث الكلام المستفيض على متع الأبرار بحوريات الجنّة وغلمانها.

(٤٥) إحياء علوم الدين، ٢/ ٢٨؛ رَ : ٣/ ٩٩.

وما ورد في القرآن[٤٦] من معانٍ وصُوَر وصــفات لنساء الجنّة لا يتصوّره خـيال. يرى فيه السيّـد إبراهيم محمود سـبباً لجلب الناس إلى اعتناق الإســلام. يقول : "إنّ هذه الأوصــاف المتعلّقة بـنساء الجنّة تلعب دوراً إغرائيّاً لجذْب الإنسان إلــى الإسلام.. وإبعادِه عن متع الدنيا الرخيصة. فما في الآخرة أمتعُ وأبقى وأكثر إثارةً"[٤٧].

أمّا الأحاديثُ النبويّة فتفـسِّر ما جاء في القرآن عن حور الجنّة. كمـا تفسّـر أيضاً تصرّفـات النبيّ وتعاليـمه واختـبارات حـياته : نقل الأوزاعي تفسيـرَ النبيّ لقوله تعالى: "في شغل فـاكهون" (٣٦/ ٥٥)، أي: شغلهم افـتضاض الأبكار[٤٨]. فقال رجلٌ: يا رســولَ اللّه! أيُباضَعُ أهلُ الجنّة؟ قال: يُعطى الـرجلُ منهم من القوّة في اليوم الواحـد أفضل من سـبـعين منكم"[٤٩]. وقـال رسولُ اللّـه: "إنّ الرجلَ من أهل الجنّة لَيتزوّج خمسمـائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيّب. يعانق كلَّ واحـدة منهنّ مقـدار عـمره في الدنيـا"[٥٠]. وعن أبي هُريرة قال: "قيل: يا رسولَ اللّه! هل نُفضي إلــى نسائنا (في الجنّة)؟ فقال: والذي

---

(٤٦) سورة البقرة (٢/ ٢٥)؛ سورة آل عمران (٣/ ١٥)؛ سورة النساء (٤/ ٥٧)؛ سورة الدخان (٤٤/ ٥١-٥٤)؛ ســورة الطّور (٥٢/ ١٧-٢٦)؛ سورة الـرحمن (٥٥/ ٤٦-٧٦)؛ سورة الواقـعة (٥٦/ ١٠-٤٠)؛ سورة الصافـات (٣٧/ ٤٠-٥٠)؛ سورة ص (٣٨/ ٤٩-٥٢)؛ ســورة الزّخـرف (٤٣/ ٦٩-٧٣)؛ ســورة يس (٣٦/ ٥٥-٥٨)؛ سورة النّبَإ (٧٨/ ٣١-٣٥)...

(٤٧) الجنس في القرآن، ص ١٥٠.

(٤٨) يعلّق صاحب "تحفة العروس" : فبُشرى للشبّان الصالحين التائبين"، ص ٣٨١.

(٤٩) أخرجه الترمذي، انظر إحياء علوم الدين، ٤/ ٥٤١.

(٥٠) عن إحياء علوم الدين، ٤/ ٥٤١.

نفســي بيده! إنّ الرجلَ ليُـفضي في الغـداة الواحدة إلى مـائة عذراء". وفي قـولٍ شبـيـه: "سئـل نبيّ اللّه: أنَطأ في الجنّة؟ قـال: نعم. والذي نفسي بيده! دحْماً دَحْماً[٥١]. فإذا قام عنها رجعتْ مطهّرةً بكراً"..

وأمّا الموضوع الشـائك والخطير جدًا في مسـائل المتع الجنسيّة في الجنّة فهو موضوع **مواقعة الغلمان**. يقول الشيخ محمّد جلال كشك : "إنّ أهمّ مـا يُلفتُ النظرَ في متَـعِ الرجال الجنسـيّة في الجنّة "وعـدُه سبحانَه وتعالى للمؤمنين بولدانٍ وغلمانٍ في الجنّة "مخلّدون"، وغاية في الجمال والنضارة"[٥٢].

ويتـساءل الشـيخ : "لماذا النصُّ على أنّهم غلمـانٌ وولدانٌ!! وإذا كـانت الغايةُ هي الخـدمة الحـسنة والمنظر الجـميل.. فلمـاذا لم يكونوا مـلائكة؟ وهل أجـمل أو أبهى من المـلائكة؟.. ليس للغلمـان من صـفـة يتميّزون بها على الملائكة فـي الخدمة والجمال والتكريم، إلاّ أنّ الملائكة كائنات غـير جنسيّـة.. من هنا نذهب للقول بأنّ لهـؤلاء الغلمان مهـمّةً خـاصّةً اسـتلزمت إنسـانيّـتَهم. وأيّـةُ محـاولةٍ لإنكارِ هؤلاء الغلمـان، ستنتهي بصاحـبها إلى إنكار الطابع الحسّيّ لجنّتِنا واقتـباس التصوّر المسيحيّ عن جنّة روحيّـة لا أجسادَ فيها ولا اشتهـاء ولا متع حسّيّة... غير أنّ جنّتَنا هي "جنّة شهوانيّة حسّيّة، نأكلُ فيها، ونمارسُ الجنسَ، كأنّ هذا عـيبٌ لا يليق!! ونحن أمام نصـوص صريحة تؤكّـدُ أنّ الجزاء سيكون بصورةٍ مـا من نفس العمل. فسنُعَوَّضُ في الآخرة عـمّا حُرِمْنَا

(٥١) الدحْم: الجمـاع بدفع جديد، ونصبُـه بفعل مضمـر، أي يدحمون دحـماً. والتكرير للتأكّد، أي دحما بعد دحم" تعليق كتاب تحفة العروس، حاشية ص ٣٨١.

(٥٢) محمّد جلال كشك، خواطر مسلم في المسألة الجنسيّة، ص ١٣٢؛ رَ: ص ٢٠١.

منه، أو ما تعفّفنا عنه، أو ما أحْسَنَّا شكرَ نعمته. ولا مجال لأيّ خجل أو استخزاء من ناحية المطالب الحسّيّة للجسد، كما يفعلُ صرعى الحضارة الغربيّة.

***

إذا شئنا المقارنة بين مفهومَي المعاد في المسيحيّة والإسلام، فإنّنا نفشل في إيجاد قاسم مشترك بينهما. فلا مفهوم الموت هو نفسه فيهما؛ ولا أيضاً مفهوم اليوم الأخير، ولا القيامة العامّة، ولا مفهوم الجنّة وسعادة المخلَّصين فيها، ولا مفهوم جهنّم وشقاء هالكيها.

ومع هذا، فإنّ ما في الإسلام من مفاهيم للمعاد وأحواله يعتمد، إلى حدّ بعيد، على مفاهيم يهوديّة ونصرانيّة، حاكتْها مخيّلة المتخيّلين أكثر ممّا تكون حقائق لاهوتيّة . والفرق كبير بين ما هو عقيدة وبين ما هو حكايات وأساطير. والإسلام أخذ عن هذه لا من تلك.

خاتمة الكتاب

في معتقد المسلمين، أنّ لعيسى إنجيلاً واحدًا، نزل عليه من السماء، هو الإنجيل الحقيقيّ. أخفاه المسيحيّون[1]، واستعاضوا عنه بأناجيل أخرى كثيرة. كتب بعضَها رسلٌ عاشوا مع المسيح، وبعضَها كتبه تلاميذُ الرسل أو رفاقُهم، وبعضَها كتبه آباء الكنيسة في عصور لاحقة.

هذه الأناجيل، بنظر المسلمين أيضاً، لا تصحّ أن تكون مرجعًا لدين، لأنّها محرّفة ومزيّفة. وعلى المسيحيّين أن يتبرّأوا منها. وتتحمّل الكنيسةُ، وبنوع خاصّ القديس بولس، ومجمع نيقية المسكوني (سنة ٣٢٥)، مسؤوليّةَ التحريف والتزوير والتبديل هذه[2].

هذا هو أساس كلّ خلاف بين المسيحيّة والإسلام. وبسببه، نقول إنّ كلّ «حوار»، أو «وفاق»، أو «مقاربة» إنّما هو حوار طرشان، ووفاق محال، ومقاربة فاشلة، تعتمد كلّها على منطق الغالب والمغلوب، والقاهر والمقهور، ومنطق الأكثريّة والأقلّيّة.

---

(١) أو أضاعوه، أو بدّلوا فيه وحرّفوه... والله أعلم بما صنعوا.

(٢) رَاجع كتابنا: **المسيحيّة في ردود المسلمين**، ٢/ ٦١-٩٢.

هذا المنطق فاسد من أساسه، لأنّ «الوسيط» بين اللّه والبشر، في نظر المسيحيّين، واحد لا غير، وهو يسوع المسيح[٣]؛ ولأنّ «الدين عند اللّه الإسلام» (٣/ ١٩)، في نظر المسلمين؛ «وَمن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دِينا فلن يُقبلَ منه» (٣/ ٨٥). هذا بالإضافة إلى الاعتقاد بأنّ كلَّ دينٍ يأتي بعد دينٍ سابق «ينسخه»، أو يلغيه حتماً.

ولمزيد من الوضوح، ومن تأكيد موقفنا هذا، نعود لنوضح ونؤكّد أيضاً على نقاط أساسيّة وجوهريّة، إنطلقنا منها في بحثنا، لنعرف حقيقة موقف المسلمين من المسيحيّين، وحقيقة موقف المسيحيّين من المسلمين، اليوم، واعتماداً على المصادر الأساسيّة في كلا الفريقَين. نقول :

أوّلاً – ليس الإنجيل، في نظر المسيحيّين، كما هو القرآن، في نظر المسلمين، كتاباً مُنْزَلاً من فوق، كتبَه اللّهُ منذ الأزل، ودمغه بعصمته الإلهيّة، ثمّ دفعه إلى عيسى دفعةً واحدة، كما يحلو للمسلمين قولُ ذلك... ألأمرُ الواضح جدًا في مفهوم المسيحيّة للوحي هو أنّ الوحي فيها «إلهام»؛ فيما هو في مفهوم الإسلام «إنزال». والفرق بين الإثنين شاسع حتّى التناقض : فكاتب الوحي، مع الإلهام، حرٌّ في ما يكتب؛ فيما كاتب الوحي، مع الإنزال، لا يدَ له ولا دور في ما يكتب. ونتائج هذا التناقض خطيرة على اللّه وعلى الإنسان.

ثانياً – ليس في تعاليم الكنيسة إنجيلٌ لعيسى ضاع، وأناجيل أخرى محرّفة ومزوّرة حلّتْ محلّه، كما يقول المسلمون. وللمرّة الألف

---

(٣) رَاجع : ١ طيم ٢/ ٥؛ عب ٨/ ٦؛ ٩/ ١٥؛ ١٢/ ٢٤.

بعد الألف نقول: إنّ المسيحَ، في مفهوم المسيحيّين، لم يُنَزِّل إنجيلاً، ولا كتبَ إنجيلاً، ولا أمر بكتابة إنجيل، ولا جاءَه جبرائيل بإنجيل، ولم يخلّص العالم بواسطة إنجيل، ولم يطلب من أتباعه أن يأخذوا تعاليمَه من إنجيل... يسوع المسيح نفسه هو الوحي، وهو الإنجيل، أي البشرى السّارّة، وهو وسيط الخلاص الوحيد. والرّوح القدس هو الذي يهدي إليه، والكنيسة هي التي يحقّ لها أن تقدّم لنا المفهوم الحقيقي للمسيح، والإنجيل، والخلاص.

ثالثاً – يعلّم الوحيُ المسيحي المسيحيّين اتّباعَ المسيح، والاقتداءَ به، والإيمانَ به ربّا فادياً ومخلِّصاً. فهم بذلك مسيحيّون، لا «إنجيليّون»، أو «كتابيّون»، أو «أهل كتاب»، كما يسمّيهم القرآن خطأً وظلماً.. بينما المسلمون، ولو لم يسمِّهم القرآن «قرآنيّين»، أو «كتابيّين»، أو «أهل كتاب»؛ إلاّ أنّهم هم كذلك، لأنّهم يتبعون القرآنَ لا محمّداً. فهم، في الحقيقة «قرآنيّون» لا محمّديّون.

وبتعبير آخر نقول : إنّ محمّداً ليس إلاّ وسيلة لتنزيل القرآن، والقرآن هو الأساس. فيما الأساس في المسيحيّة هو المسيح، وكتابُ الإنجيل ليس إلاّ وسيلة من الوسائل إليه، أو رواية كتبها عنه الذين سمعوه وعاشوا معه وشاهدوا أعماله وشهدوا لها. فالمسيحيّون يتبعون شخصاً، ويقتدون به، ويقدّسونه؛ أمّا المسلمون فيتبعون كتاباً ويكرِّمونه جدّاً، لأنّه كلام اللّه.

رابعاً – يحتاج المسيحيّون إلى وحيٍ حتّى يؤمنوا بما يؤمنون؛ أمّا المسلمون فلا يحتاجون إلى وحيٍ حتّى يدركوا تعاليمَ الإسلام. هذا يعني: أنّ ما به يؤمن المسيحيّون لا يدركه عقل. إنّه موضوع إيمان. أمّا

ما به يؤمن المسلمون فلا يحتاج إلى وحي، لأنّ العقلَ يدركه، والفطرةَ تؤكّده. و«الإسلام، في كلٍّ حال، كما يقول محمّد نفسه، هو دين الفطرة»، وكما يقول المسلمون، في مآخذهم على المسيحيّين: أن ليس في الإسلام أسراراً، وألغازاً غير محلولة، وأشياءَ غير مفهومة، وأموراً غير مدركة بعقل.

خامساً – اللّه في الإسلام، بأسمائه، وصفاته، ووحدانيّته، وعمله في الخلق، وقضائه المبرم في يوم الدين، ومحاسبة الناس، وفصلِه بين أبرار وأشرار، ناجين وهالكين، في الجنّة أم في النّار... لا يختلف في شيء عن مفهوم الوثنيّين للّه. فاللّه، في الوثنيّة كما في الإسلام، إلهُ العقل والفطرة سواء... أمّا اللّه في المسيحيّة فيحتاجُ إلى وحيٍ وإيمانٍ حتّى نعرفه واحداً وثالوثاً، متعالياً ومتجسّداً، خالقاً ومخلِّصاً، بعيداً وقريباً، سيِّداً وأباً...

سادساً – فالمسلمون، إذاً، في إدراكهم العقلاني للّه، لا يحتاجون إلى نبوّة، ولا إلى أنبياء، ولا إلى وحيٍ، ولا إلى إيمان، ولا إلى كتابٍ منزَل، ولا إلى أيِّ تدخُّلٍ من اللّه، طالما هم يدركون كلَّ شيء بالعقل والفطرة... أمّا المسيحيّون فلا يدركون شيئاً من أمور اللّه، من دون إيمانٍ ووحي. ومعرفتهم الحقيقيّة للّه تعتمد على شخصِ يسوع المسيح نفسه، وهو القائل: «لا أحد يعرف الآبَ إلاّ الابن، ومَن يريد الابنُ كشفَه له».

سابعاً – ما في القرآن يعود إلى مصدرَين : معظم ما في القرآن المكّي يعود إلى تعاليم «الإنجيل العبراني»، والأناجيل القانونيّة والمنحولة، وتعاليم «الإبْيونيّة» من اليهوديّة-المتنصّرة، وأقوال آباء

الكنيســـة، وبنوع خـاصّ الســريان منهم، وبـنوع أخصّ مـار افـرام السـرياني. ومعظم مـا في القـرآن المدني يعـود إلى ما في التـوراة من تشـريع وأحكام، وإلى عادات العـرب وأخبـارهم، حيث نشـأ... أمّا مـا تقوم عليه المسيحـيّة فأساسه وجوهره حياةُ يسـوع المسيح وتعاليمه. وأهمّه موته وقيامته وإرساله الروح القدس ليقدِّسَ كلَّ مؤمنٍ به.

ثامناً – كتَبَ الإنجيلَ أربعةٌ، بروايات مـختلفة، بأسلوب خاصٍّ بكلّ واحد. وكـتبوا لأمرٍ مـحدّدة، وفي ظروف مـعيّنة. هؤلاء هم : **متّى** الرسول، مـؤلّف الإنجيل الأوّل؛ و**مرقس**، نسيب برنابـا، ورفيقُ بولس في بعض أسفاره[٤]، وفي سجنه في روما[٥]، وتلميذ لبطرس[٦]؛ و**لوقا**، رفيق بولس في جـولاته الرسوليّة ما بين سنتَي ٥٠ و ٦٠، وقـد رافقه إلى الأسْر في روما حتّى استشهـاده. يذكره بولس باسمه، ويشير إليه مراراً. وهو مؤلّف الإنجيل الثالث[٧] وأعمال الرسل[٨]؛ و**يوحنّا** : «جميع الشهادات الخارجيّة والـداخليّة تُجمعُ على أنّ مؤلّف الإنجيل الرابع هو يوحنّا بن زبدى، تلمـيذ الربّ، وأحـد الرسل، وأحد الثلاثة المـقرّبين من يسوع، ورفيق بطرس..»[٩]. كتب إنجيلَه حوالي سنة ٩٥.

---

(٤) يراجع مثلاً سفر أعمال الرسل ١٢/ ٢٥؛ ١٣/ ٥ و١٣؛ ١٥/ ٣٧–٣٩.

(٥) يراجع رسالة إلى أهل قـولوسّي ٤/ ١٠؛ ورسالة إلى فيلمون ٢٤؛ والرســالة الثانية الى طيموتاوس ٤/ ١١.

(٦) أعمال الرسل ١٢/ ١٢؛ ورسالة بطرس الأولى ٥/ ١٣.

(٧) راجع لوقا١/ ١–٤

(٨) راجع أعمال الرسل ١/ ١.

(٩) أنظر في هويّة الإنجيليّن مقدّمات الأناجيل في أونجليون.

تاسعاً – أمّا القرآن، في معتقد المسلمين، فهو من عند اللّه. نزّله اللّهُ على محمّد تنزيلا[١٠]، غير ذي عِوَج (٣٩/٢؛ ١٨/١)، لا ريبَ فيه (٣٢/٢)، ولا اختلاف (٤/٨٢)، ولا ينطقُ عن الهوى (٥٣/٣). إنّه الحقّ اليقين (٦٩/٥١)، والقولُ الفَصْل (٨٦/١٣).

وهو، على ما يقول محمّد دروزة، كتاب «فيه أصولُ دينهم، وشرائعُ حياتهم، ونبعُ إلهامِهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورُ هدايتهم في مُختلَف شؤونِهم الدينيةِ والدنيويّةِ، الروحيّةِ والمادّيّةِ، العامّةِ والخاصّةِ، السياسيّةِ والقضائيّةِ والاجتماعيّةِ والشخصيّةِ والانسانيّةِ... وَصَفَهُ نبيُّهم بقوله: «فيه نَبَأُ مَا قَبْلَكم، وخَبَرُ ما بَعدكم، وحُكْمُ ما بَينَكم»[١١]

وعند أنور الجندي، «أوّلِ مرّةٍ، يَظهَرُ على الارض كتابٌ ذو كلماتٍ وحروفٍ إلهيّةٍ، لم يكْتُبْ سَطرًا من سطورِه بَشَرٌ، ولم يَخُطّ حَرفًا من حروفِه انسانٌ. وقد أعلنَ الكتابُ الألهيُّ إعلانًا لا مَحيصَ عنه أنّه آخِرُ وحيٍ من السماء، وأنَّ رسالةَ السماءِ اكتملتْ به اكتمالَها الأخير، وأنّ الدائرةَ الألهيّةَ التي هبطتْ منها الألواحُ والصُحُفُ والكتبُ الالهيّةُ الأخرى قد أُقفِلتْ نهائيًا»[١٢].

«ولعلّ أهمَّ الاسباب الداخليةِ لانحطاطِ المسلمين وتأخّرِهم في الوقتِ الحاضر، على ما يقول الدكتور العطّارِ، هو انصرافُهم عن تدارسِ ما في القرآنِ من كنوزِ العلمِ والمعرفة، والتي ما زالتْ بِكرًا حتى

(١٠) ٧٦/٢٣، ٣/٣، ٤/١٣٦، ٢٥/١، ٢/٢٣ و٤٧، ١٥/٩، ١٦/٨٩، ١٧/١٠٦، ٢/٩٧، ١٦/٤٤، ٥٧/٩، ٤٧/٢.

(١١) محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد ص ٥ – ٦.

(١٢) أنور الجندي، الاسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩ – ١٧٠.

الآن»[١٣]. ويقول أيضاً: «لمّا كان الإسلامُ خاتمَ الأديانِ كان من الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختُم كلَّ الشرائع... وليس في الارضِ شريعةٌ صالحةٌ كشريعةِ الإسلام، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أيٍّ شرعٍ كان إلاّ والإسلامُ يَحويهِ على أكملِ وجه، لان شريعةَ الإسلامِ هي شريعةُ اللّه، وما شَرْعٌ أكملُ من شَرْعِ اللّه، ولا خيرٌ منه للإنسانيّةِ»[١٤].

والسبب في ذلك، كما يقول الشرقاوي، هو ما «في شريعةِ الإسلام من المَسَايَرَةِ والمطاوَعَةِ واليُسْرِ والسعَةِ والمُرونةِ والكفايةِ لكلِّ ما يشمَلُ تطوراتِ الحياةِ، ويحقّقُ للناسِ سعادَتهم أفرادًا وجماعاتٍ في كلِ زمنٍ وبيئة»[١٥].

والعجيبُ الغريبُ حقّا أن تَرى بعضَ «الدولِ الإسلامية أو أكثرَها تنقلُ قوانينَها عن الغَرْبِ، وتهملُ الشريعةَ الإسلامية، مع العلم أن أكثرَ القوانينِ الغربيّةِ منقولةٌ – بطريقٍ أو بآخر – عن الفقهِ الإسلامي. وعلى فرْضِ استقلالها عنه، فإنّ التشريعَ الإسلامي لا يُدانيه أيُّ دستورٍ أو قانون»[١٦]. وبالعموم «ان التشريعَ الإسلامي لا يُدانيه أي دستورٍ في العالم»[١٧].

---

(١٣) الدكتور داوود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ٧ .

(١٤) أحمد عبد الغفور عطّار، هل يفي الفقه الاسلامي بحاجات كل عصر؟ في كتاب «الاسلام والتحدي الحضاري»، دار الكاتب العربي، ص ١١٢ .

(١٥) محمود الشرقاوي، التطور روح الشريعة الاسلامية، ص ٧٠ و ٩١.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٤٣.

(١٧) محمد جواد مغنية، الاسلام بنظرة عصرية، ص. ٤٣.

عاشراً – تختلف تعــاليم المسيحــيّة، في جمــيع ما رأيناه، عن تعاليم الإسلام اختــلافاً كبيراً. وتعاليم كثيــرة لم نأتِ عليها، وقد نأتي عليهــا في كتبٍ أخرى، هي أيضاً مــوضوع اختلافٍ واسع. فــفي كلّ ما يعــود إلى المعتــقدات الإيمانيّــة والتــعاليم اللاّهوتيّــة والماورائيّة نجــد اختلافاً. وفي كلّ ما يعود إلى الأمور الإنسانيّــة والاجتماعيّة نجد أيضاً اختلافاً. ولا شــيء ممّا يقوم عليــه الإسلام من دعائم جوهريّة يلتقي مع شيء ممّا تقوم عليه المسيحيّة.

حادي عــشر – وأخيــراً، إنّ ما يُقــال عن «الحوار الإســلامي– المسيحي» هو «حــوار بين مسلمين ومسيــحيّين». إنّه «حوار وطني» في أمور مــدنيّة وسيــاسيّــة واجتمــاعيّة، أو «حــوار إنساني» في حــقوق الإنسان وشؤونه... أمّــا ما يُسمّى بـ «حوار دينيّ» فــما هو إلاّ تضليل للنّاس الذين فشلوا في وجود حلٍّ لنزاعاتهم المدنيّة فحوّلوها إلى الدين. ومن غــرائب الأمــور، أنّ الدّاعين إلى الحــوار الديني هم ســيــاســيّــون فاشلون في بناء أوطانهم.

فهرس الكتاب







